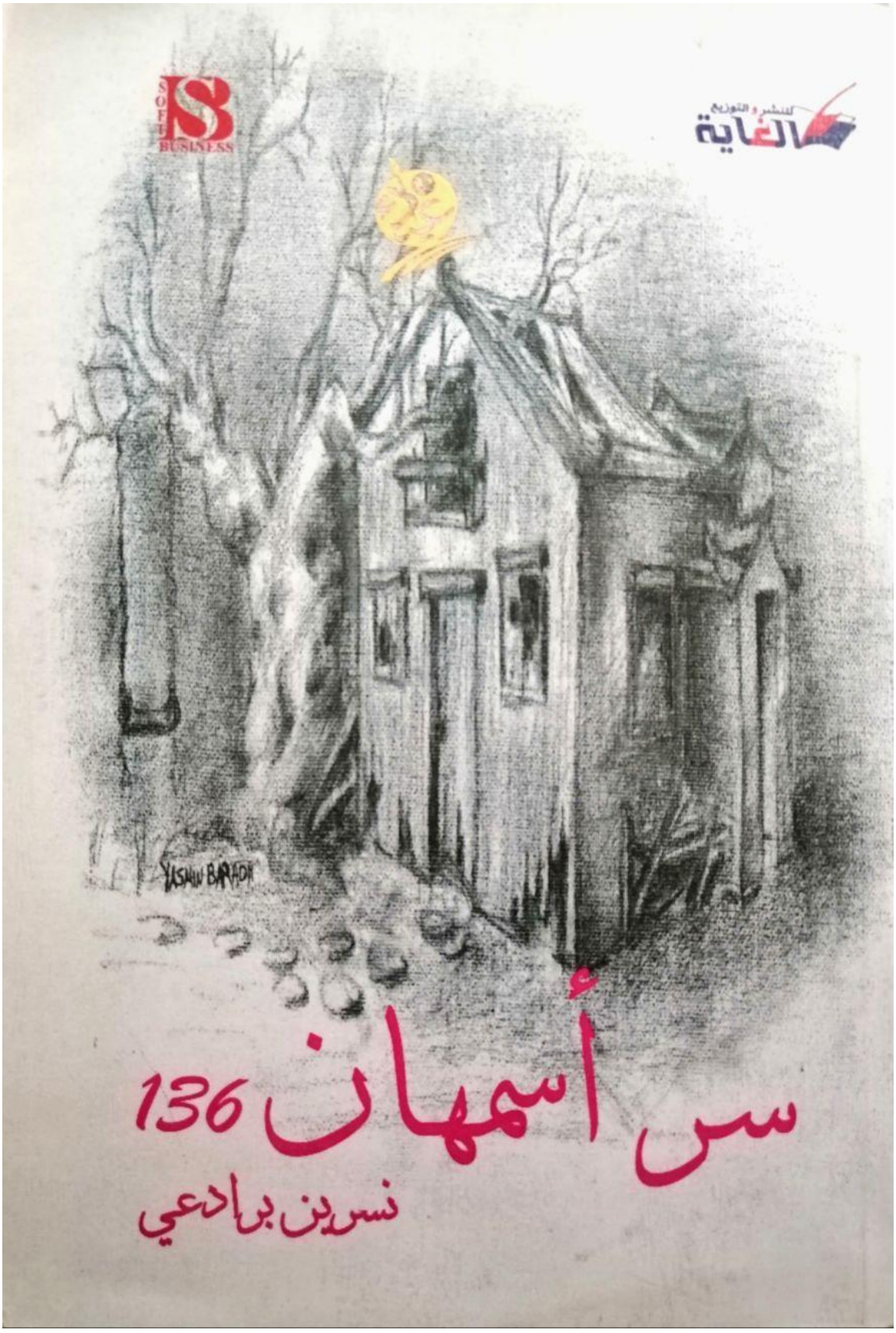

الغاية
للنشر و التوزيع
سر أسمهان 136
نسرين برادعي

سِرُ "أَسمَهانْ" \136\

" مستوحاة من قصة حقيقية"

تأليف

نسرين محمد معن برادعي

الشكر الأعظم وشديد الإِحترام لجهود الغالية؛ المدققة الأستاذة؛

حسناء علبي

كما كل الشكر والمحبة للفنانة المبدعة، صاحبة الغلاف، الرسّامة؛

ياسمين برادعي

لشخصكما كل الإِمتنان والمحبة.

الإهداء

لـأسرةٍ رعتني، حمتني، وحملت أطرافي الضعيفة حتى وصلت لحلمي؛ عائلتي الحبيبة، أمي وأبي وأخوين تقاسما معي الحياة شطراً بشطر .. لكم مني كل المحبة والتقدير على كل اِهتمامٍ وهبتموني إياه.

لأشخاصٍ عظماء اِختفوا خلف كواليس الأيام والأحرف والحروب؛ لأشخاصٍ وهبوا لقلمي موهبةً واِبداعاً وجنوناً؛ أهدي إليكم شريط ذكرياتٍ لا تموت! .. وروحاً لا تنفك عن تمني لقائكم!.

لصديقتين لا فاصل بيني وبينهما سوى الملامح!. إلى أختيَّ المقربتين اللتين لم تنقطعا عن السؤال واللحاق بكلماتي العابثة؛ لأول شخصين قرآا روايتي المتواضعة، لكما حبي وتقديري العظيمين.

لصديق طفولتي الذي جمعتني به صدفةٌ ورواية؛ تحيةٌ بقدر السنين التي مضت من عمرينا دونما حسبان!

لأربعة أرواحٍ غادرت أرضنا بحزنٍ أليم. لقلوبٍ توقفت عن المضيّ قدماً في محاربة الحياة. لأسماءٍ كانت عزيزةً على قلبي؛ سلامٌ طاهرٌ لكم ... أنتم من تسكنون الجنان!.

لجميع من علمني حرفاً لأكون له اليوم عبدةً!! وللعالمين حرةً بجناحين لا تقطعهما محنةٌ ولا يبترهما صوتٌ ناهرٌ أو ضعف!

لمن أحبه ... لكل من يحبني ... لأي روحٍ تبحث عن حروفي فترى اِسمي وتبتسم!

أشكركم حتى النخاع ... من لحظة ولدت حتى لحظة موتي، وما بعد ذلك.. دوماً؛ شكراً وشكراً وشكراً...

نســـــرين بـــــرادعي

المقدمة

ها أنا يا صديقي "القارئ" أدخل عالم الكُّتاب بروايةٍ أزج فيها بساطة أحرفي قرب العظماء والمشاهير بجرأةٍ غريبة! ولأنني لم أدرس الأدب العربي إستيقظت ذات مراهقةٍ أحمل بين حنايا روحي بذرة أدب؛ أتساءل بخشوعٍ: أأصل لما طمحت إليه طيلة حياتي؟ فتجيب على سؤالي أنت حين ترتطم بخاتمتي فيأتي صوتك من بعيدٍ ليخبرني بنجاحي أو فشلي!.

إنه الحلم يا قارئي؛ وحده، من يدفع الإنسان للمخاطرة والمجابهة والتحدي، فيصهل في عروقه كي ينهض من ثباته للعمل، ومن حزنه للنجاح، ومن بكائه للفرح!!.

إنه سبب إستمرارنا في الحياة بلهفةٍ وأمل، وعندما حلمت وقد خنقتني غربةٌ ظالمةٌ من كل صوبٍ، وإعتصرني قلبٌ أتعبه الخوف والشوق جاهدت في ورقي محاربةً ظلال الكآبة المنبعثة من النوافذ، من الجدران .. من الأثاث والأبواب .. من كل شيء! إلى أن نامت شمسنا ذات صيفٍ، فصرخت كالبلهاء "إنتهيت!!".

وها أنت ذا تحمل بين يديك حلمي وأملي وسبب بقائي حتى هذه اللحظة بكامل قوايّ وصمودي متعكزةً على الحلم أمام ظروفٍ قاهرةٍ ومستقبلٍ مبهم مخيف!.

روايتي التي تنوي الآن بدأها واضحةٌ وغامضةٌ بذات الوقت!!. حاول أن ترفع القصص عن كاهل الجوهر لترى بوضوحٍ أكثر وتصل إليك الفكرة بلا أي تزينٍ أو تضليل!!.

الكاتب يستطيع خداعك في كثيرٍ من مفترقات الرواية لكنك إن كنت متيقظاً يمكنك حينها أن تسبقه بخطوةٍ ... أو خطوتين!!.

هيئ نفسك جيداً ودع خيالك بين يديّ كحرفٍ عربيٍّ أتقن جيداً تضليله!! .. وإنهض بروحك كي تعيش الحلم...وضِع كبطلٍ من الأبطال في روايتي!!

لأنك على حافة اِكتشاف سرٍ من أسرار شابٍ اِلتقيته ذات يومٍ في اِحدى أزقة مدينة "بارما" عبر صفحات روايتي المتواضعة..

"سِرُ أَسمَهانْ

"الرواية مستوحاة من قصة حقيقية شهدتها بأم عيني في مدينة من مدن"إيطاليا". وإن لي معرفةٌ شخصية مع البطل الحقيقي كما والدته التي تجاوزت الآن الخامسة والستين من عمرها. لقد زرت منزلهما حيث يسكنان في عمارةٍ لا تبعد عن منزلي الكثير وشهدت كل ما ذكرته من غرابة وتميز المنزل عن سواه!!.

لقد قابلت بطلنا كثيراً من المرات لا بل جرى بيننا عدة أحاديثٍ، وإن جميع الحوارات داخل الرواية هي حواراتٌ إستوحيتها من شخصيته إضافةً لما حدثتني عنه صديقةٌ مشتركةٌ بيننا!.

كل الأحداث المتعلقة بحياة البطل وعلاقته بوالدته داخل الرواية مر بها حقاً! وإنني قد نقلت تفاصيل شخصيته كما شخصية والدته دون أية إضافةٍ أو خيالٍ ... تماماً، وكما يعيشانها دون زيادةٍ أو نقصان." أما عن القصة بمجملها فهي منقسمةٌ بين الحقيقة المرّة وخيال الكاتب!!.

الفصل الأول

-1-

الليلة الأولى كانت قاسيةً جداً عندما جاهر بصوته قائلاً:

- أنا لم أعد طفلاً!.

لم تكن تدري بأن ما فعلته كان جرماً بحق إنسانٍ بريء. ربما كانت تريد حمايته من غابةٍ ملأى بالذئاب لكنها فجأةً فهمت بأنها أخطأت طيلة ثمانيةٍ وعشرين عاماً.!!

لم يكن في الحقيقة" مهند "طفلاً فقد رأته بعد تلك الصرخة كبيراً. فجأة صار منكباه عريضينِ ونبت من خده الناعم ذقنٌ مبعثرة وبدت عيناه أكثر حنقةً لتطفو على سطح وجهه بضعة تجاعيدَ تنذر بإقتراب الثلاثين.!

لقد صفعها صوته فارتجفت أوصالها لهول الصدمة!. لقد رأته طفلاً رضيعاً طيلة عمرٍ مضى "كيف كبر ومتى؟" تساءلت بصمتٍ وخوفٍ من أن يهرب منها... أن تفقده دون أن يركض الطفل الذي لا يفقه شيئاً نحو حضنها باكياً طالباً منها عناقاً! أن يدوي صوت باب المنزل خلفه متحدثاً عن سنينَ من الغياب والهجران! .. أتراه يستطيع؟ كانت خائفة حقاً وبدت نظراتها المضطربة نحو جدران المنزل غريبةً ومشتتة...ربما كانت تراهم ذئاباً يريدون اِلتهامها في غياب طفلها الرضيع!...أجل كانت تراهم كذلك فقد اِحتمت لسنواتٍ طوالٍ بطفلٍ لم يعد يكبر مذ ولد إذ رأته سبباً مقنعاً لاِبتعاد القلوب المدنسة بالظلام عن هذا المنزل...كانت تراه نعمةً وبركةً تماماً كالمسيح!.

أخذت تدور في المنزل ببطءٍ فعبرت غرفة الجلوس الأنيقة بخطواتٍ مترددةٍ ناظرةً نحو الجدار اليمينيّ نظرةً ثاقبةً كأنما فيه أحدٌ يبادلها النظر! وبينما أخذت تفرك كفيها ببعضهما علّهما تكفان عن الاِرتجاف تعمقت بالنظر نحو غرفةٍ لم تعرف التنظيم منذ سنينَ، نظيفةٌ، مختلطة الألوان صغيرةٌ بعد أن غزتها كراتينٌ ملأى بثيابٍ وحاجياتٍ جديدة! إنها لم تشعر يوماً بضرورةٍ لتوضيبهم، لم تحتج يوماً لهم! فقد كانت تخبئ ما تبقى مما تجنيه شهرياً لتبتاع به كل ما تراه مميزاً من أوانٍ ولوحاتٍ وزجاجيات لا نفع لها ولا مضرة!! كما أنها لم تكف عند ذلك الحد فأكملته بِابتياع حاجيات لاِبنها من ثيابٍ إلى كتبٍ إلى أحذيةٍ وأقلامٍ وأشياء لم يفكر بِاقتنائها يوماً!! لذا وبطبيعة حال منزلها المزدحم بالفرائد والنوادر فقد اِعتادت تركهم هكذا فست لوحاتٍ تزين جدرانه الضيقة وأربعة أطقمٍ للقهوة في الخزانة وستة للشاي في الأدراج السفلية مرتبين قرب بعضهم

وطبقٌ من الزجاج تذكر أنها وزوجها كانا في عطلةٍ صيفيةٍ كم وفروا أموالهم لأجلها، وأمام شاطئ البحر كانت اِمرأةٌ سمراء بعينين نجلاوين ترسم بمهارةٍ البحر من أمامها لتنقله ببراعةٍ على الزجاج فاِبتاعاه بما تبقى لهما من المال! ... الغرف مزدحمةٌ بالذكريات وما تبقى من الزحام ذكرى لصانعيه أكثر من مالكته! ...

أدارت رأسها يُسرةً ثم تقدمت بضعة خطواتٍ لتتخطى باب غرفته؛ لم تكن تعجبها...كانت تشعر دائماً بأنه لم يصل للعمر المناسب الذي يشفع له بمغادرة سريرها مستقلاً في غرفةٍ حاول قدر اِستطاعته دفعها نحو التطور والنضوج وكم رفضت ما ألصقه من صورٍ لسياسيين خالدين أو مغنيين مشهورين على جدران غرفته المطلية بالأزرق الفاتح فقد جالسته لمدة أربع ساعاتٍ محاولةً اِقناعه بنزعهم وعندما رفض، مزقتهم!!. لقد شعرت بالراحة الشديدة حينها...قالت لنفسها" اِنتصرت" وبكى هو بصمت..

سريره المتوسط الحجم مازال يعجبها...هكذا قالت له ذات يومٍ. ورغم أن جسده الممشوق كاد يفوق المئة والثمانين سنتيمتراً إلا أنها لم تغير سريره من سنين! إن حجمه المتوسط يهبها شعوراً مريحاً بأنه مازال طفلها...مازال رغم السنين ملكها...! على عكس خزانة ثيابه المقفلة دائماً فكانت تهبها شعور الكراهية؛ لم يمر يومٌ واحدٌ إلا وحاولت به فتحها لكن دون جدوى فإنه لم ينسَ اِقفالها مطلقاً...

جلست على كرسيه الهزاز قرب النافذة تاركةً له حرية هزها كالأطفال وكلما اِرتفع بها قليلاً مدت رأسها لتتلصص على جارتها التي لطالما نصحتها دون نفع.

- أكان عليَّ أن أنصت؟

سألت نفسها بتحسرٍ..

مدت يدها نحو منضدته الممتلئة بأوراقٍ تضج برسوماتٍ كاريكاتيريةٍ لتسحب من بينهم صورةً صغيرةً حابسةً دموعها جيداً مغلقةً فمها بقوة كفها...ترددت عدة مرات قبل أن تكشف عن الصورة التي قلبتها خوفاً من الألم فلطالما آلمتها الذكريات ولطالما كان الحاضر الأليم هذا ناتجاً عن ماضٍ جارحٍ.

إنها شجاعةٌ لابد منها لكن ليس على ماضيها...

أخذت قرارها بعدم فتق جراحٍ لم تلتئم بعد لذا أعادت الصورة حيث كانت بهدوءٍ لا يمت لاِضطرابها بصلة!.

ماذا كانت تبحث في غرفته بين أوراقه الكثيرة أمام خزانته المقفلة. ماذا بداخلها؟ أهذا الجوف الأسود المتغلغل بين ثيابه من سرقه منها؟ من وهبه الكبر والثورة على أمٍ لطالما أحبت صغيرها؟!.

كانت تبحث عن تفسيرٍ لما حدث...ما الذي يستطيع سرقة طفلٍ من أمه!... فتاةٌ؟ أم صديقٌ حشى رأسه بترهاتٍ علمته كراهية والدته؟.

ماذا أخفى عنها؟؟.

أرادت أن تعرف، أن تريح هذا العقل الذي أقنعها عشرات المرات بأنها لن تراه مرةً أخرى بعد أن دوى صوت الباب كما حدثتها نفسها...بحثت في كل سنتيمترٍ هنا فوجدت الكثير من الرسومات التي لم تفهمها وجوهٌ مرعبةٌ، صفحاتٌ مغطاةٌ بالسواد...لم تكن ممن يفهمون لوحةً كاريكاتيريةً لها مئات المعاني لذا فقدت الأمل من كل شيءٍ عدا هذه الخزانة...

- سأكسر القفل.

قالت بحزمٍ وعندما كادت تفعلها ترددت وخافت كل الخوف أن يعلم بفعلتها فيتركها للأبد لذا اِنسحبت الأم المهزومة من غرفةٍ لم تدلِ بأي حرفٍ عن جريمتها. سحبت جسدها الممتلئ نحو غرفتها الملاصقة لغرفته لتغلق الباب بهدوءٍ ودمعةٍ لم تقوَ على كتمها فذرفتها حزناً على نفسها أكثر من أي شيء!.. بينما جارتها التي أدركت على الفور الأمر تركتها تعاني قليلاً..! أرادت أن تدرك فعلتها، أن تفهم بأن الإنسان يصل لمرحلةٍ لا يحتاج بعدها سوى لضحكة رقيقةً وقبلة.

توقفت الجارة من زمنٍ عن مراقبة التطورات وإيجاد الحلول لمرأةٍ لا تريد أن تصل لحل! هي هكذا تريد أن تبقى كما هي! أن تصل لمرحلة الخطورة ثم تعود لما كانت عليه...روتينها هذا بدأ يعجبها فلم يعد الخوف والاِضطراب هاجسان كبيران أمام حل المعضلة فقد رفضت ملايين المرات حلها وغضبت حين وجهت أصابع الاِتهام نحوها ثم برأت نفسها، وبدمعتين ربما حقيقيتين اِستعطفت قلوب الجميع..!.

مازالت أم "مهند" جالسةً على سريرها تنام من شدة التعب ثم تصحو برعبٍ إلى أن ترامى إلى سمعها زقزقة أول عصفورٍ شق بصوته ليلاً طويلاً؛ تلبكت، غضبت، ثم وكلت أمرها لله.

لم تكن المرة الأولى ولا الثانية حتى! لذا تركتها جارتها وغرقت في أحلامها براحةٍ تامةٍ بينما اِشتعلت هي بنار الخوف تارةً وبعدم المبالاة تارةً أخرى..!.

لم تتساءل "هالة" كثيراً فقد كانت تعرف الإجابة مسبقاً! لغز قصتهم حل من زمن والأمور واضحةٌ أكثر من عين الشمس...ربما كان السؤال الأكثر حيرةً من كل قصتهما هو لِمَ لم تشعر" نورا "حتى الآن بأنها مذنبة؟.

هذا السؤال الوحيد الذي دار في رأس"هالة" كلما لمحت وجه أم مهند حائماً في المنزل كالشبح!.

-2-

اِستغلت" هالة "فرصة رش ورودها المتدلية على حافة الشرفة لتلقي بنظرها نحو منزل جارتها. أخذت تنظر نحو كل نافذةٍ تطل عليها علّها تلمحها أو تطمئن على اِبنها المختفي لكن المياه فاضت من الحوض قبل أن تلمح خيالاً يطمئنها.

أغلقت نافذة منزلها الفارغ لتجلس في زاوية الغرفة على أريكتها المفضلة بعد أن نزعت عن رأسها حجابها الداكن...لقد بدأت قدمها تؤلمها قليلاً وظهرها المتيبس سيزعجها إن أكثرت من الجلوس لذا كان عليها ألا تجلس كثيراً رغم أن قدمها اليمنى تزيد معاناتها إن مشت.

هي لم تكن مجبرةً على تتبع خطوات "مهند "أو اِيجاد حلولٍ لمشكلات أمه لكنها كانت تبحث في هذه الحياة عن أمر يستطيع اِنتشالها من وحدتها القاتلة كانت تريد مشكلة تحتاج كثيراً من التفكير علّها تنسى بدورها مشكلتها..!.

رددت بصوتٍ متعبٍ..

- مهند، مهند...مهند!

نغّمتها كأنها تبحث بتركيزٍ عن حلٍ ثم تركت لذاكرتها المضي نحو ثلاثين عاماً للوراء حين أغلقت باب منزلها مسرعةً لتجد" نورا "تسير وحدها نحو المنزل المقابل لها فتقدمت نحوها بشجاعةٍ معرفةً عن نفسها ليتضح التعجب على ملامح الجارة! لكنها سرعان ما اِستدركت تعجبها وأردفت معرفةً عن نفسها أيضاً.

هي كانت تعرف غيباً تفاصيل منزل جارتها! إنه منزلٌ شهيرٌ في هذا الحي البسيط فقد اِستطاع "هيثم "بعد أن طلاه عدة مراتٍ وعلق الستائر المزركشة بعد أن قضى نصف النهار وهو يغسلهنّ بساعديه القويين تغييره من منزلٍ نصف مدمرٍ لمنزلٍ مميز.

لم تكن" نورا "متطلبةً ولم يكن" هيثم "من الرجال الذين لا يهتمون بتفاصيل المنزل وزينته لذا كان دائماً يدور في الغرف باحثاً عن أدق التفاصيل ليصلحها بينما" نورا "تضحك وهي تلاحقه كظله.!

منزلهما الصغير يحتاج لكثيرٍ من الإصلاحات بعد أن اِبتاعه "هيثم "بثمنٍ زهيدٍ فعندما وطأت "نورا "المنزل للمرة الأولى كان مجرد غرفٍ قد أكل الخراب نصفها!! لذا أخذ يصلح أي ضررٍ يلحظه فرمم الأرضية الخشبية والسقف المهترئ كما طلى الجدار الفاصل بين المرحاض وغرفة الجلوس الواسعة.

لقد وجدت فتاة الميتم فيه رجل أحلامها فكلما نظرت إليه عثرت على كل مبررات وجودها في عينيه وأخذت تحاول اِرضاءه بشتى الوسائل المتاحة لأسرةٍ ميسورة الحال حيث بادلها "هيثم" ذات المشاعر ففي كل ليلةٍ كانا يتقاسمان الفراش فيها كان يضمها إلى صدره بقوةٍ ليخبرها عن مدى حبه العميق لها بينما ترمي برأسها على صدره لتخفي خجلها الشديد فتسحبها الفرحة نحو ماضيها فترى الفتاة اليتيمة تتلاشى ليتكون الحاضر ويسقط الماضي!.

وكم كانت تنبسط أساريرها كلما فتحت عينيها ليلاً فرأته غارقاً في نومه فزادت اِقترابها منه حتى ضمها ساحباً شهيقاً مختنقاً كالغارقين في النوم ووضع رأسه بحركةٍ تلقائيةٍ على رأسها ليكمل نومه دونما شعور بينما أخذت تقبل صدره وتشتم رائحته فيذوب قلبها عشقاً وشوقاً ليأتيها الصباح بعينيه فتخبره عن حبها وعظمته في قلبها بخجلٍ شديدٍ من غرفةٍ فارغةٍ إلا مِن مَن تهامسه فكان كردة فعلٍ لعشق دلالها يحملها بقوة ذراعيه ويضعها على ركبتيه فيبادلها قبلة الصباح كعصفورين عاشقين. وما أن يبدأ ظل "هيثم" بالتلاشي عن ناظريها بينما تستمر بالتلويح له حتى يغيب عند آخر المفترق حتى تمتلك بيتها الصغير من جديدٍ فتعيد ترتيبه قطعةً قطعة؛ تنظم السرير لترمي بوسادتين حاكتهما بآلة الحياكة الخاصة بها فوقه ثم تحمل ثياب زوجها المرمية على كرسيه الخشبيّ لتغسلهم. تكنس المنزل بعنايةٍ، تمسح الزجاج بقماشةٍ رطبةٍ، تقطع الخضار، تحضر الحساء وتتفنن في تحضير المائدة.

وبعد الإنتهاء من جميع متطلبات المنزل كانت ترمي بخصال شعرها البني على كتفيها لتسرحه بينما تدندن بأغنيةٍ قديمة فينتشر صوتها الجميل مداعباً أجواء المنزل الرومانسية ونبتةٍ لم تتزحزح يوماً من الثبات قرب كرسي "هيثم" الهزاز.

هنا بالضبط عند السلام المفاجئ على حافة الطريق بدأت الصداقة تنمو بين كفين تعانقا مرةً! وربما لو تراجعت" هالة "في كل مرةٍ عن التشجع في سحب" نورا "نحوها لبقيتا مجرد جارتين لا تتكلمان إلا صدفةً لكن" هالة" حاولت بكل قواها أن تجد صديقةً لها في حيٍّ لا تعرف من قاطنيه سوى القلة.

ووجدتها؛ كانت" نورا "صديقةً بسيطةً بشعرها المسترسل حتى نهاية كتفيها وجسدها الممشوق إلا من بطنٍ تراءى قليلاً تحت ثيابها الضيقة بينما بدا أنفها المعكوف كدخيلٍ على وجهها الهادئ بعينين بنيين واسعتين! ربما كانت طباعها الغريبة تثير تعجب "هالة" لكنها كانت تتفاداها مقابل طيبة قلبها ولسانها الذي لا يهدأ كإذاعة "مونت كارلو"!!.

وإن أكثر ما كان يلفت إنتباه" هالة "ويحي الفرح فيها دون مبررٍ أو سبب هو الحب الطاهر الذي جمع بين فتاة الميتم ورجلٍ يسيرٍ قد ضُرب المثل بجماله! فكثيراً من المرات لمحتها على باب منزلهما المهترئ بلونه البني الباهت تودعه بشغفٍ أو تراها عبر خصاص النوافذ وهي تركض إليه بعدة قمصانٍ ملونةٍ فتمضي الوقت وهي تنتقي له أحداها ثم تزرر له أزراره وترش رقبته بعطرٍ صغيرٍ تتحجج بشمه لتلثمه! وما أن لاحظت "هالة" ما لاحظته حتى تبعها التأكيد عبر حديث جارتها العاشقة عن طيب قلب زوجها وأخلاقه الحميدة وأسلوبه الراقي في التعامل معها... فهزت رأسها ضاحكةً ثم قالت بصوتها الرقيق..

- الفقر مؤلمٌ لكن الفقراء لا يملكون الخبث! لا أحد يستطيع التعميم في هذه الحياة لكنني وبكل رضىً أستطيع حشر إسمينا في هذه القائمة...الحب لا يعرف المال ولا يفرق بين وجوه الأغنياء والتعساء...هو يبحث عن القلوب الحية وغالباً ما تكون قلوب الأغنياء قاسيةً كالحجر...!.

أقنعتها فإبتسمت "هالة" ابتسامةً كشفت بشفافيةٍ تقارب الآراء بينهما.

-3-

الهواية المشتركة كانت العامل الأفضل في نجاح الصداقة بينهما...الحياكة بآلةٍ عتيقةٍ قد أكل الصدأ منها أكثر مما ترك!! لكن "نورا" لم تستطيع نكران مهارة" هالة "وبروز فنها في كل ما صنعته يوماً بيد أنها أبت الرضوخ فأخذت المبارزة بينهما بالتوتر والتزايد كخيلين على مقربةٍ من النصر!.

وكان أول فستانٍ قامت" نورا "بحياكته متفاخرةً ذي لونٍ أزرقٍ مائلٍ لزرقة الليل في أول مطلعه...إنها تذكر ذلك الموقف جيداً وتضحك عندما نفشت" نورا "ريشها كالطاووس لتخطو بضعة خطواتٍ مرتديةً فستانها الأول ثم تعود فتقفز كغزالةٍ هربت من فكيّ فهدٍ ظانةً بأنها الخياطة الأولى على الكرة الأرضية! أمالت خصرها قليلاً نحو اليسار وذّبلت عينيها بتفاخرٍ متسائلةً...

- أعطني رأيك؟

فإنهارت" هالة "من الضحك حتى كاد يغشى عليها!

- لماذا تضحكين كأنني بهلوانٌ أمامك؟!
- كم مرةً أخبرتك بأن مقاسك أربعين... أربعين يا ناس! لِمَ تخيطينه على مقاس ستةٍ وثلاثين!!
- هذا مقاسي.
- مقاسك؟ !بالله عليكِ انظري إلى نفسك بالمرآة تبدين كطفلةٍ ممتلئةٍ حشتها أمها في ثياب العيد..! إنظري إلى الخصر فتق عدة فتقاتٍ صغيرة؟ إنظري إلى الظهر يكاد ينفزر؟!!
- إنه مقاسي لكن القماش رديءٌ على ما يبدو..!

تذكر" هالة "هذا الموقف ولا تكاد تتوقف عن الضحك. إنها ضعيفةٌ أمامه! هي ردة فعلها الوحيدة الخارجة عن الإنصياع لطاعتها!!.

* * * * *

إكتشفت "هالة" طيلة الأشهر الخمس لصداقتهما أن "نورا "تمتلك ماضٍ لا تستطيع أموال الأرض إقتلاعه من قلبها! لقد كانت تمثل ببراعةٍ دور الأكثر ذكاءً والأكثر جمالاً والأكثر براعةً...الأكثر في كل شيءٍ لكن "هالة "أيقنت بأن هذه العجرفة هي ربما عقدة نقصٍ...ماضٍ جار عليها فإختارت غلبه بطريقتها...هي ردة فعلٍ لا أكثر، محاولة الترفع عن الماضي دون الشعور بالنقص أو الخوف. فلطالما رأت في عيينها خوفاً صامتاً فتساءلت عنه عدة مراتٍ دون أن تجد له

أية إجابة فقد كانت شفتا" نورا " تزمان كلما أتتهما "هالة" بسؤالٍ عن الماضي! إنها تخاف أن يفتح ملف الماضي، لماذا؟ ماذا حصل لها؟ لطالما تساءلت" هالة "دون إجابةٍ مقنعة.

وبالرغم من إدراك "هالة" لمشكلة "نورا" إلا أنها أحياناً تصل لنقطةٍ لا تستطيع فيها ضبط نفسها! فالغضب كان أمراً مقدروا عليه بالنسبة لها فمن السهولة بما كان لجمه لكن التعجرف حين يستفز ضحكتها لا يمكن أن يضبط مطلقاً!.

*****

"هيثم" يخرج من منزله مع زقزقة العصافير ومداعبة خصال الشمس لأشجار الطرقات قاصداً دكانه الصغير ليعود بعد غروب الشمس منهكاً لا يقوَ على اِفتتاح حديثٍ أو مناقشة مشكلة لذا كانت" نورا "تستعين بصديقتها الوحيدة لتنقذها من وحدتها القاتلة وبالمقابل كانت" هالة " تستعين بوجود صديقةٍ تقضي معها بعض الوقت خارج روتينها القاتل فعلى ما يبدو فإن" هالة " قد ضجرت نوعاً ما من اِيصال أطفالها يومياً إلى المدرسة واِنتظار زوجها حتى اِنتهائه من عمله والتوجه في أغلب الأيام للتجول في الريف المجاور للمدينة بغية اِلتقاط بعض الصور الفوتوغرافية بآلة تصويره المحترفة ثم تجهيز مائدة الغداء على اِجتماع أفراد الأسرة الذين يبتلعون طعامهم ثم ينشغلون كلٌ في غرفته حتى صباح اليوم التالي!.

الروتين كان القاتل الأعظم لنفس" هالة "فقد اِعتادت قبل أن تتزوج أختاها للغربة على حياةٍ اِجتماعيةٍ مغايرةٍ لما تقاسيه الآن من وحدة... فكم كنَّ يخْرجن إلى المطاعم أو المقاصف ليتناولنّ وجبة الاِفطار سوياً كما اِعتدنّ على التنزه في الأسواق واِبتياع البوشار الساخن أو بضعة كراتٍ من البوظة اللذيذة الطعم من أشهر دكانٍ في المدينة وكنّ يضحينّ بمصروفهنّ ببساطةٍ مقابل الحلويات مستمتعاتٍ بما يشتهينّ متناسياتٍ بأنهنّ مقابل أسبوعٍ من التقشف! على أن صرفهنّ لما يوزعه عليهنّ والدهنّ لم يمنعهنّ من المضي قدماً نحو السوق منجذباتٍ نحو واجهات الدكاكين التجارية متواطئاتٍ على قياس آخر صرعات الموضى ومتفقاتٍ على شحذ مبالغ اِضافيةٍ لاِقتناء ما يرغبنّ فلا يضعنّ الحلويات ولا يخسرنّ الموضة إلا أنهنّ في المقابل يجبرنّ دون أية حيلةٍ أو وسيلة اِنقاذٍ لأن يكملنّ الأيام المتبقية من الأسبوع دون وسيلة تنقلٍ فيواسينّ أنفسهنّ بارتداء الجديد للتباهي به بينما تتقطع أوصالهنّ لطول الطريق في متوسط شهر تموز!!

كما أنها لم تستطع كبت دموعها كل مساءٍ كلما تذكرت مراهناتها التي لا تكاد تحصى مع والدها الراحل لتربح نزهةً عقب لعبة الشدة أو يربح كتاباً يختاره هو.

لقد اِعتادت على الكثير من الأشياء التي لم تعد ذات قيمةٍ الآن...ها هي بعد أن تزوجت أختاها تبحث حولها فلا تجد إلا الفراغ في مغيب زوجها.. الأصدقاء مشغولون إن وجدوا! الأسواق ميتةٌ في مغيب أختيها ومن قاسمها رهانات طفولتها غادر عالمها...

لقد صارت حياة" هالة "بعد هجرة أخواتها ووفاة والدها قاسيةً ومحددةً بأوقاتٍ وأفعالٍ روتينيةٍ مملة لذا وجدت في" نورا "شيئاً مميزاً جذبها، بساطةً نقيةً تحاول بغباءٍ تخريبها! وجدت صديقةً متفرغةً لاِحتواءِ تيهها وسماع شكواها..

قالت مرةً بإستياءٍ وقد بدت عيناها مثقلتان بالهموم...

- أي عملٍ تريدينني أن أبحث عنه يا" نورا !"أنا أمٌ لثلاثة أطفالٍ...!! أحياناً أشعر برغبةٍ في العودة إلى حضن أمي... إلى غرفتي ذات الجدران المطلية بالوردي الكاشف، هناك علقت صوري حين كنت ألعب مع أخواتي في دار جدتنا وبيت شعرٍ لطالما أحببته قال " لكل شيء اذا ما تم نقصان ..... فلا يغرنّ بطيب العيش إنسان" كنت أعلقه فوق سريري لأجد عند كل كربٍ بيتاً يذكرني بنقص كل شيءٍ على وجه الأرض...اليوم أشعر بنقصٍ شديدٍ أكثر من ذي قبل ولا أدري إن كان بيتٌ كذاك يشفي فزعي من الحاضر الذي أواجهه!

اِبتسمت الجارة مطبطبةً على كتف جارتها التائهة...

- يوماً إثر يومٍ ستعتادين هذه الحياة الهادئة... أنت إنسانةٌ مؤمنة، زوجك رجلٌ طيبٌ وأمك أطال الله في عمرها اِمرأةٌ حنونةٌ جداً...
- أتراك لو كنت مكاني لأخذت الأمر بهذه البساطة؟

صمتت برهةً ثم عاد صوتها كعادته خفيفاً وصادماً بغرابة الإجابة..

- لِمَ لا!!! الحياة دولابٌ يا "هالة" يومٌ نعيشه ويومٌ نقبر فيه... إن توفي والدي فسأحزن لكن الحياة لا تقف عندما نموت... نحن نمضي، ننسى، نتأقلم... وهذا تماماً ما سيحصل! سأعتاد مغيبه، سأعيش وأضحك وأغني وعندما أذكره سأهدأ بخشوعٍ قارئةً له الفاتحة حاملةً أدعيتي له عقب صلاتي الصادقة.

صمتت" هالة "فجأةً...أخذت وقتها في التفكير حتى وصلت لقناعةٍ مفادها أن الجميع يستطيع أن يعتاد الموت... فقدان حبيبٍ، أختٍ، أبٍ.... لكن لماذا مضت سنتان ولم تعتد بعد!!.

*****

كان اليوم بالتحديد حاسماً بالنسبة لمصير بطلنا المنتظر!! لذا عند الواحدة تماماً كان كل شيءٍ جاهزاً من طعامٍ ومفاجأتٍ وسعادةٍ غمرت أرجاء المنزلِ البسيط لاسيما "نورا" بفستانها القصير وعيناها المكحلتان وكتفاها العاريان تحت وطأة الشعر الغجري.

كانت تريد بدايةً تشبه الأحلام لأن فتاةً مثلها لن تدعَ حدثاً عظيماً كهذا يمر ببساطةٍ مطلقاً! هي تريد أن تجعله خارقاً للمعتاد! أن تكون الأمثل به بعد أن خاضت عذابات لا تنتهِ بسببه!.

مرت أمام المرآة عشرات المرات وهي تقنع نفسها بأنها لا تحلم! قرصت خدها...عضت شفتها... أغمضت عينيها بقوةٍ ثم حدقت بشكلها الجميل في المرآة..."إنه ليس حلماً!!".

- كيف يمكن لفاقد الشيء أن يعطيه؟!

وقفت في حيرةٍ من أمرها..صمتت؛ إنه سؤال يستحق الصمت لسنواتٍ!! خافت أن تزيد الأمر أو تنقصه! خافت كثيراً. إنها لا تعرف ما يُقدم في هذه المرحلة الحساسة من الحياة...هي قاست حين لم يهبها مخلوقٌ شيئاً...إذاً كيف تهب دون أن تعرف!!.

- إنها فطرةٌ ذرعها الله فينا...

هزت برأسها مقتنعةً بهذه الإجابة.

الفطرة التي زرعها الله في أدمغتنا لابدَّ أن تعمل كما تعمل تماماً عند القطط أو الطيور أو الأسماك! ألسنا أكثر تعقلاً منهم؟ إذاً لا مشكلةً مطلقاً! لن تهاب زيادةً أو نقصاناً في واجباتها. الفطرة ستقودها نحو الصواب دون أي شكٍ أو تردد.

اِطمأنت واِستمرت كما أخلفت التنقل بين غرف المنزل كنحلةٍ تعد رحيق الصباح فغرفة الجلوس المقتضبة على أريكتين ومائدةٍ تركت عليها مختلف أنواع الحلويات التي قضت ليلة البارحة في تجهيزها بصمتٍ وتكتمٍ شديدين، وغرفة النوم بشباكها الواسع وستائرها البيضاء وسريرها الذي يبدو للناظرين محطماً بينما بفضل سواعد" هيثم "عاد صلباً لا يُهاب فوزعت عليه بعنايةٍ أوراق وردةٍ حمراء وأضاءت عدة شموعٍ على طرفي السرير تاركةً تحت وسادته المهترئة وردةً صغيرةً.

إنه حقاً يومٌ مهمٌ بالنسبة لزوجين، وبالأخص لفتاة ميتم لم ترَ في كل ما حضرته مبالغةً ولا نقصان...كان متألقاً تماماً كحفلةٍ تستقبل بها سندريلا أميرها.

يبدو أن" هالة "لاحظت وجود جوٍ خاصٍ من ضوء الشموع الذي بدا متموجاً خلف ستائر غرفة النوم لذا كتمت فضولها تاركةً لصديقتها أمسيةً هادئةً لا تشرق شمسها إلا بإستقصاء الأمر من كل جوانبه! وما أن قرقع مفتاح "هيثم" داخل قفل الباب حتى ركضت" نورا "لتختبئ خلف ستارة غرفة الجلوس فبدا على وجهه التعجب حين نادى عليها عدة مراتٍ دون أن يتلقى أية إجابةٍ! وما زاد تعجبه تعجباً إنعدام النور حيث بدت الشموع متموجةً منبعثةً بخفةٍ من غرفة النوم!! إتجه نحوها بغية الإستفهام عما يجري إلا أن "نورا" قطعت مضيه ساحبةً خيطاً رفيعاً ربطته بمعصمعها فإنطلقت مجموعةٌ من البوالين مرتفعةً نحو السقف فإرتاب" هيثم "في البداية لكنها سرعان ما أزاحت عنها الستارة تاركةً يدها على بطنها فنظر إليها بشيءٍ من البلاهة والتعجب ... الأنوار المطفأة، الشموع، البالون وإختفاؤها الغريب خلف الستارة!! لكنها سرعان ما أخذت نظرةً سريعةً نحو يدها كأنها تنبهه ضاحكةً فتوسعت حدقتا عينيه وبدا وجهه في الظلام كأنه غاضبٌ أو سيجهش بالبكاء وإستغرق منه إستيعاب الأمر ثوانٍ عقد فيهم حاجبيه ثم بلمح البصر ركض كالمجنون نحوها ليحملها قبل أن ينطق بحرفٍ واحدٍ ثم قال بعد أن رفعها أرضاً كريشةٍ بينما تعتصر عيناه دموع الفرح والدهشة..

- سأصير أباً؟!

فهزت رأسها كطفلةٍ وضحكت.

- أحقاً سأصير أباً... أنا!! وأنت أماً!! ياا الله ألف شكر... ألف حمد.

تسعة أشهرٍ فصلت الولادة عن الحلم... فإن الأمومة بالنسبة لإمرأةٍ ك"نورا "حلمٌ يضاهي أعظم الأحلام التي قد تعلقها فتاة ميتمٍ في سماء الله لذا كان لابدّ للخوف أن يزورها... لا بل أن يسيطر عليها فتعيد على نفسها محاضرة الفطرة لتهدأ قليلاً...ثم تأتيها أوهامٌ أليمةٌ يدسها الشيطان في عروقها فترتجف أوصالها رهبةً وخوفاً...ماذا إن توفيت؟! أو سرق من أحضانها جنينها...هل سيعاني مثلها الأمرين؟؟!.

لقد كان لطفولتها اِنعكاسٌ واضحٌ على حملها فلكل ذكرى مثنىً يتكرر في مخيلتها فواحدٌ عنها وآخرٌ عن طفلها القادم لذا كانت تبكي كلما راودتها أفكارها الشيطانية داعيةً الله أن يحميه ويرعاه إن تفرقا يوماً! وبالمقابل كان قلق" هيثم "واضحاً كعين الشمس تارةً وتارةً كان يتموه تحت فرحة الأبوة التي لا تضاهى...لكنه كان موجوداً بشكلٍ مستمرٍ في جوارحه لا يقل شبراً بل يزيد كلما لمحها وهي شريدةٌ لعشرات الدقائق ثم منهارة وباكية! ثم بعد بضعة ساعاتٍ سعيدةً كياسمينةٍ قبلتها الشمس من جبينها ليزول خوفه الآنيُّ دون أن يتزحزح القلق قيد أنملة!.

"أيمكن لفاقد الشيء أن يعطيه؟؟"

سألت" هيثم "بقلقٍ ذات مساء...كان سؤالها متوقعاً لكن الإجابة كانت محيرة. كيف يمكن توقع ردة فعل فقيدة الوالدين تجاه وليدها؟ ربما في أعماق قلبه خاف قليلاً... تخيل كما فعلت هي مستقبلاً مقلقاً لكنه سرعان ما بدد مخاوفه ألا وإنهما سوياً فكيف يمكن أن تزيد أو تنقص شيئاً على طفلهما طالما أنهما يربيانه معاً يداً بيد؟؟ لذا نظر بكل ثقةٍ إلى عينيها الغارقتين في القلق وقال وهو يمسح على خدها الأملس بيده...

- لا شيء ينفي هذه المقولة إلا أفعالنا...وطالما أننا سوياً سنتلافى أخطاءنا وسيكون طفلنا كما تمنيناه دائماً...أعدكِ.

أخبرته كثيراً ألا يستخدم معها لغة العيون فعيونه السوداء تقتلها حتى إن طالبها بالموت فإن عينيه تعيقان أية فكرةٍ بالرفض!.

ها هي كالمعتاد ترضخ لتنويمه المغناطيسي وتنسى، لتكمل حياتها على قناعةٍ تامةٍ بكل حرفٍ قاله.

ليال كثيرة شغلت" نورا "وهي تحضر بلهفةٍ لطفلها القادم أفضل ما اِستطاعت فقرأت كتباً لا تعد ولا تحصَ لتزيد من معرفتها حول تربية الأطفال وإكسابهم شخصيةً قويةً ومثقفة كما اِشترت أقمشةً من جميع الألوان لتحيكهم بقدر معرفتها على آلتها القديمة لتصمم لمخلوقٍ لا تدري إن كان ذكراً أم أنثى أولى أثوابه الصغيرة!.

ورغم تنبيهات "هيثم" بعدم إخاطة أي شيءٍ حتى يتبين جنس المخلوق إلا أنها أبت الإستماع وأخذت تحيك أية قطعة قماشٍ تقع تحت يديها لتحولها لقطعة فنية!.

كل هذا حدث عندما لم تنبس "نورا "ببنت شفةٍ لجارتها! كانت تنتظر معرفة جنس المخلوق...تريد التباهي بأنها أمٌ تستطيع الشعور بطفلها رغم أن العلم لم يثبت شيئاً كهذا! كانت تريد أن تكون أماً خارقةً للطبيعة...أن تشعر وتعرف وتدرك كل شيءٍ حول هذا المخلوق الذي ستنذر حياتها فداءً لعينيه لكن" هالة "كانت تلاحظ تغير أمورٍ شتى في منزل جارتها كصوت آلة الحياكة في ساعاتٍ شديدة التأخر! كما اِعتناؤها الشديد بغذائها وصحتها ووزنها! تباعاً لازدياد الشجار بينها وبين زوجها الذي لم يكن له وجودٌ قبل هذا الشهر!!.

آلة الحياكة تدور وتدور لتشق هدوء الليل وضجيج الصباح وأطراف النهار بصوتها! حتى بدت غرفة النوم أشبه بدكانٍ لبيع الثياب! وصار لصوت الآلة حيزٌ لا بأس به من روتين الحياة!! فتناست "نورا" بعد اِندماجها بهذا العمل الجنونيّ واجباتها تجاه زوجها وبيتها! فغاصت في عالم الأقمشة المزركشة فتلك الوردية وأخرى زرقاء وثالثةٌ صفراء كعين الشمس وكانت قد دارت الأسواق عدة أيامٍ قبل أن تزيد في أشهر الحمل خوفاً من خسارة الجنين فاِبتاعت ما اِستطاعت من ثيابٍ لاحظت ما لأقمشتها من بهاءٍ ونورٍ رغم أنها من أسواق التخفيضات لمنتجاتٍ قديمةٍ لم تبع! وكانت غالبية ذخيرتها من الأقمشة من تلك الأسواق على أن المتبقي كان مما حصلت عليه من جارتها التي لم تفشِ لها بسرها الغامض حتى اليوم!

الـ"burda" في كل مكانٍ فوق السرير خمسة مجلاتٍ وعلى الأريكة اِثنتان وقرب الفرن أقمشةٌ مقصقصة! ... المنزل الذي كان قطعةً فنيةً على بساطته تحول لفوضى عارمة كان "هيثم" يكرهها ويضيق به ما وصلت إليه "نورا" كلما غادر المنزل ليعود إليه فيراه أشد ضيقاً وخنقاً من الصباح! فأثناء اِنشغال "نورا" الكلي بتحضيراتها لطفلها القادم أصابته أولى نوبات الشقيقة فاِستيقظ ليلاً من شدة الألم ودون أن يشعر زوجته بأي شيءٍ أخذ علبة سجائره وخرج من المنزل حيث أنهى خمسةً منهم أثناء جلوسه على عتبة المبنى والظلام الداكن يحيط به فلا قمر يبدد ذلك السواد ولا مصابيح السماء كانت أقوى على تبديده!

لم يعانِ "هيثم" من آلامٍ مسبقاً فبالكاد يذكر بأن ألم ضرسه دفعه من عمرٍ مضى على الذهاب إلى الطبيب ثم ندم على هذه الخطوة الحمقاء التي أوشكت حينها على تلويث صورته في الحي رغم أنه اِختار طبيباً شديد البعد زاره بعد عمله مخططاً بذلك ألا يمر بالحي إلا عائداً منه كأنه تأخر في العمل على أنه وبمحض الصدفة الخيالية التي لم يضع لها أي اِعتقادٍ أو تصورٍ وجد في قاعة الاِنتظار صاحب بقالية الحي الذي بدت اِبتسامته ساخرةً كما تراءى له! فندم على ألمه أشد الندم

وعاش أسبوعاً يغض الطرف أثناء رياضته المسائية في الحي أو يزور البقالية لغرضٍ اِحتاجه فلا يزيد بالحديث معه أو ينقص! إلا أن الأمر كان أبسط مما بدا له أو خُيل إليه حيث مرّ الأمر مرور الكرام وكان البقال على عدم اِكتراثه للأمر برمته بئراً أميناً لسره! لتستمر حياته كملكٍ بعضلاته المفتولة وجسده الممشوق المغري حيث لم يُسمع في الحي أنه اِرتاد طبيباً أو آلمه عضوٌ من أعضائه! فكان شامخاً بصلابته وجبروته على المرض معتزاً بقوة جسده متبختراً في مشيته منذ أن كان صغيراً، وكانت تلك الليلة الأولى التي شعر خلالها بأن الألم بلغ مداه وألا قدرة له بعد على الاِحتمال، ليلةً غريبةً عليه! من أين لآلام الرأس أن تملك قوةً تكسر اِحتماله؟!. نظر إلى السماء وعيناه لا تكادان تُفتحان لشدة الألم الواخز فاِشتهى ضرب رأسه بالجدار علّه يهدأ لكن الألم اِزداد وكان يشتعل حُرقةً لمجيء النهار فلا علم له بمكان الأدوية!!! هذا ليس شأنه منذ تزوجا ولا دخل له بهم!! وكم نبهته "نورا" ليلقي نظرةً إليهم، ليفهم هذا الدواء لأي ألمٍ وذاك لأي علاج إلا أنه كان يتململ متحججاً بصلابة جسده وقوة مناعته! إلا أنه اليوم محتاجٌ لمسكنٍ يقتلع الألم من جذوره! ثم فكر وقد تراءى لمسمعه أولى طيور الصباح .. "الصيدلية المناوبة!!" حمل جسده المرهق وأخذ يهرول إليها، هي ليست بعيدةً وقد اِعتاد كل مساءٍ أن يدور الحي ركضاً كرياضةٍ مسائيةٍ على أنه الليلة بعد بضعة أمتارٍ شعر بأن الركض يزيد الألم فعكف عنه وأخذ يتمشى كما لو أنه لم يمشِ مسبقاً!! شعر بالعار وقرف من ذاته كأنه خارجٌ عن صنف الإنسانية ولا يجوز لجسده الخضوع أو الخنوع للمرض! إلا أنه خضع وها هو يزحف إلى الصيدلية ليلاً كي لا تنظر "نورا" إليه بعين الشفقة .. أي شفقةٍ لرجلٍ مثله؟! رجلٌ يضرب المثل بقوته وشجاعته؟! اِستمر في المشي حتى أدرك الصيدلية وأخذ يصف لها آلامه كأنه يسمع رجلاً آخراً ليس هو، قال بصوتٍ مبحوحٍ متقطع..

- ألمٌ رهيبٌ يا سيدتي ... شقيقةٌ أو ما يزيد عليها بأضعاف! لم أذق ألماً كهذا في حياتي، أكاد أشعر بأن رأسي سينفجر من شدة الألم

تعاطفت الممرضة المناوبة معه من خلف قضبانٍ حديديةٍ غليظةٍ وزجاجٍ تكاد الأدوية لا تعبر عبره بنظرة شفقةٍ كانت أشد وقعاً من ألمه عليه! أخذ الدواء وكانت قد أوصته بأخذ حبةٍ واحدةٍ كلما وصل ألمه لهذا الحد وكان ينوي رميه إذ إنه من غير المعقول أن يتألم الإنسان أكثر من مرةٍ في حياته بهذا الشكل إلا أنه تكرر ... ليلةً بعد ليلة! كان يزحف كل أسبوعٍ إليها طالباً منها الحبوب المسكنة أعطته مرةً واحدةً ثم طلبت منه التوجه لتصوير رأسه في المستشفى ذلك أنه أبى وهزّ

برأسه شاكراً ثم اِرتاد صيدليةً أخرى في وضح النهار فأعطته الدواء لمرتين ثم طالبته بنفس ما طالبته الصيدلانية الأولى!! إنه لن يذهب، ولو أن "نورا" تعرف حاله لأكدت الإجابة دون أي تردد، زوجها المفاخر بصلابته تعزُّ عليه كرامته التي ربطها منذ صغره بقوته ومناعته الصلبة ضد المرض... وعلى هذا الحال كان يتنقل بين صيدليةٍ وأخرى حيث فقد تدريجياً شهيته فلم يعد يملك تلك الشهية التي كان يأتي بها من العمل وكان يفسر ذلك لجو المنزل الممقت وعدم تحضير "نورا" للأطعمة التي يحبها فكانت تنشغل دوماً بتوافهها على حدِّ قوله لتحضر في النهاية ما يسهل طبخه!.

تراجعت صحة "هيثم" فجأةً فلم يعد يقوى على ممارسة الرياضة المسائية مطلقاً ولا حتى الصباحية! وكان يذهب إلى العمل متألم الرأس إذ اِنتقلت الشقيقة من أطراف الليل إلى أطراف النهار فجأةً! وكانت شهيته تغيب يوماً بعد يومٍ بشدةٍ وغرابةٍ ومع غيابها ضمر وجهه وغرق خداه في تجويفهما وبرزت عيناه واِنقلب وجهه الجميل إلى أصفرَ شاحب! لاحظت ذلك "نورا" فشجعته على الأكل عدة مراتٍ ولكنه خلال بضعة أسابيعٍ اِنقلب لرجلٍ لا يطاق إذ كان كلما شجعته يصرخ في وجهها ليشبّ العراك بينهما بشدةٍ حتى أنه كسر مرةً عدة أطباقٍ وظلا بضعة أيامٍ كعدوان يعيشان في منزلٍ واحد! ...

بِاختصارٍ، لم يعد أحدهما يلتفت للآخر حتى.!

ثلاثة أشهرٍ مضت على حمل" نورا "تحول خلالهما المنزل لجدرانٍ باردةٍ وغبارٍ يغطي على كل شيءٍ وشجارٍ عنيفٍ نتيجة ضجيج آلة الحياكة وعقب الوجبات ثم قبل النوم...!! وعلى أثر هذا كله اِستطاعت "هالة" بسهولةٍ أن توقن بأن ما يجري في ذلك المنزل له سببٌ مصيريٌّ خفي...كان واضحاً من عيون " نورا " اللتان تحاولان اِخفاء أمرٍ ما ومن جسد" هيثم "الذي بدا مرهقاً مترنحاً في مشيته على غير عادته ورشاقته التي ظلّ طيلة حياته متباهياً بها!!!.

كالأطلال صار منزلهما الأنيق مهملاً، حتى صورهما المعلقة على الجدران اِختفت خلف طبقات الغبار أو كُسر زجاجها إثر شجارٍ دار بينهما!!.

أين عينا" هيثم "اللتان كانتا سحراً؟؟ أين الحب الذي لف أرجاء المنزل لأشهرٍ مضت؟! ما به وجه "نورا "مضطربٌ بين اِخفاء ما تخاف منه وبين الأسى الذي آلت إليه حياتها!!....ما هذا السر الذي أُخفي عن" هالة "مغيراً حياة عاشقين دام حبهما أشهراً بلا اِنقطاع!!.

*****

عندما هبط الليل منيراً مع هدوئه مصابيح السماء عاد "هيثم" بخطواته المترنحة يمنةً ويسرةً ليفتح باب منزله إلا أن قواه خانته فدفعه بقدمه متقدماً نحو غرفة نومه دون سواها حيث يدوي صوت آلة الحياكة دون توقفٍ أو اِنقطاعٍ غير مكترثٍ بأيّ مما مرّ به ممسكاً بكلتي يديه رأساً ما عاد ينفع إلا للألم!!

الآلة ماتزال ككل ليلةٍ تدور حتى بعد نوم "هيثم" ذلك أنه الليلة كان متعباً بشدةٍ، وجهه مال للصفرة بشكلٍ مقلقٍ وهزال جسده لم يعد يسكت عنه - ومن سوء حظ زوجته – فقد بدا الصوت القادم من غرفة النوم هائلاً عندما تحول رأسه إلى مطرقةٍ تهشم تحمله بعنف...حاول رفع صوته...حاول النطق لكن الحروف تلعثمت في فمه! حاول مرةً أخرى فخانه صوته!! وعندما وقف أمام باب غرفته مصدوماً أمسك فكه، حرك بكلتي يديه فمه كأنه يجذب صوته بعنفٍ... حاول مرةً أخرى.. مرةً ثالثة!! وحين حاول مرةً أخيرةً نطق!! فبدا كنطق الطفل الصغير العاجز عن ضبط مخارج جروفه! ولسوء الحظ فإن "نورا" لم تشعر بتاتاً بوجود زوجها أو بمعاناته التي سحبت من عينيه التعقل فاِنفجر غاضباً واِتجه نحوها ممسكاً آلة الحياكة ليرميها أرضاً بكل ما أتاه الله من قوة!!. للحظة لم تعِ "نورا" ما حصل ...لِمَ فعل ذلك!! فاِنطلق صوتها مهاجماً..

- أنت مجنون!!

اِنطلق صوته كأن كل ما حصل سابقاً كان حلماً مزعجاً..

- أنا؟؟ أنا المجنون؟ إذاً ماذا عنك؟ كل نساء الأرض يحملنَّ وينجبنَّ دون أن تصل واحدةٌ لربع جنونك!
- ألأنني أحاول تهيئة كل شيءٍ لطفلنا صرت مجنونة؟
- أجل مجنونة؛ اِنظري إلى المنزل، انظري لوجهي، لعينيكِ الساهدَتين ...ألا تشعرين بشيء؟ ألم تلاحظي أي شيء؟
- بعض الوهن لأنك لا تتناول وجبة غدائك في العمل.
- بعض الوهن!! فقط!! ... هكذ بررتِ جميع أخطائك لترميها على عاتقي؟
- أنا لا أبرر لكنك تأتي فجأةً من غياهب الليل لتحطم آلتي دون أي سببٍ مقنعٍ، ثم تتهمني بالجنون وترمي ذنوبك على ظهري!!

- نورا...انظري إلى عينيَّ...ماذا حصل؟ ثلاثة أشهرٍ لا أكثر أوصلتنا إلى هنا...لماذا؟ أليس من المفترض أن تكون هذه الأشهر أجمل أشهر عمرنا؟ لماذا نصل لهذه النقطة ونحن لم نعرف بَعدُ جنس المولود..

ساد الصمت لدقائقٍ ثقيلاً على كاهليهما كأن الكون بمجمله هدأ عن المضي والدوران... دقائقٌ كان الزوجان فيهما فاقدي الأمل، مبتوريّ الحلول إلا أن ضمة "نورا" المفاجئة أعادت ضجيجاً حزيناً...بكاءً عميقاً خرج من رهبتها المكبوتة..

- أنا خائفة يا" هيثم "خائفةٌ أن يعيد الزمن مجراه فيحصد طفلي ما عشته!! خائفةٌ جداً... إنني أريد أن أحضر له كل شيءٍ.. أي شيء! أن أكون مستعدةً لِاحتضانه ورعايته كما لم يحصل لي مطلقاً
- سيلقى كل خيرٍ طالما نحن سوياً، سنرعاه حتى يصل لقمة طموحاته.. سيكون ناجحاً ومحبوباً ...أعدكِ...أعد عينيك اللتين سرقتا قلبي ذات صباح.

-4-

هدأ منزل" نورا "بعد تلك الضربة القوية...ربما لم يستيقظ" ماهر" وهالة "فقط بل أيقظ تحطم الآلة جيراناً آخرين وما شفع لهم ذلك إلا تدهور وضعهما الواضح ليزيد صبرهم وحِلمهم، وعلى كل حالٍ فإن شؤون "نورا "وزوجها لم تكن مهمةً بالنسبة لـ"ماهر" كما هي لزوجته التي كان اِهتمامها الزائد وذهنها الشارد غالب الأحيان متجهاً نحو ذاك المنزل الغريب، فإن كان يدل ذلك على شيءٍ فهو على فراغٍ كانت تعيشه في حناياها دون أن تفصح عنه مطلقاً...عيناها المتقلبتان بين مستلزمات المنزل ونوافذه كأنها تبحث بلهفةٍ عن قصةٍ تشغل بها هذا الصدى الذي ملأ جوفها، ذلك أن" ماهر" الذي حمل مسؤولية المنزل وساكنيه على عاتقه لم يكن متفرغاً إلا لعمله فما كان يخرج من المنزل متعجلاً حتى يقطع نصف المدينة متجهاً نحو مؤسسةٍ حكوميةٍ عُين موظفاً فيها من سنين.

لم تكن أحلامه وطموحاته تتجلى بمكتبٍ ملتصقٍ بالأرض! بل راودته أحلامٌ كبيرةٌ حين بدأت آراؤه تتبلور ناهضةً من ترهات الطفولة كأن يصير مهندساً! فقد كان كل ما يشغله حين يتمشى في طرقات المدينة مع أصدقائه هو المباني المرتفعة وكيفية بنائها ورفعها بهذا الشكل المثير للجدل بالنسبة لطفلٍ بذاك العمر! ثم قدر له الله بجهده المبذول واِهتمامه الواضح أن يحقق حلمه بعد

مذاكرةٍ لم تجره للملل يوماً بل زادت طموحه نحو المثابرة والعناد إلى أن حمل شهادته بِاعتزازٍ متباهياً بها أمام خطيبته. ها هو كما حلم صغيراً مهندسٌ مدنيٌّ يكاد لا يهدأ له بالٌ أو طرفٌ وهو يتنقل بين المباني والحدائق! كان يعرف تماماً أن الموظف لدى الدولة لن يغنى وهذا لم يكن من دواعي اِهتمامه مطلقاً فكل ما كان يصب جُلَّ تركيزه فيه هما أمران: أن يبدع في ما يحب وأن يؤمن متطلبات أسرته دون سرقةٍ أو رشوة...لقد كانت معتقداته في الحياة صلبةً جداً وهذا ما أثار سخط البعض من موظفين فاسدين ومدراء أشد فساداً!.

وعلى هذا فقد تعرض لكثيرٍ من المواقف الدنيئة -على حدِّ قوله- فكثيراً ما جاءه زملاؤه مناقشين بحدةٍ رافضين ترفعه عن أي خطأ أو رشوة! وكم من الغريب أنهم يرون فيما يطالبونه الحق وفي تمنعه غباءً وسذاجة!!.

"ماهر "المسمى بالـ"الصعب" كان على مدار عمله عائقاً لا يستهان به في وجه زملائه الذين لم يكفوا يوماً عن التلاعب بالقانون لينهبوا أموالاً تزيد غناهم غنىً...أجل كان" ماهر "مكتفياً بحياته البسيطة، بهذا المنزل الذي لا يشكو من شيءٍ في نظره فسريره الوفير ناعمٌ كخد والدته ونوافذه العريضة تكفي لمرور الشمس بسلاسة وبلاطه المائل للبياض شارحٌ للنفس وأنيقٌ للغاية أما غرفة الجلوس فقد كانت بمنتهى النعومة فقد اِنتقى أثاثها بعنايةٍ مضيفاً عليه كل ما اِشتهاه من ثقافة غربية وشرقيةٍ مندمجةٍ في مربعٍ واحد...إنه يراه منبع الراحة إن جاءه مرهقاً...كرسيه الخشبي المركون قرب باب الشرفة الغنية بزهور الليلك واللبلاب والورد الجوري والياسمينة المتسلقة حتى أطراف سطح جارتهم، يحمل قدميه فيتمدد ويركز مقر نظارته الطبية كي يطالع كتاباً عن الهندسة أو رواية بوليسية حماسية.

هذه الحياة كانت بالنسبة له قمة ما كان يحلم به، وبالأخص أنها من مالٍ حلالٍ لا يشبه مطلقاً أموال زملائه الطائلة وعماراتهم المتوزعة في عدة مناطقٍ من المدينة...كان يراها فيستعيذ بالله من الأرواح التي زهقت لأجل حجارةٍ وأوراقٍ تعد في نظره قذارة الدنيا!

هذه المعتقدات كانت منارةً تضيء دربه إذا ما مالت نفسه أية ميلة نحو الخطأ...كان يخاف كلما أحاط به زملاؤه بوجوههم التي تتهيأ له أشبه بالشياطين فيغرونه ويلونون له الحقيقة بشتى الأكاذيب والخدائع حتى تصير في عينيه جنةً فتصفعه الذاكرة بقوةٍ لتعيده نحو الماضي مقيداً بالحزن والرضوخ الذليل! تعيد الكرّة أمامه حين ركض وهو في السادسة من عمره نحو شجرة

الميلاد ليرى خمسة هدايا...الرغبة القوية في اِمتلاك الأفضل طغت يومها على براءة الطفولة فمزق بيديه الصغيرتين جميعهنَّ وقبل أن يرى ما بداخلهنّ جاء صوت أبيه الوقور مؤنباً..

- "ماهر" لا تكن طمّاعاً فالحياة بخيلة! اِرضَ بهديةٍ واحدةٍ كتبت لك بدل أن تطمع في الأفضل فتحرم من نصيبك ونصيب غيرك!! كن قنوعاً يا بنيّ فالقناعة كنزٌ لا يفنى..

كانت تلك الكلمات مفتاحاً لبابٍ واسعٍ من القناعة التي لم تفنَ يوماً في عينيه فاِستطاع محاربة الفساد كسيفٍ قاطعٍ لا ينكسر دون أن تتحرك ذكرى المحاولة الأولى من أمامه حين دسها أحد الأصدقاء في أذنه!. كانت عمارةً لحيٍّ فقيرٍ قد كُلف كمشرفٍ على بنائها وما أن أفرغت شاحنتا الحصى والرمل محتوياتهما حتى طبطب أحد الزملاء على كتفه مبتسماً اِبتسامةً مريبةً مميلاً سيجارته نحو الأسفل قليلاً ليقول بلهجةٍ حميميةٍ غير معهودة..

- كفاك فقراً يا زلمة! تعال نعقد صفقةً لا بأس بها تستفيد منها وتفيد!

فردد" ماهر "في مهابةٍ وقلقٍ واضحين في صوته..

- خير، خير إن شاء الله!!
- اطمئن، كله خير... ((وعصَّ على كتفه بهدف التحميس)) صفقةٌ واحدةٌ وبعدها ستبدأ ثروتنا!
- صفقة ماذا! وثروة من!!
- اِنظر بعينك يا ماهر هل هذا حيٌّ يستحق كل هذه المخططات والمصاريف التي لا تزيده قدراً ولا جمالاً؟؟ إنها قذراةٌ في قذارة...أي مجنونٍ يريدنا أن نضع أموالاً طائلةً على مبنىً سيحوي أدنى طبقات المجتمع!! ... علينا أن نتصرف ونعارض هذا التبذير...ووالله لو أن المبنى في حيٍ راقٍ لما فتحت فمي بحرفٍ ولكن أيّ عدلٍ هذا أن يقام مبنىً بمواصفاتٍ ممتازةٍ وضماناتٍ أمنيةٍ خياليةٍ في منطقةٍ أشبه بالمخالفات مقابل حصولك على سيارةٍ حديثةٍ تنتظرك ليلاً نهاراً أمام باب منزلك؟!!!

تجلت علامات التعجب على وجه "ماهر" فاِبتعد عن زميله مزيحاً يده عن كتفه حتى غدا غير قادر على جذبه بها، فزجها في جيب بنطاله بسلاسة المعتاد على موقفٍ مماثل..

- ما بالك يا صديقي لا تجيب تساؤلاتي؟
- تساؤلات ماذا!! أعطني بيت القصيد دون لفٍ ودورانٍ.

- أنت عيني..! بيت القصيد أننا أحق بما يرمى في هذه المنطقة

تقدم "ماهر" نحوه بخطواتٍ غاضبةٍ حتى قابله العين بالعين..

- أحق! أبيت القصيد أن نسرق؟ أن نختلس من مواد البناء لنغنى ونترك بالمقابل عائلاتٍ على متن الريح والأساسات الهزيلة؟!
- أية أساساتٍ هزيلةٍ يا رجل!!! هم معتادون على الأساسات هذه .. هم لا يعرفون الأساسات الحقيقية أصلاً!!! هم يرون الهزيلة فاخرةً ومتينة..
- وإن!! أتريد بناء ثروةٍ على أرواح البشر؟

ترك الزميل ملامح الحزن تطفو على خبثه بمهارةٍ ليعاتبه بنظرةٍ اختلطت بين المقت والحزن قائلاً..

- سامحك الله يا صديقي أجعلتني مجرماً!!! أنا كل ما أريده أخذ ما لا يلزم ...لا أريد أن نرمي المواد رمياً، لمَ لا نستفيد منها ضمن المعقول فلا نضر أحداً تاركين الحد الذي تحتاجه العمارة لا غير؟؟
- وهل في ما تقوله ما ليس اِجرام!!! إنك تختلس يا رجل! تختلس...وفوق عنقك مسؤولية أسرٍ إن هدت العمارة ستحاسب عليهم
- لن أدعها تهد... على كفالتي، والله يا صديقي الأمر عادي فوق ما تتصور وإنني شهدت الكثير من هذه الصفقات وما هدت عمارةٌ ولا أُزهقت روحٌ واحدة!!
- لن أضع يدي بيدك في مثل هذا الأمر فأهدد حياة الناس لأجل جيبي...اِبحث عن عمارةٍ أخرى ومهندسٍ يرضى الرشوة والاِختلاس... ((أدار ظهره متجهاً نحو العمارة، مكملاً)) لست من تبحث عنه يا صديق..!

"كيف يمكن لمهندسٍ سرقة موادٍ قد تؤدي لوفاة عشرات الأرواح!!"

تمتم غاضباً وهو ينفث دخان سيجارته بغضبٍ واستياء. كيف يمكن لإنسان يبحث عن العفة في زمنٍ قلت الإنسانية فيه أن ينسى أولى محاولةٍ عُرضت عليه في القتل العمد! أجل كان يرى ما يفعله المهندسون قتلاً عمداً ومسؤوليةً يضعها الرب على أكتافهم فيرمونها أرضاً ليوازنوا بين أرواح البشر وأموالهم!! وعلى الرغم من أن أغلب قلوب النساء تميل لحب الثراء والأبنية الشاهقة والسيارات المرمية كمكملات جمالٍ لا أكثر كانت "هالة" تربي العفة والمعتقدات اللغير قابلة

للإنحناء لمغريات الحياة الكثيرة وهمسات الأصدقاء الشيطانية رجولةً وفتنة! فكلما جاءها غاضباً من صفقة قتلٍ جديدةٍ تجلى الحزن في ملامحها بيد أن قلبها قفز فرحاً لجمالٍ لم تعد تستطيع رؤيته إلا بحدة الرأي والترفع عن مغريات الفساد فكان يتراءى لها أميراً بمنكبيه العريضين ومشيته الصارمة وابتسامته العريضة بيد أن عينيه الحائرتين في أغلب الأحيان لطالما عكرتا صفو عشقها العميق وأغريتا تساؤلاتها لمعرفة المزيد عن رجلٍ تقاسمه سريرها ويخفي بمهارةٍ أسراره عنها!. وعلى هذا فإن" هالة "كانت الزوجة القنوعة المثالية لرجلٍ عنيدٍ" كماهر "وبالرغم من أن منزلهم كان بسيطاً للغاية مقارنةً بمنازل زملائه الفاخرة إلا أنها كانت قنوعةً مثله فكم أخبرته بأن حياة العفيفين مريحة أكثر! فليست الأموال دائماً هي الراحة الأبدية...فشعورك بأن كتفيك ليسا مثقلين بأرواحٍ تسببت بشكلٍ أو بآخرٍ بقتلها أمرٌ مريحٌ للغاية...وإن خلو غرفةٍ من وجودك دون أن يدعو عليك مظلومٌ بها، أمرٌ غايةٌ في الهناء!. لقد كانت كلماتها وفرحها كالعسل على جراحه لذا لم يتنازل عن حفنةٍ واحدةٍ من العفة بل إزداد عناداً وقوةً يوماً بعد يوم ...لكن الحياة لا تعين العفيفين دائماً! إن الحياة بخيلةٌ جداً لذا كان غير آبهٍ بأي تفصيلٍ يعيقه عن العمل المستمر والبحث يمنةً ويسرةً عن قوتٍ يشبع بطون عائلته مقترناً بالعفة والصراط المستقيم.

-5-

شعر "هالة" العاجي له حصةٌ من صباح كل يومٍ لا يمكن إلغاؤها على مدار سنينٍ كثيرةٍ مضت..! وإن " ماهر "قد حفظ عادتها التي ورثتها عن والدتها فلم يكن يقاطعها مطلقاً بينما تترنم بإحدى الأغنيات الألمانية التي أدمنتها حتى حفظها هو دون أن يفهم منها حرفاً على حرفٍ فكان يدندن دون فهمٍ "...Ich laufe zu dir...Ich verges dich nicht " ثم يكمل مترنماً مكتفياً بهز رأسه طرباً!. "هالة" ترى في الإعتناء بشعرها مقترناً بتناول وجبة إفطار دسمة أمران لا يتوازنان مع أي سببٍ ملهٍ!

- لا يستطيع الإنسان أن يكمل يومه بنشاطٍ إن لم يتناول وجبة إفطاره مكتنزةً بكافة الفتيامينات اللازمة لإعطائه الطاقة الكافية!.

أقنعت زوجها المتعجل غالباً فكانت تستوقفه لتطعمه حتى لو كان في ردهة العمارة!! تلاحقه بالطعام حتى طرف الطريق فينتهز فرصته السانحة ليقبل يدها قبلةً مولهةً ويهرب مسرعاً نحو

عمله بيد أن أطفالها الثلاثة كبروا على ملاحقتهم الدائمة فاِكتفت بكثيرٍ من حنان الأم، بتقبيلهم وعناقهم كأن حافلة المدرسة تخطفهم لا توصلهم إلى المدرسة!!. وعلى عجلٍ يخلو المنزل من ضحكات الأطفال وحنان الزوج فتبقى الأطعمة على منضدة المطبخ ساكنةً بحزنٍ بينما الشمس التي تعبر بأريحية نوافذ المنزل العريضة تبدو شاحبةً إن ضاق الهدوء بروحٍ تحب النقاش واللهو، وكم حاولت التلهي بأخبار المجلات التي لا فائدة منها سوى نهش أعراض الناس لذا كانت تتململ منهم أو تشمئز من نميمهم، ومهما حاولت البحث عن ملهياتٍ تغري اِنجذابها نحو جارتها كانت النتيجة الفشل القاطع لتسحبها قدماها عبر درجٍ عريضٍ ينتهي بها عند بهو العمارة الذي لم تترك له متنفساً إلا وحقنته باِخضرارٍ لم تمل يوماً من عناء الدرج لتسقيه وتقص أطرافه وتنزع اِصفراره!. إن علاقة" هالة "بالنباتات علاقة عميقة جداً! تحس بأنهم أرواحٌ خلقت كأرواحنا... تتنفس وتغني وتستمع لنا! وكم أقنعت أطفالها طوال سنين الطفولة وخاصةً في فصول الربيع ألا يقطفوا الزهور، لكنها مهما حاولت فالأطفال يبقون أطفالاً فما تنبههم صباحاً إلاو يأتونها مساءً محملين بباقة ورودٍ قد قطفوها من أشجار المدرسة لأجلها! حينها تتناقض بشكلٍ غريبٍ فيبدو على وجهها تلاحم المشاعر، ينعقد حاجباها غضباً لتلمع شرارته في العيون العسلية وبذات الوقت تترقرق دمعة فرح خجولة منهم لترتسم على الشفتين تفاصيل اِبتسامة لا تريد فضح نفسها!! إنها الأمومة التي تنقسم بين حب الأطفال وحب الطبيعة..لا يمكن أن يفوز أحدهما على الآخر لذا كانت تركض بورودها لتضعهنّ في كأسٍ ممتلئٍ بالماء ثم تضم صغارها المشاكسين حباً وعطفاً.

عيونها لم تستطيعا يوماً رؤية الزهور مجرد عروقٍ خضراءٍ تزين أطراف المنزل بل أفواهاً تكلمها، تسقيهنّ فتنضج أفكارهنّ! أجل، ودون تردد واحدٍ كانت تحكي لأطفالها علاقة الإنسان بالنباتات...كانت تدعوهم للغناء لهم أو اِلتماس أرواحهم الهائمة حولهم...كانت ترى لأطفالها إخوةً فترنو إليهم وتقبلهم مع كل صحوةٍ للشمس أو وفاةٍ لها لذلك لم يكن اليهو يوماً معبراً سهلاً بالنسبة لها وإن كانت على عجلٍ فهو حاجزٌ صعب العبور والاِجتياز فكانت في بعض الأحيان تغمض عينيها إن نوت الاِنسياب بسهولةٍ في يومٍ مكتنزٍ بالواجبات! إلا أن عبير الزهور يعرقل مضيها أحياناً ليشدها كطفلٍ يركض خلف قطعة حلوى!!.

أخذت تنظر إلى وردتين أخذتا تشقان طريقهما للحياة مغلفتين باِخضرارهما، نائمتين بكأسيهما وقد بدا لونهما قاسماً الأخضر الفاتح واشياً بولادة وردتين حمراوين جديدتين، داعبتهما بطرف اِصبعها ممهلةً خوف اِزعاجهما ثم همست وقد لاصقت شفتاها الوردتين عقب جمعهما بلطفٍ نحو بعضهما

- لا تتعجلا القدوم! الحياة ليست مِعطاءةً كما تتوقعان يا صغيرتي..

رفعت جسدها ببطءٍ لتكمل طريقها نحو العمارة الملاصقة. هي لم تزرها منذ شهرين مضيا! فقد طالبها" ماهر "بالعدول عن زيارتها لفترةٍ وجيزةٍ بعد أن عرف ما عرفه عن مشاجراتها مع زوجها لكنها اليوم قررت أن تزورها! هل يعقل أن تكون في خطر! لم ترها من نوافذ المنزل هذا الصباح مطلقاً، ما سر ضجيج ليلة البارحة! لِمَ تحدث كل هذه الشجارات يومياً بينهما؟؟ ما سبب هذا التغيير المفاجئ؟!. تطير الأسئلة في رأسها دون أجوبةٍ تصطادها لتُهدئ تسلط الفضول الذي يغلي في دمها!.

من أسوأ طباع" هالة "في نظر" ماهر "هو الفضول فلطالما نبهها على هذه العادة المزعجة فقطعت على نفسها الوعود ثم أهلكتها الدبابيس التي تغرز في جوفها لتركض مستشفيةً أخبار الآخرين وجديدهم! إلا أنها كثيراً ما حاولت العدول عن عادةٍ تزعج زوجها لكن الفضول على ما بدا لها غير قابلٍ للإنصلاح خاصةً إذا ما كانت النفس كنفس" هالة "ضعيفةً في وجه النزوات ودبابيس الفضول!.

عجّلت المسير نحو العمارة، وعند الباب دقت جرس المنزل مرةً كطرفة العين متعجلةً خوفاً من إزعاج أهله إلا أن بضع ثوانٍ لم تمر إلا وكانت "نورا" قد فتحت الباب بنعسٍ وتكاسل .

بدا وجهها تعيساً بعض الشيء، تفاصيل وجهها تشي بالإرهاق لكأنها لم تنم بشكلٍ جيدٍ من دهر مضى، ولون وجهها الشاحب كليمونةٍ باهتةٍ أعطى للون جفونها الحمراء غمقةً مخيفة. نظرت إليها مرحبةً لتلوح بيدها مشيرةً لها بالعبور نحو الداخل.

كان الوضع المرتبك واضحاً وجلياً في تصرفات الأخيرة ...فلطالما تتالت زياراتها لها وفي كل زيارةٍ إستقبلتها لكأنها لم تأتها من شهور!.

عبرت باب المنزل فإتضحت لها غرفة الجلوس التي بدت كأن شخصاً لم يطأها من أشهرٍ! بكرات الخيوط مرميةٌ بألوانها على الأرض، حفنةٌ من الدبابيس مغروزةٌ في وجه لعبةٍ إعتاد تركها كزينةٍ على سريرها!! النوافذ مفتوحةٌ على مصراعيها والزهور اللاتي طالما سألتها عنهنَّ بغية المحافظة عليهنّ ذابلاتٌ ميتات!!

تلفتت حولها برهةً ثم بدا سؤالها طبيعياً للجو الغريب المحيط بهما..

- ماذا حصل يا" نورا" !! ما هذا؟؟

أطرقت الأخيرة رأسها لا خجلاً بل بأساً لتأتي الإجابة أغرب من السؤال

- أنا حامل!

فتحت" هالة "عينيها بتعجبٍ بالغٍ دون أية اِبتسامة أو عتاب! كان الخبر ساراً بينما الملامح صادمة!

- مباركٌ لكِ...لكن لمَ كل هذا البأس؟!
- خائفةٌ يا جارتي...الخوف ينهش عظامي نهشاً..

طبطت على كتفها كدعوةٍ للجلوس فلبت الجارة طلبها بصمتٍ لتجلسا متقاربتين..

- قصتي طويلةٌ يا" هالة" ...من أين أبدأ كي تعرفي ما الخوف؟ الخوف الذي لا يهابه إلا ذو ماضٍ بائسٍ مثلي..
- اِبدئي من حيثما شئتِ...الصديق وقت الضيق يا عزيزتي...فضفضي كلي آذانٌ صاغية.
- أنا حاملٌ من أربعة أشهرٍ ونصف...لم أخبركِ، لا تسأليني لماذا! هناك أمورٌ في الحياة لا تُعطى أيّ تفسير...

قطعت حديثها بتشوقٍ لا داعي له..

- صبيٌ أم فتاة؟
- صبي، لكن وجوده لم يكن خيراً!! زوجي يفقد صحته دون أن نفقه ما السبب...وزنه ينقص ووجهه أصفر كالليمونة صباحاً مساءً! وصداع رأسه لا يهدأ بينما لا يتوقف هو عن لوم آلة حياكتي! لقد أهملت كل شيءٍ في المنزل لأجل طفلي، أنا لا أستطيع الموازنة بين الأمومة والزواج! أزيد هذا فأنقص ذاك..فاقد الشيء لا يعطيه يا" هالة" لا يعطيه!
- بالرغم من أنني لا أعلم ما الذي فقدته في صغرك إلا أن العطاء يتوقف على الشخص نفسه لا على الفقد...
- على الشخص! أي شخصٍ يستطيع العطاء إن لم يعطَ أصلاً...إن لم يشهد عطاءً يوماً!

أطرقت" هالة "رأسها وقد تشوشت بين ما تعرفه وما تجهله؛ ماذا تخفي" نورا "خلف وجهها البائس؟ أي ماضٍ، أي فقد..؟.!!

-6-

أخذ حمل" نورا "يتبين شيئاً فشيئاً مع مرور الأيام والأشهر بيد أن هزال" هيثم "أخذ منحىً مقلقاً وآلام رأسه العنيفة صارت روتينية!

- عليك أن تذهب إلى المشفى
- ولِمَ المشفى؟ أنا أعرف ما بي
- ضغط عمل؟ قلقٌ من وضعنا الراهن؟! هذه كلها مبرراتٌ فاشلة، لا شيء يسبب نقص وزنٍ يصل لأكثر من خمسة عشر كيلو غرامات!! اِذهب إلى المشفى، أتوسل إليك...اِعرف ما بك، ليس من الطبيعي أن تعاني كل هذه المعاناة دون أي تصرفٍ يذكر!!

هي تعرف أن كلامها يذهب أدراج الرياح في حضرته! وكثيراً ما حاولت اِقناعه بمعتقداتها وآرائها واِقتراحاتها بيد أنه في كل مرةٍ كان يهز رأسه موافقاً ليدير ظهره عن الموضوع برمته!. لذا وكما توقعت لم يطأ أي مشفىً ولم يعر للموضوع اِهتماماً أكثر من حبوب منومٍ ومسكن للآلام!.

وكان هذا في الحقيقة خُلقاً جديداً يعترض حياتهما ففي الماضي كان" هيثم "أكثر ليونةً ومسايسة فكانا يجلسان كطفلين يخططان لمصيبةٍ! يتفقان يتحاوران يضعان النقاط على الحروف بأدق تفاصيلها وبرضىً متناهٍ من الطرفين...هي لم تعهده عنيداً لهذا الحد، وقد تجلى الأمر في خُلقه النزق قبل حملها بمدةٍ بسيطة فقد بدأ يتحيز لأفكاره ويرمي بآرائها جانباً كأن اِمرأةً لم تنطق!. ظنت في البداية أنه موضوعٌ مهمٌ بالنسبة له ثم تكرر مراراً وتكراراً فبدأ الأمر يقلقها ويزيد حدة العراك بينهما إذ هي ترى الموضوع من عينٍ حياديةٍ فتنصحه بينما يراه ملامساً لمشاعره فلا يعيرها أي اهتمامٍ ويمضي بآرائه عرضةً لكل خطر قد تراه محيطاً به!.

وها هو كما حدث بزمنٍ ليس ببعيدٍ يتجاهل رأيها لكأنه ليس بـ"هيثم "الذي لطالما سمعها وأخذ برأيها، يمضي بأمراضه تنهش لحمه ورأسه، على أنه لم يكن يدرك تماماً بأن أكثر ما يغضب المرأة ويجرحها هو إماطتها كحجرٍ عن طريق حياته فيرمي بخوفها وآرائها ونصائحها كأنها شبحٌ يصرخ في عالمٍ موازٍ للحياة!!

وهذا بالضبط ما أشعل نيران الهلاك بينهما أكثر فأكثر فزاد العراك أشواطاً بينهما رغم اِتفاقهما على شروطٍ معينةٍ لتمضية فترة الحمل دون أية مشكلةٍ أو تشاجرٍ جديدٍ إلا أن الأمر خرج عن السيطرة في بعض الأحيان فتنبه الجيران لأصواتهما المرتفعة وتضايق البعض من صوت اِنكسار الزجاج إن رمى "هيثم" قدحاً مفرغاً به كبته!!

تتذكر" نورا "بتحسرٍ ودمع..

- لم أعد أذكر التفاصيل حتى! إنه كعمرٍ مضى من زمن...أين" هيثم "الطيب؟ أين ذاك الرجل الرزين المتسامح؟ أين المتعقل المناقش؟!! إنني أشعر بأنني أعيش مع وحشٍ كاسرٍ كلما سمع مني ضوضاء أو بكاء هجم عليّ مكشراً عن أنيابه...أنا لم أعد أستطع العيش هنا! إنه كالوحوش يا" هالة "صدقيني ...يأتي من وظيفته منهكاً، وجهه باهتٌ وملامحه مكفهرةٌ؛ يجر مفاصله المرهقة ليستلقي على سريره قليلاً ثم يبدأ مسلسل العراك إن تأخر الطعام أو أُصدر صوت أي شيءٍ في المنزل أو حتى إن جاءنا أي زائر! ينسف الحب كلما غضب كأنه شربة ماءٍ!..

لوهلةٍ تشعرين بأن حياتنا هدمت وأن طفلنا القادم ليس إلا شراً غَيب فرحتنا التي لم تكن تتسع في جدران هذا المنزل!!

شعرت" هالة "بأن جارتها ستنهار بالبكاء بعد أية كلمةٍ إن أكملت...فقالت محاولةً تغيير مجرى الحديث...

- ما رأيك أن تريني ما أخطتي لطفلك؟
- آهٍ يا" هالة "إن هذا أكثر ما يكرهه" هيثم"! حتى أنني خبأتهم في خزانتي مقفلةً بابها بمفتاحٍ أخفيته كي لا يراهم مطلقاً
- لهذه الدرجة؟!
- وأكثر!! تشعرين بأنه كلما رأى قطعةً مُحاكةً جُن ..فقد صوابه وبدأ بالعراك والصريخ..
- ما الصوت الذي شق هدوء الليل الشهر الماضي؟؟
- كسر آلة الخياطة..
- كسرها!!
- رماها أرضاً.

تنهدت" هالة "متأثرةً بهذه الحالة التي آلا إليها بعد أن كانا عصفوري حبٍ يشهد لهما الحي بأكمله. وكما طلبت الأخيرة قادتها" نورا "مثقلةً بخطواتها نحو غرفتها لتسحب المفتاح من أسفل سريرها حيث ألصقته بعنايةٍ كي لا يراه أو يشعر به أي مخلوق!

فتحت الخزانة بلهفةٍ ملحوظةٍ وتبين الرف المخصص لثياب "مهند "مليئاً بتصميماتٍ صغيرةٍ أنيقة، بهرت" هالة " لهذه الكمية الكبيرة وأخذت تخرج القطع قطعةً تلوَ أخرى فيزداد اِنبهارها ويتضح اِعجابها بما أنجزته .

- من أين لكِ هذا يا ملعونة!

ضحكت ضحكةً خجولةً وأشارت إلى رأسها بسبابتها متفاخرةً

- هنا يوجد عقل فنان!

ضحكتا وأخذتا تعيدان ترتيب الثياب مع تمعنٍ عميقٍ لكل قطعةٍ وعمل. لقد اندمج رهابها من الماضي وحبها لطفلها ليدفعاها نحو اِحتراف هذه المهنة والإبداع بها!

حتى خزانة ثيابها تقسمت بين ما أخاطته وما اِشترته من فساتينٍ حيث أخذت تميل لأعمالها متفاخرةً بهم تاركةً فساتينها الجاهزة الصنع شهوراً دون أية مبالاةٍ بما عهدته من فساتينٍ لطالما أحبتهم..."الصنع اليدوي أغلى على القلب!" قالتها وهي ترمق ثياب طفلها المختلف الألوان والأشكال بعد أن وزعتهم بعنايةٍ في أماكنهم!.

-7-

عندما أخذت الشمس منحاها نحو الغياب جلستا على كرسيٍّ خشبيٍّ أخضرَ في الحديقة القريبة من منزلهما بينما ضاجت الحديقة بضحكات طفل أخذ يركض هارباً من والده البدين بشكلٍ يثير التعجب! بينما خمس فتياتٍ في الجهة اليمينية يلعبنَّ التنس ومجموعةٌ من الشبان البهيّ المظهر يلعبون بلوح التزلج في ملعب كرة القدم الصغير.

الزهور البيضاء الصغيرة غطت كل المرج اليساريّ الذي تتبسطه عدة أسر ببساطاتهم الملونة وسلاتهم المصنوعة من القش قد غصت بأنواع المأكولات والفطائر الشهية بينما لم تترك الأشجار الكثيفة فوقهم لحظةً إلا ونغمتها بالحفيف مع هبوب الرياح الموسمية اللطيفة.

شال" نورا " الملفوف على رقبتها أخذ باللمعان إذ سقطت خيوط الشمس الأخيرة مودعةً لمعانه الخلاب بينما عينا" هالة "الكاشفتان توضحتا تحت سُلطة الغروب.

أكانت رغبةً بالبوح لصديقةٍ؟ أم كان رمياً للهموم على كاهلها لا أكثر؟! باحت" نورا " للجارة الفضولية الظمآنة لإكتشاف الأسرار العميقة...لماذا اليوم أمام الغروب بالتحديد؟ وعلى مشارف ولادة" مهند "بالضبط؟

تفاجأت" هالة" على أنها كانت ماهرةً في ضبط التفاجؤ في جميع ملامحها فبدت هادئةً متلقيةً للموضوع بسلاسةٍ وأريحية.

ربما اِنضباط اِنفعالات" هالة "قد أثر كثيراً في" نورا "ربما أعطاها أفقاً من الثقة أو لننتقي الكلمة الأكثر قرباً للواقع فقد أعطاها أذناً تستمع دون أن تتحفظ أو تشمئز!!

هكذا كانت ترى ماضيها! تشمئز منه بعد أن عانت الأمرين في سراديب الفقر واِنحلال المجتمع... كانت تراه ذئباً يحاول الاِنقضاض عليها فتدفعه بذراعين قويتين وبعضٍ من التظاهر بالقوة ليصمت!! ...

لكنه كان يقترب...يقترب كل ليلةٍ منها دون أن تشعر أو تعطي له اِنتباهاً!

الفضول الذي قتل" هالة "لمعرفة السر بدأ ياكلها، بينما تعبر الحياة بطيئةً حولهما والسماء التي خلت إلا من بضعة غيماتٍ تعج بأسراب الطيور الحائمة بحثاً عن بيتٍ قبيل حلول الليل، حينها قالت "نورا" بعد أن جال بصرها الحديقة كلها..

- الماضي يا" هالة "قاسيٌ جداً على فتاةٍ مثلي.. (صمتت برهةً .. ثم تساءلت دون أن تنظر إليها مطلقاً) أتراك جربتي الهروب من الماضي؟ اِغلاق النوافذ، اِيصاد الأبواب، اِخفاء رأسك تحت الوسادة بجبن؟!! أو جربتي النوم فرحةً لتستيقظي وقد بللتِ وسادتك دمعاً؟!
هل جربتي الصمت عن شيءٍ يقتلك بعد أن بحثتي كثيراً في عيون الناس عن قلبٍ يستطيع تقبلك كما كنت فلم تجدي لذا فضلت الموت بهدوء على العار؟!
أكان الفقر عاراً؟ والذل عاراً؟ و الإختلاف الإجتماعي عار؟!!
ربما نراها وقد حشى رأسنا بشكلٍ متقنٍ مجتمعنا عاراً لكنها لم تكن يوماً عاراً.
أنا كنت فقيرةً يا" هالة" .. لا بل معدمة!
اِستيقظت من طفولتي يوماً لأجد الجدران حولي غنية بالعفن، الأرضية رطبة تلامس أسفل قدميك فتقسم داخلك نصفين لشدة برودتها!...النوافذ مُكسرة والوجوه مخيفةٌ لطفلةٍ بلا والدين.

سألت الكبار" أين والدايَّ؟ "! أتدركين رهبة ألا يجيبك أحدٌ عن سؤالٍ بهذه الأهمية أكثر من تسع سنوات؟؟!

كنت أحلم حين تمطر بغزارةٍ أن أبي آتٍ من بعيدٍ بقامته الممشوقة ووجهه الخائف علي ومظلته التي تخيلتها دائماً حمراء داكنة...أن يدخل الملجأ باحثاً عني بجنونٍ بين الفتيات...أن يقف عند باب غرفتي فيبكي، يضمني ويبكي، أن تهاجمه إحدى المسؤولات بوحشيةٍ فيدفعها عني!! أن يكون لي رجلٌ يخاف علي دون مقابل!!

اِشتدّ اِنصات "هالة" واِنبهارها بماضي "نورا" بعد ذكرها للمسؤولات المتوحشات! حتى ذهلت عما حولها غائصةً في ماضي الأخيرة حتى النخاع..

- ظل الحلم يكبر معي، أزيده بعض التفاصيل أحياناً، أزيد أمي، أخي، أحداً من أقربائي لا أعرفه، أزيد بيتنا ذي الطابقين مع درجٍ خشبيٍّ لامع! غرفتي المطلية بالزهري مع عدة دباديب بيضاء؛ حديقتنا الكبيرة وعدة أحواض زرعٍ جميلة، وردةٌ يدعني أبي أنتقيها من مزهريته المحببة ومرجوحةٌ تدفعني بها أمي نحو الأعلى لألامس شجرةً زرعها أبي يوم تزوج، فأضحك.! يركض أخي مختبئاً فأبحث عنه في كل مكانٍ، تحت أريكة جدتي التي لا تمل الحياكة، فوق خزانة أمي التي لم تعد تتسع لملابسَ أكثر، بين مصنفات أبي في مكتبه الأنيق، حتى أنني مرةً تخيلت في البيت كلباً كبيراً...سميته " ماكس!"

زدت التخيلات وبهرتها كثيراً حتى صارت حياةً ظننت بأنني لم أشهدها يوماً...أسماءً لا أعرفها، أشخاصاً لم أشهد يوماً ملامحهم...خلقتهم في مخيلتي من المضغة حتى بثثت بهم الروح! وتركتهم يعيشون بفرحٍ في منزلٍ أتقنت بناءه؛ حياةً أفضل من حياتي... حياةً لم أعشها إلا في تخيلاتي!

افترت شفتاها عن اِبتسامةٍ لعوبةٍ لتكمل قائلةً...

- كنت شريدة الذهن كثيراً، لم يفهم أحدٌ ما بي...ظنوني في البداية مريضةً! لكن سرعان ما فهموا بأنني أحلم..

حلمت كثيراً وأخبرت الفتيات عن أحلامي...أخبرتهم بأنهم هنا على قيد الحياة وفي يومٍ قريبٍ سيأتون فيخرجوننا من قبرنا هذا! أخبرت جميع الفتيات وفصّلت لهنَّ الحكايات مضيفةً التفاصيل بعنايةٍ مجددةً الأحداث مضيفةً الذكريات السعيدة؛ أعطيتهم أملاً... فرحاً برائحة الياسمين، لكن السنوات تنضج الصغار فشكوا بأمري وركضوا مخبراتٍ المسؤولة المشرفة بأني جننت! فجاءتني غاضبةً كالمعتاد بوجهها

العبوس الكريه وخطواتها المجلجلة فسألتها بخوفٍ للمرة الألف عنهم فتأففت بوجهي وقالت بصوتٍ مرتفعٍ..

- لقد ماتوا حرقاً...اِرتحتي؟!!

كانت تلك الطعنة الأولى في حياتي وما كان أكثر ألماً من موتهم حرقاً هو اِستهانتها بوفاة والديّ بهذه الطريقة الشنيعة ... هو تهاونها بحياتي، بطفولتي... بأحلامي التي تكسرت كأنها لا شيء! ربما لو رأيتها الآن لخنقتها بيديَّ هاتين!!! للمتها على وفاتهما أكثر من الحريق ذاته!

لقد كرهتها أكثر من السابق بعد تلك الحادثة وتحاشيتها تسعة سنواتٍ أُخر في ذات المبنى على ذات البقعة لم تسمع من فمي حرفاً واحداً! لكن عينايَّ كانتا ترهبانها ربما أدركت أنني سأنتقم يوماً...كانت تخاف من أطفال الملاجئ هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً يخافون عليه... هؤلاء الذي لا يملكون سوى الله. كانت حقاً تخاف أن أقتلها ذات ليلةٍ فأُجر من سجنٍ لسجنٍ مختلف القوانين والشكل دون أي تألمٍ أو شعور. تراني لو قتلتها اِرتحت؟؟!

تساءلت بشيءٍ من الندم الغريب! ثم أردفت قائلةً..

- لم أحاول التفكير مرةً بهذه الطريقة...لم أكن أحاول بنظراتي تلك سوى اِمدادها بالكراهية لا أكثر لكن الذين يملكون الحقد في قلوبهم، هؤلاء الذين يتسلون في جرح الآخرين تصلهم نظراتنا مرعبة فيظنون بأننا مجرمون مثلهم!.

أكان اِفصاحاً كافياً قادراً على اِزاحةِ الهم عن عينيها الحزينتين؟!

ربما لا! فقد شعرت" هالة "بشيءٍ ناقصٍ...وجهها كان يحمل في تجاعيده القليلة مزيداً من الآلام لكنها أبت! ربما ترفعت عن تقديم قصتها لقمةً واحدةً ببساطة! لقد أرادت أن تعطيها حقها، أن تقسّمها لكي لا تثور ملامح" هالة "فتبكي أو تضحك أو حتى تغضب...لقد أرادت مستمعاً هادئاً كالفضاء لا يُؤاتِ بأية حركةٍ مهما كان، أرادت هدوءً حين تبوح، صموداً لا يكشف عن أي اِرتعادٍ، اِحتراماً لماضيها دون بكاء أو نواح.

وبالفعل كانت" هالة "هي المستمعة الأفضل فقد أنصتت إليها بِاهتمامٍ واضحٍ على أن جفناً لها لم يرف! كانت صامدةً، قويةً بيد أنها كانت كالطفلة الباكية في صميمها فكم من المؤلم أن يرمي الغرباء بمشاعرنا عرض الحائط؟ أن يقال بِاستخفافٍ لفتاة التاسعة مصيبةً كتلك دون أية رعايةٍ نفسيةٍ أو اِجتماعية؟! ألم تفكر تلك السيدة بمصيبةٍ كهذه؟ كأن ترمي الفتاة بنفسها

منتحرة؟ أو أن تقتلها كما بقيت سنيناً تفكر؟ ألم تعتقد قبل فعلتها تلك أن للأطفال مشاعرً لا يمكن أن يتصورها آدمي؟؟ وأن طفلةً اِنتظرت والديها تسع سنواتٍ لا يمكن أن تتحمل مصارحةً بهذا العنف...بهذه السذاجة والغباء؟!

خاطبت نفسها بحنقةٍ وغضب دون أن يطفو على وجهها شعورٌ عابثٌ واحد.

ثم تساءلت بشيءٍ من الفضول..

- لِمَ اليوم؟!

"أكانت تحضرها لقصةٍ مثيرةٍ تقصها على" مهند "إن توفيت أثناء الولادة؟"

فكرت كثيراً بِاستنتاجها وعند منتصف الليل اِستسلمت لأحلامها بعد أن أيقنت أن ما حللته هو أقرب شيءٍ للحقيقة!!.

-8-

الطريق الطويل بدأ يتعب" نورا "كثيراً وبطنها الكبيرة بدت للناظرين على وشك الإنفجار! لذا أخذت "هالة" تسندها طيلة الطريق مقررتين ألا تخرجا مرةً أخرى إلا بعد الولادة.

طريق منزلهما طريقٌ عريضٌ بما يكفي لتمر ثلاث سياراتٍ متوازية تمتد على جانبيه مبانٍ لا تخلو واحدةٌ من أحواض الزهور بِاختلافها الممتع باللون والشكل بينما تقع في منتصفه كنيسةٌ قديمةٌ بدأ تشيدها منذ سنةٍ ولم تنتهِ بعد! على أن الحديقة التي ألفتا زيارتها تقع في آخر الزقاق متصدرةً حارةً مغلقةً حيث ملئت بألعاب الصغار وأزهار الليلك والياسمين..

لم تكن شرفة" نورا "ملفتةً للنظر كما شرفة" هالة" حيث كان الجيران يسيرون في الطريق ملتفتين إليها متحدثين عن جمالها! فلم تترك نوعاً واحداً إلا وزعته على حوافي حديد شرفتها المزركش لذا غدت وجهاً سياحياً مبهراً لمنطقتها أجمع!

"ماذا يمكن لحاملٍ في الشهرين الأخرين أن تفعل؟!"

تساءلت" هالة "بعد أن غابت" نورا "قرابة اليومين عنها...هل يمكن لماضٍ كذاك أن يستل منها طفلها!! أن يباغتها ليلاً فتبكي حتى تغرقه؟!

تساءلت كثيراً وكلما جنت في جوفها الأسئلة ركضت نحو النافذة تبحث عن خيالٍ ببطنٍ كبيرةٍ عّله يطمئنها!

ربما كان قلق" هالة "أعظم من قلق الحامل نفسها...ماذا كانت تتوقع؟ ماذا كانت ترى في ذهول؟! لذا عرجت إليها بعد ذهابها للتسوق، فوجدت الحامل في مجيء جارتها السلوى لتقص عليها قسماً جديداً من ألمها، على أن تشوق الجارة جارى لهفة المتحدثة وربما أكثر! فبدا صوت "أم كلثوم" بعيداً جداً عندما اِستلت ذكريات" نورا "السيف في وجه" هالة "متقمصةً صوتها تاركةً لخيال الأخيرة مسرحاً عريضاً لرسم قصةٍ لا تراها إلا قريبةً لخيال طفلٍ أو هلوسات مجنون!!

- كنت في الثامن عشر عاماً عندما جاء قرار توظيفنا تحت رعاية الملجأ...فرحت كثيراً، ها نحن سنخرج حيث لا يقيدون حركاتنا بالشهيق والزفير! !سنمشي ونضحك وربما نتعرف على فتياتٍ أخريات...ربما أجد شاباً يبحث مثلي عن نصفه الآخر في مكانٍ ما!!.

كنت أحمل في حنايا قلبي طاقةً اِيجابيةً لم أملكها مذ كسرتني تلك المشرفة. ركضت مع المجموعة منضمةً بين الصفوف هاربةً من ذاك القبر الميت. كانا باصا نقلٍ حملونا إلى المعمل الذي بدا ضخماً بواجهته المرتفعة والرسومات المطلية عليه تلك التي وشت بسوقية المنطقة أو العمال!!

قادونا كقطيع غنمٍ في صفٍ أحاديٍّ لا يسمع له همس، وبخطواتٍ سريعةٍ أدخلونا عبر باب حديديٍّ مرتفعٍ فتح آلياً ثم أغلق خلفنا ...أذكر تماماً اِنبهاري لضخامة المبنى كلما اِزددنا اِقتراباً منه...إنه أول معملٍ أراه في حياتي! "يا لضخامة هذا المعمل! أتراه أبي كان يملك معملاً كهذا؟! " سألت نفسي بإنبهار المرة الأولى وأحلام مراهقةٍ بائسة.!...

في الداخل اِنقسم المعمل إلى طابقين يصل بينهما درج حديديٌّ طويلٌ وعشرات الغرف تتوزع على طرفيّ الممر ليفضي في النهاية إلى الصالة الرئيسية الملأى بالعاملات المتشابهات بقمصانٍ خضرٍ وبناطيلٍ بيضاء.

وبنبرةٍ اِختلطت بين الغضب والحزن ..

- وإن أسوأ ما حصل لنا أن الملجأ ميزنا عن الأخريات بشعاره المطبوع على يمنة القمصان لتطلق علينا العاملات بإشمئزازٍ وكراهيةٍ "اللقيطات...!!"

ثم عاد وجهها لطبيعته ذلك أن" هالة" لم تغير ملامحها مطلقاً..منصتة بملامحٍ تبدي كامل الاِهتمام..

- أول مرةٍ رآنا المدير فيها رنا نحوي متسائلاً عن اِسمي كما فعل مع جميع الأخريات بتنظيمٍ يراعي رتلنا الأحاديّ فبدا على اِقترابه الزائد قبيحاً ذو صوتٍ خشنٍ وذقنٍ نابتةٍ غير منتظمةٍ

بشعرٍ أشعث غير مرتب...عيناه الجاحظتان بدت شريرتين، وتجاعيد وجهه وشت بعمره المقارب للخمسين عاماً...لم تكن ملامحه مريحةً مطلقاً وكثيرٌ من الفتيات خفنَّ منه مؤلفاتٍ على تضاريس وجهه الغليظ حكايات تقشعر لها الأبدان!! لكنني على تجربتي كنت أفهم خلائق الله دون العبور بتفاصيلَ لا تمت للإنسان بصلة! لون البشرة، التجاعيد، جحوظ العينين أو خشونة الصوت...كلها لا تتصل بالقلوب بأية صلة؛ لذا تبين فيما بعد، وكما توقعت تماماً بينما جهلت معظم الفتيات، أن خُلقه ملائكيٌّ وطيب.

ثم تابعت بنبرةٍ غريبةٍ...

- الأشكال لا تمت بصلةٍ للأخلاق؛ هذا ما اِكتشفته على صِغر! فوجه المشرفة الحقودة كان جذاباً ببشرته البيضاء المشرّبة بحمرةٍ لذيذةٍ تزيده جمالاً، العينان المسحوبتان كعيون المها بكبرهما ورموشهما الطويلة المعكوفة، اِستدارة الوجه كانت دقيقةً وناعمة، والعنق كالقطن ببياضه بدا مغرياً للناظرين على أن قدها المياس كان سلطان القلوب يلاحقه ردفان مرفوعان قليلاً لينبثق منهما ساقان نحيلان طويلان..

لقد شهرت" فاتن" كثيراً بآية الجمال التي تقيس النسوة جمالهنَّ بها على عكس خُلقها الذي كان منعدماً! لذا عندما قابلت مشرف المعمل لم أخف منه مطلقاً على قبحه وملامحه التي تعطي للناظر شعوراً بأنه لابدّ مجرمٌ حقودٌ فار! لأن الأشكال لا توحي بما يكتنزه القلب مطلقاً.

اِبتسمت قليلاً وأردفت قائلةً...

- المعمل الذي شهد أول اِنطلاقةٍ ليتيمةٍ قضت حياتها بين جدرانٍ تشبعت بمياه الأمطار وبلاطٍ لا يتقن إلا نقل" الروماتيزم "كان معملاً لتغليف مئات الكتب بعشرات الآلات اللاتي يعملنّ يدوياً مصدرات أصواتاً مزعجةً تتكرر كالصدى.

غرفة المدير المعلقة كنسرٍ يراقب فرائسه غُذيت بعاملاتٍ خصصوا لمراقبتنا بينما أخذ المدير بجولاتٍ اِستطلاعيةٍ يمر خلالهنّ بنا بين الحين والآخر...وإن أكثر مشهدٍ لا يبرح ذاكرتي مطلقاً عن جولاته تلك كان موقفاً مشيناً وقعت به إحدى العاملات حين أسقطت صديقتي بعد اِنضمامنا للمعمل بقرابة الشهر رزمة أوراقٍ من روايةٍ أدبيةٍ اِنتشرت على الأرض بفوضيةٍ تحتاج وقتاً لتنظيمها فاِنتفضت اِحدى العاملات في وجهها غاضبةً لكأن الشر يلمع في عينيها حتى اللحظة وصدح صوتها مرعباً "يا لقيطة!!" عندها

تماماً دخل المدير الغرفة بوجهه المنهر وقلبه الذي رَفَقَ بمشاعرنا؛ ثم لم أرَ تلك العاملة مرةً أخرى بعد تلك الحادثة إذ طردها المدير لحظتها من المعمل كأن اِحدى بناته أُهينت!!

اااهٍ يا جارتي ... كم وقعها ثقيلٌ على القلب!" لقيطة" ... كأننا قمامةٌ لُقطت من قارعة الطريق! .. كأننا لسنا بشراً مثلهم، بشرٌ تجري في عروقنا الدماء، تنتفض مشاعرنا، تُكسر قلوبنا كالزجاج ... ذنبنا الوحيد هو ذنب آبائنا، وملاجئنا .. حظوظنا .. كل ذلك، إلا ذنبنا نحن!!

أمازلنا حتى عصرنا هذا نشبه البشر بالقمامة؟! ألأن أبوين لم يملكا الرحمة يوماً رميا برضيعهما عرضة الموت والجوع سُمينا "لقطاء"؟! وعلى ما أظن فقد كانت هذه الكلمة مبرراً لكل ما تعرضنا له من نبذٍ واِزلالٍ وتحقيرٍ في ظل ذاك المعمل الذي ضم الكثير من العاملات اللواتي مازلنَّ يملكنَّ أبوين...

هم يرمون بذويهم في دار العجزة أو في منزلٍ بعيدٍ حيث لا يسمعون شهيقاً لهم بينما نحترق نحن لنعرف وجوه آبائنا، أصواتهم، أسماءهم ... أي شيءٍ عنهم!!. كان الأمر مستفزاً فاِندفعت وراء رغبة المراهقة برؤية تصرفات نسوةٍ يملكنَّ والدين... يختلفون عنا بأبٍ وأمٍ ولا إنسانية!

أكان من المتوقع أن أرى أفضل مما رأيت؟! أتوقعت ألا تكون ألسنتهم كالمنشار وألفاظهم نابيةً تجاه من جلبوهم إلى الدنيا دون أن يتخلوا عنهم بلا أي شعورٍ بالندم؟!!

ضحكت صديقتي حين أخذت تقنعني بأنهم ليسوا أفضل منا بشيءٍ ثم قالت "لا أحد أفضل من أحدٍ! وجود الوالدين أو عدمهما لن يغير طبيعة الإنسان الوحشية! إن طبيعتنا ليست رحيمةً يا" نورا" لا تقنعي نفسك بغير ذلك! ولا تتوقعي النبل منهم أو حتى منا! كلنا سواسيةٌ فلا تراقبيهم بغباء!!..

ثم تأففت ورمقتني بنظرةٍ أقرب للسخرية وقالت كأنها تطعنني الطعنة الأخيرة..

"أليس هذا ما حلمت به طيلة حياتك؟؟...خوضي الحياة يا عزيزتي...هذا هو الواقع خارج السجن...هذا ما كنت تنتظرينه!..

قطعت الجارة حديثها للمرة الأولى...

- أصابت صديقتك... ربما سجنك كان أفضل من حياةٍ لا يحيا فيها سوى الذئاب.
- أجل أصابت... لذا تساءلت بعد أشهرٍ من اِنضمامنا للمعمل أتراني أحببت سجني؟ أم أنني تمنيت الرجوع إلى حيث كانت أعظم أمنياتي الخروج من قفصٍ صار خانقاً كالموت؟؟. تنقلت مشاعري كعصفورٍ بين حبلين واِختلفت ردات الفعل عند كل منعطف ومع كل حركةٍ واظبت على متابعتها لكل عاملةٍ أخذت تستفزنا بألفاظٍ نابيةٍ ترميها بلسانها القذر حيث جاءت!!

لم يخرجني من حالة الهوس تلك إلا شيءٌ واحدٌ

- وما هو؟!!
- أمرٌ غريبٌ جداً لفتاة الميتم التي لم تلمس كتاباً طيلة حياتها إلا لتبصمه لِامتحانٍ ما أن تعيش شهوراً بين الكتب! أحياناً كنت أشعر بالملل لكنني عندما أصحو من مزاجي المعكر وأرى أكوام الأوراق حولي كبستان عدنٍ مختلف الأنواع والأشكال كنت أشتهي كما يشتهي الغني اِقتناء الأموال اِقتناءها فلابدَّ أن تتسرب الشهوة لقلب فتاة الثامنة عشرة، لابدَّ أن تثور رغبتها لقراءة ما يكتب هؤلاء الذين يسمون أنفسهم" كُتّاباً.!!" لذا اِختلست النظر مرةً أثناء نقلي لروايةٍ من اِحدى الرفوف إلى آلة التقطيع...قرأت ما لم أستطع نسيانه طيلة حياتي؛

"نحن البؤساء. وأنا أريد أن أحيا .لا أريد أن أحيا بأقل ما يمكن، بل بأكثر من كل ذلك بكثير. أريد مشاعر حية. سئمت جدرانكم الباردة. ألا تدركون كم نحن بؤساء؟ متى سمعتم الموسيقى؟ أريد أن أشعر بالفرح؟ هل ما أطلب كثير؟ أريد بعضاً من الطمأنينة والسكينة".

مسحت دمعةً ركضت على خدها وكللتها بالصمت على أن" هالة "شُدت لقصتها كفراشةٍ تعلقت بنور مصباحٍ فأخذت تمط صبرها حتى جاء صوتها خجولاً قاطعاً للهدوء الغريب..

- وبعد؟؟

بللت "نورا" شفتيها متابعةً..

- تعلمت أننا لا نستحق البؤس!! ربما لم أحاول التطلع لسطورٍ أخرى لكي لا أنسَ هذه الكلمات طيلة حياتي، وبالفعل رددتها كل صباحٍ ومساءٍ كي لا يهرب أي حرفٍ من ذاكرتي وبعد ذلك اليوم لم أتوانَ مطلقاً عن المثابرة في الِاستقلال بنفسي! حاولت أن أجد عملاً آخراً، أن أهرب بعيداً...لكن وحوش الملجأ كانوا لي بالمرصاد! وحدث مرةً أن غافلت المشرفين وسلكت طريقاً لم تطأه قدمايّ يوماً...كان طريقاً وعراً تحيط به الأشجار الضخمة بجذورٍ تبدو واضحةً للعيان، يمنةً كان وادٍ يزداد بالِانحدار شيئاً فشيئاً على حين أن الجهة اليسرة كانت تشتدُّ اِرتفاعاً مع أبنيتها المتعددة الطوابق مزينةً بحدائقٍ تحيط بكل واحدةٍ على حده. على بعد أربعين متراً تنحدر الأبنية أيضاً لتتحول لفيلاتٍ بأسقفٍ مائلةٍ وألوانٍ غريبةٍ بعض الشيء فمنها الأحمر ومنها الأخضر ومنها الوردي!! وأمام كل فيلا علبة بريدٍ مختلفة الشكل واللون على ذوق القاطنين، أما الحدائق فقد اِزدادت جمالاً مع هذا التحول فكثرة الزهور

والمزروعات بشتى أشكالها وألوانها حتى أنني أذكر بأن فيلا حمراء شُكِلت زهورها كأحرف اِسم الأسرة المالكة!. كنت أبحث ببطءٍ شديدٍ في منطقةٍ لم تطأها قدمايَّ مطلقاً؛ لم أكن أهرب من الملجأ ...بل كنت أنبش في ماضيّ بخوفٍ وشوقٍ تساويا داخلي.

لقد بحثت في العيون بتمهلٍ وحذرٍ عن روحٍ تعرف ما أبحث عنه لكنني لم أسأل إنساناً قط! مشيت وحدي حتى صار المنحدر عميقاً وأصبح الطريق جبلاً صغيراً يطل على غابةٍ سحيقةٍ، وما اِنتشلني من تلك الإطالة السحرية إلا اِمرأة طاعنةٌ في السن قد اِنطبق ظهرها كنصفين تقريباً وتشبع وجهها بالتجاعيد والآلام، تلك فقط سألتها عدة مراتٍ بنبراتٍ متزايدة العلو إلى أن فهمت، على أنه لم يبدُ على وجهها الفرح أو الطمأنينة! ... اِبتسامتها التي تركت الكثير من التجاعيد اِختفت"ماذا تعرف يا ترى؟!" سألت نفسي حين أشارت بيدها المرتجفة بصعوبة بالغةٍ نحو المنزل الرابع بعد ذاك الزقاق، تركتها تهم بالمضي لما نوته بعد أن شكرتها بيد أنني وبعد عدة خطواتٍ شعرت بعينيها تثقبان رأسي بنظرتيها الغريبة فمددت بصري إليها لأطالع الأمر فرأيتها قد أقلعت عن المضي كتمثالٍ متحجرٍ في مكانه بينما عيناها اللتان تتابعانني لم أستطع نسيانهما؛ لقد كانت مصدومةً خائفةً ومتعجبة!! أنا ربما كنت مثلها ... خائفة، فالماضي البعيد الذي أبحث عنه مازال يأتيني كفيلمٍ جميلٍ أخاف أن يُقتل فأقتل معه..!

وعند المفترق بدأ صدري ينقبض وأطرافي ترتعد... ليس ببعيدٍ ذاك المنزل الذي ذكر يوماً أمامي.. المنزل الرابع لا خطوةً زائدةً ولا ناقصة...الاِسم لازال هنا! للمرة الأولى أشعر بأن هناك مكاناً أنتمي إليه بشكلٍ أو بأخر لذا أزحت الغبار بلهفة عن كامل الاِسم محاولةً لمس الأحرف بتمهلٍ مراقبةً ثناياه بفرح...هنا يوجد شيءٌ يربطني بأسرةٍ وجدت على هذه الأرض قبل سنوات...

الباب الذي كاد يسقط حين دفعته كان متأكلاً من الخارج مطلياً بالسواد من الداخل كليلٍ قاتم متأثراً بالحريق الرهيب الذي اِلتهم أسرتي دون شفقة!

المشهد كان مريعاً! تذكرت نظرات العجوز ذات الظهر المطوي...وفهمت أن هذا المشهد يحتاج رعباً كذاك!! السواد لا يترك لشيءٍ مكاناً هناك! لقد أكل كل شيءٍ، الأرضية سوداء، النوافذ محطمةٌ كليا، الأسقف منهارةٌ بعض الشيء وما تبقى من الأثاث مهترئ .

ماذا حصل هنا؟ وكيف بقيت على قيد الحياة؟؟!!

صعدت نحو الطابق العلوي بحذرٍ شديدٍ فالدرج الخشبيّ الذي بدا مطلياً بالسواد والغبار معاً قد كُسرت حافته لكأن شخصاً سقط منه!.

لكل درجةٍ سنفونيةٌ حزينةٌ مختلفة تزقزق تحت وطأة قدميّ فتحكي لي معاناةً لم نستطع نحن سويةً الخروج منها...صعدت متمهلةً خوفاً من اِنكسار الأخشاب المتآكلة تحتي ومع

كل زقزقةٍ تدوي بهذا المنزل الغائص بالذكريات الأليمة كنت أقترب أكثر من الطابق العلوي ... شعرت لوهلةٍ بأنه بعيدٌ جداً كأنني أتسلق بهذا السلم المحترق السماء نحو الله! الذكريات ثقيلةٌ جداً على كتفيّ بيد أن التخيلات كانت أشدّ ثقلاً وأكثر وقعاً على نفسي فأخذت أحمل جسدي وأرميه بنعومةٍ على الدرجة المقبلة فينتفض الغبار وتقرع السنفونيات هامسةً بما مضى... "لو أنني أفهم لغة البيوت!!" قلت بتأففٍ مضحكٍ! وعندما وصلت بسلامٍ إلى الطابق الثاني لم أكد أُميز الغرف المترامية على أطراف الممر الغارق في السواد فتلمست طريقي بيديّ حتى وصلت إلى باب الغرفة الأولى فدفعته ليزيد سواداً وحزناً أشد من سابقه!! غرفةٌ مغرقةٌ بالسواد إلا من بضع خطواتٍ شقت طبقات الغبار حتى توضح البلاط بارزاً كعين الشمس!

- خطواتٌ حديثة؟!! ... من مشى هناك؟؟
- سألت نفسي ذات السؤال كثيراً لكن ما من إجابةٍ وجدتها وافية!!

أجالت بصرها بحيرةٍ في الغرفة ثم اِستطردت..

- أكملت جولتي بسرعةٍ وتشوقٍ، فهذه الدقائق التي تمر في غيابي عن السجن قد تشعل نار الجلادين علي! تماماً كما أنساني نار الشوق والألم عقابي لقاء هروبي الجريء هذا!! ... إنه الشوق الذي علقني ثمانية عشر عاماً أمام باب هذا البيت يتركني اليوم أصول وأجول فيه كملكة. لم أدرك شعوري المختلط بين الفرحة والحزن فتلك الخزانة الخشبية الكبيرة أثارت فرحتي رغم أنه لم يتبقَ منها سوى بضعة رفوف! على أن سريراً مازال محافظاً على أرجله الأربعة أثار بكائي بشدة!...إنها غرفتهما، إنه أثاثهما حيث ولدت وكنت طفلةً لوالدين..! بحثت في كل ما تبقى لكنني لم أجنِ شيئاً... كان مؤلماً أن تتخيلي مصير والديك دون أن تعرفي وجهيهما، أن تخطي ذات خطواتهما لكن دون أن تشعري بعذاباتهما. على غرار الغرفة الأولى كانت الغرفة الثانية مموهة المعالم على أن الشمس التي داعبت جدرانها أنارتها فتوضحت خزانة الملابس التي بدت أقل اِحتراقاً بعض الشيء ولعبةٌ لم يتبقَ منها سوى الرأس كانت تشي بأن طفلاً اِمتلكها ذلك أن السرير الصغير الذي لم يكد يتبين منه شيءٌ كان قادراً على وضعي في زاوية الحق ... إنه سريري يا" هالة "! جلست بقربه وبكيت؛ لماذا لم أحترق معهم؟؟ أيُّ مستقبلٍ ينتظرني دون أسرةٍ تحتويني؟!!.

لم أستطع التنقيب أكثر في الماضي وخمنت بأنني أستطيع الرجوع متى رغبت إلى هنا، وأن قوايَّ ستشدني أكثر من رغبتي إلى هذه الأطلال لذا حملت أحزاني دون علمٍ مني بأنها المرة الأخيرة التي أطأ فيها هذا المنزل!! .. أنها آخر مرةٍ أستطيع خلالها التألم لهذه الدرجة محترقةً بلهب الذكريات لأعض أصابعي حسرةً على حاضري ووحدتي القاتلة!! وعدت إلى الملجأ تأخذني الأفكار وأتلوى كوجبةٍ طازجةٍ على نارٍ هادئة! "لماذا لم أهرب؟

لم أجد أية إجابةٍ لسؤالي قط...!

-9-

اِزدردت ريقها لتكمل وقد بدا التجهم على وجهها واضحاً..

- توقعت كثيراً متخيلةً الموقف بحذافيره لكنني مطلقاً لم أصل لما حدث! فالاِستقبال في الملجأ كان أعنف بكثيرٍ مما توقعت؛ بدا الجميع عاجزاً عن اِيقاف ثورٍ هائجٍ يهاجم فتاةً في مقتبل العمر... لماذا؟ لاحت علامات التعجب في بعض الوجوه بصمتٍ دون أية يد مساعدةٍ تذكر..!.
في العشرة أيامٍ اللاحقة سألت نفسي كثيراً "أكان الأمر يستحق؟" لم أجد مبرراً مطلقاً لهذا الاِندفاع المجنون سوى الاِنتقام! اِنتقام النظرات الشديدة الحدة، ردات فعلٍ كُبتت لسنواتٍ، مخاوف كانت الدافع الأعظم لركلٍ كاد يودي بكليتي اليمنى!
- ركل!!

لكنها أكملت غير ملقيةً بالاً لصدمة الجارة...

- زيارتي لمكانٍ يحق لي زيارته منذ ثمانية عشر عاماً اِستحق أن تشدني "فاتن" من شعري لترمي بي أرضاً وتأخذ بركلي كمجنونةٍ والعرق يتسرب من جبينها على أن نظراتها كانت خائفةً كجروٍ ينتقم ممن يهابه!!
دفعتها!... دفعتها يا "هالة" كما لو أن شيطاناً زُرع داخلي، بكل قوتي، دفعها شيطاني بيدين من نارٍ فسقط جسدها مرتطماً بالأرضية كفيلٍ ينازع الموت ثم اِقتربت منها أمام ذهول الآخرين كمجرمةٍ تستل مسدسها لتنتقم عن جريمة طفولةٍ حدثت من تسعة أعوام!! ها أنا ذا أنتزع من صدرها حقي فركلتها كمن جهل الجريمة التي يقترفها؛ ركلت المشرفة الرئيسية عن الملجأ! لكأنني أركل صديقةً عاديتها وما أن أكملت الركلة الثانية حتى أُمسكت من الخلف ورميتُ أربعة بلاطاتٍ في الهواء ليرتطم رأسي بمقبض الباب غائبةً عن الوعي ربما لخمسة ساعات!!

"هالة" كانت متجمدةً في مكانها تفرك يديها بين الحين والآخر كنوعٍ من التهدئة والعينان اللتان كانتا جبارتين سربتا دمعتين تشيان بمشاعر تخبطٍ لا تنتهِ... على أن "نورا" لم تستطع كبت ذاتها... إنها فرصتها! عليها أن تطلق هذا الكبت العظيم، يجب أن تطلقه من صدرها، على إنسانٍ أن يعلم بماضيها ليدرك أن ما يحصل بين جدران هذا المنزل ليس صنعها... هم من صنعوه، هم من زرعوه في أعماقها دون قصدٍ أو إرادةٍ منها!.

مسحت بخجلٍ دمعتيها وقالت بصوتٍ شفّ عن رجفة الحزن العميقة..

- وهل عوقبت على ما اِقترفته بالمشرفة؟!

ضحكت "نورا" مستهزأة من السؤال كما من ماضيها...

- عوقبت؟! أجل يا جارتي عوقبت بعشرة أيامٍ منفردةٍ مترافقة مع كسرة خبرٍ يابسةٍ وكأس ماء!!. أذكر كما أراكِ أنني حين خرجت من ذاك السجن ركضت عليَّ صديقاتي وقلنَّ والدمع يزرف من عيونهنَّ "نورا كأنك خيالٌ يمشي!!"

إنهم عشرة أيامٍ منفردةٍ عقب منزل أسرتي المحترق قلبتني رأساً على عقبٍ...صرت مطيعةً، هادئةً ومنزوية! لم أعد "نورا" .. كان ذلك واضحاً للجميع.

"نحن بؤساءٌ، وأنا أريد أن أحيا" كررت هذه الجملة آلاف المرات بيني وبين نفسي تفادياً لكثيرٍ من المشاحنات والتعرضات التي عانيتها في الملجأ والمعمل.

ولأنني أريد أن أحيا...صمدت.

كانت تلك الكلمة الأخيرة التي نطقتها "نورا" قبل أن تجهش بالبكاء فأخذت "هالة" تصبرها وتطبطب على كتفها كأن طفلاً يبكي بين ذراعيها بذاك التلوع واللامبالاة لصوتٍ قد يسبب الإزعاج لجيرانٍ ملوا صريخهم!.

كانتا تماماً عاجزتين عن النطق حين جرَّت الجارة نفسها نحو منزلها مصدومةً محزونةً لحال جارتها بينما تمددت الأخرى على سريرها غارقةً بأحلام يقظتها منتظرةً عودة زوجها.

لقد كان رمي ماضٍ بهذا الثقل على كاهل "هالة" أمراً لا يطاق فعبرت ردهة العمارة دون أن تقبل زهراتها أو تلقي عليهنّ التحية حتى! أخطأت بمفتاح منزلها عدة مراتٍ وعندما خلت بغرفتها بكت كما بكت "نورا" وأكثر!.

لا أحد يستطيع القول بأن "هالة" بعيدةٌ كل البعد عن المشاعر! فمن يعرفها جيداً قادرٌ على أن يفهم بأن خلف هذه اللامبالاة المصطنعة أعصابٌ ومشاعرٌ تهرس تعاطفاً مع الآخرين لذا كان نحيبها متوقعاً ليس لـ"نورا" التي لم تعرفها بما فيه الكفاية بينما لجيرانها المقربين أيضاً ولأخواتها اللواتي تفصلهنَّ سنواتٌ من المشقة والإغتراب.

وعلى العكس تماماً كانت "نورا" لكأنها أزالت عن ظهرها بعض حملٍ قد فاق طاقتها فغدت بشوشةً بعض الشيء وأخذت تطير بأحلام الولادة وطفلٍ يرضع من ثديها فيمسك بمنتهى الحنان اِصبعها بيده الصغيرة! أخذت تشد رحالها في عالم الأحلام فتخلق للجنين شعراً خمنته أشقراً...؛ لمن؟! لا هي شقراء ولا زوجها! لكنها رغم ذلك تخيلت شعره أشقرَ كخصال الذهب متداخلاً

ببضعة خصالٍ مائلةٍ للبني، عيناه الواسعتان لونتهما بأخضرَ شهيّ! والبشرة التي اِنتقتها حنطيةً مائلةً للبياض بدت مغريةً بالنسبة لطفلٍ ذو عينين خضراوين ترافقهما غمازة لوزية الشكل تأكل جزءً من خديه المنفوخين!...ها هو طفلها الصغير قد تكّون بين ذراعيها يرضع حليبها ويعصر اِصبعها بما أوتي من قوى.

ضحكت...وتلك كانت الضحكة الأولى التي شقت حزن هذا المنزل بعد ثمانية أشهرٍ من الغرق في وحل الخلافات الأسرية!! أجل ضحكت واِغرورقت عيناها بدموع الفرح... "ستكون صغيري المدلل ما حييت!". نهضت من سريرها بنشاطٍ لا معهودٍ فأنشأت ترتب الغرفة وترفع عن أثاثها الغبار كأن العصا أميرٌ يراقصها ببطءٍ فتهز خصرها بشيءٍ من الحذر وتحرك أقدامها بحركاتٍ متقنةٍ لرقصة التانغو التي لقنها إياها "هيثم" .

أخذ المنزل يستعيد رونقه غرفةً تلوَ الأخرى بينما تستبشر الفراشة الحائمة فيه خير هذا اليوم كلما اِقتربت الساعة لمجيء زوجها لذا قررت أنه لن يكون كسائر الأيام! سنفرح كما مضى...لن يولد طفلي في بيتٍ حزينٍ لا يملك من الفرحة قدر قشة!.

حزمت أمرها وأخذت تقطع بما تبقى لها من اِستطاعةٍ حبات الطماطم كي تعد آخر طبقٍ من وجبة الغداء الذي حضرته بتروٍ بعد أن اِنتهت من تنظيم غرفة الجلوس فأخرجت دجاجةً قد اِبتاعها "هيثم" ليلة الأمس وشوتها بفرنها العتيق بعد أن أضافت لها بعض الريحان ومسحت وجهها بقليلٍ من اللبن فاِحمرت وزادها الاِحمرار تألقاً ولذةً ثم أخذت تزيد الطبق بحبات البطاطا اللاتي قطعتهنَّ ثم قلتهنَّ حتى بدا لونهنَّ ذهبياً مائلاً للبرتقالي...مضيفةً للوجبة الشهية طبق سلطةٍ زينته بحبة طماطمٍ شكّلتها كوردةٍ جوريةٍ وبحيويةٍ لطالما عهدتها "نورا"سابقاً قبلتها!!

وكما شاهدها "هيثم" للمرة الأولى ضفرت شعرها ضفيرةً واحدةً رمتها على كتفها الأيمن معلقةً على أذنها اليسرى وردةً بيضاء تعد الأخيرة من صديقاتها اللاتي ذبلنَّ بعد الاِهمال الجائر لهنّ.

أخذت تشعل عدة شموعٍ فرقتهم على حواف الطاولة بينما تراءى لها اللقاء الأول كأنه أمامها! أجل كان يوماً حاراً توسطت شمسه السماء لتسحب من كل كائنٍ حيّ أنفاسه مستبدلةً إياهم بالرطوبة والعرق! السماء الصافية تركت للأرض بكل اِعوجاجاتها وحناياها أن تتلوى بنار الله! وكم كانت فرحة "نورا" عظيمةً بيوم العطلة الذي وافق أشدّ أيام الحر في ذاك الصيف الغابر.

على حافة الباب وقفت مسندةً ظهرها إلى الباب متنهدةً بشيءٍ من التحسر! فلم تفتها أية تفصيلةٍ قط، فالقميص كان قطنياً ضيقاً والعرق المبلل للمنكبين المنتفخين بعضلاتٍ تبرز جمال الصدر المرسوم لضيق القميص بدا أشدّ إغراءً من الوسامة الحادة! شعرٌ أسودٌ قُصّ بترتيب بالغٍ وذقنٌ أُهملت لتزيد على الحسن حسناً!

هكذا تماماً رأته للمرة الأولى جاذباً روحها إليه كأسيرةٍ تركض نحو سجانها!! بترقبٍ اِستلذته تابعت نقله لأثاثٍ قام الميتم بتوصيته من نجارٍ ذاع صيته لاِحترافيته... وقفت هناك يفصلهما طريقٌ واحدٌ والكتفان المبللان بالعرق يصعدان ويهبطان يُعتصران ويتحرران بقوةٍ وجبروتٍ شهي! بينما الوجه الوسيم بدا من بعيدٍ ساحراً فتساءلت بشيءٍ من التعجب وقد رق للغرام قلبها "ماذا لو مر قربي؟!" فأخفضت عينيها ببطءٍ حيث غرقت في أفكارها ثم سحبت نفسها مؤنبةً إياها نحو غرفتها التي هدأت لفراغها من شريكاتها فجلست إلى سريرها الصغير مداعبةً ورقةً منسيةً فوقه وهمست لنفسها كأنها تخاف أن يعلم بما تخشاه كلها!! "أيعقل أن يخلق الحب من نظرةٍ لا مقابل لها؟! ماذا لو أنه متزوجٌ أو أنه بكل بساطةٍ لم يرني!!"

كان لدى "نورا" ذلك اليوم خيارين إما أن تجلس في غرفتها تاركةً شاباً مفتول العضلات بوجهٍ ملائكيّ يذهب عن سجنها دون معرفةٍ بقلبٍ بنظرةٍ واحدةٍ إليه قد نبض وخدين لأجل وسامته توردا أو أن تخرج ثانيةً فتلقاه كصدفةٍ وتحادثه!! كانا قرارين لا ثالث لهما والوقت كاد أن ينفذ وهي تحسب النهايات ودون نصحٍ من والدٍ أو والدةٍ كان عليها اِتخاذ هذا القرار المجنون... "ماذا لو رأتها المشرفة!! أو أن تكون فتاةٌ أخرى سبقتها إليه؟!" ما أن صفعتها الفكرة الأخيرة حتى أخذت تركض عابرةً الدرج سالكةً الممر المفضي إلى جميع غرف الآنسات متخطيةً الباب بسرعةٍ لا تفوقها سرعة وهناك عند بداية الطريق وقفت تحسب بسرعةٍ وتضرب الأخماس بالأسداس... أهذا وقت الحسبان والخوف؟؟! على مقربةٍ منها رجلٌ قد لا ينبض القلب لغيره طيلة حياتها!! رجلٌ يحميها إن هاجمتها المشرفة بدل أن يُرمى بها كحيوانٍ مسكين!! ... إذاً ما الحجة الوافية للفت نظره؟! فكرت دقيقةً تتلوها دقيقة دون أن تجد أي مبررٍ تافهٍ يحمي ترفعها عن المبادرة الأولى لكنها في النهاية فشلت! هل الكرامة أعلى من الحب؟ لا... هكذا قالت لها اِحدى شريكاتها في الغرفة ذات مرة... إذاً لا كرامة تعلو الحب، وما فائدة الكرامة إن لم تحظ برجلٍ خفق له قلبها من اللمحة الأولى؟!

ودون أدنى مبررٍ عبرت الطريق إليه متزعمةً رغبتها في مساعدته بنقل الأثاث طالما أنها تململت من العطلة!! وعلى وسامته الشهيرة فقد قضى ما قضاه في عشق النساء دونما قلبٍ نبض تجاههنّ إلا قليلاً فما دفع اليتيمة نحوه إذ كان سيط "النسونجي" لا يقل عن سيط الوسامة اِنتشاراً بين ألسنة الفتيات؟!. لكنها أخذت قرارها وشدت رحالها نحوه عازمةً على قرارها ذلك لأنها آمنت كل الإيمان بمقولة صديقتها... أجل هناك حبٌ من النظرة الأولى ولولا ذلك لما ضحت بكرامتها قيد أنملة متجهةً نحوه ملفتةً اِنتباهه بينما أَلِف هذه العادة فلم يجد فيها أية إساءةٍ أو اِذلال!! وعلى عكسه تماماً فلطالما وجدت محاولة لفت اِنتباه شابٍ نحوها اِذلالاً عظيماً بحقها..

الشاب ذو العضلات المفتولة رحب بالفتاة الحلوة العينين قادمةً نحوه عارضةً خدمة نقل الأشياء الخفيفة معه! وكيف لا يقبل وقد تراءى له شعرها الغجري بطوله وغزارته متهاوياً بجديلتها المنسابة مع مشيتها المتزنة بجسد ممشوقٍ وعينين واسعتين تلتمعان تحت وطأة الشمس؟!.

- وكيف تعرض عليّ حلوةٌ المساعدة فأرفض؟!

ردت عيناها خجلاً بينما لم يرف جفنٌ له ليقطع تمعنه بها... زير النساء لا يعرف الحب إلا نادراً فما علق قلبها في محاولةٍ لا جدوى منها؟! هي سمعت مهامسات الفتيات اللواتي كنّ يراقبنه مثلها، قلنّ بأنه قد أحب بعدد شعر رأسه أو بالأصح أُحِبَ من فتياتٍ لو جمعنّ لملأن المدينة!! وهل يعقل أن يعشق رجلٌ بهذا العدد إلا إن كان "كازانوفا" بحدّ ذاته!! من أين لنا بالأكاذيب نحن الفتيات!.

سنحت لها الفرصة لسؤاله أثناء نقلهما لمجموعةٍ خشبيةٍ إلى غرفة إحدى المشرفات تحت أعين الفتيات المتعجبات من جرأتها غير المعتادة!

- يقال عنك زير نساء... قيل أنك أحببت فتيات بعدد شعر رأسك
- نحمد الله إذن على السمعة الطيبة!!

ضحك ضحكةً عفويةً فأثارت في قلبها الشغف فأكملت أسئلتها بقلبٍ أشد إصراراً وإشفاقاً

- لم أرك في هذه الأنحاء مسبقاً!! ترى هل هذه المرة الأولى التي يتعامل الملجأ معكم؟!
- أجل هذه المرة الأولى إنما أنا من هذا الحي... فهل يعقل أنني لم أرَ عينيك مسبقاً... واللهِ عجباً على هذه الدنيا التي تخفي لآلئها عنا!!

تورد خداها خجلاً فصمتت دون أن تزيد على قوله شيئاً لكنه أكمل..

- عند زقاق "الرَوج" توجد شجرة تفاحٍ كبيرة... تحتها إنتظريني ظهيرة الغد!!

وإستمرت بالتفكير في الموعد المنتظر طيلة الليل بعد أن وبختها المشرفة على وقاحتها في مساعدة رجلٍ يلقى أتعابه دون الحاجة لمساعدة فتاةٍ لقيطة!! لم تلقِ بالاً لتوبيخها ولا لتعجب الأخريات... لقد إنتهى الأمر وظهيرة الغد لابدّ قادم... من يمنع الغد؟ من يمنع الشمس من ركوب السماء خيلاً لها؟ من يمنعها من التسلل حتى لو أطبقت السماء على سابع أرض؟! الموعد قائمٌ والوسيم لابدّ قادم لكن أليس إستخفافاً أن يعطيها موعداً من اللحظات الأولى لتعرفهما؟ أتراه زير نساءٍ حقاً؟! ينام الليل قرب فتاته ليلقاها ظهيرة اليوم بشفاهٍ ملت القبل!!

راودتها الأفكار مرةً بخيرٍ ومرةً بشرٍ وهي واثقةٌ أن الحب تضحية وإن عليها أن تقدم كي تحصد، ولكن هل تحصد خيراً؟ وإن حصدت شراً فهذا شأن الحب مرةً مرٌ ومرةً حلو وإنها لا تذكر مره ولا حلوه فهذه المرة الأولى التي تطرق فيها الحب بيدٍ تهوي عليه كالمنجنيق! فجميع اِعجاباتها سابقاً كانت محضّ خيالٍ يلفه الخوف والشكوك عن قصةٍ لم تتجاوز نظرةً عابرة!! لذا قررت هذه المرة الهجوم لا الاِنتظار بغباءٍ خلف معتقداتٍ آمنت بها طويلاً فلم تنقذها من وحدتها قط!! .. تلك المعتقدات تقول بأن الرجل عندما يرى فتاةً رفضته تزيد رغبته بها! ربما كان من أدخل هذه المعتقدات في رأسها صادقاً لكن ليس مع كل النساء .. ليس مع من لا أب لهنّ ولا أم!! ..

الحب هو المخلص الأوحد من المعاناة التي تنتظرها كل يومٍ على يديّ "فاتن" لابدّ أن قوته ستخيفها ووسامته ستنتشلها من الوحل إلى السماء في عينيه!! لابدّ أنها ستصير محسودةً من كل نفس... آهٍ متى يأتي غداً فتلقاه وتملك كل حرية الحديث والتجول دون عينٍ ترى أو فمٍ يشي؟!

الغد المحمل بشمسه الساطعة وظهيرته الرومانسية أتى ينتظرها تحت شجرةٍ ملأى بالتفاح فيخلق ظلاً لطيفاً في حر الصيف بينما فتى الأحلام و"زير النساء" شابٌ يفقه بالمواعيد الغرامية ويعرف أن لابدَّ من المجيء مبكراً والتفكر بما سيقوله وما سيحدثه في قلب الفتاة... هي جميلةٌ لاشك عيناها سبحان المعبود، والشعر الأسود قتله بملاسة منحاه ولمعانه لكن الأنف المعكوف غليظٌ على أن الصوت والضحكات رقيقة. هل قلبه سيحب جديداً؟ أم أن اللعبة قائمةٌ كالعادة؟!

أخذت تتمشى شأن اللامنتبه نحوه تتفرج على حقلٍ يمتد بعيداً حتى وصلت قربه متوردة الخدين راجفة القلب والأوصال فأمسك يدها وقبلها!! ثم قال بشيءٍ من الجرأة

- قبلة اليوم قد تلد أختها غداً!!
- وافقت مقابلتك على شرط ألا تزيد عن حدك
- وهل زدت الحد وهذا الجمال أمامي؟ أنا منضبطٌ جداً سيدتي... أوتاري موزونة ولساني مربوطٌ في سقف حلقي!

ضحكت ضحكةً لا تكاد تستبين فقرأ على صفحة وجهها علامات الرضى فقفز ليجلس قربها تحت فيء الشجرة..

- ليس لي أبٌ ولا أم..

ولأول مرةٍ نظر نحوها بشيءٍ من العطف والجدية عندما فاجأته بقولها ... نظر تلك النظرة التي تخطفك نحو من تهتم لأمره محزوناً بصراحته الفجائية المحزنة كأنك تكاد تنفجر فأخبرت من ترى في عينيه الأمل وجعلك! وما أن لمحت هذه النظرة حتى اِطمأن قلبها لمجرى الحديث فأخذت مكملةً بينما العينان الحلوتان تحدقان بها بتركيز وعطف..

- ربما هذه المرة الثانية التي أخرج فيها من الملجأ لوحدي! أول مرةٍ خرجت فيها ضربت وسجنت أسبوعاً بالإنفرادية، والمرة الثانية قد لا تحمد عقباها
- ولماذا خرجتِ إذاً!!

صمتت بشيءٍ من الخجل لكن زير النساء محتاجٌ ليعرف بأنها لا تهوى التسلي فحياتها مقابل رؤيته في كل مرة!

- اِسأل القلب... هو قادني إلى هنا!
- هل تخاطرين بحياتك لأجل رجلٍ لا تعرفينه!
- وقد أعرفك!

غرقت عيناه في التفكير قليلاً ثم جاء صوته مغايراً لذاك الصوت المغازل الحنون!

- أنا زير نساءٍ كما قالوا يا سيدتي... أحبتني نساءٌ كثيراتٌ لم ينبض قلبي لواحدة منهن!! لا تعرضي حياتك للخطر من أجل رجلٍ مثلي... الجمال ليس كل شيء. اِرجعي يا أختي من حيث جئت!! القلب ليس لك... القلب للهوى لا أكثر!!

كانت تلك آخر مرةٍ حدثته فيها ذلك الصيف وعند اِقتراب الشتاء الذي تلاه فتحت عينيها مع الضحى في صباحٍ شديد البرودة على صوتٍ غريبٍ يأتي من النافذة فعزّ عليها مغادرة السرير ظناً منها أن الطارق عصفورٌ اِشتدّ عليه البرد على أن الطرقة الثانية توضحت لها بعد أن هرب النوم قليلاً من عينيها فقفزت من سريرها متطلعةً من رامي الحجر هذا؛ فرأته! مفتول العضلات وسيم الوجه يرمي بالأحجار على نافذتها قاصداً اِياها؟ أم زير نساءٍ لصديقاتها!!

أخرجت رأسها فاِبتسم اِبتسامةً ساحرةً وحرك اِصبعه مشيراً لها بالنزول فخفق قلبها ورمت على نفسها ما رأته صاداً للحرارة وخرجت على رؤوس أصابعها متجهةً نحو الباب الرئيسي هاربةً نحو الخارج

- ماذا تفعل هنا!!
- سيدتي ..

جثا على ركبتيه فوق الثلج المتراكم من ليلتين مثلجتين..

- أتقبلين الزواج بي؟؟

وقفت في حضرة سؤاله وقد كشف عن خاتمٍ في علبةٍ حمراء كالبلهاء لا تساعدها ألفاظها على الرد بأية كلمةٍ ممكنة!! الزواج منه؟! لمن... لي؟ ولماذا الحب اليوم! لِمَ الضحى! ولِمَ أنا؟!! زير نساءٍ بوسامته؟ وجنونه وعضلاته؟؟!! أأقبل به!!

البرد القارس يأكل أطرافها بينما لم يحرك ساكناً يده الممدودة نحوها، فأردفت قائلةً..

- ولكن لماذا؟
- قلت لي من عدة أشهرٍ إجابةً وهي الأنسب يا صاحبة أجمل عينين رأيتهما "اِسأل القلب! هو من قادني إلى هنا...!!

ونجحت بطلتنا اليتيمة في اِمتلاك قلب نجارٍ وسيم خفق له قلبها بجنون!...كانت طرية المشاعر طفولية الخطى...تركض خلف قلبها كفتىً ضعيف الشخصية يتبع صاحبه وقد عجز كل العجز عن مخالفته أو مغالطة طريقه لذا قبلته بجنون عاشقةٍ وعاشق أعلنا الخطبة تحت تعجب الكثيرات وحقد المشرفات وهاهي تذكر اللقاءين العجيبين فتضحك لغرابتهما! وقد رأت في "هيثم" الجمال والرشاقة والبطولة طيلة الشهور الماضية وعلى الرغم من الشجارات التي غدت لا تطاق فهي لم تفقد حتى حفنةً واحدةً من الحب الذي غطى حنايا قلبها تجاه زوجها الرائع على أنه لم يخلُ بالمقابل مما رفضته دائماً! فكان أكثر ما يعكر صفو حياتهما يباسة رأسه وعناده، والحق يقال بأنه في غالبية الأمور رجلٌ يميل بطباعه للنقاش والتفهم للآراء الأخرى بيد أن أمراً واحداً لم تستطع الزوجة الدبلوماسية الوصول إليه بغية تعديله، وكم تذكر كيف اِعتدَّ غاضباً حين أدلت عليه بدلوها بعد أن عض كلبٌ هائجٌ يده..

- بالله عليك اِكسر عزتك هذه المرة!
- أنا "هيثم" يا "نورا" "هيثم" كيف لك أن تطلبي مني طلباً كهذا؟!!
- أكفرت أم طلبت العيب؟! كل ما في الأمر أنك محتاجٌ لحقنةٍ تقيك من مرض الكَلَبْ!!
- تريدينني أن أذهب لآخذ حقنةً وأراعى كرجل المئة عام!!
- يا حبيبي أي مئة عامٍ تتحدث عنها؟! شبابٌ بمقتبل العمر يأخذون لقاحات كهذه فما الضير إن أخذته؟؟
- أتذكرين يوم أحببتني لم تنفكِ يوماً عن الذوبان عشقاً ولوعةً كلما أبرزت عضلات منكبيَّ أو فصَّل القميص إثر العرق صدري... أتريدينني اليوم أن أصير عجوزاً يركض من مشفىً لمشفىً خوف الموت؟! أنا!! لا وألف لا... لن أطأ مشفىً طيلة ما توجد صلةٌ بين هذا الجسد الجبار وهذي الروح..

لم تمل "نورا" من المحاولة مراراً وتكراراً حتى أصبح النقاش أمراً يومياً لابدّ منه والرفض عقبه اِلزامياً!!! على أن كبرياء "هيثم" لم يكسر يوماً لا لجرحٍ ولا لمرضٍ فظل عصياً عن المضي خطوةً واحدةً نحو المشفى أو التفكير في الأمر حتى! وقد كان على الدوام معتزاً مغتراً بجسده المرسوم كأبطال المصارعة وعضلاته المفتولة بدقةٍ وصدره المنتفخ محدداً بتفاصيله الفاتنة على القميص الضيق، فكان يمشي متبختراً مرفوع الرأس بهي الطلة فسميَّ حتى بعد زواجه "جميل الحي" فكلما مشى أو مارس رياضته المسائية ترامى إلى سمعه همسات النسوة وهنَّ يحاولنَّ لفت اِنتباهه من خلف خصاص النوافذ أو في دكاكين الباعة على أنه لم يعر بعد اِرتباطه بـ"نورا" اِهتماماً لأحدٍ على غير حالته السابقة حيث كان زيراً للنساء فلا يذكر وجود فتاةٍ في الحي إلا وقد وقعا في الحب ولو لأسبوعٍ واحدٍ!! وإنه في صميمه عاجزٌ عن جزم سبب اِرتباط روحه بزوجته لهذه الدرجة إذ أن فتياتٍ مررنَّ في حياته ملكنَّ وضعاً مادياً لا بأس به ووالدين ذوي أصولٍ مرموقةٍ وجمال يأخذ الأبصار ذلك أن "نورا" دونهنَّ سحرت قلبه!! وإنه على يقينٍ بأن هذا الحب الجارف ليس شأن الشفقة بشيءٍ على أن أمراً خفياً دفعه للركوض إليها طالباً يدها مقيماً لهما عرساً مُتعجلاً وصولها ليديه بأمان!

وكان يحب كثيراً تركها تنام بعمقٍ ليحدق كما يحلو له بتفاصيلها، بشعرها البني الكثيف الذي تركته عدة مراتٍ يطول حتى منتصف ظهرها ثم قصته إلى حدود الكتف، وإنه للحق يحبه كيفما كان ويغرم بالنوم عليه إذ ترميه على وسادته فيضع فوقه رأسه متنعماً به! يشمه عدة مراتٍ وكالمنوم يجذبه فينام قرير العين! يتأمل شفتيها وكم يذكر رفضها لقبلةٍ واحدةٍ قبل الزواج!!... وهذا كان أغرب ما مرّ عليه إذ إن الفتيات الأخريات كنَّ من اللقاء الأول يقدمنَّ جسدهنَّ بأكمله عربوناً لحبٍ عابرٍ ذلك أنها كانت مختلفةً، لذا سألها مرةً واحدةً عن السبب حين حاول في لحظة نشوةٍ تقبيلها فرفضت..

- ما دعاك لرفض قبلتي ونحن على وشك تحديد زواجنا؟
- إنني اِمرأةٌ تخاف الله يا "هيثم" والدين لا يقتصر على الصلاة والصوم... إن الزنا اِحدى الكبائر وقبلتنا إن لم يجمع بيننا عقد زواجٍ، كبيرةٌ! وأنا أحب الله يا "هيثم" ومن يحب الآخر يطيعه غير مستهينٍ بعصيانه..

كانت المرة الأخيرة التي سألها لا بل المرة الأخيرة التي فكر فيها بقبلةٍ قد تحدث بين حبيبين قبل اِرتباطٍ مقدس.

دقق في عينيها المغمضتين ورموشها المقلوبة بلونهم البني وحاجبين خفيفين نُمقا بشكلٍ متقنٍ وهادئ...هو يشك دوماً بأن عينيها هما السبب كما ترمي هي دوماً سبب عشقها على عينيه

السوداوين...ينظر للعينين المغمضتين ويسأل نفسه "ما السبب الذي جعلني أرمي كرةً أرضيةً بأكملها لأملكك وحدك!!!".

-10-

دخل" هيثم" المنزل بعد أن اِنتهت زوجته من تحضير وجبة الغداء وتنظيف المنزل وتنسيق ثيابها فأشرقت على شفاهه اِبتسامة رضى على أن وجهه الأصفر بدا مرعباً فقد تداخل خداه أكثر من ذي قبل واِحمر حفناه وبدت خطواته التي عهدتها صلبةً قويةً مترنحةً تشي بالهزيان!!

أخذ ينظر إلى المنزل بتعجبٍ واِنبهار...كم مضى من الزمن حيث كان منزلهما بهذه الأناقة وهذا الجمال؟ الغرفة كأنها لم تستهلك يوماً! كل الوسائد منظمةٌ في أماكنها والطاولات الصغيرات مصفوفاتٌ بِانتظامٍ بالغٍ في منتصف الغرفة بعد أن تمت اِزالة الغبار عنهنَّ وأُضيفت الأغطية البيضاء المزركشة وسط كل واحدةٍ منهنّ لتزيد أناقة الغرفة أناقةً. نظر نحو كرسيه فرآه لمّاعاً مركوناً في مكانه تماماً وعلى مقربةٍ منه قد بدت أوراق الزريعة الصغيرة مسقيةً ومنتعشة... تقدم قليلاً نحو غرفة النوم فإذا بالسرير موضبٌ والزجاج منظفٌ والعطور قد نظم كلٌّ في مكانه غراراً على رائحة البخور الفائح في الأجواء والأرضية اللمّاعة النظيفة! تقدم أخيراً نحو المطبخ ومازال صامتاً مبهوراً فكانت المنضدة موضبةً بأناقةٍ ذكّرته بالليلة التي أخبرته فيها عن حملها فدجاجةٌ مشويةٌ بدت شهيةً بالبخار المتصاعد منها تحيط بها قطع البطاطا المقلية لتفوح رائحتها الزكية فتستثير جوعه كما زينت السلطة بألوانها المغرية المنضدة ثم أخذ يدقق بالرفوف وحوض الغسيل فأبهره أن الأواني المستخدمة سابقاً نظفت جميعها ثم وضعت في أماكنها كما مسحت الخزائن ونظف الفرن؛ كأن المنزل ليس منزله!!

أثار فضوله هذا الإتقان المتفاني والمحاولة الرهيبة لحاملٍ في الشهرين الأخيرين لتعيد المياه لمجراها بينها وبين زوجها! فتوجه ثانيةً نحو غرفة الجلوس متعجلاً قدر اِستطاعته المسير وقد أثقله ما يحمله بين يديه إضافةً لصداع رأسه وهزال جسده الذي لم يعد قادراً على حمله أكثر من ذلك فتبعته "نورا" مهرولةً نحوه بفستانها الذي صنعته خصيصاً لمناسبةٍ قد تمر بها خلال فترة الحمل مكحلةً عينيها بكحلٍ أسودٍ دقيقٍ أعطى للعينين الواسعتين عمقاً فاتناً حتى بدت كأميرةٍ تنتظر ولادة أمير! لكن الفرحة التي اِعترتها حين شاهدت زوجها حاملاً بيديه آلة حياكة بيضاء حديثة الصنع كانت أعظم مما حاولت صنعه في ساعات الصباح الطويلة فأطلقت ضحكةً عفويةً رنانةً وأتبعتها بقبلةٍ شديدةٍ لم يعهدها من زمن؛ لكن ربما المرض الذي أهلك قواه أو القبلة العفوية الشديدة أو حتى ثقل الآلة كان سبباً قوياً في فقدانه للتوازن! فأخذ يترنح بضعة خطواتٍ للوراء وحين أحس بِاختلاله وقد جذبته الأرض إليها أكثر من اِستقامته رمى بحركةٍ عفويةٍ الآلة بجذور الصمود الأخيرة لديه نحو الأريكة الصغيرة فإزداد إثر الرمية اِختلال توازنه

ليسقط أرضاً ويرتطم رأسه بحافة الطاولة الصغيرة!! أمسك بكلتي يديه رأسه تاركاً بقعاً غامقةً من الدم تلون الأرض وأنشأ يصرخ من شدة الألم بينما يعتصر رأسه كأنه يريد تحطيمه!! حين رأت " نورا" المشهد الرهيب هذا زاهلةً باكيةً ببطنها المنتفخ ويديها المرتجفتين صرخ في وجهها..

- اِتصلي بالطبيب! لم أعد أحتمل...لم أعد أحتمل!...

وكما طلب منها ركضت نحو الهاتف لتتصل بالطبيب الذي جاء بعد عشرة دقائقٍ راكضاً بوجهه المرتاب وذقنه البيضاء المنسقة باِتقانٍ مفرطٍ ليحمله بصعوبةٍ نحو الأريكة الواسعة رامياً بجسده الضخم عليها وما أن أعطاه حبة مسكنٍ للآلام حتى بدأ الرأس بالهدوء رويداً رويداً والسكاكين المسنونة بالذبول!. سأله بعد اِنتظارٍ وعلى ترو بضعة أسئلةٍ حول ألم رأسه واِنحلال قواه ونقصان وزنه البالغ وكان يعرف من قوته ما علم من أحاديث القُربة التي تجمعهما فتعجب لعدمِ اِكتراثه بملاحقة السبب الرئيسيّ لألمه الذي برره المريض بضغط العمل!.

لم يتوانَ الطبيب عن اِقناعه في الاِنتقال إلى المشفى بشكلٍ فوريّ وبالرغم من رفضه الذي لابدّ منه وعصبيته التي لم يستطع السيطرة عليها إلا أن ألم رأسه الشديد ودموع زوجته التي شعر كأنها تحفر خدي طفله أجبرته على الموافقة فنقله الطبيب بأسرع ما يمكن طالباً من الزوجة المكوث في المنزل ريثما يرجعه بعد أن يأخذ صوراً شعاعيةً لرأسه ويقوم ببضعة تحاليلٍ للبول والدم.

"نورا "التي بقيت في المنزل كما طلب الطبيب كانت شديدة الخوف وأخذت بالبكاء داعيةً الله ألا يضره فهو ما تبقى لها بيد أن بكاءها لم يفدها بشيءٍ حين عاد "هيثم" مصفر الوجه منهك القوى فكان عليها أن تستعيد قواها لتسانده معاونةً طبيبه للوصول إلى سريره دون سقوطها باكية.

جالست الطبيب في غرفة الجلوس التي قضت النهار في ترتيبها وعيناها قد اشتدَّ اِحمرارهما بعد أن لطخ الكحل وجهها الذي بدا شاحباً كأنها في بضعة ساعاتٍ خسرت من وزنها بعضه! حاولت أن تنطق بعدة أسئلةٍ لكن الصوت يخذل في مثل هذه الأحيان هارباً كسلحفاةٍ تتدرع بقوقعتها! فتفحصت الأرض كأنها تفكر محاولةً اِستعادة قواها وقد فضحت ضربات يدها المتتالية على ركبتها عجزها فبدأ الطبيب الحديث ليساعدها حين قال..

- الوضع ليس مطمئناً يا سيدتي... أنا أسف لقول هذا! وإنني لا أستطيع جزم أي شيءٍ اِيجابي أو سلبي حتى تظهر النتائج.
- بماذا تفكر يا سيدي؟

- لا شيء معين...لكنني أظن بأن مرضاً أليماً تفشى في جسده ولكن كتوصيف أوليٍّ أرجح أنه اِلتهاب الأذن الوسطى ولكنه التهاب أليم لابدّ مترافق مع اِكتئابٍ منعه عن الأكل حتى أصبح بهذا الوزن!!

صمتت "نورا" في حضرة الطبيب ودون أن تنبس ببنت شفةٍ هزت رأسها بالموافقة المعاكسة لما في جوفها من شكٍ يقينٍ بأن المرض أخطر! وفي صباح اليوم التالي لم يستطع "هيثم "الذهاب إلى العمل كما رجح الطبيب ولا حتى الوقوف على قدميه لكأنه في ليلةٍ وضحاها اِنهار كسماءٍ مكتنزة! وقد بقي "هيثم" بتكتمٍ تامٍ خائفاً من الصور الاِشعاعية على عكس لهفة "نورا" المتأملة بالاِطمئنان عليه؛ ولأن الألم الشديد كان فائقاً لما يحتمله جسد "هيثم" القوي زاد خوفه ورهبته من النتائج!.

وبينما كان الجنين ينمو داخل أحشاء" نورا " بهدوءٍ وبطءٍ ودون أن يفقه شيئاً مما يجري خارجاً كان ينعم بالرخاء والسعادة في عالمٍ آخرٍ لا يستطيع خلاله الشعور بآلام والديه البتة!

-11-

اِطمأنت" نورا إلى أن "هيثم "غارقٌ في نومه بعد عدة نوباتٍ من الألم اللاتي أسعفتهنّ بعدة حبات مسكنٍ وصفهم الطبيب كدواءٍ مؤقتٍ حتى يحصل على الصور ويشخص مرضه بدقةٍ فأخذت تمشي على قدر استطاعتها من السرعة نحو الجامع القريب من منزلها راغبةً في الصلاة والدعاء متيقنةً باِستجابة الله لدعواتها لذا فور وصولها اِستعجلت الدخول من الباب الصغير لتغطي رأسها بشالٍ حملته في حقيبتها مختارةً سجادةً بعيدةً عن أية مجموعة نسوةٍ أخريات راغبةً بالصلاة بخشوعٍ شديد فصلت بضعَ ركعات منفصلةٍ لتردفهم بالدعاء الكثيف الرقيق حتى أخذ منها التأثر ما أخذ فوقعت متأثرةً بأوضاعها باكيةً ترتجف ألماً وفجأة شعرت بيدٍ تربت على كتفها فاِرتعدت أوصالها رعباً! وتحت ذلك التأثر والمفاجئة أرسلت بصرها نحو تلك السيدة الغريبة فإذا بوجهها الباسم ينظر نحوها وصوتها الهادئ وأسلوبها الحكيم يهدئ رعبها قائلةً..

- الله معنا يا اِبنتي صلِ له فيستجيب أمَ قال في قرآنه الكريم "إني قريبٌ أجيب دعوة الداعي إذا دعاني"؟! إذاً اِدعي له دون ما تثقلي على نفسك بالبكاء والهلع!
لله العلم كم مصيبتك كبيرةٌ حتى آلت بك الحال لهذا بيد أن الله يحثنا على التمسك بالقوة طالما أن إيماننا به قويٌّ عظيمٌ كيدٍ تمسك يديك دون أن تشعري! ثقي بالله يا اِبنتي فما بغير الله تتحقق الأماني..

اِبتسمت اِبتسامتها المريحة وتراجعت متداخلةً في جموع النسوة الأخريات، وإن" نورا "من النساء اللواتي يؤمنَّ بالاِشارات السماوية ويستطعنَّ تغيير حياتهنَّ بمجملها إن بدا لهنَّ أن أمراً قد أشار

إليه الله بشكلٍ أو بآخرٍ... وللحق فإنها تزيد في خيالها كثيراً فتتخيل الإشارات أو تنسبها لطقوسٍ وظروفٍ وردات فعل أي شيءٍ قد يمر أمامها وعلى ما بدا لحظتها من إنفعالها وتأثرها فإنها إتخذت من ظهور السيدة بتلك الطريقة الغريبة الفجائية إشارةً سماويةً حسنةً فإطمأن قلبها وهدأ روعها وأخذت الطريق عائدةً إلى المنزل مستبشرةً خيراً مرتاحة البال إلا قليلاً كأن هماً زال عن قلبها! على أنها لم تدرك مطلقاً أن تلك الإشارات السماوية ليست إلا من نسج خيالها وأننا إن يئسنا فبإستطاعتنا خلق أية إشارةٍ لإزالة المصائر التي لا مهرب منها! وعلى عكس توقعاتها تماماً فإن وجه الطبيب القادم من بعيدٍ لم يكن مطمئناً مطلقاً؛ كيف والإشارات السماوية توحي بوجوب مجيء الطبيب بوجهٍ مرحٍ وخطىً واثقةٍ لا مترددة؟!! هرولت إليه بما إستطاعت فبدا لها وجهه أكثر بؤساً..!

- ماذا هناك يا رب؟؟

سألت الله بصوتٍ غلب عليه الغياب والرعب وعندما وصلت إليه وقد أخذت تلهث لإنهاكها نظراً لحملها في هذه الأشهر الأخيرة ووجوب إستراحتها عوضاً عما تقوم به من مجهودٍ وتعب نفسيّ يضر لا ينفع... بادلها الطبيب بالصمت متحيراً أيخبرها أم يخفي الأمر عنها! فكر كثيراً في مرضٍ مقنعٍ يحتوي على كل أسباب التدهور الذي يعاني منه زوجها والذي سيتفاقم يوماً إثر يوم... أي دواءٍ يستطيع تهدئة مرضٍ كهذا شهرين كاملين؟!... سألت "نورا" لاهثةً وقد شع من عينيها الغضب والحرقة..

- ماذا هنالك يا دكتور؟ وجهك لا يطمئن مطلقاً؟

نظر إلى بطنها المنتفخة بحزنٍ فأشفق عليها...خاف أن يكون سبباً في فقدان جنينها إن ساءت نفسيتها أكثر مما يُتوقع...

- قل يا سيدي، قل وأرحني... هل زوجي مريضٌ لهذه الدرجة التي تدفعك للبأس!!

إسترد ريقه باضطرابٍ وأردف قائلاً..

- كما قلت لك، إلتهاب أذن..
- لا أنت تكذب!! قل ما جئت لتقوله دون لفٍ ودوران
- لم أكذب يا سيدتي، زوجك مريضٌ بإلتهاب الأذن الحاد

أمسكت يده بقوةٍ ناظرةً لعينيه نظرةً لا يمكن تأويلها لغير الإصرار والقوة ثم قالت بنبرةٍ حادةٍ..

- لا تشفق على حملي ... إنني إمرأةٌ قاست طيلة حياتها ولن يهز حملي أي خبرٍ... قل يا سيدي ما جئت لتقوله...

ربما وجد الطبيب في نبرتها القوية الحاسمة منفذاً من مأزقه أو ربما لم يجد على أن الأيام لابدّ ستكشف تدهوره شيئاً فشيئاً وقد يكشف مرضه في أقل من شهرين!! فإستطرد قائلاً بنبرةٍ أشد جدية وحزناً..

- أشكر الله أنك خارج المنزل!

فإرتعدَّ جسدها خوفاً وخرج صوتها مرتفعاً دون قصدٍ...

- ماذا هناك؟
- لا أريد الكذب عليك أكثر...الأمر خطير!

ضبطت صوتها علَّ الطبيب يفشي لها عن مرض زوجها فلا يشفق عليها

- قل بحق الله عليك ماذا به زوجي؟
- أنا آسفٌ سيدة" نورا "والله لو كان بإستطاعتي الكذب لبقيت أكذب عليك سنيناً لكنني غير قادرٍ وإنني أخاف عليك في أيامك الأخيرة من الحمل أن تعرفي ففضلت أن تعرفي مسبقاً خيرٌ لك وله!
- حباً بالله قل... قل ولا تجعلني أفقد أعصابي!

تنحن كمجرمٍ يدلي بإعترافه على الملأ قبل لف حبل المشنقة حول عنقه

- زوجك يا سيدة "نورا" لديه كتلةٌ خبيثةٌ متفشيةٌ في الرأس!!..

وما أن وقعت كلماته على قلبها موقع سوءٍ وألم حتى فقدت قواها وسقطت كشجرةٍ صلبةٍ هوت بعد إتمام قطعها. حاول الطبيب مساعدتها فأمسك تحت إبطها ليرفعها لكنها أبت ونترت يدها منه ثم قالت بصوتٍ مختنقٍ...

- دعني يا سيدي، دعني...
- سنحاول إجراء عمليةٍ له... أعدكِ أنه سيتحسن

بدت على وجهها إبتسامةٌ ساخرةٌ ارتسمت على زاوية فمها على صورة إنحراف صغيرٍ دلت على ألمٍ ويأسٍ شديدين يختلطان داخلها ...

- إن لم يكن هناك أملٌ فلا أريده أن يتألم أكثر!

صمت الطبيب كأنها وضعت يدها على النقطة الأخيرة من الطريق فتلبك أمام طلب السيدة. ماذا عليه أن يقول لها؟ "الأمل يا سيدتي واحدٌ بالمئة؟" حاول بسرعةٍ وتركيزٍ أن يعيد إلى رأسه كل

الحالات التي مرت عليه بشكلٍ مشابهٍ لهذا الوضع المحرج... لكنه لم يذكر أية حاملٍ اِضطر للاِفصاح لها عن قرب وفاة زوجها!... كان يستطيع من البداية الاِنكار لكنه عبثاً اِستطاع الصمود أمام حدس اِمرآةٍ تؤمن بالاِشارات السماوية!!

نظرت نحوه بعينين لا تشيان إلا بالغليان والغضب ثم صرخت في وجهه..

- أجب!!!

فقال بتلبك طفلٍ صغيرٍ أمام آنسته الغاضبة..

- سأستشير الأطباء

ولم تجرَ له عمليةٌ مطلقاً!!

فقد كان "هيثم "على حافة الموت وهو يحمل لزوجته آلة حياكةٍ جديدة! لذا لم يكن على الطب التدخل أكثر ولا على الرأس أن يدخل في عمليةٍ أليمةٍ لا فائدة يرجى منها...

اِقتنعت "نورا "بذلك فأخفت عنه حقيقة مرضه وأنشأت تخترع الأمراض بمساعدة الطبيب دون أن يقتنع "هيثم "بأيٍّ منها فالمريض لابدّ أن يشعر باِقتراب أجله وهذا ما كان يراه مغايراً تماماً لما تتصنعه زوجته! كان يريد أن يعرف ماذا يوجد داخل رأسه؟ ما هو هذا الشيء الذي يصيبه بالجنون لشدة الألم؟ ما هو المرض الذي اِستطاع أن ينهش جسده الرياضي وصحته المثالية...! لماذا..! أيستحق كل هذا؟؟.

كابرت "نورا " كثيراً أمام غضبه وصراخه وتصرفاته الجنونية حابسةً في جوفها الألم حتى الرمق الأخير وقد نسيت الأم لشدة حزنها واِشفاقها على حالة زوجها المؤلمة شغفها لرؤية جنينها كل أسبوعين أو ثلاث! على عكس "هيثم" الذي كان ورغم مرضه السقيم وآلامه الرهيبة وأيامه المعدودة يطلب منها المضي نحو المشفى لترى طفلها وتسحب له صورة "إيكو" علّه يكحل عينيه بمرآه وعلى طلبه قصدت المشفى غير مبالية بأن ترى جنينها! أكان هذا مهماً؟ أخمن بأن الإجابة ستكون "نعم" لا لأنها ترغب بذلك بل لأنها تريد لـ"هيثم" أن يرى طفله قبل وفاته...وضحك وجهه حقاً حين أخذ يدقق في الصورة بينما هي تسرد له ما قالته الطبيبة فضمها بضعفٍ وقبل بطنها المنتفخ هامساً بِاختناقٍ..

- ليتني أستطيع أن أراك يا.... "مهند"!

فغضبت "نورا "وازدجرته قائلةً..

- سترى" مهند" ... ستراه، يكفي تشاؤماً!!

وإستلقت قربه لتضمه كما لياليهما الغابرة ملتصقةً به كأنها تمنعه عن الموت ونامت وعيناها الحلوتان تبكيان بصمتٍ فلم يكن الصباح ذو وجهٍ خيّرٍ عليها!! لم يكن فرحاً مطلقاً ولم يربت الله على أمنياتها لتحيا!! كان جسد "هيثم" شديد البرودة هامداً لا يوحي بأي خيرٍ أو إطمئنان عندما إستيقظت ويدها بين يديه الجامدتين، لقد تركتها عمداً علّها تمسكه عن الموت! علّها توقفه إن همّ بالذهاب، أتراه ذهب حقاً أثناء نومها!! .. أتركها وفي أحشائها طفله!! هزته برفقٍ وهي تهمس بإسمه كالماضي بعشقٍ وفرح ... "هيثم!!" ثم كررت نداءها وقد أسعدها نومه العميق بعد كل التعب الذي آلمه..

- لم أعهد نومك ثقيلاً!! ... هيا قمّ يا نور عيني!

هزته، ثم إشتعل الخوف في جوفها عندما لم ترَ منه أيّ تجاوبٍ فزادت في قوة الهزة وهي تمعن النظر إلى وجهه الهادئ ... هزت جسده الذي تبينت عظامه وتفصّل عموده الفقريُّ بقلقٍ ثم بعنفٍ فسقطت يده مرتطمةً على الأرض دون أية ردة فعل...!

دمعتها المتسربة بلا أي ملامح بكاءٍ أو نحيب خرجت لشدة الصدمة بلا صوت ... هادئةً خجولة! يدها التي تركتها بين يديه تواطأة مع الموت فأفلتته! ...

توفي "هيثم " ذاك الصباح بعد عناءٍ مريرٍ مع الخبث المتفشي داخله تاركاً خلفه زوجةً وطفلاً لن يستطيع التفاخر يوماً بحصوله على أبٍ مثله، أمام مستقبلٍ مجهولٍ لا يعلمه سوى الله.

-12-

نستطيع أن نقول بأن البطل الأعظم في حياة "نورا" تحول لرمادٍ خُبئ كقطعةٍ أثريةٍ في إحدى الخزائن!! ولأنها كانت تؤمن ببقاء الأرواح في ديارهم الأولى إختار "هيثم" بغرابةٍ تحويل نفسه لعدة حبات رملٍ ظناً منه أنها ستطمئن إن بقي شيءٌ من رفاته قربها كأنه ينذرها في كل مرةٍ تضعُف بها أن روحه مازالت تحوم في هذا المنزل! تماماً كما ترك لطفله الآتي إلى الحياة دون أب صلة وصلٍ يلتمس من خلالها حب والده وشوقه!! وعلى ما تبين لاحقاً فإنه كان على حقٍ بما ظن فأخذت بقاياه بدفع "نورا" نحو الحياة لتستمر كأنما يده الصلبة تربت على كتفها الضعيف على أنها كانت ترميها في الوقت ذاته باللوعة والأسى الشديدين .

كان الدفن أو إن صح القول (الحرق) أمراً غايةً في الألم بالنسبة لـ"نورا" فلم تستيقظ من صدمة وفاته قربها حتى عاينه الطبيب فاقداً الأمل بوجود خيط واحد يبقيه حياً إذ إن إزرقاق شفتيه وتيبس جسده وتجمد أطرافه جعلوه جثةً هامدةً من أوائل الليل! وكم كان خوفه على حمل "نورا" رهيباً حين رآها منهارةً وقد شارفت على شهرها الأخير وحزن الحامل في الأشهر الأخيرة غاية في الخطورة ... وهذا ما دفعه من البداية ليخبرها عن مرض زوجها آملاً أن تتوقع وفاته فلا تأتيها

المصيبة ضربةً قاضيةً واحدة! وما كان يهدئ روعها إلا عزاؤها بإقتران يدها بيده حين وفاته فكانت كلما اِشتدَّ عليها الحزن فكرت بشعوره وروحه تنسحب من جسده وقد توج الحب آخر شعور بينهما...كانت تبتسم كبلهاء ثم تدمع عيناها دون قوةٍ لمنعهما...

- عليكِ أن تكوني أقوى ... جنينك هو كل ما تبقى لكِ فحافظي عليه!

جاء صوت الطبيب كملامحه المقطبة الجدية... لم يكن يواسيها بل كان يأمرها بأن تشد عزيمتها وتحارب الحزن الذي صّوره لها من أشهرٍ كي تستعد له!!

يقال بأن من يعد العصي ليس كمن يضرب بها! وهذا كان حالها تماماً كحزن الطبيب عليها بيد أنه كان مجبراً أن يقسو عليها ودون علمٍ منها بذلك اِنقبض قلبها وشعرت بحاجةٍ ماسةٍ لذراعيّ زوجها كي يضمها فينسيها قسوة البشر، إلا أن يداً لم تقترب منها... بقيت وحيدةً بعد مغادرة الطبيب ورغم أن وحدتها لم تتجاوز العشر دقائق قبيل مجيء "هالة" ذلك أنها شعرتها سنيناً حيث أعادها الموقف عمراً للوراء... فسقطت الجدران واِختفت الورود وحتى الرماد في لحظة ماضٍ ذهب أدراج الرياح وما تبقى أمامها سوى الميتم المحكم الإغلاق كسجنٍ لا خلاص منه وربما أكثر ما زاد كرهها له هو سوء المعاملة بشتى أنواعها فبعد سنواتٍ من مغادرتها له قرأت مقالاً في جريدة المدينة يصفه بأسوء ميتمٍ في هذا البلاد! ثم ذكر بأن الشرطة قبضت على مشرفتها بالذات حيث كانت ممن يميلون إلى قهر الأطفال وتعذيبهم فاِنشرح قلبها إثر هذا الخبر وكم تمنت لو أنهم قبضوا عليها عندما كانت طليقةً تؤذي براءة الطفولة كيفما يحلو لها؛ وقد تراءت لها طفولتها مميعةً خلف دمعات الفراق فتذكرت كما لو أنها في الغرفة ذاتها الفتيات الأخريات... كانوا خمساً، أربع منهنَّ لا يعرف لهنّ أبٌ أو أم وواحدةٌ فقط توفي والداها بحادث سيارةٍ أليم وكم هي على يقينٍ بأن طفولتها في ملجئٍ كذاك كانت أشبه بالسعير لولا صديقاتها اللاتي جمع بينهنّ ألمٌ واحدٌ ومشرفةٌ تحمل عصاها وتبحث كل ليلةٍ عن تسليةٍ دسمةٍ لسهرتها!!. تضحك رغم بكائها "ياه كم خبأنا نقوداً جمّعناها سويةً ثم قرب شجرة الساحة دفناها على أن نهرب يوماً مستعينات بها!!!" قالت بصوتٍ مائلٍ للسخرية والتهكم ثم تابعت قائلةً بصوتٍ يكاد لا يفهم "أيعقل أننا كنا نطير بأحلامنا لهذه الدرجة؟! أن نهرب من "فاتن" بهذه البساطة كأن نكسر زجاج النافذة كما خططت "جيسيكا" ... وكأنها بذكرها الإسم خلقت بوابةً بين زمنين اِجتمعا في حجرتها الباردة تتخللها الرياح العابرة من الزجاج المكسور وبلاطها المتجمد وطاولةٌ قد تعفن جزءٌ منها تجتمع حولها أربع فتياتٍ

لا يتجاوزنَّ العاشرة على ضوء شمعةٍ صغيرةٍ وقد حرست الخامسة باب الغرفة ذا الخشب المطقطِق لكثرة اِبتلاله!

- غداً في الحادية عشرة ليلاً عند باب الحمامات السفلية سنلتقي جميعاً، هذا يومنا الأخير هنا"!!
- يومنا الأخير هنا!!!

قالت ذات النظارات الطبية التي أجبرت على وضعهم بعد تعرضها للحادث الأليم الذي أضرّ عينيها

- أجل يومنا الأخير ولن تنعم "فاتن" بسهرة تسلية أخرى!

حلَّ الصمت بضعة دقائق قبل أن تقطع "نورا" السكوت قائلةً بوجهٍ متلبكٍ وصوتٍ مرتجف

- كيف؟!

فأردفت "جيسيكا" بصوتٍ ملأته علامات الثقة والسعادة بِامتلاك مقبض التحكم بهذه الطفولة الضائعة..

- غداً سنذهب إلى الحمامات الخلفية هناك توجد نافذةٌ ليست ملتصقةً في السقف ولا قريبةً من الأرض.. نافذةٌ تحتاجُ لِاثنتين منا أو ثلاث كي نصل إليها...

ثم بنظرةٍ أكثر خبثاً..

- أنا سأصعد بعد أن أسرق من المطبخ عقب هبوط الليل مفك براغٍّ لأفك براغيّ النافذة المثبتة بهم حين تحملني على كتفيها اِحداكنّ أو اِثنتين منكنّ واِثنتين أخريين تلتقط أي برغيٍّ أو بلورٍ يسقط بالخطأ كي لا نحدث أي ضجةٍ أو صوت!

فقاطعت حديثها أخرى ذات شعرٍ أحمرَ طويلٍ بجسدٍ ممتلئٍ وأنفٍ نسبةً للوجه الصغير كبيرٌ..

- وهل أستطيع أنا أن أمر من تلك النافذة؟!
- لابدّ أن تمري... سنحاول حشرك بكل ما أوتينا من قوةٍ وتساعدينا بدفعك لنفسك بيديك من الخارج..

فعبست مقطبةً حاجبيها محاولةً تذكر حجم النافذة! هل تستطيع بدينةٌ مثلها أن تمر دون أن تتألم أو تجرح؟ وإن لم تمر...أيتركونها إن كانوا جادين في وجه المدفع أمام وحشٍ كاسرٍ كـ"فاتن" تتسلى بها طيلة العام عوضاً عن ملجئٍ كاملٍ شماتةً بها وإنتقاماً من أصدقائها!! كيف يمكن أن تتخيل فتاة العاشرة رعباً قادماً نحوها كهذا...خيانةً أكبر من هذه... مستقبلاً مليئاً بالآلام أكثر مما ينتظرها...!. صمتت وقد حبست دمعةً صغيرةً خوف أن يشعر بجبنها أو أفكارها الغريبة أحدٌ منصتةً بشيءٍ من الأسى والبحث عن منفذٍ لخطةٍ قد تودي بحياتها علَّها تُفشلها بشتى الوسائل!

- سأخرج أولاً..

رن في أذنيها قرار "جيسيكا" فأردفت في نفسها قائلةً "إذن ستخرج أولاً... وتدعني داخلاً، من سيدفعني إذاً، من سيحملني؟! أأستطيع فقدان بعض الوزن حتى ليلة الغد؟! إن لم آكل أية وجبةٍ وإن فكرت بحزنٍ شديدٍ وحشرت كل تعاسة هذا الكون في رأسي أأستطيع أن أسلي عافيتي فتهر الأوزان مني كفتات البسكويت فأغدو نحيلة لأمر من النافذة... آهٍ إنها نافذة الموت...سأقضي نحبي إن لم أمر بها غداً...!"

بينما تدور هذه الأفكار في عقل "رنا" كانت "جيسيكا" تكمل خطتها وقد أخذ ضوء الشمعة بالترنح تحت وطأة الرياح فبدا وجهها شريراً بصوتٍ يهمس وعينين خبيثتين تمهدان لخطةٍ خياليةٍ بعض الشيء..

- وبعدي ستتسللون فأتلقاكم واحدةً تلوَ الأخرى وحين تبقى أخر فتاةٍ نعيد الكرة لكن بالعكس، فترفعني اِثنتان لأسحبها نحوي

قاطعتها "نورا" بلهجةٍ متهكمةٍ..

- والكلاب خارجاً أنسيتهم؟!
- لا لم أنسهم وإن تخيلتِ المبنى يا ذكية لعرفتِ بأن الكلاب موجودةٌ أمام المبنى حيث الأبواب الأمامية والحديقة أما أمام نافذة الحمامات الخلفية فالفناء شبه مهجورٍ لم تطأه قدمٌ ربما من سنة وأكثر...لذا فإن الكلاب بعيدةٌ جداً من هنا.

فتساءلت الفتاة التي أخذت تمد رأسها من الباب تارةً وتحدق بتعجبٍ في "جيسكا" تارةً أخرى..

- والسياج الشائك؟

فضحكت "جيسيكا" ضحكةً قياديةً اِستهزائيةً ثم أجابت بأسلوبٍ متكبرٍ ومستفز..

- حبيبتي لولا أنني خططت لكل هذا مسبقاً لما طرحت عليكم الموضوع... السياج سأقصه بـ"الكماشة" التي سأسرقها أيضاً من المطبخ
- أتضمنين هذه الخطة؟
- طبعاً!! غداً عند الثانية عشرة ليلاً... من يأتي معي؟؟!

ساد الصمت بشكلٍ غريبٍ في الغرفة ولم تبقَ سوى الرياح تعصف عبر زجاج النافذة منذرةً بِاقتراب المطر!! حين أخذت كل واحدةٍ منهنَّ تنشغل بشيءٍ ممثلةً عدم سماع السؤال لكنها أعادت السؤال بحزمٍ أشدَّ فاِشتد أسى "رنا" وزادت أحلامها وتوقعاتها عن حجمها وصعوبة عبورها فقالت بصوتٍ كصوت المظلوم بين يدي ظالمه..

- لاا!... أنا لن أذهب!! إنني أرى مستقبلي أسودَ!! سأعلق في النافذة هذا مؤكد وربما لا تسعني فتحة السياج فإما أموت مخنوقةً أو تعضني الكلاب فتقتلني وإما تجدني "فاتن" معلقةً فيكون المستقبل المرعب مصيري للأبد..

وقبل أن تنهي آخر كلمةٍ أخذ الجميع بالضحك حتى كاد يترامى إلى غرفة "فاتن" فيدخلوا في تحقيقٍ عن سبب سهرهم المفرط هذا. وما أن خفَّ ضجيج الضحك أردفت "نورا" بصوتٍ لا يخلو من المزاح والاِستهزاء المبطن

- بالله عليك يا "رنا" كم تخافين!! أنا لم أشهد فتاةً مثلك تخاف.. نحن فتيات ملجأ، أتعرفين ماذا يعني هذا الكلام؟ أن تكوني قويةً لأن لا ظهر لك ولا سند يمسك بيدك إن وقعت... يعني أنك حين ستخرجين من سجننا هذا سيطلق عليك أينما اِلتفت ((لقيطة)) وعليك بالمقابل ألا تنهاري ولا تنهري والديك أو تسبيهما، عليك أن تستمري في رفع رايتك بألا لقيط في هذا العالم بل هناك إنسانٌ فقد بشكلٍ أو بآخرٍ والديه... تماماً كما عليك توقع بأن الآخرين سيؤذونك بشتى الوسائل التي يستمتعون بها!!! ... نفسياً، مادياً حتى جسدياً لأن ثقافة

"اللقيط" أقنعتهم بأننا حثالةٌ نستحق كل ما يستطيعون إيذاءنا به! .. عليك أن تكوني قويةً يا صديقتي! أن تحاربي العالم لا أن تخافي من نافذة!!

- ألا تخافينها يا "نورا"؟؟ (ثم بلهجةٍ أكثر تخويفاً) ألا تخافينها...

أخذ الجو منحىً جدياً حين سألت "رنا" "نورا" بلهجةٍ قلبت الجو رأساً على عقبٍ بينما تنقلت أعين الفتيات بهدوءٍ بينهما..

- أخاف ... كيف لا أخاف!! لكن الإصرار يا "رنا" أقوى من أن أبقى في هذا السجن. لا أحد لا يخاف ولا حتى "فاتن"! لكننا يجب أن نقاوم خوفنا.. علينا ذلك يا "رنا" علينا ذلك!..

فصفقت "جيسيكا" بشيءٍ من الحماس قائلةً..

- إذاً ستذهبين يا "نورا"؟؟

تحملقت العيون عليها منتظرةً إجابتها بفارغ الصبر فتلبكت إذ أنها صرحت بموافقتها حين ناقشت "رنا" قبل لحظاتٍ فنظرت بشيءٍ من الإرتباك إلى الأعين الكثيرة المدققة بها فلم تجد ما تقوله فحدجتها "جيسيكا" بنظرةٍ قاسمةٍ مريبةٍ، فأجابت بصوتٍ مرتبكٍ..

- سأذهب... لن أقضي حياتي بين "فاتن "ومعاملتها المقرفة..

وكأنها وضعت حملاً لا أثقل منه على قلبها على أن وجه "جيسيكا" بدا فخوراً بإقتناء أول مشتركٍ في صفها فأخذت تقنع الفتيات المتبقيات في حين أخذت "نورا" طريقها نحو الحمام مستأذنةً وما أن أغلقت بابه خلفها حتى أخذت تفكر بعمقٍ وهدوءٍ مقلبةً الموضوع ذات اليمين وذات الشمال حتى وجدت أن موافقتها خطأ، لكن هل من مفر؟ وماذا لو أنهم نجحوا وبقيت في وجه "فاتن" وحدها!! كيف تستطيع الصمود أمام توحشها؟! ستذهب معهم حتى لو أن السياج الشائك قد سيقتلها كما تخيلت "رنا"!!.

الغد لم يكن بعيداً و"رنا" لم تتناول لقمةً واحدةً من الصباح بينما لم تكف "جيسيكا" عن إقناع الفتيات الأخريات بالإنضمام إليهنَّ فخطةٌ كخطتها تحتاج عدة أيدٍ مشتركةٍ لتنجح... لكن فتاتين لم تقبلا بينما إنضمت للهاربات ذات النظارات السميكة على عكس "رنا" التي لم تستطع تقبل الموضوع مطلقاً!.

هتفت "جيسيكا" بصوتٍ يجمع بين الريبة والحماس، كرجلٍ تذكر بعد سنواتٍ أن له ثروةً رماها في مكانٍ ما...

- أتذكرنَّ يا فتيات؟؟؟ شجرة الصنوبر الكبيرة هناك في الساحة الأمامية وعلى بعد خمسة خطواتٍ نحو السياج يوجد كنزنا!!

فلاح التعجب في وجه "رنا" كسكيرةٍ نسيت اِسمها ولم ترتد إليها الذاكرة مطلقاً مهما حاولت "جيسيكا" تذكيرها كأنها فقدت ذاكرتها لشدة خوفها!

- هل نستطيع اِخراجهم؟؟ ... الكلاب من تلك الناحية!

قاطعت نقاش الذكريات "نورا" متسائلةً..

- طبعاً نستطيع! وإنني كلما حصلت على مبلغٍ لا بأس به أخرج كنزنا فأضيفه إليه معيدةً طمره
- ولم يشعر الكلبان بما تفعلينه؟!
- في كل مرة أضيف المال للكنز كنت أخبئ للكلبين قطعة اللحم التي أحصل عليها كل يومين فأرميها لهما نحو الطرف المغاير للشجرة وأنبش التراب سريعاً مراقبةً الكلبين لأعيد طمره ريثما يعودان فلا ينتبهان لما فعلت
- لم أعرف أن بيننا فتاة ذكية مثلك... تصلحين لرئيسة عصابة!!

ضحكت "رنا" متخلصة من أعباء التلبك محاولةً الاِنخراط في المزاح كاِنسحاب تكتيكي من ضغط "جيسيكا" عليها..

- لو أن "فاتن" اِكتشفت قدراتك لجعلتك يدها اليمنى ولكنت شويتنا بملاحقتك لجميع مشاغباتنا

فأردفت "نورا" مستهزأةً

- ومن قال لكِ بأننا سندعها بسلام؟! سنةٌ كاملةٌ وهذه الكلبة تخاف أن تقترب مني! تخاف على حياتها... ولو أنها سحبتك بجانبها وأقدمت على إخافتنا لأخفتك مثلها لا بل ضعفين!!

فقاطعت "رنا" الجو الغريب قائلةً بلهجةٍ متهكمةٍ..

- ها نحن ذا نمتلك في غرفتنا زورو و رئيس عصابة!! يا حبيبي..!

لكن تعليقها الأخير لم يجدِ نفعاً إذ إن "جيسيكا" أخذت مزاح "نورا" محمل الجد فقالت..

- وما عاقك أن ترعبيني من الآن؟! أنا لا أقف قرب كلبةٍ ك"فاتن" أنا لوحدي.. أرعبيني

فربتت "رنا" على كتف "جيسيكا" عدةً مرات متتاليةٍ أن اِهدئي ثم قالت..

- إييه يا بنات نحن نمزح لا أكثر!! ما بكما... كلنا متلبكون لكن ليس على هذا المنحى... علينا أن نتوحد لا أن نفترق عند مفترق طريقٍ هامٍ في حياتنا!.

وكل الترجيح إلى أن التلبك الذي طرأ على الجو هو إثر ضغط "جيسيكا" بخطتها المخيفة على فتياتٍ لم يتجاوزنَّ العاشرة من العمر! والحق أن هذا أمرٌ طبيعيٌّ فالمزاح الذي يقترب ولو خطوةً من "فاتن" يصبح مشمئزاً إذ لا تستطيع اِحداهنَّ تصورها إلا كحيوانٍ شرسٍ يترقب أية زلة لتلتقطهنّ فتنهش لحمهنّ!! على أن الحياة في أعينهنَّ اِستحقت المخاطرة بكل هذا الحجم إذ إنها لن تكون حياةً إن بقي بينهنَّ وبينها حيوانٌ كاسرٌ ك"فاتن" جميلة الهيئة مقرفة الخُلق!!. اِستمر تكهرب الجو الطفيف حتى وجبة الغذاء وما اِستطاع اِزالته لخلق جوٍ مرحٍ إلا صوت "رنا" وهي تحمس الفتيات قائلةً..

- خمسة، ثمان وعشرون، اِثنا عشر، ثمان وعشرون، اِثنان وعشرون، واحد.!!

اِلتفتنَّ نحوها كما تلتفت القطط الصغيرة إذ جاءها صحن الحليب واجتمعنَّ إلا "جيسيكا" التي تكاسلت للمضي نحوهنَّ فتأخرت بعض الوقت حتى سحبتها "نورا" من يديها تاركةً يدها الثانية ملتفةً على كتفها فاِبتسمتا على أن "رنا" لم تنتظر تركيز أحدٍ إذ أعادت الأرقام بشكلٍ سريعٍ

- خسرتم ... دوري مرةً أخرى! ... عشرة، ستة وعشرون، اِحدى عشر...!

الوجوه تنعقد بينما تركض السبابة على أخواتها مراراً وتكراراً فتتحرك الشفاه بأرقامٍ وأحرفٍ كثيرةٍ لتقطع "رنا" التركيز قائلةً..

- أسرعوا الوقت يكاد ينفذ منكنّ!!

ذلك أن " جيسيكا "وكالمعتاد سبقت الجميع ليعلو صوتها بالإجابة..

- روز!!

- صحيح

- دوري، دوري الآن؛ اِثنان، واحد، ستٌ وعشرون، ثلاثةٌ وعشرون، واحد

تعاد الكرة لتركض الأصابع وتتمتم الشفاه لتقطع" رنا "التركيز بصوتٍ مرتفعٍ وحماسٍ زائدٍ

- باولا..
- صحيح!
- دوري... عشرون، واحد، ثلاثة، خمسٌ وعشرون..

يعم الصمت لثوانٍ تركض الأصابع على الأصابع عداً، مراراً وتكراراً ليخرج صوت "نورا" مرتفعاً متحمساً فرحاً...

- فاتن!! (أعقبت الإجابة بضحكة سخريةٍ) ما الذي جعلك تدنسين لعبتنا بِاسم كلبةٍ كهذه!!

صفقت بكلتي يديها فرحاً وتحمساً لنجاحها ثم قالت "دوري .. دووري!! .." على أن الفتيات تجمدنّ في أماكنهنّ فلا تحركنّ ولا أبدينّ أي تحمسٍ معها فاِنقلبت الوجوه كاِنقلاب الليل والنهار متجهمةً مرتعبةً بعد أن كانت غائصاتً بالفرح والمرح!! فتبع صمتهم تعجب الفتاة لأمرهنّ قبل أن تمسك يدٌ شديدةٌ بسترتها المهترئة لتجرها فتوقظها من ذهولها لتكون دون أي شكٍ "فاتن"!!

لا تحب "نورا" الغوص في ذكرياتها بعد تلك اللحظة فقد كان جُل الاِتهام موجهاً نحوها ولأنها لقبت رئيسة المشرفات بـ"الكلبة" جعلتها "فاتن" ككلبةٍ لديها تحرس غرفتها ليلاً نهاراً تمسح قذارتها، تنظف حمامها، تمسح حذاءها الذي عقب كل مرةٍ تضربها على وجهها به!. لم تكن ذكريات الهروب سوى شبحاً يطل من بعيدٍ ملوحاً لها... ولم تدرِ لِمَ لم تقم الفتيات بالهروب عقب تلك الحادثة؟!! ما الذي عدل رأيهم؟؟ ألأنها غير قادرةٍ على المضي معهم؟؟!.

كانت تراهم عبر مفتاح الباب متلصصةً حين مُنعت لسنواتٍ من الاِختلاط بهنّ أثناء الاِستراحات!! فضربت حتى اِزرق جلدها وورمت عيناها ورماً مخيفاً حين حاولت الهرب ذات ليلةٍ بغية اِلتقاء صديقاتها سراً!! وهي لا تنسَ مطلقاً محاولة رجلٍ تدعوه فاتن "عشيقي" التحرش بها عدة مراتٍ حتى اِكتشفت الأخيرة ذلك فأقامت الدنيا ولم تقعدها لتنال "نورا" نصيبها من الضرب الشديد والتعنيف والسب على برائتها وخوفها!!.

"نورا" التي لم تشهد من سنتين ونصفٍ وجهاً أكثر من كريهتها "فاتن" شعرت بدنو أجلها واِقتراب موتها لشدة ضيقها فكانت إذا مرضت تُركت حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة ثم رميت بحبة دواء!! أو

إذا اِحتاجت للذهاب إلى الحمام ذلت حتى قبلت الأيادي ليسمح لها!! وعلى هذه الحالة المزرية أمضت سنتين ونصف السنة لا رقيب ولا عيناً تحرسها سوى الله فكانت تحدثه كما تحدث والديها فتدعوه بخالص الصدق قرب أجلها لتستريح من حياةٍ صار الموت أحلى منها!! على أن رسائل أصدقائها كانوا بمثابة قبلة عطفٍ عبر يدين تخنقانها حتى الموت فكانوا يدفعنّ بهنّ عبر فتحة الباب السفلية حين يطمئنون لغياب "فاتن" فتتلقاهنَّ "نورا" بسعادةٍ لا توصف لتخبرنّها عن أخبارهنّ التي لم تتغير بشكلٍ كبيرٍ سوى من مجيء أسرةٍ أحبت "رنا" بشدةٍ فتبنتها فحزنت لعدم وجود الفرصة لتوديعها وفكرت لو أن حظها مثلها...لو أن أحداً يراها فيتبناها علّها تخرج من حبسها هذا ولكن هيهات أن يراها أحدٌ وهي محبوسةٌ في غرفةٍ تنام وتقوم فيها ليلاً نهاراً كسجنٍ مؤبدٍ لا مخلص منه!!

قالت "جيسيكا" مرةً في رسالتها بعد سنةٍ كاملةٍ من الحادثة..

"اِشتقنا إليك وقد عدلنا عن الرحيل خوفاً..كنت قوتنا يا "نورا" وعندما عوقبت هذا العقاب الأليم خفنا أن نصير مثلك!! "رنا" تبنيت من شهرٍ تقريباً وربما تذهب أي منا في يومٍ من الأيام... أرجوكِ سجلي أسماءنا على ورقةٍ وأخفيها جيداً! يوماً ما يا صديقتي سنكبر ونبحث عن بعضنا البعض دون أن تمنعنا كلبةٌ ك"فاتن" فنلتقي".

وعلى طلب "جيسيكا" أخذت "نورا" ورقةً وبدأت تسجل الأسماء بشكلٍ واضحٍ ومرتبٍ كما أنها سجلت موعد سجنها ومكان الكنز وعدة مقولاتٍ مضحكةٍ لكل منهنَّ آملةً أن يفرج عنها قريباً فتلقاهنَّ.

وحدث ذلك ذات صباحٍ حين شعرت بِارتباكٍ غريبٍ يجول الملجأ كلما خرجت إلى الحمام! وفي صباحٍ بدا مشرقاً من مطلعه عُينت مديرةٌ ومشرفةٌ ثانويةٌ جديدةٌ للملجأ ورغم أنها بعد حينٍ ستكون مثل "فاتن" وأشد إلا أنها كانت في بداياتها خيراً عليها إذ وعلى هذا التغيير واِستناداً لعدم معرفة "فاتن" بالمشرفة تم الاِفرج عنها لترمى أغراضها خارج الغرفة مستطردةً بصوتها الجهوري..

- لعنة الله عليك يا كلبة! والله لولا تعيين مديرةٍ ومشرفةٍ جديدتين لهشمت عظامك وقلبت حياتك سقماً وجحيماً... لعنة الله على أمثالك... لقيطةٌ حقيرة!!!

صمتت "نورا" أمام ألفاظ المشرفة القذرة على أن عيداً قام في جوفها... "اِشتمي براحتك فها أنا رغم أنفك طليقةٌ حرة....أخيراً... أخيـراً!"

ركضت نحو غرفتها دون أن تجمع كل حاجياتها من الأرض وما أن وصلت حتى اِندفعت نحو الداخل فتحملقت العيون عليها وأخذت لحظةً لتعي تغير الغرفة بعد سنتين ونصفٍ من الحبس وأخذت تتفحص الوجوه حتى بدت الفرحة عارمةً حين رأت "جيسيكا" متزعمةً كالمعتاد مجموعة الفتيات فصاحت بفرحٍ.. "جيسيكا"!! فاِستدارت عينا الأخيرة تعجباً ثم بلحظة هولٍ قالت "نوراا... أخرجت؟!!" واِلتحم الجسدان في عناقٍ واحدٍ مدة دقائقَ لم تحاول اِحداهما خلاله فتح عينيها مستمتعتين بلقاءٍ لطالما حلمتا به..!

وما أن اِنتهى العناق الممتلئ بالمشاعر حتى أخذت السجينة تدير رأسها باحثةً عن الأخريات لكن الوجوه كانت جديدةً فملأها التعجب..

- أين الفتيات؟!
- لم يبقَ سوى أنا و"سارة"
- لِمَ لم تخبريني بالرسائل! .. أين هي؟!

وما كان لها أن تنتهي من حرفها إلا وطرقت "سارة" الباب مشيرةً نحو الحاجيات المرمية أمام باب "فاتن" دون أن تنبس باِسمها فما حصل بـ"نورا" حرّم الفتيات النطق بذاك الاِسم اللعين، وما أن وقعت عيناها على "نورا" حتى بدت على وجهها معالم الصدمة وقالت بشكلٍ تلقائيٍ "نورا...؟!" فركضت الأخيرة نحوها مسترسلة عناق "جيسيكا" لعناق صديقةٍ قاسمتها الطفولة كلها..

كل ذلك كان يدور في حين الفتيات الأخريات كنَّ مجرد شاهداتٍ لا ينطقنَّ حرفاً ولا يبدينَّ حركةً... يرمقنَّ الغريبة بنظراتٍ فضوليةٍ لا يخف عنها التعجب من قدوم غريبةٍ إلى الملجأ في يومٍ يجري فيه تغييرٌ جذريٌّ في معتمدي الملجأ.

لحظت "جيسيكا" هذا التعجب فبادرت بتعريفهم بها قاصةً عليهنّ حكايتها بشكلٍ مختصرٍ على حين وكالمعتاد أخذت "سارة" بنظارتها السميكة الحيطة في مراقبة الممر واِغلاق الباب.

-13-

صحت "نورا" من أحلام يقظتها على صوت جرس الباب وهو يقرع بتمهلٍ وحذر فعرفت قبل أن تفتحه بأنها "هالة"

كانت عيناها تبكيان بيد أن وجهها على عكسه كان مرتاحاً لما غاصت به من ذكريات المشاغبة والمصاعب ورغم أن طفولتها كانت تؤلم أكثر من أن تسعد إلا أنها طفولتها المحببة فما عساها إلا الإطمئنان والإشفاق والسعادة لذكرها وذكر صاحباتها اللاتي لم ترهنّ من يوم تركت الملجأ قاصدةً بيت زوجها!. عانقتها "هالة" بصدرٍ رحبٍ وحنانٍ شديدٍ يشي بحزنها ومحاولة مواساتها فأفاقت "نورا" لمصيبتها وبكت كأنها لم ترسم البسمة على وجهها الذي فقد حيويته أثناء تذكرها الماضي!!. ثم قالت وملامح وجهها تذبل من الإرتياح إلى الإعتصار فتحمر أجفانها وترتجف شفافها..

- كيف سأعيش بلا "هيثم" يا "هالة" ؟!! كيف؟؟
- هذا قضاؤه وقدره.. عليك أن تكوني قويةً... أعدكِ لن أتركك يوماً واحداً.
- أيعقل أن أكون أنا من سبب له السرطان؟!
- أجننتِ!! السرطان لا يسببه أحد .. هذا قدره يا "نورا"

أدارت لها رأسها حيث حركته بيدها من طرف ذقنها..

- انظري إليّ، حين ولد "هيثم" كان مكتوبٌ له أن يتوفى في هذا اليوم وعلى هذا الفراش وبين يديكِ... أنت إنسانةٌ مؤمنة بالله وعليك أن تعرفي بألا علاقة لك بوفاته، أنت كنت سنداً له طيلة حياته، عليك أن تفتخري بهذا لا أن تلومي نفسك!!
- لم يبقَ شجارٌ إلا شنّ بيننا في الأونة الأخيرة

إنعقد لسان "هالة" فلم تجد طريقاً ولو صغيراً ينجيها من هذا المأزق...فقالت

- لكن الشجار لا يسبب السرطان
- ربما من كثرة ضغوط الشجارات!
- لا... لا، لا تدعي أوهامك تسحبك لحيث لا تحمد عقباه. لقد توفي ويديك تضم يديه، لقد أحبك حتى اللحظة الأخيرة من حياته ولا يمكن أبداً أن تكوني السبب في مرضه.

- كم عانى يا "هالة" آهٍ لو تدرين! ما عاد يستطيع المشي في الآونة الأخيرة وبانت عظامه كأنها محفورة على جلده!!...حائط غرفتنا بدا هشاً لشدة ما رطم رأسه به متوجعاً باكياً... لقد بكى والله بكى دون خشيةٍ من قوته التي لم يكف يوماً عن التباهي بها... أتتخيلين أنه بكى؟؟ بكى يعني أن الوجع فاق حدود السماء..

صمتت "هالة" بعد أن اِغرورقت عيناها بالدموع دون أن تجد ما يستطيع اِرثاء حالة جارتها الغارقة بالحزن!.

-14-

لن نقول بأن" نورا "فقدت صوابها أو حتى قوتها لأنها على العكس تماماً كانت قدوةً للصبر والصمود فالبرغم من أن الأمر لم يخلُ من كثيرٍ من النوبات العصبية والليالي المليئة بالنحيب والبكاء والاِحباط الرهيب أمام مصاعب الحياة إلا أن "مهند" كان شمعةً مضيئةً تشع أملاً بين أهوال الحياة فكلما سقطت أمه يأساً بعث من أعماق رحمها بدفعة أملٍ عبر الروح الواصلة بينهما لتستمر قُدماً!. لم يكن "مهند " بالنسبة لـ"نورا "طفلاً فحسب بل كان أيضاً هيثماً صغيراً تحمله بين أضلاعها فيرسم لها اِستمراره ووجوده الدائم! ولطالما جلست " نورا "على سريرهما ممررةً يدها المتعبة على بطنها المنتفخ واعدةً رفاة زوجها بأن فتيهما سيكون الأفضل حاملاً اِسمهما ذات يومٍ نحو النجوم رِفعةً ومرتبة!.

لا يتوقف حمل "نورا" عن النمو يوماً بعد يومٍ منذراً بالاِقتراب من النهاية بينما هي كبابٍ مكسورٍ أمام عصفٍ هائجٍ من التوترات الحياتية والأنفس الجشعة والاِنكسارات المادية فكيف تحمل عبء رفاة زوجها بحذرٍ مقتحمةً حياة العمل والكد والتعب؟؟ من يمكن أن يزج في يدها مبلغاً يعيلها على الأقل أربعة أشهرٍ دون مقابل؟؟ من يمكن أن يكون شريفاً حين يجد أمامه أرملةً فقيرةً وجهها كقرص القمر؟

يبدو أن تفكيرها كان مشوشاً حين عزمت على الاِستعانة بجارها المتزوج بغية طلب مبلغٍ يعيلها شهرين على أن ترده له بأقرب وقتٍ، وكم كانت ساذجةً حين سألها عن المقابل مستعجلاً عن الرد المطول فعرضت عليه ثياب طفلها الذي لم ترزق به بعد فضحك الجار ضحكةً لعينةً واِستطرد بصوتٍ لا يخلو من التلميح والدناءة...

- أعطيك مبلغاً يكفيك أربعة أشهرٍ لا شهرين لكن مقابل أمرين اِثنين!
- اطلب ما تريد يا جار..

- من الغد أريد أن آتي إليك كل يومين مرةً لنمضي بعض الوقت سويةً حتى تضعي مولودك بشرط ألا يعلم مخلوقٌ بذلك...فإنني أقدر كم أنت محتاجةٌ لرجلٍ بعد زواجٍ دام سنينَ يا حلوة!!

حينها صفعت "نورا "ببذاءة الواقع فبصقت بوجهه مضطربة الحركة متعرقة الوجه...لقد فهمت تماماً ماذا كان يُخفي خلف ظهر "هيثم "من حياةٍ قذرةٍ وأناسٍ دنيئين.

جارها الذي اِنقضى على جيرتهما زمنٌ وهو يرتدي وجه العفة بإبتسامتة الرقيقة كشر أخيراً عن أنيابه حين خلى منزلها من الرجال..

- ما أدنأ البشر! آهٍ أين تركتني يا "هيثم"... في حياةٍ لا تشفق على أمثالي!.

قالت بحرقة قلبٍ وجسدٍ مرتجف، مشفقةً على حالها، شديدة الخوف من مستقبلها بينما أخذت تتمدد بقليل من الصعوبة على سريرها الفارغ مفكرةً بهدوءٍ وروية...

- ماذا عساني أعمل؟ ومن يكون أكثر خلقاً من جاري أمام أرملةٍ محتاجة؟!

وعندما اِقترنت أسئلتها بالدموع قالت بصوتٍ لا تغيب عنه نبرة اليأس..

- أين ذهبت يا" هيثم "وتركتني بهذا الوضع الصعب...ماذا عساها بقاياك تطعم جسداً هده التعب وطفلاً كل حاجته الغذاء؟؟

وجرها عقلها قليلاً نحو الوراء إلى ما قبل وفاة "هيثم"... هناك قبل شراء المنزل، حتى قبل زواجهما...قبل ذلك بكثيرٍ...جرها ببطء نحو فترةٍ حاولت دائماً محيها من حياتها! نحو غرفةٍ أنيقةٍ وجدرانٍ لا تتسرب منها المياه كما غرفتها وبستانٍ بعيدٍ لطالما تخيلت نفسها تقطف أزهاره وسيدات قاسيات يمرون قربها فيرمقنّها بنظرات الإشمئزاز والإستعلاء وعصاً تترك كل ليلةٍ أثراً على يدها فتسلخ جلدهما يوماً بعد يوم!!

ربما كان كلام جارها الصفيق أداة ربطٍ بين ماضٍ وحاضرٍ أليمين فترآت لنفسها هناك حيث الستائر نظيفةٌ بورودها الحمراء لا تشبه ستائر غرفتها المائلة للسواد وقد محيت أشكالها لشدة اِتساخها وإبتلالها! وكم أحبت أرضية الغرفة إذ إنها لا تبث البرد بل تطلق الدفء، وكم تعجبت لها أول الأمر بعد أن عانت طويلاً من أرضية غرفتها الباردة...

ماذا يمكن لـ"فاتن" أن تفعل أكثر؟ تساءلت وهي تلعب بكرةٍ صنعتها من الورق حين خلت بها الغرفة وأقفلت من الخارج عليها...

- ها أنا من سنتين ونصفٍ في هذه الغرفة آكل، أشرب وأنام محبوسةً اليوم بطوله مختنقةً لا فرحة... ما أجمل ذهابي للحمام، بتُ أعشقه! إذ إنه الفسحة الوحيدة التي أتنعم بها كل يومٍ مرتين أو ثلاث... هل هناك أقسى من هذا؟ أقسى من أن أضرب بلا مبررٍ وأحرم من وجبتين في اليوم بلا سبب؟! (ثم بضحكةٍ اِستهزائيةٍ) لو أطعمتني طعام الكلاب لن تكسر عيني!!

كانت تلك آخر كلمةٍ قالتها قبل أن يدخل مفتاح الباب لتفتحه "فاتن" بحمرتها الفاقعة وشعرها المسترسل تأمرها بالذهاب إلى غرفة المشرفة الثانوية... وكانت الصغيرة تنتظر أوامراً كهذه من شهرٍ لآخرٍ لتتنفس الصعداء بعض الوقت فذهبت فرحةً بفسحةٍ اِضافية قد لا تحظَ بمثلها كل يوم! وما أن وصلت إلى حيث أمرت حتى تكتكت على الباب بنعومةٍ وما فتحت الباب حتى سمعت صوت المشرفة تأذن لها بالدخول فدفعت الباب متقدمةً نحوها بخطواتٍ قصيرةٍ ووجه مطرقٍ نحو الأرض على أن المشرفة الثانوية لم تكن أفضل من "فاتن" بكثيرٍ فطالبتها بمسح غرفتها بعنايةٍ مع نفضٍ الوسائد وتنظيف النوافذ ثم خرجت من الغرفة تاركةً لها عالماً جديداً لاِكتشافه فلم تحزن بل سرى بفضولها الفرح وحب المرح فأخذت تتصنع التنظيف فتفتح الخزائن وتعبث بالأوراق وتحملق بالصور...ساعةٌ كاملةٌ قضتها وهي تمرح وما أن حملت الوسائد وأخذت تنفضهم من النافذة وقد أخذها منظر المدينة المتألقة بمبانيها المرتفعة وشوارعها التي بدت على طفلةٍ مثلها معقدةً وكثيرةً حتى تبادر إلى ذهنها سؤالٌ... "كيف يعرف الناس طريقهم إلى منازلهم؟ وماذا لو خرج أحدهم ولم يعرف طريق العودة؟... يا إلهي لا أريد أن أجرب هذا مطلقاً!!" وضحكت ضحكةً مختلطةً بين الرهبة والمرح لكن جسداً ضخماً أمسك بكتفيها وبدا صوته كرجلٍ سكيرٍ ضخمٍ تفوح منه رائحة كريهةٌ أخذ يدفعها نحو الجدار دون مبالاةٍ بصوتها المختنق الصارخ.. وما أن دفعها خمسة مراتٍ نحو الجدار بشكلٍ متزايد القوة حتى أخذ يسحب سروالها متدافعاً بغريزته الحيوانية دون أن يعي لألمها واِختناق صدرها وهم بتقبيل عنقها فأخذت "نورا" تدوس بكامل قوتها قدمه دون أن يشعر بشيءٍ فصرخت صريخاً لم تصرخه طيلة حياتها فتجمعت فتياتٌ أمام باب الغرفة الموصد يصرخنَّ خائفاتٍ فتبعهنّ عامل الصيانة مدفوعاً بالشهامة فدفع الباب بكتفه عدة مراتٍ حتى أوداه أرضاً حينها أفاق الرجل من شهوته فأخذ يرفع بنطاله دون أن تسنح له فرصة الدفاع عن نفسه إذ هجم عليه عامل الصيانة بقبضته فلكمه لكمةً أنزلت من فمه الدماء وما أن شعر بخطواته تترنح إثر اللكمة حتى ضربه ثانيةً على أنفه ليقع الرجل الضخم أرضاً فيكبل يديه بحبلٍ وجده في اِحدى الأدراج إلى خزانةٍ بدت ثقيلةً لحجمها وحمل "نورا" مبعداً اِياها عن الرجل نحو غرفة المديرة التي تلقت الخبر بدهشةٍ فاِستدعت المشرفة الثانوية وهما مهرولتان نحو غرفة الأخيرة وكم كانت صدمتهما عظيمةً حين تعرفت المشرفة الثانوية على أخيها وقد تورم خده الأيسر وكسر أنفه!!

وإن "نورا" تذكر جيداً كيف جاءت "فاتن" لاهثةً كأنها تركض فشدت "نورا" من ذراعها وفي الغرفة وبعد أن أغلقت الباب أخذت تزمجر صائحةً بها دون مبررٍ أو حسبانٍ لحالتها النفسية المتأذية... وما كسر ذراعها سوى العامل الذي شهد على كل شيءٍ.

ما إن هدأت "فاتن" من زعيقها حتى ترامى إليهما صوت ضابطين من الشرطة يسحبان المعتدي بألفاظٍ نابيةٍ بعد أن اِتصل عامل الصيانة بهم دون أية اِستشارةٍ أو مراعاةٍ لأخت المعتدي التي سقطت تبكي أرضاً مستجيرةً بالضابطين دون جدوى. وقد كان أسوأ ما يمكن أن تتخيله "نورا" هو أن تصب المشرفة الثانوية جلَّ غضبها عليها رغم أن المعتدي أخوها!! وما أن أطل عليها العامل مطمئناً عن حالها دون أن يرَ في عينيها أية راحةٍ أو طمأنينةٍ على أنه رمى السبب على الحادثة ومشى مغادراً الملجأ حتى دفعت المشرفة الباب بقدمها مهاجمةً "نورا" كالثور على عنقها تحاول خنقها دون أن تلوذ الطفلة بأية مساعدةٍ تعيلها على دفع هذا الهجوم الشرس، وما عاد عقل الرحمن لتلك المشرفة إلا بصرخةٍ دوت في أرجاء الممر تأتيها من "فاتن" منبهةً لها خطورة وقوع أية جريمة أخرى تودي بهم وبالملجأ في الهاوية.

ورغم اِستياء "نورا" من هذه الذكرى مترافقةً مع سوء حالتها النفسية في ذلك الحين إلا أن سعادتها لم تكن توصف حين وقع ما توقعه الجميع فغيرت مديرة الملجأ والمشرفة الثانوية.. ولولا قليل لبدلت "فاتن" أيضاً! وما أن حدث هذا التغير المريب حتى ركضت "فاتن" مفسحة الطريق للطفلة محررةً عنقها علَّها لا تعاقب كما نحيت الأخريات!.

وبقيت "نورا" فترةً لا بأس بها تطمر رأسها تحت وسادتها وتغرق في اِلتحام مشاعرها بين فرحها في الاِفراج عنها بعد سنتين ونصفٍ حيث كادت تنسى عبرهما الملجأ بأكمله وبين حادثة الاِغتصاب التي تعرضت لها فلم تستطع مرةً الفصل بينهما فمرةً كانت رغم صغر سنها ترتاح لتلك الحادثة إذ إنها العامل الأول في تحررها على أن المشاعر سريعاً ما تميل نحو القرف والخوف فتكدر اِرتياحها ويرجف جسدها الصغير متمنيةً لو أن هذا الحادث الفظيع لم يمر في حياتها مطلقاً... وللحق فإن نفسية "نورا" تأذت كثيراً وبشكلٍ جائرٍ دون شعورٍ منها أو ممن يحاوطها فغدت اِنطوائيةً أكثر مما خرجت عليه بعد حبسها أسبوعاً في الاِنفرادية كما تغيرت تصرفاتها فبدت أكثر حذراً وخوفاً وتقديراً للأمور وكانت "جيسيكا" تنظر إليها مرةً بعين المحبة ومرةً بعين الخوف! إذ إنها لا تذكرها إلا طفلةً حالمةً تقص عليها حكايات المنزل الجميل الذي ينتظرها به والداها أو تلعب معها لعبة الأرقام والأسماء فتخسر غالباً أو يركضان في الملجأ فيلعبنَّ لعبة التخفي... إنها تذكرها طفلةً وما أن سحبتها "فاتن" تلك الليلة فلم ترها حتى اليوم إلا لمحاً من بعيدٍ فرأت كل التغير في ملامحها إذ طال شعرها واِستدار ثدياها وبدا صوتها أنعم من ذي قبلٍ وقد اِزدادت عيناها جمالاً... كانت تختلس النظر إليها فتراها شخصاً آخر خصوصاً بعد حادثة اِغتصابها التي طبلت الملجأ أجمعه

فرقت مشاعرها حزينةً لأجلها وبذات الوقت رمقتها بنظرة اِعجابٍ وخمنت بأنها ستتبنى قريباً لما تملكه من جمالٍ ورزانةٍ تفوق بهما كثيراً من الفتيات إلا أن توقعاتها لم يصب عين اليقين فبقيتا صديقتين حتى اِنضمامهما لمعمل التغليف..!

أمرٌ خطيرٌ أن تتذكر حاملٌ على مشارف الولادة أمراً مؤلماً كهذا لذا أيقظها " مهند "بحركةٍ خفيفة أضحكتها كأنه جاء من غياهب الدنيا ليحميها ويحمي نفسه من ماضيها!!.

- أيشعر الجنين بخطورة الأفكار؟؟

تساءلت بصوتٍ ضاحكٍ وأخذت تمسح عينيها جيداً من الدموع ثم نهضت من السرير بتثاقلٍ وما أن وقعت عينها على آلة الحياكة حتى عادت منفجرةً إلى البكاء "عليَّ أن أصمد" قالت لنفسها وحملت عبء طفلها لتجلس أمام الآلة الجديدة التي لم تشعر بملمس يديها بعد.

لقد قررت أن تبدأ العمل بأي شكلٍ من الأشكال لكن حملها وخطورة وضعها وحالتها النفسية المتعبة دعوها لتأجيل الأمر يوماً إثر يوم... وقد شجعت نفسها كل يومٍ تحفيزاً منها لاِستدراجها رغم الاِرهاق نحو العمل قائلةً "علي أن أجني بعض المال قبل أن أموت جوعاً أو أبيع نفسي!!!" أتمت قولها وجسدها يرتعش قرفاً من الفكرة التي زاولتها طيلة مراهقتها حتى اليوم وأخذت بمهارةٍ تفك الخيط الأبيض عن البكرة ثم تدخله بسلاسةٍ في عدةٍ ثقوبٍ حتى تصل إلى الإبرة فتدخل الخيط متفاديةً ثقب الإبرة الصغير بسهولةٍ وما أن اِنتهت من خطوات تجهيز الآلة حتى أخذت قطعة قماشٍ باليةٍ لتدير العجلة ببطء ثم تزيد السرعة لتترك الإبرة عدة درزاتٍ مستقيمةٍ أنيقةٍ عليها.

اِختلجت الحسرة والسعادة في قلبها فعاهدت رفاة "هيثم" بأنها لن تترك آخر هديةٍ منه في ركن المنزل كخردةٍ بل ستمضي في اِستخدامها قدماً حتى تصير سبباً أساسياً في بقائها على قيد الحياة! ووفت بعهدها بإخلاصٍ فنسجت مما تبقى لديها من أقمشةٍ ثياباً وقامت بعرضهم في دكان حياكةٍ في منتصف المدينة فبيعوا ثم اِبتاعت بما جنته أقمشةً أفضل جودةً ونسجت بتصميماتها البسيطة كميةً أكبر من الألبسة ثم قامت بعرضهم وبيعوا جميعاً..

- إنه طالع الطفل!

قالت صاحبة الدكان بوجهٍ راضٍ مبتسم.

جاهدت" نورا "كثيراً حتى وصلت لما هي عليه وكل غايتها ألا تلد "مهند" إلا وبين يديها صنعةٌ تستطيع اِعالته بها، وإن أصعب ما كانت تتخيل حدوثه هو فقدانها له! فقد كان كابوس الاِجهاض رعباً لا يفارقها ليل نهار ففي كل مساءٍ كانت تترك يدها على بطنها الكبيرة مصليةً كي يحفظ الله

طفلها ثم تنام على غير راحةٍ فتبقى قلقةً من أن ترتطم بشيءٍ فتجهض! ومن أن ترى كابوساً فتجهض! أو أن تسقط من السرير فتجهض!! حتى وهي تحيك كانت تتنبه لكل حركةٍ وكل أمرٍ تقوم به لتمحوَ أي اِحتمالٍ بخسارة الطفل، وقد اِستطاعت بجهدٍ قد أسرفته في تحضير غرفة الجلوس فأزاحت أثاثها وأحضرت عدة الخياطة من مقصاتٍ كبيرةٍ وصغيرةٍ مصففةً كل بكرات الخيوط بشتى ألوانها بشكلٍ مرتبٍ ومنسقٍ وسهل الوصول... ثم اِبتاعت شمّاعةً متحركةً علقت عليها ما أنهت خياطته... وأخيراً ثبتت يافطةً على باب العمارة كتب عليها "ألبسةٌ جاهزة.. خياطةٌ، وتفصيلٌ بسعرٍ مخفضٍ وجودةٍ ممتازة!. الطابق الرابع".

بدأ اليوم الأول ببرودٍ حين لم يطأ آدميٌّ باب المنزل فأنهته "نورا" باكيةً قرب رفاة زوجها الراحل ضعيفةً أحاطتها الوحدة من كل نواحيها! على أن اليوم الثاني كان أكثر اِنفراجاً فأتتها زبونةٌ أشادت بما سمعته عنها من مهارة في الحياكة والتفصيل فأطلعتها على بضاعتها فاِنبهرت الزبونة لاِتقان الحياكة وجمال الأقمشة فاِبتاعت على الفور بضعة ألبسةٍ بعمر الأشهر قد أخاطتهم "نورا" لطفلها لكن سوء الوضع اِضطرها لعرضهم آملةً أن تأتيها الزبونات طالباتٍ التفصيل أو التصليح بدل اِنتزاع قلبها مع كل قطعةٍ حاكتها بوجود "هيثم" آملةً أن يرتديها طفلها؛ وكم أشفقت عليها الزبونة الثانية حين رأتها حاملاً في شهرها التاسع تفتتح دون أية مساعدةٍ دكاناً للحياكة! فبادرتها بوجهٍ حاولت كبت قلقه..

- يالهذا الزمان الذي وصلنا إليه! أحاملٌ في شهرها الأخير تتكبد جهد وعناء اِفتتاح دكان حياكةٍ لوحدها..!
- ولِمَ لا يا سيدتي ما دامت عندي الصحة والعافية؟!
- ليعطيك الله قوةً ما بعدها قوة، وليهنأ صغيرك بأمٍ مثلك..

ثم غادرت الدكان حاملةً ما اِبتاعته رافعةً يديها متمتمةً بأدعيةٍ لم تستطع "نورا" فهمها!.

لقد اِزدادت "نورا" مهارةً وذوقاً في اِختيار الأقمشة مع مزاولة هذه المهنة الشاقة كما اِكتسبت مهارةً جديدةً لم يساعدها حملها على تنميتها بشكلٍ أكبرٍ وهي سياسة البيع! فقد تعلمت كيفية جذب الزبائن بسلاسة مازالت مبتدئةً بها كما أتقنت كيفية اِقناعهم بما تقوله ثم كيف تبيعهم بالسعر الذي تريده!! والحق أن "نورا" لطالما كانت ذكيةً في الوصول لما تريده على أنها وجدت جلّ مهارتها وذكائها ومرونة تعلمها تتطور بسرعة عجيبة في هذا المجال لكن حملها واِرهاقها من جهةٍ وحزنها وألمها لفراق "هيثم" من جهةٍ أخرى كانا حاجزين لا يستهان بهما بينها وبين المهارة المحكمة التي تحتاج كل الاِحتياج للتركيز والمتابعة. هذا الاِتقان المتفاني في كل قطعة والذوق الرفيع الذي تحلت به "نورا" دفع الزبائن لجلب أصدقائهم كما دفع أصدقاءهم للقدوم بأصدقائهم... وغدت غرفة الجلوس دكاناً لا يفتقر لزبونٍ كل ربع ساعةٍ...! وعلى غير المتوقع وفي فترةٍ لم تزد عن خمسة

عشر يوماً بدا نجاح دكان" نورا "باهراً جانياً شعبيةً تساعدها على اِبتياع لقمة عيشها دون الحاجة لأمثال جارها النذل .

لذا كانت كل مساءٍ عقب اِغلاق الدكان تحمل الأرباح البسيطة لتتركها قرب رفاة زوجها هامسةً له بصوتها الحزين...

- هذا ربحنا اليوم يا "هيثم" الفضل لك بكل قرشٍ يدخل هذا المنزل..!.

-15-

صرخت صرخة الولادة..!

فلم يؤاتِ "هالة" سوى الزعر وبدت كأنها لم تنجب مسبقاً! ولسوء الحظ كان الدكان فارغاً من أي زبونٍ فلم تستطع إلا تهدئتها ريثما تأتي سيارة الإسعاف فأخذت "نورا" تأن وتتلوَ بآلام المخاض فأمسكت الجارة بيدها ودون أن تنطق بأي حرفٍ أخذت تجفف عرقها دون أن تكف عن فعل ذلك كالمرتبك يحاول التركيز في أمرٍ واحدٍ دون غيره من الأشياء علّه يغيب عن الواقع!! وعلى هذا المنوال أخذت "نورا" تنظر نحوها بهدوءٍ يفوق هدوءها ممسكةً يدها رغم ألمها قائلةً بصوتٍ يعتصر الألم..

- من عيّرك على هذه الحركة!! يكفي... آنسيني بأي موضوعٍ بدل مسح جبيني باللحظة عشرة مرات... اِرحمي جبيني فقد ذااب!!
- ألم تشعري بماء الرأس؟؟
- عندما جاءني المخاض تماماً..

عبست بخوفٍ بينما لكزتها "نورا"...

- أأنا ألد أم أنت؟!! أبدي قليلاً من الدعابة علّني أنسى الألم..
- أتذكرين أول فستانٍ أخطته؟!

ضحكتا كأنهما طفلتان لا تحمل اِحداهما طفلاً على أبواب الحياة!! وأثناء ضحكهما وصلت سيارة الاِسعاف بعد عشرة دقائقٍ من الاِتصال فرافقتها "هالة" ممسكةً يدها ضاغطةً عليها كلما جاءها الطلق.

نظرات" هالة "كانت متوترةً تراقب بطنها المنتفخ وتدمع عيناها ورغم أن الممرضة طمأنتها قائلةً "كل شيءٍ سيمر على ما يرام...كل ما ترينه طبيعي سيدتي" إلا أنها لم تهدأ ولم يرتح لها بالٌ! وإن كل ما كانت تفكر به هو الخوف من موت الجنين لتبقى بلا زوجٍ أحبته سنيناً ولا طفلٍ تكّون من روح زوجها الحبيب! والحق أن هذا ما كان يكدر مزاحها الذي طالبت به "نورا" غير ظانة بأن ما يخيفها هو موت طفلها ولو أنها عرفت لجنت من الخوف بيد أن ألمها غيّب كل ما فكرت به الجارة عن ذهنها فأخذت تبحث عن المزاح علّه يسكن ألمها ورغم أنه لم يسكن شيئاً إلا أنها ثابرت عليه حتى وضع جهاز التنفس الإصناعي على فمها فإكتفت بالضغط على يد صديقتها كلما أتاها الطلق أو بالنظر إليها بعينين غرقتا بالعرق والأرق.

هدأت" هالة "أثناء جلوسها على مقعدٍ قرب غرفة التوليد مزيلةً عن ملامحها مخاوفها فلطالما ورغماً عنها تنبأت بالسوء لهذه الولادة إلا أنها لم تستفسر الأسباب مطلقاً فقد تركت الأمر سراً وأخذت تصلي علىَّ الله يحمي الحامل والمحمول ورغم تركيزها في صلاتها ومناجاتها إلا أن نفحاتً من قصة" نورا" كانت تعود إليها كجيش عدوٍ يزيل الخشوع بتقدمه ليأخذها بعيداً حيث مأساة الحريق تحيط بطفلة الميتم وآثار خطواتٍ تحير قلباً لا يعلقه بالحياة إلا التخيلات!

- آهٍ يا ربي كم حياتنا تنجب الأشقياء... أسفي عليك يا "نورا" كم أنت تعيسة!!

ثم تساءلت بحزنٍ..

- أتراها عرفت شكل والديها؟...يااه كم مؤلم ألا نعرف ملامح من خُلقنا من أضلاعهم!!

مسحت عن عينيها دمعةً تسربت بعد جهدٍ جهيدٍ فتذكرت كم أخبرها "ماهر" بأن عينيها العسليتين غريبتين جداً شارحاً بأن عيون البشر تحمل لوناً واحداً...لونان على المطلق على أن عينيها حملتا ثلاثاً!!

لم يشعر يوماً بأنه يرى ذات العيون!! فعند وضح النهار وبينما تتسرب الشمس عابرةً ستائر منزلها البيضاء المزركشة ملقيةً السلام على عينيها تتحول العينان الخضراوان كغابةٍ منتعشةٍ بعد أمطار الربيع! على أنهما عندما يحط الليل بذراعيه فوق البيوت المنيرة على مدّ البصر تتحولان لعسليتان كنحلة تنجب الرحيق النقي تواً! أما عندما تنير غرفتها كي تطالع روايةً ما فتتحولان حينها إثر الإنارة للون الشمس عندما تفتح عينيها متثائبةً مستيقظة!!

هكذا كان" ماهر "يجلس قربها ممسكاً يديها ليغوص في ألوان العيون فيغزل الشعر دونما شعور! يداعب أنفها الصغير الشبه مرتفعٍ ليترك قبلةً رقيقةً على خدها الأملس الممتلئ بعض الشيء أما عن شعرها الأسود الغجريّ فقد قيل كثيراً بأنه يربط الليل بالقمر! قالوا إنها إن سرحته

تصاعدت نجومٌ منه فنامت على كف السماء! على أنها اليوم تركته منهمراً على كتفيها كالمطر مبللاً بعد حمام الصباح دون أن يتسنى لها الوقت لجمعه كجديلةٍ كما تفعل في كل يوم.

من بعيدٍ لمحت رجلاً متوسط الطول نحيل الجسد ذو شعر مختلطٍ بين سواد الشباب وإبيضاض الشيوخة يركض نحو غرفة التوليد فإستدلت من ذلك على أن الولادة قد حانت فإنقبض قلبها وفزعت لظنونها التي لم تفارقها مذ عرفت شجارات "نورا" وزوجها الراحل!

الممر الطويل الذي يبدأ من غرفة التوليد ليفضي إلى عدة غرفٍ وممراتٍ أخرى كان يقسم أكبر مستشفيات المدينة وأفضلهم إلى قسمين وعلى الرغم من ذلك فإن قلب "هالة" لم يطمئن على كياسة المشفى وطبابته المشهورة بجودتها بل قلق وأخذ يتعجل بنبضه مسرعاً كلما ترامى إليه صراخ الجارة ليهمس خافقاً مرتعداً "اللهم سلم.. اللهم سلم!"

مضت عدة ساعاتٌ قضتهم "هالة" بين الجلوس والوقوف مستندة إلى جدار غرفة التوليد تبكي بشيءٍ من الخوف والرهبة!! وكل ما إستطاعت معرفته من ممرضةٍ خرجت مسرعةً بأن الولادة عسيرة وقد تجلى في هذه الإجابة كل التأكيد لمخاوفها وبدا المستقبل بشبحه الغارق بالسواد أكثر ريبةً ورعباً!. فكرت ملياً في الإفصاح للمرضة التي لم تكف عن الخروج والولوج إلى الغرفة بسرها المكنون علَّها تأخذ من الحيطة ما يردع عن هذا الطفل الموت لكنها سرعان ما بدَّلت رأيها وأعادت للسر الأمان في التلاعب بمشاعرها دون أن يعرف بوجوده إنسانٌ وساءلت نفسها بشيءٍ من السخرية "ما هي الحيطة التي يمكن أن تتخذها؟؟... هذا إن صدقوني!!"

جلست إلى كرسيها بخيبةٍ، ودون أن تنطق بحرفٍ واحدٍ غاصت بمخاوفها أكثر فأكثر وما أن هدأت وطأة الأقدام وكفت الممرضة عن الركض أمامها سكن الرعب قليلاً في نفسها فهمدت أطرافها وأخذت تتنفس الصعداء فخُيل إليها بأنها عادت بالزمن إلى الوراء حيث جلستا قبل إكتشاف مرض "هيثم" ببضعة أيامٍ فقالت لها "نورا" بصوتٍ لا يخلو من الفرح الذي انقطع عنها فترةً لا بأس بها ثم همَّ بها صباح ذاك اليوم..

- أتتخيلين طفلاً هنا يقفز فوق الأرائك يكسر الزجاج ويمزق الستائر!! .. يا الله ما أجملهم!

رمقتها "هالة" بنظرةٍ بين السخرية والضحك..

- ألا ترين في الطفل إلا السوء... يا أختي تخيلي أمراً حسناً أيجب أن يكون طفلك مدحلةً تدهس كل شيءٍ يمر به!!
- أقصد دوشته! وجود طفلٍ يعيق الهدوء بأذيةٍ بريئة!

عادت لترمقها بذات النظرة ثم قالت..

- الأم تفرح بطفلها لأنه يستعطف دلالها لا لأنه سيكسر الزجاج ويمزق الستائر!!
- دعيني يا أختي أنا أحب أن يكون الطفل مدحلةً فلا يترك في البيت شيئاً على حاله.. آهٍ ما أحلاه! واللهِ لو حطم كل أثاث المنزل فلن أغضب منه!!

أيقظها من الماضي صوت ممرضةٍ لم ترها مسبقاً وهي تستأذنها اللحاق بها إلى غرفة التوليد ودون أية أسئلةٍ تقدمت "هالة" إلى جوف الغرفة بإضطرابٍ وملامحٍ بدا عليها التعجب جلياً..!

الصرخات ترتفع ويد" نورا "المرهقة تحاول بقوةٍ عصر يد "هالة" علَّ ذلك يخفف عنها الألم؛ الطبيب يطالبها بالمزيد من الدفع فتغمض عينيها زامةً شفتيها ثم تأخذ شهيقاً قوياً لتدفع بكل ما أتاها الله من قوة...

- هيا يا" مهند "هيا!..

تقول" هالة "وقد إتسم وجهها بالشحوب لما رأته من معاناة جارتها...

- إدفعي أكثر ...أقوى..

جاء صوت الطبيب متزامناً مع صرخة "نورا" التي إحمر خداها عقبها فعادت "هالة" لما بدأته في الدكان من طبطبةٍ بمنشفةٍ بيضاء على جبين "نورا" بقصد تجفيفه من العرق بينما لم يتوقف الطبيب هنيهةً عن تشجيعها بجملٍ ذات معنى وأخرى بلا معنى!

أربعة ساعاتٍ و"نورا" تتلوَ بآلام المخاض وها هو "مهند" يتخذ قرار الدخول في سباق الحياة غير آبهٍ بأمه التي أنهكت من الألم أو بالطبيب الذي يحاول سحبه أو حتى بهذا العمر الطويل الذي لا مفر منه وكما كررت"هالة" كثيراً ذاك المثل ها هي تعيده مبربرةً بصوتٍ لا يكاد يُسمع عقب صرخة الممرضة الغريبة التي ضحك إثرها الطبيب قائلاً..

- ها هو" مهند "قد ولد!!

فهمست "هالة" "من ولد، عِلقْ!!"

ورغم اِصفرار وجه "نورا" وألمها الواضح على ملامح وجهها إلا أن ضحكتها كانت أشبه بإنفراج أبواب الجنة في لحظة مغفرة للبشرية! وإن هذه الضحكة اِستطاعت ببساطةٍ اِختصار أربعة ساعاتٍ من المعاناة بين مخاضٍ وتحملٍ يفوق الآلام جميعها.

وما أن دوى بكاء "مهند" مداعباً آذان الجميع حتى فتحت "نورا" ذراعيها كمن يستقبل المطر بعد سنوات من الجفاف ضمته وهو باك فبكت عقبه وقد خالجها شعوران متناقضان أحدهما فرحها العظيم بولادة طفلها المنتظر وثانيهما اِنكسارها لوفاة "هيثم" قبل رؤية طفله...فتجاهلت الممرضة بكاء "نورا" ومازحتها حين أخذت بتثبيت المنشفة الزرقاء حول الطفل...

- ستركض النساء خلفه عندما يكبر وأنا أولهنَّ!.

فطفت ضحكةٌ باهتةٌ على وجهها وهي تتفحص ملامحه الصغيرة المجعدة لطول مكوثه داخل رحمها فضمته بلطفٍ إلى صدرها فهدأ فجأةً! وأتت ضحكة الطبيب قاسمةً للهدوء الذي خيم على الجو الرومانسيّ حين قال..

- إنها نبضات قلبك، ها هو قد تعرف على أمه..!.

الفصل الثاني

-1-

- حدثينا عن الطفل؟؟
- شبيه والدته أكثر من والده رحمه الله .. قالت الممرضة وهي تتركه بين ذراعيّ " نورا" حيث ستقضي ليلتها في المشفى أن وزنه جيد وحجمه كبير بالنسبة لطفلٍ وليد.!

فأردف "ماهر" قائلاً بقليلٍ من الملل لشدة الحديث عن الولادة والمولود الجديد..

- المهم أن خلقته تامة والحمدلله.

لم يمضِ صباح اليوم التالي إلا وبكى "مهند" للمرة الأولى في منزله الجديد فتجمهر الجميع حوله يراقبون تحركاته فطفا القليل من الهدوء على وجهه ثم عاد إلى البكاء ثانية!.

الروح اليافعة القادمة من حضن ربها كانت فرحةً لذيذةً تدخل حياة المنزل الذي لم يخرج من دوامة الحزن بعد...سيضفي هذا الطفل لهذا الأثاث البارد وتفاصيله الساكنة معنىً جديداً بعيداً كل البعد عن الموت والرضوخ له... سيحارب الحياة بصرخةٍ تشق الهدوء كلما جاع وبضحكةٍ عفويةٍ مدويةٍ كلما كسر زجاجاً أو مزق ستارة!! وعلى ما شعرت به "هالة" فإن ولادة "مهند" رغم كل التكاليف الباهظة والمشقة والعناية التي سترتبط بها إلا أن وجوده في الحياة أعطى عينا "نورا" لمعاناً لم تشهده من شهورٍ قط فأخذت تطيل النظر نحو الطفل النائم في سريره الصغير بثيابٍ قد حاكتها له ورأت لوهلةٍ هالةً بيضاء حوله!! رأت الفرحة تدور حول سريره، رأت بسكينته طمأنينةً ستنعم بها طيلة حياتها ورغم فقدانه الأب إلا أنه سيكون نعم الطفل لنعم الأم!.

-2-

لاحظت" هالة "بإهتمامٍ وجود نورٍ ساطعٍ في غياهب الليل ممزقاً عباءة الظلام صادراً عن غرفة "نورا"...إنها ا لرابعة والنصف صباحاً وصوت" مهند "ينادي الجيران ليستيقظوا! فمدت الجارة رأسها بقليل من الإهتمام وطفيفٍ من الإنزعاج وهي ممددةٌ رجليها على السرير مستعينةً بيديها لترفع جسدها فظهرت" نورا "بشعرها الأشعث تركض بطفلها لترضعه حيناً وتداعبه حيناً أخرى وللحق فإنها لم تكن تشعر بالإنزعاج لإيقاظها في قلب الليل بل على العكس تماماً فكانت تضحك كلما بكى فتشعر بأنه يسحبها من غفوتها وأن روحه الصغيرة تهز جسدها النائم وكانت ككل أمٍ في هذا العالم تضمه إلى صدرها ليستمع إلى نبضات قلبها فيطمئن بأنها والدته التي لم يترك جوفها تسعة أشهرٍ لحظةً بلحظة...ولكنها وعلى عكس كل الأمهات الأخريات كان لديها فضول شديد الغرابة في ترجمة كل بكاء بحدِّ عينه!! فحاولت عشرات المرات البحث في عيون الصغير عن كلمات

تترجم بكاءه بالحرف والكلمة محاولةً اِكتشاف لغته بإهتمامٍ زائدٍ عن الطبيعي! ذلك أنها كانت تعلم بشكلٍ بديهيّ بأن بكاءه يرد لأحد الأسباب الروتينية كالجوع أو النعاس أو الحاجة لتغير الحفاض لكنها كانت تريد فهم أشياء أخرى!! ماذا لو أنه كان يخبرها بحبه عندما "يكاغي" أو أنه يسألها نزهةً عندما يبكي في الرابعة صباحاً؟!

لذا بدأت بالبحث والتنقيب وراء كل رد فعل أو صوت يقوم بإصداره هذا الطفل الذي لم يفقه الكلام بعد أن اِعتادت على مهامها كأمٍ خلال الأيام القصيرة الأولى فراحت تجمع الكتب المتخصصة بالأطفال لتفتش عن أي عالمٍ أو طبيبٍ بحث في أمرٍ كالذي يدور في ذهنها وكثيراً ما ضحكت" هالة "عندما جالستها وطفلها بين يديها في اِحدى الزيارات محاولةً كعالمةٍ أو طبيبةٍ نفسيةٍ فهم شيءٍ مما يقوله! فكانت تفلت ضحكتها التي لا مقاومة لها فينظر" مهند" نحوها بعينيه الخضراوين بتعجبٍ وحيرة!

لقد فجر هذا الطفل جنون والدته فماذا يمكن لطفلٍ أن يقول في العشرين يوماً الأولى؟ ماذا يدور في رأسه يا ترى؟...جميع هذه الأسئلة كانت تنخر كالسوس عظام "نورا" كلما آتى طفلها بأية حركة؟!

الكتب المختلفة غزت أرضية المنزل فأهملت "نورا" في الفترة الأولى دكانها فبدت كعالمةٍ تضع نظاراتها الطبية فتحمل طفلها بيدٍ وكتابها بيدٍ أخرى فتسهر الليل أغلبه تهز سريره بقدمها وتقلب الصفحات ملونةً ما كان منها هاماً أو ممزقةً بعضها لتلصقه على جدران غرفتها!!

أصبح هذا الأمر هوساً بالنسبة لها يوماً إثر يومٍ فإزداد قلق "هالة" لحالها مسترجعةً ما أخبرتها به عن حديثها مع زوجها الراحل حول خوفها من تربية الطفل وكيف أكد الأخير بأنهما سيربيانه سوياً وسيحميانه من أي خطأ قد يصدر عن أيٍّ منهما...لكن ماذا سيحدث الآن و"نورا" المسؤولة الوحيدة عن تربيته؟ ما هو المستقبل إن كان الحاضر مملوءاً بالهوس والخوف والأوراق الملصقة!!! بدا وجهها مرتاباً حين بدأ الصغير بالبكاء فكرفست على ركبتيها وأخذت ترمقه بنظرةٍ اِستكشافيةٍ لمدةٍ لا تدوم ثوانٍ على أن قلب "هالة" أشفق عليه فركضت نحوه وأخذت تداعبه!.

- ماذا دهاك يا "نورا"! طفلك يبكي وأنت تحملقين به
- إنه ينطق شيئاً لكنني عاجزة عن فهمه!
- أي شيءٍ بالله عليكِ ستفهمينه!! إنه جائعٌ...هذا وقت طعامه، إنه يقول لكِ "أنا جاائع" أين الشيء المثير الذي تريدين اِكتشافه؟!! اِرحميه ولا تبالغي في كل شيء!!

فرنت بعينيها نحو الأرض مطولاً كأنها خجلت مما فعلته أو أنها أعادت التفكير بهواجسها المجنونة!

- أطعميه بدل أن تغرقي في هذا الجنون... وإياك ثم إياك أن تنسي بأنك قطعت عهداً لـ"هيثم" بأن تربي طفله خير تربية فلا تعذبيه بمعتقداتك.

ودون أن تنبس بحرفٍ أخذت الطفل لترضعه وهي شريدة الذهن فقد أدركت بأن الخطر وشيكٌ جداً وأن شخصيتها لن تكفي لتصبح أماً كباقي الأمهات فهناك حلقةٌ مفقودةٌ لم تفقد فقط برحيل "هيثم" بل برحيل والديها من بداية حياتها...هي تفتقر لهذا الشعور الذي عليها أن تقدمه، هي لا تعرفه، لم يخلق مع غرائزها!!... أو أنها لم تفقهه لذا لم تتعلم بعد إبرازه لطفلها المسكين...! فحياتها كانت مجرد تعاسةٍ وبردٍ يشق الأنفس وعقاباتٍ ومحاولة اِغتصابٍ وأحلام ورديةٍ لم تتجسد على أرض الواقع مطلقاً..

أخذت تنظر إليه وهو مستمتعٌ كل الإستمتاع بوجبته الطازجة متناسياً بشكل طفوليٍّ ما اِقترفته أمه بحقه...طفلها الرضيع وفيٌّ وهذا ما أخافها أكثر!! هي تريد أن يعنفها، ألا يشرب حليبها إن قست عليه، أن يقدم لها دليلاً واضحاً برفضه لجنونها هذا...لكن ماذا لو أنه يحاول التواصل معها لذا لم يرفض حليبها، ولم يقرص ثديها... ماذا لو أنه فعلاً يفهم محاولاتها محاولاً هو الآخر التواصل معها ببكائه وفرحه؟؟!.

أصبحت" هالة "كخالةٍ لـ"مهند" فقد أحبته وأخذت تقضي صباحاتها عند "نورا" ريثما يعود أطفالها متحججةً بأي شيءٍ رغبةً منها بقضاء الوقت معه في اللعب والضحك أو حتى في النظر إليه من بعيدٍ وهو يحرك قدميه بحركةٍ عفويةٍ أو يفرك عينيه بيديه دليلاً على النعس فنمت في حناياها مشاعرٌ غريبةٌ تجاهه كلما ترامى إليها صوت بكائه وهي خالدة إلى فراشها ليلاً... فقد اِستطاعت هذه الروح البريئة اِشعال الأمومة للمرة الرابعة في قلبها وفي ليلة الجمعة تلك شعرت للمرة الأولى في حياتها بأن الغيرة بدأت تأخذ منحاها في جوف اِبنتها الوسطى، وقد عرفت بأنها السبب بحديثها الذي لم يعد يتوقف عن الطفل وتفاصيله الصغيرة والكبيرة..

قالت" ريتا "وقد قطبت حاجبيها..

- يبدو بأن" مهند" أخذ الدلال كله وترك لنا الواجب لا أكثر..

فخالج جوارحها شعوران متناقضان تماماً؛ أولهما لومٌ لهذه التفرقة بين أولادٍ هم روحها وبين طفلٍ لا يمت لها إلا بالجيرة أما ثانيهما فكان تلذذاً بغيرة الطفلة على أمها مع ضحكةٍ لم تدرك للحين كيف كبتتها!

لم تشعر يوماً بغيرة بمثل هذا الطعم...إنه نوع جديد تبادر به فتاة الخامسة عشرة فتهب والدتها فرحةً تمنعها من الإستيقاظ ليلاً على صوت بكاء الطفل الرضيع! وبين ذوبان قلبها إثر حركات "مهند" الطفولية وبين شعور طفلتها بالغيرة بدأت الأم الحنونة نضالها ضد عاطفتها لترضي الغيرة

التي شعرت بها تحوم حول طفليها الآخرين.. على أن وجه" ماهر "الوسيم كان شبه ضاحكٍ كلما علَّق أحد الأطفال بطريقةٍ واخزةٍ وغيورة! لم يكن يشاركهم الشعور مطلقاً بل كان يشجع زوجته على الإندماج في المجتمع ضد التصحر النفسي الذي يضرب كل أمٍ كبر أطفالها وشُغلت أخواتها بغربتهنّ..فالمدرسة التي تسرق أطفالها الثلاثة كل صباحٍ لا توفر لها حناناً كافياً لتلافي آثار الإكتئاب الخطرة لذا كانت تندفع نحو المجتمع بشكل غريب لتنسى، وإن زوجها هو من علَّمها ذلك فقد قضى خمسة سنواتٍ كاملاتٍ يعمل في شركةٍ وظف بها في الصين حيث كان في مقتبل العمر فنصحها تعقيباً لنقاشٍ دار بينهما..

- مليارات الأشخاص كانوا يحيطون بي، وأنا عاجز كل العجز عن التواصل حتى مع البقال!

لذا كان يشجعها على زيارة جاراتها بل كان أيضاً يدفعها للإنضمام لشتى أنواع الجمعيات التي تضم أعداداً كبيرةً من النساء بمختلف الأعمار والجنسيات بغية التسلية والهروب مما قد تقاسيه في وحدتها على أن إنشغالها بين واجبات منزلها وطفل جارتها أبوا أن يدعوا لها وقتاً إضافياً لممارسة أي شيءٍ أخر.

-3-

جلست" هالة "على شرفة منزلها المطلة على الطريق العريض وأخذت تداعب برؤوس أصابعها زهرةً تدلت من إحدى نباتاتها اليافعة، سرحت بأفكارها اللات أخذتّها نحو أول مولودٍ لها وهو "سامي"... إنه أول مخلوقٍ بهذا الصغر يدخل منزلهم ليضفي عليه نوراً وإلفة وسعادة، ولطالما أقرت" هالة "بأن الأطفال مسكن للآلام فمهما كان مصابك عظيماً ستجد في تحركاتهم اللاإرادية وإستكشافاتهم الطفولية لما يحيط بهم متعةً لا توصف وقد تضحك من جوارح قلبك بينما عيناك تكادان تبكيان وقلبك مصلوبٌ جريح!

هكذا إكتشفت" هالة "عالم الأطفال بعد حملٍ دام تسعة أشهرٍ! قيل بأن ولادتها كانت يسيرةً وطفلها الذي أتى إلى الدنيا نشيطاً بعينين لا تكفان عن التطلع يمنةً ويسرةً، كان بصحةٍ تامة! لكنه لا شك أمرٌ مهيبٌ لزوجين لم يتما سنتهما الأولى أن يطلقا إسماً لخيالٍ تشكل من لا شيء! لا شيء ثم مضغة شاهداها على" الإيكو" فبكت عينا" ماهر" حين أشار الطبيب نحو الشاشة قائلاً..

- أتريان هذه النقطة السوداء؟...هذا طفلكما!

أيمكن للاشيء أن يكون طفلاً بروحٍ ودمٍ وجسدٍ صغير؟؟.

خلال تسعة أشهر بالضبط تغير روتين الحياة كثيراً! فلم تعد "هالة" تخرج من البيت إلا نادراً تحت طلب زوجها بالإستراحة الدائمة فقد كان غير قادرٍ على تخيل مدى مرارة وألم فقدان شعور

الأبوة الرائع الذي كان وحده كافياً لتحويل حياة" هالة "من الرفاهية إلى الملوكية! وعلى ما يبدو فإن الحمل هو السبب الرئيسي وراء تعلمها الحياكة بشكلٍ ممتازٍ ومتقن تماماً كصديقتها "نورا"! وإنها لتذكر كم عانت حتى اِستطاعت حياكة غطاء مزركشٍ لمائدة الطعام فأخذت تعيده ثلاثة مراتٍ حتى أصبحت القماشة تشبه ما يقال عنه غطاء مائدة! وقد اِستفادت كثيراً من معرفتها البسيطة في مبادئ الرسم فأخذت ترسم تصميمات بسيطة ثم تحيكها فتنجح نادراً وتفشل غالباً! على أن "ماهر" لم يكن مؤيداً لفكرة الحياكة فأخذ بِاختراع أسبابٍ لا مبرر لها كي يبعد زوجته عن أي ضرر بِاعتقاده قد يلم بها وبطفلهما المنتظر! لكن تمسك" هالة "بآلة تستطيع سحبها من سريرها ورقودها الممل ناطح رهاب زوجها فأخمده.

لم تكن" نورا "موجودةً حين ذاك وزوايا الحي بدت خاليةً إذا ما ضاق ذرعها بالمنزل الهادئ، فهذا الحبس الذي أطبق عليها غدا لا يطاق لذا عمّ شعور الاِرتياح والطمأنينة صدرها كعصفورٍ هرب بعد حبسه حين قال الطبيب وقد علت شفاهه اِبتسامةٌ عريضةٌ..

- الآن لم يعد للخطر وجودٌ فقد ثبت الحمل ومرت أول ثلاثة أشهر بسلام.

لم يبد على وجه الزوج الاِرتياح الذي تجلى واضحاً في جميع ردود فعل" هالة" فبدت كنجمةٍ أعطيت الحق بالتبختر في السماء فلم تتوانَ ودارت السماء على عجلٍ فخرجت إلى الحديقة القريبة برفقة زوجها ثم حاكت عوض التصميم البسيط تصميمين! وسهرت حتى بزوغ الشمس تقرأ روايةً لـ"أغاثا كريستي ..." ومن المضحك أنها حاولت اِخفاء اِسم الرواية خوفاً من أي اِعتراضٍ قد يبرره زوجها على رواية جرائم!

حرص "نورا" الزائد ذكرها بـ"ماهر" ورغم التفاوت بينهما إلا أنها وجدت التشابه عميقاً فأخذت تذكر التفاصيل وتضحك مع تزايد الأشهر واِنتفاخ الحمل الذي تبعه اِزدياد حرصه على عكس اِهمالها الطبيعي كأن تغسل الأواني أو تتقلب أثناء نومها فكان مصيرها دوماً التأنيب الذي لطالما أفرطت عقبه بالضحك مفلتةً لجام أعصابها ليتراءى لها اِستشاطة زوجها غضباً!

هي على عكس جارتها تماماً اِمرأة شديدة الطبيعية فلم تخط يوماً لطفلها شيئاً رغم معرفتها بمبادئ الحياكة ودون أن تزيد زياراتها للطبيب أيقنت بأنه يسير مسيرة جنينيةً ممتازةً نظراً لصحتها الجيدة وحملها الطبيعي وإنها لا تذكر بأنها مرةً اِبتاعت كتاباً يتحدث عن الأطفال ولا نظرت لطفلها إذ بكى علّها تفسر بكاءه... هي أمٌ عمليةٌ رأت في مولودها الأول الأمومة كفرحةٍ عظيمةٍ لكنها وازنت بشكلٍ لا إراديٍ بين الحمل والمنزل والواجبات والحب فأعطت كلاً منهم حقه على أكمل وجهٍ دون أن يتأفف زوجها لاِنقاص شيءٍ أو زيادة آخر فمر حملها بشكلٍ رأته زيادةً في الرفاهية لا لأنها أرادت يوماً ألا تحضر الاِفطار أو ألا تبتاع الخضروات على العكس تماماً فهي

لطالما أحبت خوض الحياة كإنسانةٍ تستطيع فعل كل شيءٍ تماماً كالرجل حتى ولو أنها حاملٌ على أن زوجها كان لها بالمرصاد فزادت حرصها مستهزئة فوجدت فيه دلالاً وسذاجةً لا نهاية لهما أما بعد أن ولى عهد الحمل وأنجبت بعد ولادةٍ يسيرةٍ تعذب خلالها زوجها أكثر منها لشدة القلق والسهاد فقد ربت "سامي" ببساطةٍ متوازنةٍ مع الحرص فعاملته مذ بدأ يعي ما حوله كرجلٍ فحمل المسؤولية دون أن يرمي بالطفولة جانباً فكسب من هذا ما أحب ومن ذاك ما اِحتاج وهكذا كبر الصغير يمشي مرةً فيقع ويحكي كلمةً فيخطئ ثم ينسى واجباً فيعاقب ويركب دراجةً فيسقط إلى أن نجح في الحياة المدرسية ليدخل الكلية التي تمناها متخرجاً بمرتبة مشرفةٍ مقتحماً الحياة العملية كمهندسٍ شريفٍ كوالده... لم يكن الأمر بتلك الصعوبة التي تراها "نورا"!! كل ما في الأمر أن عليها أن تدع الأيام تمضي فليس غير الوقت من يعلمك كيف تصيرين أماً! أخطئي ثم تعلمي ألا تدللليه بعد أن يقترف خطأ وألا تعنفيه حين يبكي وأن تلاعبيه حين يكتئب وهكذا... الأمر جدُ بسيطٍ على أن "هالة" كانت ترى في ماضي جارتها المعضلة! ليس لأنها فقيدة الأب والأم.. ولا لأنها كما ينعتها البلهاء "لقيطةٌ" بل لأن أقرباءها لا قلوب لهم فرموها أمام أسوأ ملجأ قاست من مشرفاته الأمرين ومن وجهة نظر "هالة" فإن الحلقة المفقودة هي طفولتها... بأكملها! أين الطفولة التي عاشتها؟ أين الشعور بالأنوثة؟ أين التفهم للصدمات! أين المساحات الفكرية! أين حرية الرأي والتعبير؟؟ أين بَنت تلك المسكينة شخصيتها بينما هي حبيسةٌ بين يدين حقيرتين!!

لقد نجحت "نورا" في أن تكون زوجةً صالحةً فالحب لا يحتاج لمعيلٍ فهو المعيل بحدّ ذاته... هو من يحملك من الحضيض فيرفع جسدك الهزيل لينفض عنه غبار الماضي ويأكل الأحزان من العقول بنهمٍ لترجع طفلاً صغيراً أمامه تحبو فتكبر بين يديه لتنسى ولكن الحب حين يدفن تحت التراب يصبح بلا فائدةٍ فيشد القلب نحو الجحيم ليكتشف العاشق فجأةً بأن ماضيه مازال معلقاً على كتفيه يثقل ظهره وأينما مد بصره يراه ينتظره بالمرصاد! لذا عندما فقدت "نورا" الحب كان من الطبيعي أن تتجلى أزمتها النفسية في تعلقها الشديد بطفلها الرضيع وعلى ذلك اِزدادت المشكلة مشكلةً فحرصت عليه بشكلٍ هستيريٍ مؤذٍ نظراً لصدمتها بفقدان زوجها الحبيب!

محاولات "هالة" بتعديل أفكار جارتها عبر النقاشات المطولة والحث على التقرب من الله علّها تزداد اِرتياحاً فتهدأ روحها عن الجنون الذي تقترفه لم تكد تغير شيئاً من أفكارها فبدت بوجودها مستجيبةً وما أن غادرتها حتى زاولت عاداتها الغريبة مستمرةً على هذا النحو حتى سرت نوبةٌ عصبيةٌ في منزل الجارة حين لمح "ماهر" زوجته تتلصص على جارتها فعاتبها بشيءٍ يزيد عن الإنزعاج..

- ألا تملين!!

- حالتها يرثى لها
- وإن!! أهذا شأننا؟! لنا مشاكلنا وهي تكفينا والحمدلله!
- وهي يتيمةٌ ليس لها إلا الله
- والله عظيمٌ أعظم منا!
- ليس بيدي حيلة! قلبي يتقطع على الطفل و..

قاطع حديثها..

- وهل هو طفلنا؟!

لم تساعدها حيلتها في اِيجاد أية إجابةٍ لسؤاله المحتدّ! هل هو طفلنا؟! صمتت وبخجلٍ هادئٍ اِنسحبت نحو غرفتها مطرقةً الرأس!

لم يتخلل هذا الموقف أية شائبةٍ في ذاكرتها فبعده رمت بشعور الأمومة جانباً ودون سابق اِنذارٍ هدأ منزل "نورا" من ضجيج أحاديث ونصائح الجارة اللحوحة! فثابرت في مناداتها كل يومٍ لتتحجج الأخيرة بأشياء لا معنى لها! فكانت مرةً تقول بأن رأسها يؤلمها ومرةً لديها وجبة غسيلٍ! وهكذا دواليك على أنها لم تدرك إن كان سبب هذا الجفاء هو غضب زوجها أم شعور الملل وفقدان الأمل منها! خرافاتها ربما أزعجتها وهي طالبة الأدب الألمانيّ! ربما ترفعت دونما معرفةٍ منها على فتاةٍ لم تقرأ كتاباً يوماً إلا لتثبت بأن شعوذاتها حقيقيةٌ وما نتج عن ذاك العناء إلا الفشل!

أتراها هي من بحثت عن مبررٍ لهجرها!! هجر فتاة الميتم التي رأت فيها صديقةً وما تراها إلا أضجرتها بكثرة خزعبلاتها وشديد اِلحاحها فوجدت المبرر في غضب زوجها ولعدة كلماتٍ وجهها إليها تراجعت عن الشرفة عائدةً بهدوءٍ نحو أغانيها المحببة وكتبها المهجورة ونباتاتها اللاتي كدنّ يفتقدنّ أحاديثها! على أن اليتيمة بحثت عبر النوافذ عن صديقتها محاولةً عدة مراتٍ جذبها إليها حتى بإغرائها بطفلها! ذلك أن حججها التي توضحت بعد عدة محاولاتٍ بأنها كاذبةٌ جعلت الشك ينتابها عما غيرها! زوجها؟ طفلتها الغيورة التي كانت ترمقها بنظرةٍ ليست مسالمة!! من سرق صديقتها منها؟! على أن الصديقة عاودت زيارتها لتقطع الشك باليقين زياراتً مقتضبةً تقطعها بحجةٍ وتوصلها بحجة! حتى بدت "نورا" غير مباليةٍ بمجيئها أو عدمه لاِحساسها بأن ما أجبر "هالة" على القدوم هو الخجل من قطع الصداقة دون مبررٍ! لذا اِنشغلت الأخيرة بتربية طفلها حيناً وبدكانها الصغير حيناً أخرى!!.

ويوماً بعد يومٍ اِزدادت شعبية الدكان فأضحى ممتلئاً بالزبائن والطلبيات المستعجلة ففستانٌ أحمرٌ لتلك وآخرٌ أخضر للسيدة البدينة و"أفارولٌ" للطفلة المولودة وتضيق سترةٍ للسيدة التي فقدت وزنها بعد ريجيمٍ قاسٍ!! كثرت الأقاويل وتناقلت النسوة أخبار الدكان الجديد الذي تديره

يدان ذهبيتان فتراكضت النسوة تبتاع وتضيق وتقصر كيفما يحلو لهنّ بأسعارٍ زهيدةٍ ووجهٍ بشوشٍ فأخذ النهار ينقضي كالبرق و"نورا" على قدميها تنتهي من زبونةٍ لتأتيها أخرى وهكذا تحول الدفتر الخالي لدفترٍ مليئٍ بالتوصيات والقياسات إلى أن يهبط الليل منقسماً بين العمل على الآلة والنوم... إذاً كيف وفقت بين ضغط العمل العظيم هذا و"مهند"؟؟! لم تكن الضغوط قادرةً على جعلها أماً متفرغةً فمالت كفة الميزان كثيراً لينتصر العمل! وهذا ما أقلقلها أشهراً وأشعل الخوف في جوفها حتى خطرت على بالها فكرةٌ ذات ليلة ... فكرةٌ جنونية! خططت لها كثيراً قبل أن تقدم عليها وإنتابها الضحك كلما عزمت على الأمر ... لكنها في النهاية اِتخذت قرارها بحزمٍ قبل أن تشد رحالها صباحاً إلى هناك حيث الدرج المرمريّ مهترئٌ، والباب مُحتفِرٌ لشدة قِدمه والجرس الذي رنته بدا شديد الاِختلاف حتى تذكرت ذاك وضحكت! الآذن الذي فتح لها الباب متسائلاً عما تريده لم ترَ وجهه مسبقاً والممر الذي سلكته قد حفظته كاِسمها... الغرفة الثانية إلى اليسار... تقدمت خطوةً خطوةً وهي تسترجع الماضي فتقصر القامة ويطول الشعر وترن ضحكاتها أو يزن بكاؤها في أرجاء هذا المكان... إنها رائحة الماضي، عفنٌ وبغيض!! لكن كل شيءٍ خلقه الله له بصيص أملٍ، وها هي قد رأت الأمل الأخير هناك حيث تقصده الآن لتطرق بابه بعد أعوامٍ لا تُعد متأملةً أن تصل لما تهدف إليه!. ترامى إلى سمعها صوتٌ قال "تفضل!" فخرجت عن أفكارها لتفتح الباب باحثةً هناك عن حياة!! ... بتمهلٍ، زقزق الباب لقِدمه فعادت إليها الذكريات رتلاً أحادياً يطرق بأقدامه رأسها فتعود اِحداهنّ هنا وأخرى هناك وثالثةٌ تركض ورابعةٌ تبكي!! ... الماضي هو من جلبها إلى هنا وهو ما أوصلها لما وصلت إليه! إذاً الحل لابدّ فيه ... أمام عينين لم تنسهما مطلقاً.

هي لحظةٌ لا أكثر رمقت خلالها السيدة الجالسة هناك فتغير عليها الزمان لترجع طفلةً شقيةً حزينةً ظُلمت فتغير القدر لأجلها! هي تؤمن بكل مشاعرها بأن الأقدار بأيدينا فنحن من خططناها ونحن من نعدلها!! هي تؤمن بأنك إن قررت طيلة حياتك أن تكون سارقاً وفي لحظةٍ من أيامك الأخيرة قلت "لا" لتغير قدرك كما لو أنك محوت جميع ما اِقترفته من كتابك! هي على حقٍ لا شك لذا عادت لتغير قدراً صغيراً لم ترغب بإهماله فوقفت أمام سيدةٍ قد أكل الماضي أغلب عمرها فتجعد وجهها وترهلت شحوم جسدها وتجوفت عيناها فتبين الشقاء والهرم عليها إلا قليلاً ... قالت السيدة بصوتٍ بدا أقوى مما ظنته..

- ماذا تريدين يا سيدتي؟!

"سيدتي"!! تساءلت بسخريةٍ... الشقية التي قضت ربع عمرها في حنايا هذا السجن ترجع إليه سيدةً!! واعجباه من هذه الدنيا الدوارة!..

- أنا "نورا ..." سيدتي كنت اِحدى فتيات الملجأ
- فتيات الملجأ! هل يجب أن أعرفك؟!

- أجل بالطبع! (ثم بقليلٍ من الألم) أنا الفتاة التي حاول أخو المشرفة اِغتصابها فبدلوا المديرة والمشرفة
- آهٍ تذكرت!! أنتِ! يا الله كم تغيرتِ يا "نورا" ... أجل "نورا" أذكرك جيداً
- أحمد الله بأنك مازلت بصحتك ممسكةً بهذا الملجأ الذي تبدل بعد مجيئك رأساً على عقب
- الحمدلله يا صغيرتي. أخبريني ماذا حل بكِ؟
- تزوجت ورزقت بطفلٍ من بضعة أشهرٍ على أن زوجي توفي بمرض السرطان قبل الولادة بقليل..
- أسفةٌ يا صغيرتي على سماع هذا...سَلِم الدين والإيمان.
- لا عليكِ سيدتي... جئتك اليوم طالبةً منك خدمةً لو تفضلت بمساعدتي
- تفضلي..؟!
- عندي قائمةٌ بأسماء الفتيات الخمس اللواتي كنّ معي في الغرفة على أنني لم أعرف من تبناهنّ أو من تزوجنّ وإنني أعرف بأن شؤون الفتيات تسجل في سجلاتٍ مصنفةٍ بترتيب السنين كما حصل معي حين تزوجت وغادرتكم لذا أتمنى أن تساعديني في توجيهي إلى تلك السجلات وعليّ أنا البحث عن أسمائهن لأصل لاِحداهنّ أو جميعهنّ
- لك ما تريدين يا صغيرتي... تعالي معي لأدلك على السجلات ولكن قد يأخذ منك الأمر بعض الوقت

وتبعتها في الممر الرئيسيّ للملجأ تتراكض حولهما الغرف فغرفة المشرفة الثانوية وغرفة الآذن وغرفة الخرداوات ثم غرفة "فاتن" فاِقشعر جسدها حين مرت بها ليعاد شريط الذكريات كأنه اليوم فضربٌ وتعنيفٌ واِحتقارٌ وشتم! ثم تبعتها غرفتها فاِنشرح قلبها ومطت رأسها مغتنمةً الفرصة بِإنعاش تفاصيلها فشهدتها متغيرةً بأسرتها الجديدة وستائرها النظيفة وزجاجها الجديد فقارنت بحزنٍ بين ما كانت وما آلت إليه فحسدت الفتيات اللواتي كنّ يرمقنها بعين الاِعجاب لحسن مظهرها وبساطة مظهرهنّ!

الغرفة التي وصلتا إليها لم تكنّ موجودةً بين ذكرياتها!! "من أين أتت؟!" فتحت بابها بمفتاح زج بين مفاتيح عديدةٍ أخرى لتتراءى لها الغرفة مجموعةً ضخمةً من الخزائن مرصوصةً قرب بعضها البعض وقد اِمتلأت رفوفها بالسجلات المرقمة حسب السنوات..

- في أي سنةٍ تركت الملجأ؟!
- 1963
- السجل لابدّ في تلك الرفوف بين الستينات

سبقتها إلى الخزانة مشيرةً بيدها إلى مجموعة سجلاتٍ ثم قالت..

- اِبحثي فيهم حتى تجدي ضالتك، على هذه المنضدة ... وأنا بِانتظارك في غرفتي.

ثم تراجعت متواريةً خلف الباب الذي واربته كي تستفرد "نورا" بمصنفات الماضي اللاتي ركدنّ تحت أكوام الغبار حتى كادت السنوات لا تستبين!! "يااهٍ ألهذه الدرجة نحن قدماء!!" ضحكت ثم سحبت اِحدى المصنفات لتغوص في دائرة الماضي باحثةً بين أسماء تذكرها وأخرى لا تذكرها فهاهي فتاةٌ لم تنسها مطلقاً لشدة ما عانته من فقدان والديها أحدهما بمرض السل وثانيهما حسرةً وألماً على الآخر فبكت بكاءً شديداً حتى تراجع بصرها ووضعت النظارات الطبية! لكن محالٌ أن تدوم الحال على ما هي فها هي قد تزوجت وشقت طريقها نحو الحياة بعيداً عن ملجأ رغم تحسن وضعه لرعاية المديرة الجديدة إلا أنه قد حمل من عذابات الماضي ما لا يغتفر ولا ينسى... وها هي أخرى تذكرها لشدة صبيانيتها ومشاغبتها فمرةً سرقت مقصاً وقصت خصال شعرها الشقراء الطويلة حتى بدت كالصبية! ومرةً سكبت من الطابق الثاني دلواً ممتلئاً بالماء البارد على رأس "فاتن" ولولا لطف الله لعرفتها ومزقتها بأسنانها!! ها هي الأخرى قد تبنيت لأسرةٍ يبدو بأنها غريبة عن هذا البلد وشقت طريقها بعيداً عن هذا الألم..!. هي تذكر الأسماء جيداً فقد كتبتهم يوم طالبتها "جيسيكا" بذلك وكم كان صائباً ما طلبته فها هي أسماؤهنّ كاملة وأطرف ما قمنّ به مسجلٌ بدقةٍ متناهية! فقد قرأت الورقة المنهكة ليلة اللبارحة فضحكت حتى اِغرورقت عيناها بالدموع فهي لم تنسَ مطلقاً جُبن "رنا" حين دخل ثعبانٌ الغرفة فأغمي عليها من شدة الرعب!! ولم تنسَ أيضاً قيادية "جيسيكا" حين ذهبت بكل ثقتها لتنبش الكنز فلحقها الكلبان وأكلت نصيبها منهما ثم نقلت إلى المستوصف لتتداوى دون أن يفهم أحدٌ ما سبب فعلتها!! ولا ذعر "مايا" حين أرادت قراءة كتابٍ رافضةً كل الرفض اِرتداء نظاراتها الطبية فاِحترق شعرها بنار الشمعة لشدة اِقترابها منها فركضت "رنا" وسكبت على رأسها مياه وردةٍ منسيةٍ من أسبوع!! ... المغامرات المضحكة التي سجلتها قرب كل اِسمٍ لا يمكن إلا أن تعطي الماضي عطر ياسمينٍ زكيٍّ يداوي الجراح وينسي الآلام لذا ثابرت على البحث عنهنّ، هنّ من شدوا ذراعها حين حُبست وعُنفت بكل الطرق اللاإنسانية بصوتٍ مكبوتٍ وأنينٍ لا يسمعه من يستطيع مد يده إليها لينقذها!.

تراكضت الأسماء، منهنّ تعرفهنّ ومنهنّ لم تسمع بأسمائهنّ قط ... هي تبحث عن "رنا" وهي تعرف تماماً متى حبست ولابدّ أنها تبنيت ما بين هاتين السنتين لذا اِستمرت في البحث دون كللٍ ورغم تململها من كثرة الأسماء وعند نهاية السجل الثاني وقفت يدها الراكضة ذهاباً واِياباً بشكلٍ فجائيٍّ عندما لمع اِسم "رنا" قرب بند "التبني" فتأكدت من الاِسم أكثر من مرةٍ ثم نقلت اِسم الأسرة التي ذكر بأنها هاجرت خارج البلاد! وبحزنٍ بدأت البحث في سجلٍ آخرٍ عن "جيسيكا" القيادية الجدية بشكلٍ مستمر؛ أتراها تغيرت؟ أيمكن أن تزول عنها صفة القيادية أم أنها اِزدادت حتى تطبع بها أطفالها!!. عزمت على اِيجادها ولقائها مجدداً فهي مازالت تحمل في جوفها أملاً بلقاء أصدقاء

الشقاء والمرح فإزداد تركيزها وهي تقفز من إسمٍ لإسمٍ بسرعةٍ وخفةٍ حتى إنتهت من سجل السنة التي تزوجت بها وهي تذكر جيداً الليلة الأخيرة حين جلست "جيسيكا" قربها بعينين تترقرقان تحت وطأة الدمع صامتةً لا تجد كلمةً تخرجها عن الصمت المطبق في مثل هذا الوداع الكئيب بعد عشرين عاماً من الوصال المستمر ليلاً نهاراً ألماً يتلو ألماً مغامرةً تلوَ أخرى وقصاصاً دامياً إثر قصاص!! أين القيادية التي بكت وهي تخفي عنها وجهها؟! أين التي أهدتها صورةً جمعتهما بعد أن قاست لتلتقطها وتجلبها لها كهديةٍ أخيرةٍ بين أختين تفرقهما سِنة الحياة... "جيسيكا" التي خرجت من حياتها مثلما دخلتها قياديةً عصبيةً مقتضبة الحديث حفرت إسمها ليس على الورقة فحسب بل في عقلها وذاكرتها فأضحى ماضيها مقترناً بتلك الصديقة كالخليلين الوفيين! لا مهرب من أي خطأ فبعده لابدّ غضب! ولا خلاص من أية ضحكةٍ إستهزائيةٍ إلا وتبعتها نظرةٌ قاسيةٌ صارمة!! الأمر أمرها فهي القائدة ولا غيرها يستطيع الإبحار في ذاك السواد اللامنتهي ذلك أنها في الوقت ذاته لم تكن تبتعد عن نصائح أو إقتراحات "نورا" أكثر من خطوةٍ أو خطوتين فكانت الأخيرة اليد اليمنى لها في كل شاردةٍ أو واردةٍ تجري في تلك الغرفة المخفية في ملجأ سقيم، واليوم هي في ذلك الملجأ تتعجب لتخليهما عن التواصل بتلك السهولة شديد التعجب .. تنبش بإضطرابٍ الماضي وأسماءً حط عليها الغبار منذ زمنٍ لتجذب نحوها السفينة وتعود قائدةً لها! ووجدتها في آخر سطرٍ من السجل شامخةً كما كانت دوماً وقد خرجت من هذا القبر بعد سنتين من زواجها لتتزوج من رجلٍ على ما يبدو من إسمه الأخير ميسور الحال!. سجلت ما ذكر من معلوماتٍ وأخذت طريقها نحو غرفة المديرة متشكرةً إياها على حسن معاملتها في الماضي والحاضر متخطيةً عتبة الملجأ بصعوبةٍ لكأنها تترك بداخله جزءاً منها دون رغبتها! ثم أخذت طريقها متوجهةً نحو عنوان "جيسيكا" التي تقطن كما ذُكر في حيّ ليس ببعيدٍ عن الملجأ! تابعت الطريق كما شرحت لها المديرة لتجد نفسها أمام منزلٍ قد إرتفع عن الأرض بثلاثة طوابقٍ مصطحباً شرفته المفتقرة لكل أنواع الزهور فضحكت هامسةً لنفسها "كما توقعت تماماً! لا يمكن لـ"جيسيكا" أن تتغير فأصحاب الشخصيات القوية لا يرون في التغيير مدحاً للذات بل ضعفاً وذماً!!" لذا كان من المتوقع أن تبقى كما كانت ثابتةً بمواقفها وشدتها! لكنها لم يُخيل لها مطلقاً بأن الصغيرة الصارمة ستصبح أماً بذات الهيئة دون تغير!! لم تظفر من الحياة يوماً بإكتشاف أن هناك أشخاصاً لا يكبرون! مهما زادت الأرقام والأعياد والأعوام يبقون كما كانوا صغاراً تماماً كما تركتهم في ذاكرتها، بقوا! ... فرأت نفسها قد فاقتها سنواتً حين وقفتا مقابل بعضهما البعض أمام باب المنزل ودون أن تتردد الفكرة إلى ذهن "جيسيكا" نطقت "نورا" بإسمها متأتئةً متعجبة وما أن مرت لحظاتٌ سريعةٌ تثبتت خلالها العيون وتمعنت النظرات بعمقٍ حتى إنسحب الماضي ليستقر بينهما فصرخت القائدة "نورا!! أيعقل ما تراه عينايّ؟!!" وتعانقتا طويلاً ... طويلاً وبكت القائدة كما بكت في آخر لقاءٍ جمعهما من أعوامٍ! ... ثم دعتها للمنزل فشربتا فنجانا قهوةٍ وتناولتا قليلاً من الحلوى

ثم أعادتا القهوة مرةً أخرى بينما أخذت "جيسيكا" تحدثها عن طفلتها وزواجها الفاشل وأحداث الماضي الكئيب، فقالت...

- بعد زواجك بسنةٍ تقريباً جاءتنا "رنا" وقد تغيرت نظرات عينيها تماماً! تلألأتا وتبدل خوفها وذعرها لأتفه الأسباب فغدت واثقة الخطوة قوية الشخصية على أنها بدت بسيطةً شديدة الفقر! ... حينها ودعتنا وكأنه الوداع الأخير وليس بعده من لقاءٍ قط! تحسرت كثيراً لو أنك معنا، لو أنك تملئين عينيك برؤيتها بعد أن أصبحت زوجةً جميلةً هادئة لكن القدر سحبك من بؤرة الموت تلك قبل أن تعي بأننا سنتفرق كلٌ إلى دنياها... وهكذا حملت "رنا" نفسها مهاجرةً هي وزوجها وطفلها الصغير إلى بلادٍ أخرى قصدوها عبر البحر باحثين عن عملٍ يحسن من أوضاعهم بعض الشيء! ... وها نحن بقينا، أنا وأنت منقسمتين لنصفين فإحدانا نصفها في القبر! وأخرانا نصفها ينشطر عنها بورقة طلاقٍ تتحضر!!
- أتنوين الطلاق حقاً؟!
- وهل هناك أي سبيلٍ للحياة معه... (ثم تابعت بعد صمتٍ مطبقٍ على الجو) لست أدري.. أتراني تزوجته فقط لأنقذ نفسي من الملجأ؟ ... أتراني أحببته حقاً... أم تراني أحببت أمواله!! حين رأيت حال "رنا" بذلك البؤس تخلل حزنٌ عميقٌ وشفقةٌ طغت على ذاك الحزن داخلي! لقد خرجت من موتٍ لموت... كآلام الحياة تنتهي واحدةٌ لتتلوها أخرى! لذا حين إلتقيت به وعلمت ما علمته عن يسر حالته المادية إزداد تعلقي به على أنني فعلاً لم أرَ في طباعه أي بغيضٍ فمال قلبي له لوسامته التي تبث في الروح الأريحية وطباعه الهادئة الكتومة... لكن الأمر بعد الزواج إختلف فقد صار عصبياً سكيراً ومقامراً حتى أنه ضربني حين شاهدته ذات مرةٍ يسرقني!! واللهِ إنه لشيءٌ عجيب كيف في بضعة أشهرٍ تبينت لي صفاته الكريهة كنبعٍ إندفق من لا شيءٍ بينما كنت لا أراه إلا ملاكاً يخطفني من قبر الطفولة!! إلى أن فاض بي الكيل ذات جنونٍ فزادت بيننا المشادة حتى خرجت منه تلك الكلمة فطلبت الطلاق...

إنتظرت "نورا" بعينين لم تتحركا قيد أنملة وجسدٍ مشدودٍ للحديث وعقلٍ هائمٍ في التخيلات والألم لكنها عندما لم تكمل ما بدأته وقد لمعت دمعةٌ عنيدةٌ أغرقت عينيها قاطعتها سائلة...

- ماذا قال حتى وصلتما للطلاق!!

أجابت بصوتٍ مائلٍ للبكاء والحقد..

- تزوجتك لقيطةً فماذا أجني منك إذاً!!
- ما أحقره!!

قالتها بعفويةٍ لكنها سرعان ما وعيت لما قالته فأغلقت فمها بيديها على أنه الصديقة ضحكت بسخريةٍ..

- قولي ما تشائين فهو أكثر من حقيرٍ! وإبنتي المسكينة بيننا... ما ذنبها حتى تحظى بأبٍ كهذا!
- على أنها حظيت بأمٍ رقيقة القلب قوية وشديدة في المواقف

اِبتسمت الأخيرة شاكرةً وأخذت ترتشف ما تبقى من فنجان قهوتها فوجدت "نورا" في هذا الصمت اللحظة المناسبة كي تشق طريقها نحو غايتها فقالت..

- كان علي أن آتيك من زمنٍ! لكنك سمعت قصتي ومعاناتي التي شغلتني عن الدنيا بحالها وإنني جئتك اليوم يا "جيسيكا" لأمرين اِثنين أولهما كان رؤيتك بعد أن فرقتنا الحياة وقد كنا أختين لا تنفصلان وهذا الحق، فقلبي على ما عهدته من حبك باق كأننا أطفالٌ في الملجأ... (ثم بخجلٍ شديدٍ) وثانيهما طلبٌ غريبٌ بعض الشيء ولكن ظني بالقيادية لا يخيب!

نفش هذا اللقب ريش "جيسيكا" مستعيدةً به سلطان الزمان فقالت برحابة صدرٍ وثقةٍ..

- هذه الرقبة سدادةٌ! (ولطمت رقبتها براحة يدها)
- كما أخبرتك ... زوجي توفي من بضعة أشهرٍ والعمل في الدكان يعقبه حياكة الطلبيات فلا يتبقَ لي متسع من الوقت إلا قليل القليل! وهذا أمرٌ غايةٌ في السوء لوليدي لذا أطمح وكلي أملٌ بموافقتك على أن تأتي إلى بيتي قدر ما تستطيعين لتساعديني في رعاية الطفل ريثما أنهي عملي في الدكان وأغلقه..
- وهل تسألينني أم تأمرينني!!

سألتها بعصبيةٍ واِنزعاجٍ فتبادلتا نظرةً غريبةً بعض الشيء لا هي غضبٌ ولا هي ضحكٌ ثم اِستطردت قائلةً..

- قلت رقبتي سدادةٌ أي تأمرينني؛ أفهمتِ؟!

فضحكتا واِتفقتا على أن تأتي "جيسيكا" كل صباحٍ إلى بيتها طالما أنها متفرغةٌ مصطحبةً طفلتها ذات السنة لتقضي بضع ساعاتٍ ترعى بها الطفل.

وعلى هذا الاِتفاق عادت "نورا" مطمئنة القلب مرتاحة البال لتمر بـ"هالة" بغية أخذ الطفل الذي تركته مدةً لا بأس بها عندها، فبادرتها الأخيرة بالسؤال أثناء اِرتشافهما القهوة..

- أخبريني الآن أين قضيت جلّ نهارك؟
- زرت صديقةً لي في الملجأ

- آه... وكم مضى على آخر مرةٍ اِلتقيتما فيها؟
- يااه يا جارتي سنواتٌ كثيرةٌ وكم فرحت حين تعرفت عليّ
- لي شوقٌ في التعرف عليها..

وزلَّ لسان "نورا"..

- تعالي غداً تجديها عندي!
- بهذه السرعة ترد لكِ الزيارة! (قالت ضاحكةً)
- لا! ... هي عرضت عليّ إعانتي في رعاية "مهند" طيلة عملي في الدكان

وسرعان ما اِمتعضت "هالة" لسماع خبرٍ يقر بشكلٍ صريحٍ بإبعادها عن حياتها بكل بساطةٍ على أنها كتمت مشاعرها واِبتسمت مغلقةً الحديث فتلبكت "نورا" بزلتها واِستأذنت هاربةً من الوضع الذي تكهرب فجأةً ذلك أن "هالة" بعد اِمتعاضها حزنت! هي من جرّت صديقتها لذلك عندما هجرتها متحججةً بأي سببٍ سهل التأويل بأن الملل أو الترفع غلب على مشاعرها فمر الليل عليها غير مريحٍ وهي تنتظر النهار لتلقي نظرةً على بدليتها! وعلى وقع بكاء "مهند" فتحت "هالة" عينيها فسرحت شعرها بهدوءٍ مصطنعٍ علّها تهدئ من غليانها منطربةً بأغنيةٍ لـ"فيروز " على غير عادتها! ودون أن تغير روتينها لاحقت أبناءها وزوجها بوجبات الاِفطار الدسمة ليخلو بها المنزل فجأةً من الأحاديث والحركة كما في كل يومٍ فرتبت ما اِستطاعت أن تركز به بينما لم تفارق النوافذ وهي تحاول اِلتقاط أول صورةٍ لتلك القادمة من الماضي!! وفجأةً وهي تغسل الأطباق لمحتها قادمةً وطفلةٌ شقراء بين يديها! "إنها هي بلا شك!" قالتها بنترةٍ وعصبيةٍ مبالغٍ بها!! هي من جرت صديقتها لذلك وهذا خطؤها وعليها التحمل... هي غيورةٌ حين يحتل شخصٌ آخرٌ مكانها فماذا يكون شعورها إن كانت هذه القيادية التي تمشي رافعةً حاجبيها كأن لا شيء في حيهم البسيط يعجبها!! راقبتها مدققةً النظر في تفاصيلها متذكرةً اللبارحة و"مهند" الصغير بين يديها تلاعبه ويبكي فتحمله ثم يجوع فتطعمه... هذه المرأة ببنطالها العريض نوعاً ما وقميصها الأبيض المزركش وشعرها المربوط المنسدل على ظهرها ستسرق صديقتها الوحيدة... ومن غيّر رأيها بالأصل؟ هل هو زوجها؟ أم أنها هي من ترفعت على فتاة ملجأ مسكينة...!! وهل هي هكذا؟ هل رُبيت على الترفع حتى ترى الناس دوناً عنها!!

راقبت الصديقة في تحيرٍ ثم تساءلت هل تزورها فترى عدوتها عيناً بعينٍ أم تبقى خلف النوافذ تستشيط غيظاً! ثم فضلت المكوث في المنزل فلربما خانتها قواها فاِستبان الغضب في ملامحها، حينها ما العمل؟! فكرت ملياً بينما أخذت "نورا" بإستقبال الزبائن واحدةً تلوَ أخرى وقد غابت عنها أفكار جارتها الحزينة بينما الصديقة القديمة تحتسي كوباً من الشاي، تراقب الطفل حيناً وتتسلى بالتلفاز حيناً أخرى...وعلى هذا الحال مضى أسبوعٌ كاملٌ حتى تراءى لـ"نورا" بعد ضغط

عملٍ عظيمٍ حال جارتها فزارتها مستفسرةً عن أحوالها ورأت في عينيها عتاباً لم تستطع الرد عليه، فالبادئ لابدّ أظلم! ورجعت إلى المنزل دون أن تفتح الموضوع حاملةً نفسها المتعبة إلى رفاة زوجها تحكي له كل ليلةٍ ما حدث معها لتنام قريرة العين بعد عناءٍ طويل.

*****

"جيسيكا" الدخيلة الأولى على حياة "نورا" بعد وفاة زوجها، وهذا ما زاد حزن ووحدة "هالة" على أنها ترفعت على مشاعرها فأخذت تقرأ الكتب وتعيد دراسة قواعد اللغة الألمانية وتتلهى بتصفيف شعرها أو تحضير أطعمةٍ لذيذةٍ ذلك أن هذا كله لا يعوض الصديقة... الصديقة تحمل عنك الألم وتفتح حنجرتك لتنتزع هذا الصوت المكبوت داخلك! كيف تستطيع الكتب والروايات أن تسمع آهاتها؟! من أين للغة الألمانية أن تفهم وحدة سيدةٍ غريبة!! الحيرة كانت الأقوى في الأشهر الأولى لتحلل الصداقة بينهما إلا عن بضعة زياراتٍ أو سلاماتٍ حارة! بينما توضدت الصداقة القديمة بشدةٍ فغدت أخويةً أكثر مما مضى وأخذ الصغير يكبر على مرأى أعين والدته وصديقة طفولتها وجارتها القريبة والبعيدة في الوقت ذاته يوماً بعد يومٍ شهراً بعد شهرٍ فها هي تلبسه بنطالاً وها هي تطعمه بالملعقة وها هي تحتفل بسنه اللبني الأول فتدعو "هالة" التي أتت متلهفةً لرؤية الصغير الذي أخذ يشق طريقه في الحياة كِبراً، وأخيراً وبعد اِنتظارٍ وتلهفٍ مشى "مهند" خطوته الأولى قبل ميلاده الأول بأربعة أيامٍ فجُنت والدته ولاحقته طويلاً حتى لمحته يخطو الخطوة الثانية فالتقطت له صورةً تذكاريةً ثم قامت بصنع نسختين منها فركنت اِحداهما قرب الرفاة وعلقت الأخرى على جدار دكانها لتمتلئ بالسعادة كلما لمحتها فتزيدها قوةً وعزماً على توفير حياةٍ كريمةٍ له لا تمت بأية صلة لحياتها التعيسة..

-4-

الفصول لا تنتظر أحداً والوقت مثلهم بارعٌ في عبور الأجيال دون أي تعثرٍ على أن الإنسان يظن نفسه على الدوام سيد الأرض حتى تخنقه القبور ويبدأ نسلٌ جديد! وحتماً سيكون النسل الجديد مختلفاً كل الإختلاف عن سابقه فهو معاصرٌ لمستقبلٍ كان أصحاب القبور يظنونه حلماً، سيكون مدللاً أكثر! وبالتأكيد، صاحب أحلامٍ تتخطى أحلامهم ومبادئ لم يحاولوا التفكير بها يوماً.!!

النسل الجديد سيبدأ لتندثر طموحات الماضي وتصبح ملموسةً بسيطةً وربما مملة! ... النسل الجديد يكبر والقبور تزداد اِتساعاً محتضنةً أعداداً لا متناهية! بينما تزداد الحياة فقهاً وحيلةً جيلاً بعد جيلٍ فيقع الأغلبية فريسةً سهلةً بين مخالبها حينما تستمر القلة مقاومةً ومعاندةً أهواء الحياة ومغريات العصر الحديث فلا تجذبهم التوافه بل كل ما تراه أعينهم هو الجوهر .. جوهر

ومغزى وجودهم على هذه الأرض .. سببب خلقهم، سبب اِختيارهم، وسبب بث الطموح والرغبة بالتميز وتحقيق الأهداف في عروقهم لتسري داخلهم شأنها شأن الدماء!!.. هذا تماماً ما كان يخيف "نورا" التي لم تنسَ بأنها عاهدت زوجها بأن يكون طفلهما من هؤلاء الأقلاء الذين ينجون من بطش الحياة وعلى عهدها راحت تحلل وتقرأ وتجاهد كي تكون أماً محيطةً بِابنها ملبيةً حاجاته ضامنةً حقوقه جاذبةً اِياه نحو هدفٍ بعيدٍ عن التوافه والاِنحدار، هذه كانت مخططاتها وهي ترى الصغير يكبر فترمق الرفاة بقلبٍ يعتصر أسىً وتمنياً بينما يغلبها شعور المسؤولية التي تسري في دمائها فكلما همدت عزيمتها أو ذبلت قوتها نشّطتها المسؤولية زارعةً في حناياها الصلابة والصبر إذ لم يتبقَ على دخوله المدرسة الكثير وها هو سيحمل مسؤوليته قريباً وربما يساعدها في مصروف المنزل ذات يومٍ على أن المخاوف لم تتركها وشأنها فاِستفسرت طويلاً عن تلك المدرسة التي تليق بِابنها! وفكرت كثيراً بالصديقة التي ستسحبه يوماً نحو حب الطفولة ثم يضحكان على تجاربهما السخيفة عندما يكبران!! وهل سيلتقي بمجموعةٍ من الصبية يلهونه عن مستقبله يا ترى!! وكيف ستتركه في أية مدرسةٍ كانت ساعات طوالاً...من يرعى مشاعره إن تألم، وكيف يتداوى إن جرح؟!. رادوتها مخاوفها من شتى النواحي ثم اِنبهرت لكأنها المرة الأولى حين رأت بساطة معاملة "جيسيكا" مع طفلتها إذ رأتها تمسك السكين مرةً فضحكت الأخيرة وقالت بنبرة تأنيبٍ خفيفةٍ "لا تمسكي السكينة يا بنت! مازلتِ طفلة... اِنظري لحال أمك عندما كبرت.. اِبقي صغيرةً أنصحك!!" كيف يمكن لأمٍ أن ترى طفلتها بهذا الوضع فلا تهرول إليها غاضبة! كيف ستتعلم الصغيرة بأن ما اِقترفته خطأ؟ ثم سرت عادة التلصص أو حب الفضول، إن أردنا أن نسميها بهذه التسمية، في دمائها فأخذت ترمق جارتها التي غدت جارةً لا أكثر متحججةً بنشر الغسيل حيناً وبسقاية الورود حيناً أخرى علّها ترى أبناء "هالة" مستفسرةً عن أسلوب معاملتها لهم فوجدتها كما عهدت منها الحديث مهتمةً جداً بِافطارهم ثم يخلو المنزل بها فتتسلى بكتبها أو بالتلصص عليها هي الأخرى! ثم تطهو فتلتم الأسرة حول مائدة الطعام يملؤون بطونهم ثم يحملون أنفسهم كلٌ إلى أشغاله فتعود الأم وحيدةً تتسلى بمشاهدة التلفاز حتى منتصف الليل! راقبتها يوماً إثر يوم.. إنه الروتين الذي أخبرتها عنه فلم تنقص عنه حرفاً أو تزيد! إذ إن الأمومة لم تكسبها إلا التعاسة... أيعقل؟! وماذا عن اِلتفاف الأسرة حول المائدة لساعتين أو ثلاث يتحدثون ويتناقشون في أمور ومستجدات الحياة؟ أين لهفة الأسرة على مشاهدة فيلمٍ يختتمون فيه يومهم! أين هي الإلفة والتوحد والمحبة!! أين هي آمال الأم حين تحمل كل طفلٍ تسعة أشهرٍ فيكبر ليصير عاقّاً!! بهذا الشكل!! أيعقل...

صدمت الأم التي تأملت من المستقبل أكثر مما يجب فتبددت أحلامها ورأت في طفلها شاباً مهملاً لأمه ناكراً لجميلها مهتماً بأي تافهٍ في الحياة إلا والدته المضحية فحزنت وبكت عدة مراتٍ مفتقدةً زوجها فكم تمنت لو أنه قربها يساندها في تربية طفلهما حتى يكبر فيصير رجلاً وإبناً باراً على أنها رأت في مستقبل أولاد "هالة" أمراً عجيباً أشعل الخوف داخلها فعزمت على أن تزيد من العناية والحرص بإبنها علّه لا يرَ في إبتعاده عنها لذةً أو أمراً عادياً بسيطاً!!..

-5-

"هالة" التي ملت من روتينها اليومي كما تمله دوماً كانت تشعر تماماً كشعور جارتها الكئيب إلا أنها إضافةً لذلك كان يشقّ عليها مغادرة زوجها إلى عمله كل صباحٍ مختتماً يومه بين الكتب والمخططات إذ عكف عن عادة التصوير مؤخراً فراق لها الأمر بيد أنه وجد ضالته وتسليته في الكتب فتكرر الماضي بوجهٍ جديد!! فرمقت أبناءها واحداً تلوَ الآخر فرأتهم كلٌ منشغلٌ بما يهواه أو يتوجب عليه فعله فإمتلأ قلبها حزناً وأخذت ترمق منزل جارتها التي توضحت لها في ما بعد وهي تنتظرها على الشرفة فلوحت لها بيدها أن تعالي فلبت نداءها على عجلٍ سعيدةً بملجأ يقيها من ذاك الملل..

- إنه التطور يا جارتي! نحن ربيناهم جيداً على أن المستقبل وتطور العصر يسرقهم من أحضاننا... فما علينا سوى التمني بأن يشعروا بوحدتنا ذات صحوة..!
- وهل تراه "مهند" يصير نسخةً عن جيله هذا؟
- ربما...
- وهل تظنين بأن هنالك طريقةً تجعلني أجنبه تطوراً كهذا؟!

ضحكت الجارة ضحكةً إستهزائيةً وإستطردت..

- أي تجنبٍ تتحدثين عنه؟! هذا التطور غزى أدمغتهم قبل أن يولدوا حتى!!

غمغمت "نورا" بكلماتٍ لم تفهمها الجارة ثم قالت متسائلةً ببراءةٍ..

- كيف تتحملين هجرهم لكِ؟ ليس هم فقط بل وزوجك!!

تنهدت الجارة بتحسرٍ ثم أجابت بنبرةٍ حزينةٍ كئيبة..

- إعتدت، الحياة تعلمك بأن تعتادي طالما لا شيء بمقدورك فعله...!

مرت لحظات صمت قصيرة قبل أن يقسم سؤال "هالة" الهدوء وهي ترمق الصغير الذي أخذ يلعب على سجادته الحمراء وعيناها تلمعان حباً..

- متى يدخل المدرسة؟
- تبقى أسبوعٌ واحدٌ فقط... وكم ينتابني القلق تجاه ما هو قادم
- وهل المدرسة تقلق يا "نورا"! بالله عليكِ لا تشددي على طفلك أكثر مما شددت عليه!

وكانت المدرسة فاِصطحبته "نورا" إليها خائفةً مترددة!! وهل يعقل ألا تطلق سراحه حتى إلى المدرسة؟! على أنها كبتت خوفها خجلاً من ثقافتها البسيطة لتتركه يعبر بابها الحديديّ متطلعاً لأطفالٍ كثرٍ بعمره بينما قلبها يتمزق خوفاً وشوقاً إليه... ها هو الصغير الذي كانت تراقب بكاءه علّها تفهمه غدا في المدرسة يركض خلف أصدقائه ويكتب الواجبات ويأكل بالشوكة ويصلي ويصوم حتى "درجات المأذنة"! ثم يهمس لها ذات مساءٍ عن اِعجابه بإحداهنّ فتضحك! ثم يكبر الصغير الذي نسيّ أن يحكم الكذبة فعرفت أمه بهربه من المدرسة! ثم أنبته وقالت بأنها تحبه أكثر من نفسها لذا ترعاه وتوصله وتحكم خروجه ودخوله وتحصي أصدقاءه وتمنعه عن الحب وتعد له الإفطار ثم تطعمه! وتنتقي له ثيابه وعطره وتسريحة شعره والكتب التي عليه قراءتها!!! ثم اِزداد كبراً وطالت قامته فجأةً وبدا صوته أشدّ خشونةً مما عهدته من نعومةٍ ولطافة! وبدأ ذات ليلةٍ بالاِستماع إلى الأغاني التي أحبها سراً ثم اِشترى مجموعةً من الكتب السياسية وخبأهم في السقيفة وعندما وجدتها أمه شنّ شجارٌ حادٌ لم يعهده منها مسبقاً! ... لم تستطع "نورا" أن تتفهم بأن الطفل الصغير كبر كما كبرت اِبنة "جيسيكا" فاِستمرت بمعاملته كصغيرٍ لا يدري من مصلحته شيئاً فأهانه بعض صبية المدرسة لبساطة تفكيره وسذاجة أحلامه ثم أهانه الشبان في كلية الحقوق التي كانت من نصيبه تحت اِلحاح أمه! فقرر بغيظٍ وحزنٍ ولهفةٍ عظيمةٍ أن يتطلع إلى العالم بكتابٍ فعوقب ثم بالأغاني فؤنب!! .. حينها لم يجد عينين تُريانه العالم إلا عيني "سهى"!! كانت قريبةً من عمره لطيفةً بوجهٍ بشوشٍ ضحوكٍ لم تفارقه الآمال يوماً، وكانت من النوع المحبب له فوجد في حديثها علماً لم يعرفه ودنيا جهلها فأخذ يستمتع بحديثها عن النجوم التي سرقته أشهراً وعن الجزر والثقة بالنفس و"عبد الوهاب" والفيزياء و... سألها بسذاجته ذات مرة..

- من أين لك علمٌ بكل هذا!! أنا لا أذكر أشياءً كهذه في كتبنا المدرسية!

ضحكت ثم أعقبت على سؤاله بنبرةٍ مشاكسةٍ..

- سر!
- أعلميني..
- وهل تخبر والدتك إن أعلمتك!
- وما دخلها!
- ربما تُقيم عليّ الدنيا!
- هل جننتِ! أمي لن تعرف مطلقا.. أرجوك أعلميني
- عندي مجموعة كتبٍ قيمةٍ جداً أستطيع تسريب الواحد تلوَ الآخر لك

ووافق بعينين تتلألآن فرحاً فأعارته كتاباً عن فيزياء الحياة فذهل وأغرم به وركض إليها بعد أقل من شهرٍ طالباً كتاباً آخراً فأعارته كتاباً عن الثقة بالنفس فدخل في صراعٍ ما بعده صراع فتساءل بكثير من الاِعتراض لِمَ هو بلا شخصية!! أين حرية الاِختيار والرفض؟ أين الإرادة التي لم تزرع في شخصيته! أين الثقة.. أين القوة.. أين فرصةاِبدء الرأي؟! ثم فكر ملياً حين قرأ هذا النص الذي دونته "سهى" في آخر الكتاب..

"اِفتح عينيك كل صباحٍ جيداً فهناك عند اِحدى خيوط الشمس المتراقصة على نافذتك، بين تلك العقارب التي لا تمل المضي، في وجه والدتك الضحوك أو فوق غبار برنامج كتبته ذات أمل واِندثر، تصميمٌ عظيمٌ لم تعهده، طريقٌ كان يوماً شائكاً لكنه غدا بلمح البصر لذيذاً ممتعاً رغم ألمه!!

هناك يا صديقي على وجه القمر متسعٌ لاِسمك فقف ضد توافه الحياة، ضد التكنولوجيا التي لا تكاد تفيد إلا في قتل أعمارنا، قف ضد ذاتك المرهقة، شدّ على يدها!... تزود بالدعاء، بقبلات أمك، بالنظر إلى أعين العظماء بتلهفٍ وشغفٍ حينها ستجد الحلم بإنتظارك؛ قريباً جداً كاِلتصاق روحك بك

قريباً... قريباً أكثر مما تخيلت!"

ثم أخذ منه التفكير ثوانٍ حتى اِستنتج بأنه يعيش بلا هدفٍ في حياته؟! اِعتصر ذكرياته الروتينية المملة جميعها فلم يجد فيها أية عبرةٍ أو مغزى ثم حاول أن يجد نفسه في كليته فلم يجدها ... فبكى! وكره أمه لثوانٍ على أن حبه لها واِمتنانه لكل ما قدمته له حجب مشاعر الكراهية فغدا غاضباً منها لائماً لتخطيطها لحياته لحظةً بلحظة! ... لِمَ كل هذا الحرص؟ ومن ذاك الذي حشى رأسها بأن الأطفال هكذا تبنى شخصياتهم!! أهو والداها المموه خلف صمتها؟! أصدقاؤها الذين لا يعرف منهم سوى "جيسيكا"؟!! والده الذي لم تخبره عنه إلا بضعة معلومات أساسية!! ... من علّم

أمه بأن الطفل عليه أن يجهل ماضي والديه وأقاربه ليسجن في روتينٍ قبيحٍ ممل!! وللحق فقد أثر هذا الكتاب في "مهند" فأشعل في رضوخه وخنوعه النار تماماً كما خافت والدته طيلة سنواتٍ كثيرةٍ مضت فحرصت عليه من التكنولوجيا ومن الكتب التي تحرض على رفض الآراء التي تملى على الإنسان دون رغبةٍ منه... هم لا يعرفون مصلحتهم! الأطفال والشبان في مقتبل العمر يركضون خلف توافه الحياة دون سواها وحين يكبرون فتلوح صلعاتهم من بين شعورهم الشائبة يتحسرون على ماضٍ كان ملكهم فهدروه بلا فائدة متمنيين لو أنهم قضوا فترة المراهقة في شيءٍ أكثر فائدة! إذاً هي لا شك على حق في توجيهه وفي حرصها عليه وإن قست مرةً أو أكثر بشكلٍ جائرٍ ودون أي مبررٍ عليه! فهذا لمصلحته ومصلحتها في آنٍ معاً! على أنه رفض بعد أن فتح الكتاب عينيه على أمورٍ لم يهتم بها يوماً... أو بالأحرى لم ينبهه أحدٌ ليراها في مسيرة حياته فإنتفض رافضاً ظلم والدته حانقاً معانداً حدّ إتخاذه قراراً شجاعاً لم يجرؤ من سنواتٍ على إتخاذه أو إطلاعه عليه!!

أخذ طريقه دون تلبدٍ أو خوفٍ نحو غرفتها تماماً قبيل موعد النوم فتكتك على بابها بهدوءٍ عدة مراتٍ حتى سمع صوتها تنادي عليه فدفع الباب ودخل مطرق الرأس مفكراً في بدايةٍ حكيمةٍ لطلبه!

- ماذا هنالك يا "مهند"؟
- أريد أن أطلب منك أمراً أراه شديد الأهمية بالنسبة لي
- إطلب يا حبيبي ما تشاء..

فتلبك الشاب فجأةً وقد تخطى العشرين بعامٍ فأصبح كأنه طفل الخمس سنواتٍ فطبطبت على كتفه محاولةً بعث الطمأنينة في نفسه فهبت في جسده الحرارة وإشتدت الشجاعة في نفسه خاصةً بعد أن تذكر ما كتبته "سهى" فنطق دون خوفٍ أو هيبةٍ..

- أريد أن أنتقل إلى الغرفة الفارغة!

نطق ما نطقه وعمّ الهدوء بشكلٍ غريبٍ ومرعبٍ في أرجاء المنزل وبدا وجه أمه بعينيها المفتوحتين المتعجبتين وإنبهارها المنزعج مخيفاً! فإزداد التلبك في الجو على أن الأم وضعت ما كان بين يديها على المنضدة الملتصقة بالسرير بكامل الهدوء ثم قالت بحزم دون أن تنظر إليه مطلقاً..

- لا.

وأغلقت الموضوع ببساطةٍ وبرودة أعصابٍ فرفعت عنها الغطاء وإستقامت كأنها ذاهبةٌ فإعترض طريقها بطوله الجميل وعينيه الكبيرتين وقال بصوتٍ حازمٍ أضرم الخوف بمعصيته لها!

- سأنتقل الليلة لا غداً! إنني لم أرَ حتى اليوم أحداً بعمري ينام في غرفة والدته!! لقد أصبحت رجلاً ومن حقي كما من حق كلبٍ أن يملك حيزاً خاصاً به!!

صدمت الأم لغضب الشاب وقدرته على نقاشها كما لم يكن سابقاً!! فقالت بصوتٍ جهوريٍّ مرتجف..

- أتعارض رغبتي!!
- رغبتك! أم خوفك أن أضيع منك؟! أنت أمي وأبي، ربيتني كما لو كنت ملكاً ولست أعني بإستقلاليتي في غرفةٍ لا تبتعد عنك سوى بجدارٍ واحدٍ أنني سأتركك!! أنا أحبك يا أمي ولكنك تخنقينني... تهدمين شخصيتي!!

قال قوله الأخير ثم غادر الغرفة قبل أن ينظر إلى ما آلت إليه أمه بعد خطوته الجريئة وإعتراضه الأول لأوامرها مذ ولد!!

الأم الصارمة التي لم يرفض لها طلبٌ منذ سنواتٍ منسقةً حياة طفلها الصغير كما رأتها مناسبةً فأعطته كتب المطالعة كتاباً تلوَ كتابٍ بموضوعاتٍ إنتقتها بشديد العناية وأوقات صممتها كما شاءت! فوجدت في ذلك طمأنينةً عظيمةً بأن يكبر طفلها قارئاً لكن لما وجدته قيماً للقراءة لا لتوافه الأدباء أو السياسيين الذين لم يُعرفوا في التاريخ إلا لنفيهم أو إعدامهم!! لِمَ يقرأ كتباً لن تفيده إلا في إيقاظ هذا الإنسان العنيف العنيد الثورجيّ الراقد ضمنه... وإن ثار فعلى من؟ على أمه!! ومن له في الدنيا غيرها!!

الطفولة التي عاشها الصغير كانت مناسبةً لأحلام والدته فرأته في كل ليلةٍ محامياً عظيماً لتستيقظ صباحاً متنشطةً بأوامرَ أكثر صرامةً وتشديدٍ مبالغٍ لا يطاق! فمرةً سايرته في نزهةٍ ليليةٍ مع أصدقائه فعاد وعلى ثيابه رائحة دخانٍ فعنفته بشدةٍ ثم لم تسمح له بالخروج مجدداً! وحاضرت عليه بمساوئ التدخين حتى ملّ وإكتفى! وكان عليه في كل يومٍ أن يستيقظ مبكراً فيتمرن التمارين الرياضية التي قررتهم ويتناول إفطاراً شهياً مليئاً بالفيتامينات مقلدةً بذلك جارتها ودون أن يرافق أصدقاءه كان عليه أن يعود من الكلية في الوقت المناسب ليتناول وجبة الغداء الدسمة بغية تنشيطه ليقوم بواجباته الجامعية جميعها قبل موعد المطالعة!!

- أهذه حياةٌ يا خالتي!! أنا لا أشعر بأنها حياة... لا والله!

ربتت الجارة على كتفه بعينين بدا عليهما الحزن حيث أرادت اِظهاره رغبةً في التوحد معه في حالته إلا أنه لم يسعها النطق بأي حرفٍ... ماذا يمكن أن تقول في موقفٍ كهذا؟ هي فقط تذكر خوف والدته من أن ترتكب هذا الخطأ والآن ما عادت تراه خطأً فقد تأقلمت وتيقنت بأنه الطريق الأوحد كي لا يصير اِبنها نسخةً عن هذا الجيل الراكض خلف الأغاني الحديثة والكتب السياسية والتلفاز وبرامجه السخيفة على حدّ قولها... إذاً ماذا يفعل شابٌ في مقتبل العمر إن لم يعش شبابه؟؟ ثم تذكرت كيف غضبت حين دار الحديث بينهما وعاتبتها الجارة بقسوةٍ على تمويهها لشخصيته فوجهت إليها هذا السؤال عندما أجابت الأخيرة ممتعضةً غاضبة..

- تريدينه أن يكبر كشباب هذا الجيل! أن يرمي بوالدته ويركض خلف كتبه وبرامجه! أنا التي عانت ستة عشر عاماً لأجل أن أسعده وأهبه حياةً كريمةً دون أن يمسني رجلٌ لا بحلالٍ ولا بغيره، تريدينني أن أرميه هكذا.. لقمةً سائغةً لتكنولوجيا العصر!
- وما حالها اِبنة "جيسيكا"!! هي اِبنة عمرها، تلاحق التكنولوجيا لا شك ولكنها حبيبة أمها ترعاها وتحبها وتقضي معها الساعات الطوال حباً لا جبراً!!
- وما أدراك أن تتركها يوماً!
- الأطفال لا يتركون ذويهم يا "نورا" أفيقي من خوفك هذا، اِبنك يحبك جداً، أنت حياته بمجملها لكنك بخنقك له تجعلينه يكرهك..
- يكرهني! (تبدلت ملامح الجارة حتى غدت غاضبةً منزعجة) هو من قال لك هذا أم أنت من تختلقين القصص!
- هو يهاب أن يكرهك لشدة ضغطك عليه..

اِمتعضت الأم شرّ اِمتعاضٍ ..

- واعجباه... تقولين لي بأنني إن لم أحرص عليه أو أهتم به بهذه الشدة سيحبني!! إن كنت أرعاه بكل حبٍ وعطفٍ وتقولين بأنه يهاب أن يكرهني!!!
- لشدة الضغط لا لشيءٍ آخر... ثم إن الاِهتمام غير الحرص يا صديقتي أحدهما حبٌ والآخر ضغط

ثم أكملت بلهجةٍ أكثر جديةً..

- أنت قلتِ في يومٍ غابرٍ أن فاقد الشيء لا يعطيه وها أنت لا تعطينه مطلقاً على عكس "جيسيكا" التي كانت معك في نفس الفقد وفي نفس الماضي الأليم على أنها أعطت طفلتها كل

الحب بإتزان فوهبتها حياةً وأخذت منها حياة... أنت تسلبين طفلك حريته، تعتدين على شخصيته دونما شعورٍ منك! وهذا لن يحمد عقباه يا جارتي.. والله لن يحمد عقباه!

والدته التي غضبت يومها بشدةٍ تفهمت كلامها فيما بعد وخاصةً عندما ذكرّتها بقولها مقارنةً بينها وبين زميلة طفولتها اليتيمة فإتعظت بعض الشيء وأخذت تحاول جاهدةً على حدّ قول إبنها أن تعطيه حريته لكنها كانت تغضب إثر ذلك كأنها إقترفت ذنباً لتعيد التنسيق والترتيب فيعود الشاب أسير سجن والدته فيختنق دون أن تسمع، ويشتدّ إنزعاجه دون أن تعطي لذلك بالاً!!

الآن هو هنا يعيد على مسمعها شكواه إذ إنه يعتبرها منذ صغره كخالته، فأخذ يزورها بين الحين والآخر فيشتكي لها ضيقه ويستلف منها بعض الكتب التي تروق له! إلى أن عرضت عليه غرفةً الجلوس كغرفةٍ هادئةٍ للمطالعة فوافق متخذاً منها زاويةً لا تطل على منزله مطلقاً غارقاً في خياله مستمتعاً كل الإستمتاع بأسلوب الكاتب الذي أحبه والسياسيين الذين تمنى دائماً أن يصير مثلهم دون أن تدرك والدته أي شيءٍ عن ذلك إلى أن صمم ذات ليلةٍ أن يعاندها فإحتفظ ببعض النقود التي تعطيه إياهم كل أسبوعٍ وإشترى بهم صوراً لهؤلاء الذين ترى في أفعالهم دمار الأجيال وحُطام المستقبل! ليلصقهم بعد خلودها للنوم فوق سريره وينام قرير العين منتصراً على قمعها على عكس إستيقاظه الذي بدأ تحت تموجات صوتها المفاجئ ثم الغاضب ثم المنفجر!! إذ أنبته شديد التأنيب ودون أن ترمي بهم في أقرب حاويةٍ أخذت تحاول إقناعه بعدة وسائلٍ لكنها عندما وجدت ألا نفع للحديث معه مهما طال الوقت وزادت الساعات مزقتهم فبكى ورمقته بعينٍ رحيمةٍ على أنها خافت أن يعاندها أكثر فلم ترأف به لتتركه باكياً ضعيف الشخصية!.

-6-

الشخصية التي هرستها "نورا" دون قصدٍ منها أحيتها أخرى! وهذا تماماً ما بدأ يقلقها بعد أن تبين لها العطر بتناقصه المريب يوماً إثر يومٍ وبكيّ الملابس المستمر وتصفيف الشعر ساعات بعد حلاقة الذقن أو ترتيبها!! هو عاشقٌ لابدّ! من هي! ما إسمها؟ على أنها رغم محاولاتها الكثيرة لم تعرف مطلقاً من هي!! لم تعرف حتى لون عينيها! أو طريقة ضحكتها.. ظنتها "سهى" بعد ما رأته من صداقتهما وتقربهما من بعضهما البعض فإلتفت حول الموضوع ذات مرةٍ ثم بثت سمها قائلةً "لم يخبرني مهند بأنه يحب عينيك الجميلتين!!" ونشبت إثر تعليقات "نورا" المتكررة وتلميحاتها الغريبة مشكلات أجبرت صديقة الملجأ على هجر زيارتها فأعقب ذلك تباعدهما ببرودٍ غير مسبوقٍ

فإرتاحت الأم لإبعاد الحية عن إبنها!! وإطمأن قلبها فترةً وجيزةً قبل أن تراه على طبيعته وعادته السابقة كأن شيئاً لم يكن فلم يُقَصِر في التأنق أو التعطر أو الدندنة ليرحل عن المنزل مبكراً كل صباحٍ ويعود منتشياً سعيداً كل مساء!!. لكن إن لم تكن إبنة "جيسيكا" إذن من تكون؟! وكيف لها أن تعرفها ... فكرت كثيراً ثم صممت ذات صباحٍ أن تتعقبه بعد خروجه من المنزل فوجدته قد عرج إلى المسجد ليصلي الظهر فلم تؤمن بأن هذا هو مقصده الأخير وكانت قد رسمت في مخيلتها أحداثاً أخرى فإنتظرت تحت ظل شجرةٍ كبيرةٍ حيث لا يراها حتى إنتهى من صلاته فتعقبته يخرج من الحي متجهاً نحو المدينة حتى دخل مكتبةً قديمةً فتعجبت لأمره! وأخذت تنتظره طويلاً حتى خرج بعد حينٍ حاملاً مجموعةٌ من الكتب فساد الغضب على عواطفها وكادت تأتيه لتؤنبه ذلك أنها عكفت عن ذلك بغية معرفة مقصده فتبعته مجدداً قاطعاً ذات الطريق متجهاً نحو منزلها فإرتاح قلبها وكادت تباغته من الخلف معاتبةً غاضبة إلا أنه وفي اللحظة الأخيرة إنعطف عن باب منزلها مغيراً طريقه، فتعجبت! إلى أين يذهب!! أخذت تراقبه من بعيد بينما أخذ هو الآخر يراقب نوافذ المنزل بحذرٍ شديدٍ زاد من تعجبها حتى قصد عمارة جارتها وإختفى!! أتراها طلبت منه كتباً؟.. كل هذه الكتب! أيقضي أيام العطل في جلب الكتب لها ... هكذا بإستمرار! إنتظرته قليلاً حتى تململت فصعدت إلى المنزل ثم لم تترك زاويةً أو نافذةً إلا وراقبتها طويلاً إلا أنها لم تره!! أين ذهب الطفل! شكت في ما رأته طيلة اليوم على أنها ليست بمجنونةٍ... لكن إن لم يكن ذهب إلى جارتها فإلى من؟ إلى من يذهب وهم لا يعرفون إلا "هالة"؟!... لكن هل يمكن أن تكون هنا.. جارتهما! وهو الذي يراقب عينيها من هذه الشرفات دون علمها من سنوات!؟! ألهذا كان يطالع الكتب قرب النافذة متحججاً مرةً بضوء الشمس ومرةً بالإطلالة الجميلة! أهكذا يعبر باب منزلها دون إحترامٍ لأمه أو لمجتمعه! أهي من أدخلت في عقله أن يترك غرفتها ويعلق الصور السخيفة تلك فوق سريره ثم أن يقرأ الكتب المضرة به!! أهي وراء عصيانه وهي التي أحبته أكثر منها بمئات المرات؟!

في الساعات التي تلت إكتشافها قررت ألا تواجهه بالحقيقة فلطالما ملأها كذباً وإفتراءً بل ستتركه قليلاً تتلقفه أهواؤه .. علّه طيش المراهقة فحسب!!.

-7-

جميع ما حصل كان في حسبان "جيسيكا" إلا أن تتهم اِبنتها بسرقة اِبنها منها!! أتراها مازالت بعقلها! هي التي توقعت كثيراً أن تصل صديقتها لهذا الحدّ من الخوف والتسلط على حياة أبنائها إلا أنها لم تتنبأ مطلقاً بأن تصل الأفكار بها لتجريح كرامة اِبنتها!! ومع من؟ مع طفلها الممسوح الشخصية!

اِمتعضت كثيراً لذاك الاِتهام البالي وشقّ عليها ما فعلته بها من اِهانةٍ وتجريحٍ وهي القيادية التي قدمت جلّ وقتها لرعاية هذا الطفل ريثما تنهي والدته عملها اليومي فضحت بإستقلاليتها ورمت بقضايا طلاقها وآلام المشكلات الناشبة بينها وبين طليقها لتساعد صديقة الطفولة بقلبٍ كله اِخلاصٌ وحب وها هي قد مضت اِحدى وعشرون عاماً من الوصال المستمر ثم المتقطع الذي اِستطاع اِعادة صداقة لطالما حلمتا بها حين غطى غبار الماضي عليها فزاحتاه لتا يديهما لتبدأا ما قطعته الأيام مع طفلين قضيا معظم طفولتهما سوياً فكّونا الصداقة الأولى وتقاسما الواجبات والنزه فتوضدت العلاقة ثم تبددت بعض الشيء حين كبرا فغطى الخجل على كلٍ منهما على أن الوصال اِستمر من فترةٍ لأخرى فما نسي اِسمها ولا نسيت اِسمه بيد أن تهدم شخصية الشاب قطعت محاولاته بالتقرب من صديقة الطفولة فما عاودا اللعب سويةً أو التنزه أو حتى تقاسم الحديث مكتفيين بالتحية والسلام! فكيف تبادر إلى ذهنها أن تطعن شرف اِبنتها بإتهامٍ كهذا وهي تكاد لا تذكر اِسمه بعد تلك القطيعة؟!! زاد غضبها بعد اِسترجاعها لذكريات الماضي فصممت على عدم وصالها والاِبتعاد عنها كما لو أنهما لم تلتقيا بعد ماضٍ حافلٍ بالوصال والأخوة!

غضبت "جيسيكا" كان حديثاً والأفكار تجذبها ذات اليمين وذات الشمال حين اِلتقت "سهى" بـ"مهند" في حديقةٍ اِعتادا اللقاء فيها حيث تنتصف الطريق بين بيتها وبيته فأعطاها الكتاب وهو يقول..

- أيعقل ما قرأت!! أفي الدنيا ثقةٌ كهذه... ياهٍ يا "سهى" أين أنا مما قاله الكاتب!
- ويحك! لا إنسان بلا شخصيةٍ إلا أن والدتك طمستها وعليك أنت بلورتها بكل قواك.
- وهل لي قوى؟! أنا هل لي قوى أمام جبروت أمي؟ إن كنت أزحف كالرضيع الخائف لأهرب من الكلية للقائك!

تورد وجهها خجلاً إثر قوله بيد أنه أكمل دون تنبهٍ..

- ولو أنك تدركين مخاطر قراءة كتبٍ كهذه! إذ إنني لا أنام الليل كله كي أقرأها وعندما تستيقظ أنام نصف ساعةٍ قبيل بدء الروتين اليومي وعلى هذا فإنني أشعر بأن جسدي يكاد ينهار
- ولمَ كل هذا! اِنظر إلى حالك ووجهك المصفر!! لن أعطيك كتاباً آخراً حتى تتعافى
- لا! أرجوكِ! وماذا عسايّ فاعلٌ بلا كتب! ماذا عسايّ سوى أن أقلب الأيام ككتابٍ مملٍ على عجلٍ لأرميه في حفرةٍ موحشة!! الروتين يذبحني من الوريد إلى الوريد والكلية التي أرتادها أكاد أكرهها لكثرة الحاقدين فيها على ضعف شخصيتي! .. أنا لا أرى نفسي فيها، أنا لم أخلق لأكون محامياً!!! آهٍ يا "سهى" ... أمي تغلف حياتي كهديةٍ تنتقي غلافها وألوانها واِتجاهاتها دون أن تأبه بي مطلقاً!
- اِعترض!

وبضحكةٍ اِستهزائيةٍ أجابها..

- اِعترضت للمرة الأولى حين اِستقليت في غرفتي وفي صباح اليوم التالي حرمتني أسبوعاً من الخروج إذ إنني إن خرجت سوف تعيد الغرفة إلى حيث كانت وتحرق لي كل الكتب التي تعرف أين تجدها!!
- واِمتثلت؟!
- وماذا عسايّ فاعلٌ؟! ... أنا خانعٌ كل الخنوع لأمي يا "سهى" أنا تربيت على ذلك، عشت حياتي كلها وأمي تختار لي كل شيءٍ فكيف أعترض الآن! كيف إن لم تدفعني معجزةٌ لذلك..
- والكتب أليست معجزة
- أجل معجزةٌ دفعتني لأرفض مبيتي اليومي كطفلٍ قربها لذلك أتوسل إليك ألا تقطعيني عن الكتب يوماً!

وتفرقا بغية عدم تأخرهما لتترك بين يديه كتاباً جديداً مثيراً لغلافه وممتعاً نظراً لعنوانه فتعجل الخطوات متشوقاً لقراءته ومعرفة ما يخفيه وعلى هذا التشوق قضى الليل وهو يقلب صفحاته على عجلٍ منجذباً كل الإنجذاب إليه حتى شعر بقلبه يرتجف وروحه تتحد مع روح الكاتب الذي ذُكر في بداية الكتاب أنه توفي من زمنٍ قريب!. ظل على هذا الحال حتى مطلع الفجر فاِستيقظت والدته بيد أنه على غير عادته تملكه شعورٌ غريبٌ بالرغبة في اِكمال الكتاب حتى الصفحة الأخيرة وما أن سمع والدته تغلق باب المرحاض حتى قفز من فراشه واِرتدى أي شيءٍ وجده أمامه ثم كتب ورقةً كبيرة الحجم بأحرفٍ مفهومةٍ وخطٍ واضحٍ علقها على باب الثلاجة مفادها بأنه خارجٌ بعض الوقت وسيعود قريباً!!

وخرج من المنزل مهرولاً وبين يديه هذا الكتاب الثمين فترامى إلى سمعها صوت باب المنزل وهو يغلق فخرجت راكضةً مناديةً عليه فلم تجده ثم لمحت الورقة فإستشاطت غضباً ولعنت الحب وأقسمت بأنها ستبعده عمن أحبها مهما كلف الثمن!!.

كان أقرب ملاذٍ له بعد بيت "هالة" الذي لم يفرغ بعد من سكانه، تلك الحديقة التي سمعت قصة حياة والدته دون علمه فإتجه نحوها وتبسط عشبها تحت إنبساط الشمس ونسيم الرياح المحملة برائحة الزهور مداعبةً أوراق الشجر فرأى في هذه البقعة الصغيرة والكتاب الضخم مفتوحٌ أمامه فرحةً ما بعدها فرحة فرفع قدميه عالياً ووضع الكتاب أمامه فوق العشب وأخذ يقلب الصفحات بنهمٍ للمزيد وقد تغيبت عنه أصوات الأطفال المزعجة وغطته الشمس بدفئها اللذيذ وضوئها المشع وأحاط العشب بالكتاب فأضاف لمسةً شاعريةً أراحت قلبه وهدأت جنونه وأخذ يقرأ بقليلٍ من الهدوء تزايد شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى الصفحة الأخيرة دون أن تمتلئ روحه بما قرأ!!

حمل الكتاب جالساً على العشب محاولاً التركيز فيما حدث ... ما هذا السحر الذي بين يديه! ولِمَ روحه تقفز كأنها وجدت خليلها!!! ... تنبه للشمس بعد أن فتح ذراعيه مستنشقاً الهواء رافعاً رأسه عالياً وقد تنحت عن منتصف السماء، أي أن الوقت قد تجاوز منتصف الظهر!!! وقد ترك المنزل مسرعاً مع مطلع الفجر فكيف تكون حالة أمه الآن؟! وكيف يتصدى لجنونها وعواقب تهوره!! على أنه كان في قمة السعادة لهذا التهور فقد وجد أخيراً ما تتلهف له روحه! وكيف لا يتهور وروحه لمثل هذا الكتاب ظمآنةٌ وقلبه يدفعه نحوه كأنه يعترف بأنه وجد الحلم في نهاية الطريق مشعلاً القناديل قنديلاً قنديلاً حتى أمسك الحلم بين يديه فإنقطع سرد الكاتب ليترك له حرية البداية كيفما شاء! كيف يترك الحلم راكضاً إلى سجن والدته؟! وأي قوةٍ في الأرض تستطيع الآن رغم ضعفه أن تمنعه عما يريد؟!!.

سلك الطريق إلى المنزل مخفياً الكتاب تحت سترته علّ والدته لا تراه، ولأنها لم تعطه يوماً مفتاح المنزل إضطر لإنتظارها حتى تفتح له الباب! فإستقبلته بوجه ملؤه الشر تلمع من عينيها شرارة الغضب فتقصد التوجه إلى غرفته كأنه تضايق من إستقبالها بغية إخفاء الكتاب فصرخت بصوتٍ ملأ المنزل حتى ترامى إلى "هالة" فركضت إلى النافذة تراقب ما يجري..

- أعلم بأنك كنت معها!!

اِلتفت الشاب نحوها بشكلٍ لا إراديّ متعجباً من قولها..

- أجل كنت معها.. ترمي بأمك لأجل حقيرةٍ تعلمك عصياني وأنا التي ربيتك حتى كدت أهرم!

فبادرها الشاب بنبرةٍ بين مستهزأةٍ ومتعجبة..

- أية فتاة!!

وفجأةً لمحت هيئة الكتاب تحت سترته فاِنبهرت واِتجهت نحوه بخطواتٍ عجلى كأنها علمت مسبقاً بما يخفيه! فأدرك نيتها وأمسك الكتاب بكلتي يديه ليمنعها عنه على أنها شدته حتى اِستبان جزءٌ منه فاِستطاع رده بتفوق قوته عليها مبتعداً عنها بخطوتين للوراء كالمصدوم متأتئاً..

- ماذا دهاكِ!

على أنها تقدمت نحوه دون أن تستطرد بحرفٍ واحدٍ لتلطمه على وجهه بكل قواها! حينها أفلت الكتاب من شدة صدمته لما فعلته فوقع أرضاً دون أن يعطيه أي اِنتباه، فقط كان ينظر إلى وجهها .. هي أمه، فلِمَ كل هذه القسوة!! ... حينها أمسكت بالكتاب على الفور متجاهلةً صدمته متجهةً نحو المطبخ عائدةً بعد ثوانٍ وقد أشعلت ورقةً من الكتاب منتظرةً أن يكتمل اِحتراقه!!!

اِمتلأت عينا الشاب بالدموع والتفاجؤ فقال بصوتٍ جهوريّ لم تعهده والدته منه...

- ماذا تفعلين يا مجنونة!! الكتاب ليس لي ... منك لله، منك لله..

شدّ الكتاب المحترق من بين يديها دافعاً اِياها نحو الأريكة محاولاً اِطفاء النار أثناء خروجه من المنزل وقد تسربت الدموع مبللةً ذقنه!. في تلك الأثناء كانت "هالة" تراقب تطور المشكلة بفضولٍ واِهتمامٍ شديدين وما أن ترامى إلى سمعها صوت اِغلاق الباب المجلجل حتى خمنت خروجه فنزلت درج المبنى على عجلٍ مارةً بزهورها غير آبهةٍ بهم حتى أدركته وقد اِشتدَّ به البكاء حاملاً بين يديه كتاباً قد تصاعد من جوفه الدخان! فأمسكت يده كطفلٍ صغيرٍ لتقوده إلى منزلها حيث اِزدادت نوبة بكائه فتركته يفرغ ألمه حين أخذت تحاول معالجة الكتاب محافظةً عليه قدر اِستطاعتها، حتى هدأ الشاب فبادرها بسؤالٍ لطالما أخافها...

- أنا لم أسالك مسبقاً ... لا لوم عليك... اللوم على أمي، كل اللوم عليها! أأخبرتك أمي من أنا يا خالتي.. اِبن من؟ أبي من؟ أجدادي من!!! ... أخبريني إن كان لكِ علمٌ بأصلي؟!

توقفت عينا "هالة" لحظةً عن الحركة عندما سمعت سؤاله المتأتئ تحت تأثير البكاء فإزدردت ريقها ثم تقدمت لتتكئ على الأريكة القريبة منه وقالت بصوتٍ هادئ..

- ولماذا يهمك الماضي إن كانت مشكلتك معها .. هي وحدها!
- مشكلتي معها بدأت قبل أن أولد! ... بدأت في الماضي وإن لم يكن لك علم بالإجابة فسأبحث عنها حتى أجدها ولو بعد حين!
- ليست مشكلة والدتك الماضي يا بني، مشكلتها في خوفها من فقدك..
- لا .. لا يا خالتي!! مشكلتها في أنها تخفي عني من أبي! كيف شكل جدي! .. هل لي خالةٌ وماذا كانت تعمل جدتي!! .. أريد أن أعرف من أين جئت .. وهل وجهي شبيهٌ لأحدهم، لخالي، لجدي، لأحد أبناء عمها..!!. هذا حقي .. حقي وعليّ أن أعرفه!

رضخت الجارة لجنون الشاب ورغبته العنيدة وبهدوءٍ شديدٍ سحبت شهيقاً عميقاً قبل أن تقص عليه الماضي بإختصارٍ مشددةً عليه بسرية الأمر، فقالت وقد بدا على وجهها رغم لجمها لمشاعرها الإضطراب..

- أمك يا بني فتحت عينيها على ملجأ رماها به أحد أقربائكم بعد وفاة والديها في حريقٍ نُشب في منزلهما الذي زارته قبل سنواتٍ لتجده كما تُرك إلا من بضعة آثارٍ جديدةٍ لم تُعرف لمن! ... لقد عانت والدتك الأمرين في ذلك الملجأ، عُنفت، ضربت، أُهينت .. وحُرمت من أبسط حقوقها ... لقد عانت ما لا يمكن لإنسانٍ له والدين أن يتخيله، وفجأةً ومن اليأس أشعل والدك بصيص الأمل ذات صباح ليحملها من عذاباتها إلى منزلكم متقاسماً معها أجمل لحظات حياتها إلى أن تدهورت صحته ذات يومٍ حتى بدت خطيرة ليكشف الطبيب ورماً خبيثاً تفشى في رأسه وذلك حين كانت حاملاً بك، في الشهر السابع على ما أذكر (صمتت فجأةً ... ثم أكملت بصوتٍ مختنق) توفي والدك بعد عذابٍ مريرٍ مع المرض وعقبه إنهارت المسكينة حتى خِفتُ فقدانك إلا أنها وجدت نفسها في غابةٍ ملؤها الذئاب فساندت ضعفها لأن لا يد إمتدت لتعاونها! فإفتتحت دكانكم قبل ولادتك ببضعة أسابيعٍ مستعينةً بآلة الحياكة التي كانت آخر هدايا والدك .. الآلة المركونة دائماً على الرف الخشبي كتحفةٍ في منتصف الدكان!

هزّ رأسه بالإيجاب دون أن يعينه صوته على الإجابة!

- فعلت ذلك كله لتهبك حياة كريمة ... لقد قاست كثيراً في ذلك الملجأ يا "مهند"، قيل بأنه أسوأ الملاجئ على الإطلاق!! لقد خافت أن تربيك فتنقص ما سرقوه منها! أو أن تهملك كما أُهملت في صغرها فإهتمت بك حدّ جنونها بذلك!

اِستمع الشاب لكل حرفٍ قالته الجارة فبدا لوهلةٍ حيرانَ فسألها..

- و"جيسيكا" صديقة والدتي من الملجأ أم من الدكان!
- من الملجأ.
- ولمَ لم تحدثني أمي عن كل هذا ببساطة؟!
- ربما خافت عليك! ... ربما خافت أن تستعرّ من ماضيها! ... وربما ماضيها ليس بسيطاً لتبوحه بهذه السهولة!!
- أن أستعرّ من أمي!!
- ربما فكرت هكذا..
- أنا!! ... ياهِ يا خالتي، كم أمي غريبة الأطوار! لقد عانت .. أنا أتفهم ذلك لكنني أريد أن نحيا سوياً حياةً كسائر الناس، أن نتعاون فتنجو من ماضيها لنعيش ما تبقى من أعمارنا بهدوءٍ وسعادةٍ لا توصف كأي أمٍ لا تملك من الدنيا سوى اِبنها!! .. لِمَ هي قاسيةٌ على ذاتها .. تماماً كما عليّ؟!!
- إنه الخوف يا بني من أن تفقدك أو تنقص عليك شيئاً..! أنا أعلم بأن الأمر مدمرٌ ومؤلمٌ لشخصيتك ولنفسك ذلك أنها غير قادرةٍ على رؤيته بهذا الحال! هي تراه الطريقة المثلى لتربيتك...!

صمت قليلاً ثم تساءل بعينين معلقتين بالأرضية اللمّاعة..

- بيت أجدادي!! وآثار من..؟؟ أخبريني أكثر يا خالتي ..
- أجل بيت أجدادك الذي زارته والدتك قبل سنواتٍ كثيرة .. لازال ملكاً شخصياً مهجوراً ولم أسألها لِمَ لم تشيده من جديد، لقد تركته كما وجدته؛ ماضٍ محترق!!
- وآثار من تلك؟!
- لا أحد يعلم!
- أيعقل أن يكون أحد أقربائها؟! هي لِمَ لا تبحث عن أحدٍ من أسرتها؟!
- توفوا جميعاً في الحريق ومن تبقى كان موافقاً على زجها في الملجأ لذا لم تبحث عن أحد!
- أمم ... أتعلمين أين المنزل؟!
- أجل إنه على التلة الغربية حيث البيوت المتوحدة الطوابق كالفيلا، والمنزل لا داعٍ لوصفه فهو واضحٌ وضوح الشمس...

صمت كأنه عازمٌ بغضبٍ وثقة ... ثم اِسترجع أحداث اليوم فعادت غيمة الحزن تخيم على وجهه فتأوه بألمٍ..

- آهٍ ... أيعقل أن تحرق أمي كتاباً قيماً كهذا وهو بالأصل مستعار!!
- ألم تكتفِ من الكتب التي تقرؤها عندي! بالله عليكَ ألا تكفيك؟
- إنه شيءٌ غريبٌ يا خالتي... إنه ليس كتاباً كسائر الكتب!
- وماذا به؟ شوقتني..
- إنه يتحدث عن فنٍ يدعى "الكاريكاتير"! فنٌ أقرأ عنه للمرة الأولى رغم أنني شاهدت منه الكثير ولكن اليوم سلب مني الروح قبل العقل!
- وهل تهوى الرسم؟!
- لم أجربه في حياتي ولم أهوه يوماً!! إلا أن فناناً كهذا دبّ في روحي اللهيب والتشوق
- أتريد ورقةً وقلم؟!
- أتراني أنجح يا خالتي؟
- الحلم يا بني هو أن ترى روحك تسبقك إليه... هو إن قرأت كتاباً عنه نسيت العالم وأنت تبحث عن ذاتك فيه... هو أن تعاند الدنيا لتصل إليه..
- وهذا ما حصل معي... إنني أشعر كأنني وليدٌ جديد تشع منه الطاقة والإيجابية وحب الحياة...؛ أيمكن أن يكون هذا هدف حياتي الذي خلقت لأجله؟!
- لا يمكنني التيقن من ذلك إلا بعد التجربة!.. وهاك هذه ورقةٌ وقلمٌ إرسم حتى تمل وعند عودتي سأخبرك إن كان هدفك أم لا!

همت بالمضي لكنه إعترضها بسؤاله الأخير قائلاً..

- أنا أتفهم بأن ماضيها أبشع مما يمكن أن أتخيل ... ولكن يا خالتي، أتظنين بأنها يمكن أن تتغير؟

إبتسمت إبتسامةً حائرةً ثم قالت..

- ربما!

وخرجت دون أن يسألها الشاب إلى أين فقد جلس كأنه يؤدي رياضة اليوغا مفكراً في شيءٍ مناسبٍ لأول رسمة كاريكاتير بإسمه، وقد أخذت الفكرة الأولى الكثير من الوقت حتى وجد أمراً مناسباً آخراً دون أمه! فبدأ الرسم بحذرٍ كأنه يمشي على خيطٍ مستقيمٍ يفصله عن حلم حياته بينما أخذت "هالة" طريقها إلى جارتها تدق الباب عليها لتفتح الأخيرة وعيناها محمرتان من البكاء فدخلتا وتحدثتا مطولاً ثم أخبرتها بأنه في منزلها يحاول البحث عن هدفٍ لحياته فتملكها الخجل وربما الغضب على أن الجارة لم تدرك إلا و"نورا" تطرق الباب بشيءٍ من التعجل ففتح الشاب

الذي ظلّ دون اِنتباهٍ منه وحيداً في منزلها ليرى أمامه أمه بشعرٍ أشعث وعينان ملأتا بالدموع فتنحى كي يدعها تدخل فأسرعت نحو غرفة الجلوس حيث وجدت الكتاب المحترق كأن فجوةٌ حفرت بداخله! ثم رنت إلى الطاولة الخشبية فوجدت ما يقارب الخمس رسماتٍ كاريكاتيريةٍ متقنة! أمسكت بهم واحدةً تلوَ الأخيرة بينما تراقبها "هالة" وعينا "مهند" بقليل من الفرح وكثيرٍ من الاِرتباك والخوف! ثم اِلتفتت إليه متسائلةً من رسم هذه الرسومات فأومأ لها برأسه أن أنا، فتبسمت وأثنت عليه ثم اِندفعت إليه لتضمه معتذرةً شارحةً خوفها عليه فبادرها بالصمت علامةً للاِنزعاج والضيق.

ثم لم تسأله خجلاً من أعاره الكتاب فذهب إلى حيث تواعدا هو و"سهى" وقصّ عليها ما جرى قبيل رؤيته بعينيها فطبطبت على كتفه بشيءٍ من اللطف مشجعةً خوفه فوضع الكتاب بين يديها وكان من الخارج كأنه جديدٌ إلا أنه من الداخل متآكلٌ محترق! فترقرقت الدمعة في عينيها لشدة حبها لكتبها فأقسم بأنه لن يستعير منها كتاباً مرةً ثانيةً فرفضت تاركةً بين يديه كتاباً جديداً قبل أن تغيب عن ناظريه!.

-8-

اِستمر الشاب على مرأى من عيون أمه بالتعلم والتدرب على الرسم يوماً إثر يومٍ فغدا وقت المطالعة وقتاً للتدرب على أنه لم يفرط بتلك الأوقات الثمينة فأصبح بيت "هالة" ملجأه الوحيد إن كان الكتاب مستعاراً من "سهى" أو كتاباً من كتب "هالة" فكانت تهيئ له الجو محضرةً فنجان قهوةٍ مشعلةً الأنوار وأغاني "عبد الوهاب" الذي كان من عشاقه ليغوص في حلمه كتاباً يتلو كتاباً حتى أنه بعد عدة أشهرٍ من اِحتراق كتاب "سهى" كان قد أجهز على جميع الكتب التي وجدها في المكتبة القريبة تلك التي خصصت عن فن "الكاريكاتير" فغدا أكثر اِحترافيةً إذ لم يجد جهداً في خلق الفكرة أو تجسيدها برسوماتٍ طريفةٍ ومفعمةٍ بالمعاني فتحولت جدران غرفته من باهتةٍ ميتة لجدرانٍ تغزوها الحكايا بعد أن علق جميع تجاربه الفاشلة منها والناجحة هنا وهناك، فاِمتلأت الغرفة حتى أصبح الأمر مستفزاً بالنسبة للأم التي لم تؤمن بعد بقدرة طفلها الصغير على اِحتراف فنٍ لا تفقه منه شيئاً! هي تحب رسوماته لا شك... تجد فيها روحاً ومعنىً إن فهمتها على أنها ترفض دون شعورٍ منها الإيمان بقدرته راغبةً كل الرغبة بإرجاع طفلها المطيع الذي لا يخطو خطوةً إلا كما خططتها... هي لم تره طيلة حياتها إلا طبيباً أو محامياً، فكيف يصبح بمجرد كتابٍ رساماً كاريكاتيرياً!! أين الأحلام التي زينت بها محاولاتها! أين الطفل الذي لمع في عينيه

مستقبلٌ باهرٌ مشرق! أينتهي به الأمر رساماً لا يعرف إلا اِنتقاد الآخرين بِإظهار عيوبهم في رسوماته المنتفخة الرأس والضيقة الفم!! لكنها إن نوت منعه كيف تستطيع! وكيف لها القدرة على اِرجاعه لمحاضراته وقد شارفت السنة على الإنتهاء!!... كيف يستطيع شابٌ أن يكمل اِمتحاناته على أكمل وجهٍ إن كان يركض خلف الرسم والكتب؟! .... وربما الحب!!

*****

"سهى" كانت نعمة "مهند" على الأرض وهذا تماماً ما شعر به حين وهبته كتاب أحلامه ثم حين قبلته محترقاً دون أن تتوقف عن وهبه نعمها ككتبها وحبها الصافي لرسوماته وتسميته بلا مجاملةٍ مبدعاً! ... وكانت آخر نعمها العظيمة اِتصالها ذلك العصر بمنزله إذ لم يكن معتاداً على ذلك ولا هي على أنها أجبرت فنكّرت صوتها وخشّنته ليصبح أشبه بصوت شابٍ معتقدةً بأن "مهند" يملك من الأصدقاء الكثير فكان المجيب كما توقعت "نورا" التي لم تصدق في بادئ الأمر أن أحداً يطلب محادثة اِبنها! من؟! وهو لم يستقبل هاتفاً واحداً طيلة حياته!!

مررت إليه الهاتف وكلها آذانٌ صاغيةٌ، كلمها كأنها شابٌ من أصدقائه..

- أهلا أهلا "سعيد"! كيف الحال؟
- أنا أسفة لأنني اِتصلت بك لكن الأمر مهم!
- لا عليك يا رجل! قل لي ما لديك؟
- علينا أن نتقابل
- متى؟!
- متى تستطيع؟

نظر إلى أمه بشيءٍ من الرجاء حابساً سماعة الهاتف بيديه طالباً منها الخروج فتجهم وجهها لكنه أعاد عليها الطلب متوسلاً متحججاً بأن أمراً مهماً يريد أن يخبره به "سعيد"! فوافقت بعد جهدٍ جهيدٍ على نصف ساعةٍ لا أكثر فقفز قلب الشاب ورحل قاصداً الحديقة المعتادة للقاء ومازال طيلة الطريق يحاول تخمين الأمر المهم لكن دون جدوى حتى وصل إلى الحديقة فوجدها مشرقة الوجه بِإبتسامةٍ لم يعتدها لشدة سعادتها وجمالٍ لم يستطع يوماً نكرانه! فجلس قربها بعد أن مدّ يده بالسلام ثم قال على عجلٍ..

- لدي نصف ساعةٍ فما الأمر؟!

- خذ نَفَساً يا رجل! لازال معنا نصف ساعةٍ إلا ثوانٍ!
- بالله عليك طيلة الطريق وأنا أحاول تخمين أمرٍ مهمٍ يدفعك للاِتصال بي إلى المنزل، وفشلاً لم أعرف السبب!
- وما فهمته!
- "سهى" بحق الله قولي!! أشعر بأن أمراً مهماً حصل
- سيحصل..
- وما هو؟!
- أول وظيفةٍ لك على يدي!
- وظيفة!

صرخ دون أن يضبط نفسه وعلت على وجهه اِمارات السعادة القصوى وفهم فوراً لِمَ اِعتلتها تلك الفرحة العارمة والضحكة الجميلة أول ما اِلتقيا ... وظيفة! له هو؟!

- وكيف حصل ذلك! وظيفة ماذا؟!
- رسام كاريكاتيرٍ في الجريدة الرسمية للمدينة
- جريدة المدينة .. كيف حصل ذلك!
- لقد سرقت بضعة رسوماتٍ منك وأخذتها إلى الجريدة فدهش المدير عندما شاهدها وطلب مني جلبك بأسرع وقت ممكن!
- يا لعينة! ومتى يريد مقابلتي؟
- غداً
- إذن غداً... أراكِ أمام الجريدة يا حلوة!

تورد وجهها لشدة الخجل على أنه قال ما قاله بداعي الغبطة والسعادة اللتان ملأتا قلبه فعاد إلى المنزل مدندناً قافزاً طيلة الطريق من شدة الفرح حتى ظنه الناس مجنوناً!. وعلى عتبة الباب كانت والدته تنتظره فزاد تعجبها حين رأته سعيداً يقفز في خطواته فشكت من فورها في الهاتف الذي أتاه وندمت ندماً شديداً لعكوفها عن ملاحقته إذ إنها وجدت الشمس قد غابت وما من داعٍ لملاحقته تحت عباءة الليل وخاصةً بعد أن سمعت صوت صديقه بأذنيها! لكنها الآن تراه سعيداً يقفز فرحاً أتراها حرضته عليها مرةً أخرى.. أتراها تقطن في عمارة "هالة" فلماذا إذاً جاء من هذا الطريق؟!. راودتها أفكارها السوداء محيطةً بضعفها وخوفها كضوءٍ تسلطت عليه فراشات الحيّ لكن دون أن تحرق اِحداهنّ، اِحترقت هي غضباً وحيرةً.

- ما الذي أخرك!
- وظيفةٌ يا أمي وظيفة..!

قالها وضم والدته التي لم تستطيع اِدراك الأمر بعد فأمسكت كتفيه ودفعته حتى تواجها..

- وظيفة من؟!
- لي.. وظيفة لي في الجريدة الرسمية للمحافظة كرسام كاريكاتير وغداً مقابلتي

سعدت الأم بهذا الخبر فزالت عنها الأفكار وغرقت في فرحة طفلها الذي وجدت في وظيفته أمراً هنيئاً لا تعيساً، على غير عادتها! فصفقت بكلتي يديها وقررت أن تطهو لأجل هذا الخبر السعيد الحلوى فاِحتفلا ليلتها حتى تمكن منهما النعاس وخلدا إلى النوم حالمين بيومٍ جديدٍ ووظيفة الأحلام!. وفي الصباح اِهتمت الأم بأناقة اِبنها فكوت قميصه بيديها ورشت على عنقه العطر وربطت الكرافة بعنايةٍ حتى غدا شديد الأناقة والاِنبهار لرقة والدته واِهتمامها غير المسبوق!! وكانت لحظةً قليلاً ما تمر بينهما فنطقت بما لم يسمعه سابقاً منها لكأنها تحدث نفسها..

- "هيثم" كان رجلاً قوياً ولولا قوته لبقي اليوم بيننا! فقد أبى الذهاب للمشفى حتى داركه المرض فلم يستطع حتى رؤيتك بالإيكو على أنه هو الذي سماك فوضع يده على بطني ليباركك ثم قال لك بالحرف الواحد " ليتني أستطيع أن أراك يا"مهند"!". والدك رجلٌ محبوبٌ وعاشقٌ رقيق القلب فكان يتفهمني ويحتضن ضعفي إذ إنني كما أخبرتك "هالة" فتاة ملجأ... أخذت مني الدنيا والديّ بحريقٍ فرماني أحد أقربائي أمام هذا الملجأ ولولا لطف الله لمت تحت عاصفةٍ قوية! وأنت اِبني أرعاك أكثر من روحي حتى لا تشعر مرةً بما قاسيته في صغري... لقد قاسيت يا طفلي ما قد لا تستطيع اِمرأةٌ مثلي مقاساته من زجرٍ وضربٍ وحبسٍ وتجريح.. الماضي الذي تراني خرجت منه خائفةً ذلك لأنه يستحق الخوف، يستحق أن أخاف بأن تصل إليه أنت لذلك لم أخبرك عنه فتركت لك الماضي جميلاً غريباً مختفياً خلف أفقٍ من التخيلات الجميلة على أنه كان أسود أليماً مليئاً بالأسى... أنا لا أظلمك يا بني، أنا فقط أحميك. أحميك من مجتمعٍ لا تريد أن تختلط به لأنه مجموعةٌ من الأنفس الحقيرة، أرواحٌ لا ترى في الآخرين سوى الأموال والشهوات والتسلط... أنا تعرضت لكل هؤلاء ومازلت أحارب في هذه الحياة بعد فقدي لوالدك علّني أصل بك لبرٍ آمنٍ إن أغمضت عينيّ ولم أفتحهما ثانيةً تؤمن روحي بأنك آمنٌ من كل ضرر... بأن مستقبلك مبنيٌّ على أساسٍ صلبٍ ومعرفةٍ عامةٍ وشهادةٍ رفيعة المستوى لذا أطلب منك وكلي رجاءٌ أن تكمل دراستك وإني سعيدةٌ للغاية بعملك فهذه خطوةٌ رائعةٌ رغم عدم موافقتي عليها بشكلٍ كاملٍ إلا أنها إن تعارضت مع دراستك فسألغيها... اِتفقنا!

هز الشاب رأسه موافقاً متأثراً بحديث والدته عن ماضيها ومعاناتها... متفهماً أسلوبها القاسي على رفضه له ومعاناته منه!.

*****

اِلتقيا بعد ليلةٍ حالمةٍ أمام مبنى الجريدة فتحدثا عن ردة فعل "نورا" ثم صعدا سويةً إلى غرفة المدير الذي اِستقبله بحفاوةٍ واِبتسامةٍ عريضةٍ بينما تلبك الأخير! فشخصيته الضعيفة وقلة معاشرته للناس واِختلاطه البسيط بالمجتمع جعلت الأمر مربكاً للغاية! ثم عرض عليه أعماله التي اِنتقاها بعنايةٍ شديدةٍ فاِنبسطت أسارير الرجل وافترت شفاهه عن اِبتسامةٍ عريضةٍ كلها رضى فجلب العقد الذي حضّره ليطّلع الشاب عليه فاِستعان الأخير بصديقته التي شجعته على توقيعه ليتعاقد مع أول شركةٍ تدعم حلم حياته حديث الولادة!

الرسام الكاريكاتيري "مهند"؛ هكذا وضع اِسمه على مكتبه في غرفةٍ مشتركةٍ مع صحفيةٍ في مثل سنه. المكتب الذي تقاسماه كان مطلاً على طريقٍ عامٍ لا يتوقف ضجيجه مطلقاً على أن شجرة صنوبرٍ تطاولت حتى حجبت نصف الرؤية ووهبت للناظرين اِطلالةً بهيةً مريحةً للنفس، وكان المدير على كبر سنه وخضرمته لطيفاً ودوداً فلم تنقطع الإبتسامة يوماً عن شفاهه فرأى الشاب في هذا المكان جلّ رغبته وهدف حياته فأعطى من مجهوده الخاص كل طاقته واِنشغل عن المطالعة في كثير من الأحيان وهو يتدرب ويجرب أفكاراً جديدةً وطرقاً مميزة، وعلى هذا قضى وقتاً طويلاً ذلك أن كل هذا العمل الشاق والمجهود الواضح لم ينسه دقات قلبه! كيف ينساها، وتقابله كل صباحٍ فاتنةٌ كـ"مروى"! تجلس خلف مكتبها المقابل لمكتبه فتلتقي عيناهما عدة مراتٍ دون أي مبررٍ... وما الخطأ إن تلصص على عينيها وهي تدقق اِحدى مقالاتها؟! أو ما المعضلة في قصهنّ من الجرائد واِلصاقهنّ في خزانته التي بدأ يقفلها خوفاً من عيون أمه! ولا بأس لديه إن كانت تكبره بقليلٍ، كسنة أو أكثر من ذلك بنصفٍ آخرٍ فعيناها الزرقاوان تبحران به نحو الحب لا محال! وغمازتاها اللتان قضمتا من خديها قدر حفرتين جميلتين يقتلانه كلما ضحكت.. هو لابدّ أحبها! وكيف يكون لهذا الشعور العنيف أي اِسمٍ آخرٍ؟ لذا قصد المكتبة بلهفةٍ ليستعير كتاباً يتحدث عن الحب فوجد بعد اِنهائه أنه يملك كل المواصفات والمشاعر الملائمة لعاشقٍ! يا إلهي... هو يحلم بها غالباً! ويتأنق أيَّما تأنقٍ ليلقاها ويتعجل المضي إلى عمله كي لا تراه لاهثاً أو متعباً! هو يحاول اِظهار نفسه بأفضل صورةٍ علّها تعجب به فتبادله المشاعر على أن الخوف الذي ملأ شخصيته لابدّ تجلى لها كعين الشمس في تصرفاته، فهو متأكدٌ بأنها في كثيرٍ من المرات لمحت يديه ترتجفان إن قدم لها فنجان قهوةٍ اِنكب نصف ما فيه على حواف طبقه! أو حين يأتيها آخذاً رأيها بأعماله فيتأتئ متلبكاً حتى تحمر أذنيه! "ما باله ضعيف الشخصية لهذا الحد؟ ألا يستطيع المدير وضعه في غرفةٍ منعزلةٍ علّه يستريح!!" ناقضته "مروى" في مشاعرها فأشفقت

عليه وتبسمت له بداعي تهدئة تصرفاته المرتبكة!! ومر على عمله شهران كاملان لم يدرس فيهما حرفاً على حرف ولم يقرأ خلالهما كتاباً واحداً! فأصبحت الدنيا له رسومات وعيون زرقاء جميلة! كان يعد هذين الشهرين أجمل شهرين قضاهما في حياته بين حلمه الذي لم يمضِ على اِكتشافه له ستة أشهرٍ وقلبه الذي لم ينبض طيلة العمر إلا من شهرين كاملين..

نبضةٌ إثر نبضة، وضحكةٌ تتلوها ضحكة ... غمازةٌ ورمشٌ طويلٌ ونظرةٌ ذبّاحةٌ؛ هكذا خيّم الحب على قلبه الخائف كغيمةٍ لا تنفك تمطر لينبت من قلبه الجاف بساتينُ وورودٌ وينابيعُ عشقٍ فياضٍ لا ينضب! ... الحب هو أن تصل لمرحلة الجنون لأجل من تحب، هو أن تهرب ليلاً قاصداً منزله لتقف تحت شرفته متأملاً من الله أن يستيقظ لتراه إذ إن القلب اِشتاقه من الصباح للصباح! ... هو أن تبدع في ما حلمته فقط لتبقى بقربه! وأن تنجح في عملك فقط لكي تراه كل صباحٍ وتعشقه كل مساء! أن تتأمل اِسمه حرفاً يتلوه حرف ثم تقبل كلماته وتعيد تلاوة أقواله حتى تحفظهم ... الحب هو أن تكون شجاعاً ... والشجاعة التي اِمتلكها "مهند" كانت هزيلةً تحتضر! إذ قضى بجنونٍ ليلتين من كل أسبوعٍ أمام منزلها لا يحرك عينيه عن شرفتها متضرعاً إلى الله أن يحميها متذكراً كل تفصيلٍ من تفاصيلها التي مرت به هذا الصباح، وهكذا لم يجد لمشاعره الملتهبة ملجأ سوى خالته "هالة" التي اِستقبلتهنّ بصدرٍ رحبٍ وآذانٍ صاغيةٍ كما هي دائماً فأطلعها على صورتها ومقالاتها وأخبرها بزيارته لمنزلها ليلاً... أخبرها الكثير مما حصل لقلبه خلال أشهر العمل التي تزداد بسرعةٍ تتوازى مع تضخم حبه فتعجبت شديد التعجب لعدم معرفة الفتاة بمشاعره!

- ألم تلمح لها؟
- خفت يا خالتي..
- الحب والخوف لا يلتقيان يا "مهند" عليك أن تخبرها

صمت مفكراً بما قالته على أنها قطعت سلسلة أفكاره بسؤالها..

- ما رأي "نورا"!
- لا تعرف البتة!
- وكيف تخرج في الليل إذن؟
- بعد نومها أسرق المفتاح وأذهب، لأعود قبيل موعد اِستيقاظها
- وما رأيها بدراستك؟!

تأفف بضيقٍ بدا واضحاً على ملامح وجهه ثم اِستطرد قائلاً..

- كل صباحٍ تخلق مشكلةً، ومع الغداء مشكلةً أخرى، وقبيل النوم أيضاً!! هي تكره عملي، تلومه على تقصيري في دراستي وأنا للحق يا خالتي لا أريد اِكمال دراستي!! لقد عكفت عنها وهويت الرسم وعينيها!!
- أتراها تقبل بك إن لم تكمل تعليمك؟!
- وما أدراني!! على أنني الآن أريد الراحة... أريد أن تتوقف أمي عن الشجار يوماً واحداً! كما أريد بنفس القوة أن تحبني "مروى" لكنني أشعر ببرودها وشفقتها عليّ إذا اِضطربت وهذا ما يثير جنوني ... أنا أحبها يا خالتي هذا الحب الذي لم أعهده يوماً كأن أتأمل اِسمها بالساعات متنعماً بطريقة كتابته!! ... ماذا أفعل، أنجديني!

صمتت الجارة متعجبةً لهذا الحب الشديد تجاه اِمرأةٍ لم تبادله شعورها يوماً لذا خمنت بأن ضعف شخصيته جذبه إليها بشكلٍ مبالغٍ به كملجأ من غضب والدته وجنونها

- عليك بأمرٍ واحدٍ .. أن تخبرها يا بني، أن تجمع قوتك في لحظةٍ واحدةٍ وتطلق روحك نحوها! هذا هو الحل..

وهكذا دارت الأيام، بين محاولات "مهند" الفاشلة إذ كلما اِستجمع قواه وجاور مكتبها وهمّ بالاِعتراف نظرت إليه بعينيها المسحوبتين كعينيّ النمر، كبيرتين زرقاوين فقتلتاه وكالأبله ظلّ قربها متلبكاً صامتاً لا ينطق!! ، وبين مشاجرات والدته التي لم يعد يجد لها سبيلاً للتحمل فمرةً تمزق له رسوماته ومرةً توقظه على شجارٍ ومرةً ترمي بكتب الدراسة أرضاً وأخيراً يجدها بالصدفة تحاول فتح باب خزانته فشن شجاراً معها حتى غادر المنزل ولم يعد حتى اليوم التالي! فقضى الليلة أمام منزل محبوبته وهمّ في الصباح ذاهباً إلى عمله بوجهٍ منهكٍ فبادرته "مروى" بالسؤال..

- وجهك متعبٌ، أأنت على ما يرام؟!

فوجد في سؤالها بلسماً يشفي آلامه، وفرح فرحاً شديداً لاِهتمامها وملاحظتها لأرقه..

- على ما يرام طالما أنت على ما يرام!!

قالها وبعد لحظاتٍ فهم ما تجرأ على قوله فتورد وجهه لا بل اِنقلب أحمر كاللهيب بينما بدا التعجب والخجل واضحاً على ملامحها فلم يستطع التبسم تعقيباً لقوله بل حاول التظاهر بالاِنغمار في عمله مخفضاً رأسه نحو الأوراق فتنحت هي كأنها تريد اِكمال الحديث فاِقشعر بدنه وتزايدت نبضات قلبه وأخذ يحاول مد بصره إليها بيد أن الخوف منعه فبقي مخفض الرأس مرتجف الجسد حتى شعر بيدٍ وضعت على كتفه فاِنبهر لجرأتها ووجه بصره إليها بذهولٍ فتراءت له جميلة الوجه بعينيها الخلابتين متبسمةً لتنغرس الغمازة قاضمةً من خدها قطعةً فذاب قلبه

في ثوانٍ لا تكاد تجتمع لثلاثةٍ فتتالت نبضات قلبه وبدأت يداه بالإرتجاف كأنها سنةٌ مرت وهو يوجه رأسه نحو اليد التي أضرمت النيران في مشاعره وما أن أكمل اِلتفاتته نحو الجسد الضخم والوجه الضحوك والشعر البني حتى بَهُتَ الحلم وذبلت بساتين العشق التي سقيت بالأمل!.

المدير الذي لم ينفك عن زيارته ليطّلع على أعماله منبهراً بمهارته لم يدرك اِنطفاء الأمل العنيف الذي تجره كل زيارةٍ فجائيةٍ عقبها! هي تطفئ النور في عينيه إذ تتجلى له الأحلام حيةً فتقتلها اِبتسامته الطيبة ويلمح بطرف عينيه "مروى" متبسمةً للمدير بثغرها الشهي واِبتسامتها التي لم تملْ قتله! هو هنا وهي على بعد أقل من ثلاث بلاطاتٍ منه على أن قلبه يرى بهذه البلاطات مساحةً كالأرض وأكثر!! ... لِمَ لا تشعر بهذا القلب وهذه التلبكات التي لا تخفى على عين؟! هو موقنٌ بأنه يحبها وخزانته أكبر دليلٍ على هذا الجنون، حتى أنه لم يترك وضعيةً لمحها بها إلا ورسمها كاريكاتيرياً ... فقد أدمنها كمخدرٍ لجميع صعوبات حياته ولكن المعضلة هي كيف يصل لقلبها؟ كيف يخبر هذا الملاك المتبسم أمامه بأنه مغرمٌ به حتى النخاع وأن الروح إذا ما باشرته الحديث تقتل ثم تخلق من جديد!! القلب يخرج من مكانه نابضاً متطايراً والعين تبكي بلا دموع... هو لا شك غارقٌ في العشق لكن أي حلٍ عاصفٍ يستطيع اِنقاذه من توهج الوجه الجميل وقوة الشخصية التي لا تلين؟!!

عاودته نصيحة الجارة إلا أنه غير مستعدٍ ... إنه خائفٌ ولا يذكر بأنه مرّ بموقفٍ كهذا طيلة حياته .. ولا دق قلبه للحب مرة! هي المرة الأولى ... الخطوة الأولى، وما أصعبها!. أخذ منه التخطيط طويلاً في غرفته المغلقة على أن والدته لم تدعه وشأنه فكانت كل بضع ساعاتٍ تهم عليه بمشكلةٍ جديدة النوع مختلفة السبب! حتى جاء ذلك اليوم الذي قضاه بطوله بين التخطيط والحسبان إلى أن كاد يحزم أمره في اِخبارها حين دخلت "نورا" عليه الغرفة بوجهٍ متجهمٍ يشع غضباً متشرباً بالحمرة لشدة الإنفعال وصرخت في وجهه للمرة الرابعة في ذات اليوم حين قالت لكن بطريقة مختلفةٍ دعته يشعر لوهلةٍ بأنها جديةٌ أكثر من أية لحظةٍ مضت!!

- أنت لن تفهم! أنت لن تقدر تعبي وجهدي واِنهيار عافيتي فقط لبناء مستقبلك!! تريد أن تترك المدرسة؟! تريد أن تصير شحاذاً يا غبي! تريد أن ترمي بتعب أمك طيلة سنوات حياتك كالهباء المنثور... اِفتح عينيك وشاهد ماذا أنجزت في حياتك حتى اليوم؟ ستقول تعلمت الرسم على عيني ورأسي يا سيدي ولكن ماذا عن شهادةٍ تعيلك طيلة حياتك! أنت تركض خلف جريدةٍ قد ترميك في أية لحظةٍ فتموت جوعاً دون أن يشفق عليك أحد!

صمتت للحظات حتى شعر "مهند" بأنها أنهت الشجار على أنها أكملته بأشد مما ذكرته حتى خانته قواه الهزيلة وبكى..

- هي الجريدة ما غيرها التي أبعدتك عن دراستك .. كنت تقرأ ما تشاء لا دراية لي أين لكنني كنت أقول لا بأس يا اِمرآة القراءة لابدّ تفيد فهي تبني الإنسان وتفتح عقله على الحياة وتزيد من علمه علماً وثقافةً وأدباً لكن الرسم ماذا يجلب لك؟! ثقافة؟ مال؟ حياةً كريمة!! إنه لا يجلب لك إلا مضيعة الوقت!! إنه يسرقك من دراستك ومستقبلك الذي تخيله والدك عظيماً لا كما تقوم بتخريبه يا أبله!! ... لقد قررت يا "مهند" ولا رجعة عن قراري البتة..

دبّ الرعب في أرجاء جسده إذ إنه يعرف مقولتها "قررت" هذا يعني أنه لن يستطيع التحرك ساكناً أمام اِمرأةٍ قويةٍ مثلها بقراراتها الصارمة اللاتي لا يمكن تعديلهنّ إلا بمعجزةٍ إلهية!!

- من الغد فصاعداً لن تطأ الجريدة مرةً أخرى!!! قرار اِستقالتك سيوقع اليوم وستجلس حبيس المنزل إلا من محاضراتك الهامة حتى اِنتهاء الفحص... اِكتب بيدك الطلب وأنا سأوصله.

اِستدارت مغادرةً الغرفة على وقع صدمة "مهند" وبكائه ... اِستقالة؟! والحلم... و"مروى" كيف يعيش بعد اليوم دون لقائها كل صباح؟!! ... كيف تقرر والدته دون أن تستشير قلبه العاشق؟ كيف لها أن تكون قاسيةً لهذه الدرجة ... إنها لا تعرف الرحمة لا والله!

بكى بطلنا كما لم يبكِ مسبقاً ذاك المساء لأن الشعور بالحلم لذيذٌ ووأده لا يطاق فكيف على شابٍ مهما كبر شعر بأنه مازال بأحضان أمه تعنفه ثم تدلله؟! كيف يقوى على نسيان العيون الزرقاء والغمازة الشهية!! كيف يترك الرسم وقد صار ملجأً له من كل ضيق ... كيف لها أن تصفه بمضيعة الوقت!! ومن أين لها أصلاً أن تفهم الفنون وهي لا تعي إلا القمع وكسر الأنفس! ... بكى كثيراً ورأى في الدنيا السواد وفي وجه أمه كل حقد!! وللحق فقد كرهها لوهلةٍ وما كان يطيق صوتها بعد أن زارت غرفته صباحاً وهي متأنقة الملبس مستعدةٌ للخروج لتسأله عن الطلب فلم يجبها فأعادت عليه سؤالها بشيءٍ من النزق فأجابها بِاختصارٍ "على جثتي!" فاِستفهت إجابته وردت قائلةً "إذاً أنا أكتبه!" وغادرت المنزل بينما أخذ ينصت بِانتباهٍ لصوت قفل الباب الذي أحكمته مرتين!! أأقفلت عليه الباب كطفل الرابعة؟!! نهض من سريره راكضاً نحو الباب محاولاً فتحه على أنه كما توقع كان مقفلاً! وماذا عساه يفعل إذاً؟ ستقدم اِستقالته اليوم ويحرم من رؤية حبيبته التي لم يعترف لها بحبه بعد! ستتزوج حتماً ريثما ينهي عقوبته بين أكوام الكتب وامتحاناتٍ ستثقل كاهله ... وماذا إن رآها مرةً تتمشى قرب زوجها وهو الذي جُن قلبه في هواها قبله ولاحق خطاها ونام تحت منزلها منتظراً ما ليس له!! ... دخل "مهند" في حالة اِكتئابٍ تعد العظمى في حياته فما أنعش قلبه شهوراً قتله اليوم معلناً خسارته المهينة... أهو رجلٌ ويخاف أن يكشف عن مشاعره؟! أيخاف الرجل! تساءل بقرفٍ من ذاته... ثم تابع قائلاً أرجلٌ أنا وأمي تقفل عليّ باب المنزل لتقدم بِاسمي اِستقالةً رغماً عني! ولماذا لا تهتم لمشاعري وطموحاتي! أتراه أبي كان

كما هي قاسياً كريهاً!! مالي بالحياة إذاً إن سلب مني حلمي وقتلت أمامي حبيبتي بعينيها المخلوقتين بإعجاز! ... يا لضيق الدنيا... يا لقسوتها عليّ واحد وعشرون عاماً وأنا أحارب هواجس أمي وضيقها وخنقها ثم إفراجها كأنني طفلٌ تملكه!! وها أنا اليوم أجني عقاب تحرري بالنفي والحرمان من كل ملذات الحياة التي وجدتها صدفةً ورزقت بها من حيث لا علم لي! واخيبتي واخجلي من ذاتي قبل ذاتها؛ "هل أنا رجلٌ!" نظر لإنعكاس صورته في المرآة فبصق بإشمئزازٍ عليها وقد لمعت إنكساراته في ظلمة حياته كمناراتٍ تحترق بنورها فرأى زملاء صفه يربطون يديه ليرهبونه بحيةٍ كادت تبث سمها في عينيه ثم أفلتوه ليوسعوه ضرباً حتى بصق الدم! حينها أفلتوه وأخذ أضخم إثنين يلاحقانه طيلة طريقه إلى المنزل حيث أضاع كتبه وأقلامه وتمزق بنطاله وما أن غاب عن أعينهما حتى ملأت قهقهاتهما الحي!! ... قال وهو يمعن النظر في المرآة "لا والله لست برجلٍ!! عيبٌ عليَّ أن أُحسب على سيدنا آدم رجل!!" ثم تهيأت له "مروى" وهي تستفسر من المدير عن سبب غيابه فيجيبها بأنه إستقال! ... أتراها حقاً تحزن؟! .... الحياة ستمضي وسيأتي موظفٌ آخرٌ بشخصيةٍ قويةٍ وجسدٍ رياضيٍ وحديثٍ جذّاب ليسرق ذات الغمازة منه ... "واخجلي ممن جلبني إلى الدنيا! أحقاً أستحق أن أعيش بينما تهرس شخصيتي يوماً بعد يومٍ حتى تندثر.. وما فائدة الإنسان الذي لا يملك شخصيةً فيمشي بين الناس هزيلاً مقوس الظهر مذلول الجبين حتى يكاد لا يُرى أو يختفي! ... إنسانٌ يقطع لسانه خوفاً من أن يقول "لا" لأنه لا يقوى على قولها!! لا يملك الشجاعة لرفض الذل! ... لا يستطيع النهوض من تحت أقدام الآخرين لأنه يخاف! ... يا الله لِمَ خلقتني.. لماذا؟!

إستمر الشاب بالبكاء ففتح خزانته ببأسٍ ورمق صورها الكثيرة ومقالاتها التي لم تعد جدران الخزانة جميعها تتسع ما ألصقه عليها فنزع إحداهنّ ودون قصدٍ بللها بالدموع لشدة التركيز حتى جاءته حالة غضبٍ شديدةٍ فرمى بأغراضه أرضاً وكسر زجاج نافذته ومزق قميصه وبعث بصرخاتٍ مدويةٍ أليمةٍ من صدره المتألم! فتنبهت "هالة" لنحيبه وركضت نحو النافذة التي لم تعطها أية وشايةٍ عما يجري ثم توجهت إلى الشرفة فحاولت إلتقاط أي خيالٍ تستفهم منه الأمر فلم يتراءى لها شيءٌ فتحيرت في أمرهم... أيعقل أنها تضربه؟! وما الحاجة لذلك... آهٍ منك يا "نورا" لقد هدمت حياة الصبي! على أنها لم تتخيل بتاتاً ما كان يحصل أو سيحصل بعد حينٍ! فقد كان "مهند" شعلة غضبٍ لا مرقد لها فرأى في الدنيا كل يأسٍ بعد أن إستعاد ذكرياته السوداء ذكرى تتلوها ذكرى فحشى قلبه ورأسه بالجنون ليتملكه الغضب الشديد ويزداد نحيبه الخانق حتى إستقام بلحظةٍ غريبةٍ عليه جداً... لحظةٌ بين الموت والحياة تلك التي تجذبك نحو هذا وتفلت منك ذاك فأقفل الخزانة كما كانت ... تماماً عندما قررت الجارة المضي إلى بيتهم فنزلت الدرج بعد أن وضعت حجابها على عجلٍ لتصعد الطابق تلوَ الآخر حين سمعت وقد أوشكت على الوصول زعيق فتاةٍ ثم زعيق أخرى ثم أصوات تجمعٍ غريبٍ، فرنت جرس المنزل عدة مراتٍ دون مجيب

فإنتابها الخوف وما أن إزدادت أصوات التجمع حتى إلتهب الخوف في قلبها لتنزل الدرج مرةً أخرى أسرع مما صعدته متوجهةً حيث رأت التجمع والناس قد إصفرت وجوههم وصوت إسعافٍ قد بدا للسامعين بعيداً جداً .. فإقتربت أكثر تدفع أكتاف الناس المتجمهرة إلى أن تراءى لها "مهند" وقد سقط على سطح بقال الحي ودماؤه تسيل على الجدران كأنها رسمةٌ كاريكاتيريةٌ محزنة!

فزع الناس لما شاهدوه من ركود الشاب ودمائه المتطايرة هنا وهناك فحاول العديد معاودة الإتصال بالإسعاف عدة مراتٍ وقبل أن تؤاتِ "هالة" بأية حركةٍ توقفت سيارة الإسعاف قربها ليركض ثلاثة مسعفين مع سلم ونقالة محاولين الوصول إليه وقد غطت على عينيها غشاوةٌ ورعبٌ وإصفرارٌ شديدٌ فتراكضت الدموع على خديها دون أن تصدر حرفاً أو تزيد على ردة فعلها بشيء! فقط سحبها الماضي ولاحد وعشرون عاماً للوراء كأن أحدهم دفعها إلى هناك فوقفت حاضرةً على حمل "مهند" دقيقةً تتلوها دقيقة ... يالله ما ذنب هذا الطفل البريئ!! أي ذنبٍ إقترفه حتى يعاقب بهذا العنف!! ثم أعادها للحدث مرور "مهند" مغمى عليه قربها وقد تضرج بدمائه متوضحاً على يده كسرٌ شديدٌ كعين الشمس فهرولت نحو سيارة الإسعاف ثم قالت بصوتٍ لم يخلُ من الرجفة والإضطراب..

- أنا خالته
- إذاً إصعدي ... أين والدته ووالده؟! أحدٌ من إخوته!
- هو وحيدٌ ووالده متوفٍ.. أمه خرجت من المنزل لست أدري إلى أين؟!

وضعوا "مهند" أمامها وعلق له سيرومٌ ثم وضع على فمه جهاز تنفسٍ إصطناعيٍّ فإنتابها شعور إرتياحٍ غريبٍ إذ شعرت بأنه توفي لابدّ! إلا أنه بمعجزةٍ لم يمت! ففرح قلبها على حزنها وخوفها الشديدين فكيف تتلقى "نورا" الخبر يا ترى؟! أتراها تستطيع تمالك نفسها... وما الذي حصل حتى إندفع الشاب منتحراً!! ... هذا الإحتمال كان وارداً في معتقداتها نظراً لضغط والدته الرهيب وضعفِ شخصيته على أنه كان إحتمالاً ضئيلاً بعيداً لا يمت للحاضر بصلة فكيف حصل وإنتحر! ولماذا كان يبكي ويئن جاذباً إ ياها إليه ... آهٍ لو أنها جاءته قبل ثوانٍ.. ثوانٍ لا أكثر لأنقذته من موتٍ محتم على أن الله حمله بيديه ليحميه ويرعاه وها هو حيٌّ يرزق رغم حالته الخطرة والكسور التي تملأ جسده!!

-9-

"نورا" التي توجهت إلى المدير من الصباح الباكر فإستقبلها برحابة صدرٍ فور علمه بأنها والدة الفنان "مهند"! وكانت تشعر كلما زاد في وصف أعماله ومهارته وحسه المرهف بالفن ممرراً كلمة "فنان" بين كلماته بأنه يغزها بسكينٍ أو يحرق أعصابها على مهل حيث تبقى لسنوات دراسته

القليل حتى يصبح محامياً تقشَعِر لذكره الأبدان ويهابه القضاة!! حتى اِستعظمت اِهانته فرأت فيها اِستهزاءً لسنوات عملها الطويلة ومشقتها التي لم تجد لها نهايةً!! وفكرت وهو يثني عليه ثناءً عطراً لو أنها أقدمت على هذه الخطوة مسبقاً! لو أنها حرصت أكثر على دراسته لما وضعت في موقفٍ كهذا على أن أقواله وثناءاته لم تهدئ من عزيمتها ولا غيرت غايتها ففاتحته بالموضوع دون أي تلبكٍ مقدمةً له طلب الاِستقالة دون أي ترددٍ فتعجب لذلك وسألها إن كان قد أزعجه أحد الموظفين فنفت ذلك بيد أنها وضعت ثقل الموضوع على كاهل الدراسة وأكدت رغبته بالاِستقالة فتساءل لِمَ لم يأتِ بنفسه فتحججت بدوامه الجامعيّ الطويل، فصمت الأخير محزوناً لفقدان موظفٍ كـ"مهند" موقعاً الاِستقالة ممتثلاً لاِلحاح السيدة الشديد!

تشكرته بحرارةٍ مغادرةً وقلبها يرقص فرحاً متجهةً إلى المنزل لتبشر اِبنها بفراغه التام للدراسة ثم عاتبت نفسها على طيشها في وضعه السابق! وكيف تركته يركض خلف أحلام المراهقة وما هي إلا على زوالٍ لتتبدد فينبثق الواقع المر كالأفعى تبث سمها في عروقه فلا يستطيع مقاومةً ولا حراكاً إلا إن ملك بين يديه ما يرفعه بأساسٍ وعمادٍ صلبٍ! وهذه الأساسات ليست إلا الشهادة التي تنتظره بعد أعوامٍ قليلةٍ ... عليه أن ينسى الرسم والكتب! هؤلاء لا يصنعون مستقبلاً كما الشهادة التي تعيله في أفضل حالاته وأسوئها! ولو أنها اِمتلكت شهادةً أكثر مما قضته في مدرسة الملجأ لكانوا في حالٍ أفضل مما هم عليه، ولكن الحياكة والتصميم أنقذاهما فوفرت منهما مدخرات قيمة حتى أنها في الآونة الأخيرة اِبتاعت سيارةً صغيرةً لاِبنها بعد أن تعلم القيادة من بضعة سنواتٍ لكنها لم تدعه يقودها يوماً!! فكانت تُجلِسُه قربها لأنها لم تؤمن أبداً بقدرته على تحمل المسؤولية! إنه صغيرٌ ... مازال طفلاً في نظرها فكيف يقود سيارةً قد تكون مميتةً بين الناس ومئات السيارات الأخرى!!

هذا محال!.

قادت سيارته بسرعةٍ فرحةً بالخبر تتعجل اِيصاله إليه فركنتها قرب مدخل العمارة ورمقت تجمعات الناس ووجوههم الصفراء بتعجبٍ فاِقتربت من اِحدى جاراتها وهمست لها "ماذا حصل؟ لِمَ كل هذا التجمع؟" فأشفقت الجارة من اِخبارها خوفاً عليها فنادت زوجها الذي جاءها بطريقةٍ لطيفةٍ مهوناً عليها الأمر حتى صرخت الأم مولولةً وقد لمحت الدماء المسالة فركضت إلى سيارتها مرةً أخرى متجهةً نحو المشفى الذي دخلته مرعوبةً مرتجفةً تبحث عن طبيبٍ تستفسر منه عن حالة اِبنها فوجدت "هالة" في آخر الرواق فتوسلت إليها أن تخبرها عن حاله فربتت الأخيرة على كتفها قائلةً..

- نحمد الله ألف مرة أنه بخير مجرد كسورٍ ورضوضٍ إن شاء الله لا أكثر..
- ماذا حصل له؟ كيف سقط!!

- يقولون أنه حاول الإنتحار... "قالتها بخجلٍ وتأسف"
- إنتحار!! لِمَ؟ لِمَ يفعل هذا بي وأنا أحاول بكل قوايَّ أن أبنيَ له حياةً كريمة... آهٍ يا "هيثم" لو كنت معي لربيته أفضل مني!!

أخذت الأم تنتحب لاطمةً خديها حتى ضاق بـ"هالة" الأمر فقالت..

- لقد خنقته يا "نورا" لا تنكري هذا! ولولا توظفه لجُن ... "مهند" كاد يجاوز عيد ميلاده الثاني والعشرين دون أن يكون له حرية قراءة كتابٍ أو تعليق صورة يحبها على جدار غرفته... أنت تكادين تستعبدينه!!

غضبت الأم عندما وجه إليها إصبع الإتهام فقالت بصوتٍ لفت إنتباه موظفي الإستقبال..

- أستعبده!! أليس أفضل من إهمال أسرتك لك!! أتريدينني أن أبقى وحيدةً مثلك؟ هكذا كورقةٍ تذبل يوماً بعد يوم.. لا يا "هالة" أنا تعلمت منك الكثير! وما أقوم به ليس إلا السعادة لطفلي بأن يبقى قرب أمه ليبني مستقبلاً كله نجاح يتلوه نجاح
- بهذه الشخصية الركيكة تريدينه أن ينجح!
- طفلي خجولٌ لا ضعيف شخصية!!
- طفلك!! إنه يكاد يصبح رجلاً وتقولين طفل!
- إتركيني يا هالة" فمن يعد العصي ليس كمن يضرب بها!! ...
- سامحك الله ... سامحك الله يا أم "مهند"!!.

وللحق فإن "هالة" ملت طيلة الأعوام الكثيرة الماضية الركض وراء قرارات جارتها لتنبهها وتصلح أمرها دون أدنى إستجابة! فقط هذا الشاب الملقى على سرير الإنعاش هو من يعاني بينما تظن والدته بكل ثقةٍ أنها تبني حياته على أكمل وجه!! كيف تُراها تشعر بأنه "أكمل وجهٍ" وقد رمى بنفسه من الطابق الرابع ... أتتساءل لِمَ؟ ربما السؤال الأهم هو لِمَ الآن؟! لِمَ اليوم؟! ... صمتتا طويلاً بينما لم تنفكا عن التفكير حتى نطقت "هالة" بسؤالها المحير ...

- أين كنت هذا الصباح؟!

تأتأت الجارة كأنها وضعت في خانة اليك! فإستدارت "هالة" نحوها بمزيدٍ من الإهتمام فإضطرت الأخيرة للإجابة قائلةً..

- في الصحيفة..
- حيث يعمل "مهند"!!

ثم بعد أن إستوعبت الأمر..

- ياااه!! لقد نسيت اليوم لديه دوام ... لِمَ لم يكن هناك!!
- قدمت اِستقالته..
- اِستقالته! لِمَ ترك وظيفته طالما أنه مغرمٌ بها!! لطالما حدثني عنها بالمحبة والرضى!!

فأجابتها بكلمتين مختصرين بغية التهرب من الموضوع..

- يجب أن يكمل دراسته..

فتحت "هالة" عينيها سرعان ما سمعت كلماتها كأنها اِكتشفت السبب وعندما جاءت كلماتها قاسيةً شديدةً تشاجرتا بشدةٍ..

- أنت قدمت اِستقالته وتركته في المنزل محزوناً كئيباً حتى اِنتحر!!! ياااه كيف يمكن لأمٍ أن تقوم بهذا!! لقد دفعته للاِنتحار .. أنت السبب!
- كيف تتجرئين على قول هذا!! ماذا تعرفين أصلاً عن الأمومة طالما أن أولادك لا يقتربون منك إلا لأجل الوجبات ... يالك من أمٍ مستَعبدة!! اِخرجي من هنا "مهند" ليس بحاجةٍ لاِمرأةٍ تتهم والدته بدفعه للاِنتحار ... اِخرجي؛ أتسمعين أم صُمت أذناك!!

وهكذا كانت بداية الاِنفصال الظاهري بين الجارتين على أن الاِتصال لم ينقطع مطلقاً فـ"مهند" الذي تعافى بعد أشهرٍ طويلةٍ من كسوره ومعاناةٍ مريرةٍ مع آلامه النفسية والجسدية أخذ طريقه إلى الكلية مجبراً على أنه وجد في ذلك، ورغم اِستهزاء زملائه، حريةً تسمح له بين الحين والآخر التسلل إلى منزل خالته للاِطمئنان عليها وقراءة بعض الصفحات من كتبها الغنية أو الاِنتظار أمام مبنى الصحيفة ليراقب "مروى" وهي تتمشى نحو منزلها! فلم يخفَ عليها مطلقاً واِنتظاره لها فأخذت تجمع ذكرياتها معه ومواقفه المجنونة فتضحك أسراريها وما أن يلمح من بعيد ثغرها البسّام حتى تنتابه سعادةٌ لا تكاد توصف! وإنه كثيراً ما حاول كسر حاجز الخوف، كما صمم قبل محاولة اِنتحاره تلك، كأن يعرض عليها فنجانيّ قهوة يحتسيانه سوياً إلا أنه عبثاً اِستطاع تخطي الخجل والخوف اللذين غلبا عليه فاِستجار بصديقته العزيزة "سهى" التي اِلتقته بعينيها الفرحتين ولهفتها المعهودة في حديقتهما ذاتها فرأى في ترحيبها ما رآه في معاناته إذ لم تكتفِ أثناء فترة نقاهته بالاِتصالات الهاتفية بل كسرت حاجز الخوف لتزوره مرات عديدة إلى أن اِنتابها الخوف من الطرد! فباعدت بين الزيارات قليلاً، وكم تعجب لعطفها وقلقها الشديدين ذلك أنه بعد حينٍ اِعتاد الأمر فرآه بالتدريج واجباً! أو أمراً مفروغاً منه حتى لم يعد يميز منه إلا اِبتسامات لطيفة وعينين تشعان بالترحيب، وما عدا ذلك كان طبيعياً بالنسبة له..!

- أراك بصحةٍ ممتازةٍ بعد عذابٍ مرير
- الحمدلله يا "سهى" على أن يدي مازالت تؤلمني قليلاً

- لا تتعب نفسك كثيراً دعها ترتاح قليلاً
- لا عليك إنني مرتاحٌ في المنزل كالعادة إلا من بضعة محاضرات هامة، فلا شيء يتوجب عليّ فعله سوى الدراسة ومشاهدة مباريات كرة القدم!

وإن "سهى" تعلم جيداً عن هوسه بكرة القدم فلطالما ألغى موعداً بينهما لشوطٍ أو مباراتٍ نهائيةٍ وكانت والدته تلغي أي شيءٍ لتجد له فراغاً يتماشى مع هوايته التي أحبتها فهو ليس ممن يعشقون اللعب في الطريق مع أصدقائهم فعلى العكس تماماً فهو يهوى متابعة الأشواط عن كثبٍ على كرسي والده، يهزه بينما تعد له والدته الفوشار ليتسلى به حتى تنتهي الأشواط! وإن هذا الحب ليس إلا وراثةً عن والده الذي لُقب في صغره بـ"ذو القدم الذهبية" لمرونته وتسديداته اللاتي لا تخبنّ وقد رأت "نورا" في حب اِبنها لهواية والده متعةً بتقمص الإبن لأبيه ورؤيةً لمتوفٍ فارقها من سنينٍ في عيون حي!! فبكت في البداية ثم اِنبسطت أساريرها وضحكت عيونها وأخذت تعد شتى أنواع الحلوى والمأكولات ليتسلى اِبنها الحبيب أثناء مشاهدته للمباريات!!

- ألا تمل منها؟!
- مطلقاً!! ... هي لذة الحياة ورغدها في المنزل!

تحيرت في أمره قليلاً ذلك أنها لا تطيق كرة القدم ولا نازعتها فكرة قضاء الساعات في مراقبة رجالٍ يركضون خلف كرة! ولماذا؟ ما الفائدة ... ثم غيرت مسار الحديث متسائلةً..

- أمحتاجٌ لكتاب؟
- لا يا "سهى" الأمر هذه المرة مغايرٌ تماماً

لمعت في عينيه الجدية فاِنشدت الفتاة إلى حديثه وتبين ذلك بإستدارتها نحوه فأكمل قائلاً..

- لم أخبرك سابقاً، لا تسأليني لماذا! فهذه الأمور تحدث فجأةً وتبقى في القلب طويلاً قبل أن

يُفشى بها... وإن الوحيدة التي أعلمتها به هي جارتي في المبنى المقابل لنا ذلك لأنني أردت منها

النصح في أمرٍ جديدٍ كلي على حياتي!!

تطلعت إليه باِهتمامٍ كأنها تدعوه أن يكمل..

- قلبي دق يا "سهى" ولست أدري كيف أخبرها!!

اِقشعر جسد "سهى" بأكمله واِصفر وجهها لثوانٍ ثم تورد بشكلٍ فجائيٍ دعا "مهند" للحيرة من أمرها فقالت وهي تتأتئ وقد توضح اِرتباكها على عكس نبضاتها اللاتي لم يعلم بهنّ إلا الله ...

- وأخيراً يا "مهند"!! ... (ثم بتلبكٍ واضحٍ) ومن هي؟!

فقال بتنهدٍ..

- زميلةٌ لي في الصحيفة ... صحفية.

تآكل الفرح واللهفة من عينيّ "سهى" واِستبدلتهما بحزنٍ ودمعةٍ مهما حاولت اِخفاءها فشلت، فسألها عن السبب فتحججت بذكرى اِنتحاره وبدا له الأمر عادياً فأكمل قائلاً دون أن يعلم تقطع قلبها وصمودها الفاشل أمام صراحته القاتلة..

- لا عليك يا "سهى" فالحمدلله أنا بخير (صمت لحظات ثم أكمل) آهٍ.. ما يعادل الستة أشهرٍ وأنا أمامها يوماً بيومٍ كل صباحٍ بينما أقف أمام منزلها ليلاً منتظراً أن يوقظها القدر بكامل الجنون!!"
- ليلاً!!
- أجل يا "سهى" ليلاً! القلب لا يهدأ مطلقاً ينادي عليّ طيلة الليل أنه اِشتاقها فأركض نحو شرفتها بجنون عاشقٍ لأتخذ من الرصيف مقعداً متسلياً بمطالعة كتابٍ ريثما تنقضي ساعتان أو ثلاث ثم أعود إلى المنزل خائباً
- وهل اِلتقيتما مرةً على الشرفة؟!
- مطلقاً... لكنني لم أنفك أزورها حتى اليوم!
- ياه ماهذا الحب!
- عظيمٌ يا صديقتي عظيم وأنا خوّافٌ من مصارحتها! ودون أن تساعدني نفسي على اِتخاذ موقفٍ أو قرارٍ يدخلني خطوةً نحو قلبها كان الجَزَع يذبحني فأراها رغم قربها بعيدة المنال كأنها في جبلٍ شاهقٍ وأنا بوادٍ سحيق..
- ما اِسمها
- مروى (قالها بلذةٍ متنغماً بِاسمها فحرق دون قصدٍ منه قلبها!)

تنهدت بحزنٍ شديدٍ..

- وكيف أساعدك يا عاشق!!
- دليني كيف يستطيع رجلٌ مفاتحة اِمرأةٍ أمراً كهذا؟! كيف أدخل قلبها؟ كيف أخطو الخطوة الأولى ... إني أخاف كل الخوف أن أصارحها فترفضني، إني أخاف ذلك فالقلب صار ملكها

والروح لم تعد هنا! الروح بين يديها! ... أنجديني يا صديقتي! ودليني عن سبيلٍ لإشعال هذا الحب علّنا نتقاسم اللوعة أنا وهي!

صمتت الفتاة هنيهةً فظنها الشاب تفكر في حلٍ بينما كانت غارقةً في آلامها فلطالما أحبته رغم ضعف شخصيته ووالدته الشديدة فغرقت في هواه محاولةً طيلة السنوات السابقة إرضاءه ومساعدته فكيف لم يشعر بذلك؟! وكيف تجرأ أن يأتيها بأمرٍ كهذا يكسر به قلبها ثم يقف على حطامه مترجياً!. نظرت إليه بطرف عينها فرأته منتظراً بعينيه اللتين لطالما أحبتهما وغرقت في هواهما سنيناً فصممت على مساعدته كغرز خنجرٍ في ضلوعها بكلتي يديها، فكل مطلبها في هذه الحياة هو سعادته حتى على حسابها! حتى ولو دفنت قلبها مضرجاً بدمائه!! فإن رأته مرةً سعيداً سترضى بحالها وتبتسم لقدرها الفاني... آهٍ .. وكيف لا تسعد إن وجد الطمأنينة في أحضان أخرى وهي التي على عهدها أقدم على الإنتحار وفي كثير زياراتها لم تزد من سعادته أو تنقصها شيئاً بل كانت روحه معلقةً بتلك الشرفة تنتظر أن تبرأ كسوره ليركض إليها متناسياً إنتحاره الخطير وآلامه الكثيرة! فكيف تسعده هي؟ ولِمَ تحاول إختطافه من أخرى تسعده حتى من بعيدٍ فينام تحت شرفتها متبسطاً الرصيف سعيداً هانئاً، كيف تكسر آماله وتمحو دروب الحب هذا إن كان سبب سعادته وبصيص أملٍ يعلقه بهذه الحياة البائسة!؟ ... وماذا عنها؟ عن قلبها المتيم من سنين! عن روحها المعلقة بهذه الكتب التي تخلق بينهما موعداً! أهذا كله لا يهم! وما المهم إذن إن فقدت سعادتها وهي تصنع له السعادة فتحطم آمالها وتبني آماله!! أهذا عدل؟ أعدلٌ أن تعيره روايةً ملأى بالعشق والهوى فيعود لها عاشقاً لسواها؟! أما فكر أن في مضمونها بيت قصيدٍ!! وماذا عن وردةٍ تركتها في جوفها ولمّا أعاد الكتاب أعادها ... أتراه تجاهل القلب الذي لا يمل وجوده أبداً! أتراه عرف ثم تغافل عن شوقها وعشقها فأعاد لها وردتها كأن شيئاً لم يكن! دارت بها الدنيا وشحُبت عيناها حزناً وألماً فلمس "مهند" بشكلٍ فجائيٍ يدها كأنه يطمئن عليها قائلاً..

- أأنت بخير؟!

فإرتعش جسدها بشكلٍ واضحٍ دفع الأخير لسحب يده فنظرت إليه بعينيها الحزينتين وقالت بشكلٍ مختصرٍ قبل رحيلها..

- سأفكر بحلٍ وآتيك به ... مضطرةٌ للذهاب الآن، وداعاً!

تبادرت إلى ذهن "مهند" أفكارٌ لا تحصَ على أنه لم يفكر مطلقاً بالحب!! كيف تحبه وهو يراها أخته التي رُبيّ على وجودها يوماً بيومٍ يقضيان الصباح لعباً ريثما تودعهم السيدة "جيسيكا" مبعدةً الصغيرة عنه... كيف يراها حبيبةً ولطالما رآها قريبةً منه كأختٍ حتى خُيل إليه وهو صغيرٌ بأن السيدة "جيسيكا" مجردٌ إمرأةٌ تسرق أخته منه وبرضى والدتهما!! إذ ظن طويلاً بأن أمه أمها

فقضيا الطفولة بأكملها لا يتفارقان ثم اِرتادا المدرسة ذاتها حتى اِختلت هي بصديقاتها وتلهى هو بأصدقائه ففَتِرت الصداقة بينهما حتى غدت مقتصرةً على السلام ثم عادت بقوتها كسابق عهدها حين بدأ يستلف منها الكتاب تلوَ الآخر وعند محاولته الإنتحار كانت نِعمَ الأخت فلم تمل من زيارته ولم تتوقف من اِهدائه أقراصاً لـ"عبد الوهاب" أو جمع اِصدارات الجريدة اليومية حتى تزوره فتهديه إياهم خلسةً عن والدته! فما تراها تعاني الآن دون أن تخبره؟! وأي أمرٍ يستدعي منها أن تغادر لقاءهما السريّ دون مبررٍ أو خطب جلل!!

فكر قليلاً بالأمر لكن سرعان ما غطت "مروى" على أفكاره فعزم على المضي نحو منزلها ليلاً متناسياً آلام يده مندفعاً بحبه نحوها وما أن جلس على الرصيف المقابل لمنزلها حتى أخذ يطالع كتاباً اِستعاره من "سهى" يلخص تطور الإنسان الحجري لحاله اليوم فاِندمج بقراءته حتى برزت الشمس ساطعةً بنورها الربانيّ البهي فشعر بتأخره الشديد وحمل نفسه متعجلاً مودعاً الشرفة الحبيبة عائداً إلى أحضان أمه القاسية وما أن فتح قفل الباب بهدوءٍ شديدٍ حتى اِنسحب الباب ليشده نحو الداخل فرأى أمه بنظرتها الغاضبة تسأله بصوتٍ حادٍ عن الساعة التي غادر فيها وعن سبب مغادرته فتحجج بالرياضة على أنها لمحت الكتاب الضخم بين يديه محاولاً اِخفاءه ذلك أنه زاد الطينة بِلةً فحزمت أمرها دون أي نقاشٍ مخفيةً مفاتيح المنزل في غرفتها حريصةً ألا يغادره إلا بعلمها فتحسر الشاب ليلةً بعد ليلةٍ متذكراً سهرات الحب قرب محبوبته على أنه رغم ذلك لم يترك لـ"مروى" يوماً واحداً إلا وراقبها خلاله من بعيدٍ بينما هي تغادر الصحيفة متجهةً نحو منزلها؛ وفي اللحظة التي أخبرته "سهى" عن موعدهما ركض نحو الحديقة كالمجنون فوجد الأخيرة تنتظره وقد تراءى في عينيها الحل وتناسى نهائياً التساؤل عن سبب هروبها المرة السابقة فسألها على عجلٍ...

- أوجدت الحل؟!
- قل صباح الخير أولاً!!
- اِعذريني فقلبي لم يعد يعرف يمينه من شماله ... صباح الورد والزنبق!
- أجل وجدته ... كلمتان مختصرتان، كن قوياً وأخبرها!
- هذا حلك!!
- طبعاً ... وماذا تريدين أن أقول؟! أن أذهب معك إلى منزلها؟ أن أخبرها أنا؟!
- ما قصدت هذا ولكن لابدّ من وجود حلولٍ أسهل..
- في الحب لا حلول أسهل، عليك الإعتراف بمشاعرك لابدّ وإلا سيسبقك آخر
- آخر!! وهل يجرؤ آخرٌ على أخذها مني!!
- يجرؤون..

قطب جاجبيه ثم غيّر الموضوع قائلاً..

- أأنت بخير؟! أراك غاضبة..
- أنا! ... بخير الحمدلله
- يااه يا "سهى" الكتاب الذي أعرتني إياه مؤخراً رائع رائع!! يومان وأنتهي منه

سألته كأنها لم تستمع لما قاله..

- أمازلت ترسم؟!
- أجل!
- أرني المرة المقبلة ما رسمت
- معي الآن بعض الرسومات

أخرجهم من الحقيبة ليتركهم بين يديها اللتين سرعان ما بدأتا بالإرتجاف!! فقد رأتها .. لابدّ أنها المدعوة بـ"مروى" ثم سألها بصوتٍ رقيقٍ مغرمٍ ... "هذه مروى ... لكن كاريكاتيرياً!" ثم أعقب قوله بالضحك بينما غرقت عيناها بالدموع فسقطت إحداهنّ على الورقة فسألها بتعجبٍ "مابكِ!! لماذا تبكين؟!!" فتهربت بشكلٍ غير مجدٍ فأمسك كتفها وسألها بشكلٍ جديّ غير اعتياديّ

- ما بكِ!! إن لم تخبريني فسأذهب وأسأل السيدة "جيسيكا"
- هي لا تعرف!
- إذن قولي أنت .. ألسنا كأخوةٍ يا "سهى" إذن أخبري أخاك ما بكِ؟ في لقائنا السابق تركتني فجأةً واليوم تبكين! .. فما بالك أخبريني؟

"إخوة"!! قالتها بصوتٍ ملؤه البكاء والدموع تتساقط من عينيها فقال بقلبٍ مضطربٍ ... "أجل إخوةٌ وأعز ... قولي لي ما بكِ بالله عليك"

- أجل سأقول يا "مهند" .. يا أخي!! لم يمر على دفعي لك نحو الحب ثوانٍ فالحب اعترافٌ لا أكثر ولا أقل! ... والآن سأعترف يا أخي!! سأعترف بأنني أحب شاباً يظن بأنني أخته، يقول لي أختي دون أن يرى الحب في عينيّ ... أنا أراه بعين الحب والهوى وهو لا يراني إلا بعين الأخوة فيكسر قلبي وينهش روحي بأخوَته التي لا تعنيني!!! خذ رسوماتك يا أخي واعترف؛ فالحب لا يبدأ أو يموت إلا بإعتراف!!

قالت ما قالته وسط ذهول "مهند" ثم غادرت الحديقة باكيةً تشد ظلها شداً! .. ها هو قد استطاع أن يفهم ما الذي أبكاها وأحزنها في المرة السابقة ... إنها تحبه!! يالله كيف تحب أختٌ أخاها!! كيف وهما قضيا الطفولة يداً بيدٍ ويوماً بيوم ... أيمكن أن يكون حبها قديماً! كقدم

الصداقة والأخوة؟! وماذا عن الكتب! ... أكلها لأجل الحب؟! والعبارات الملونة ضمنها والورود المجففة أتراها كلها له؟!

لملم رسوماته بحزنٍ ليحمل نفسه متجهاً نحو منزل خالته فلطالما وجد عندها النصح والطمأنينة.

-10-

تطبيقاً لما نصحته به "سهى" هرول في صباح ذلك اليوم ليقف كالمعتاد عند الزاوية المألوفة للطرفين منتظراً بلهفةٍ اللحظة المناسبة ... جارته الودودة شحنت روحه بالطاقة مكررةً على مسمعه بأن الحب لا يبدأ إلا بإعترافٍ وأنه إن خاف ربما يسبقه آخرٌ!! .. لقد كررت كلمات "سهى" بالحرف كأنهما إتفقتا على دفعه نحو ما يخافه!! وهو لن يسمح لرجلٍ سواه أن يسلب فتاته حتى على جثته! لذا وقف كرجلٍ لا يعرفه بكامل شخصيته أمام مقر الجريدة لا كما كان طفلاً خّوافاً يهاب الإعتراف ويتخفى خلف الأشجار أو في مداخل المباني!! وبينما هو غارقٌ بأفكاره يتذكر كلمات جارته ليزداد قوةً وإندفاعاً لمح "مروى" وهي تسير بخطىً صغيرة خارجةً من المبنى منعطفةً نحو الطريق الطويل الذي تسلكه يومياً فإزدادت نبضات قلبه سرعةً وإرتجفت أوصاله رعباً فشعر بالدم يصعد إلى رأسه وبيديه تنملان!! فتبعها رغم ذلك على أنه أحس للمرة الأولى مذ بدأ يلاحقها بثقل خطواته وبنفسه تدفعه للعدول عما هو مقدمٌ عليه على أنه كرر بشكلٍ هستيريٍ أقوال "هالة" حتى وازاها بالمسير بعد فترةٍ من خروجها وبادرها التحية كأن السيف يغرز قلبه فجاء صوته ركيكاً كما إعتادته منه!

- صباح الورد آنسة "مروى"!

إلتفتت إليه كأنها لم تشعر بملاحقته الدائمة ..

- "مهند"!! صباح الورد والياسمين ... أين تركتنا وذهبت!
- الدراسة يا آنستي
- موفقٌ يا زميلي!

تمشى قربها فشعر بعدم وجودٍ مبررٍ لإلتصاقه بها فتلصص بطرف عينه عليها فرآها متململةً من ملازمته لها! فتلبك وإشتدّ تلبكه عندما قرر الإعتراف فإحمر وجهه وتعرقل بالمسير ثم إستجمع قواه جميعها وقال بوجهٍ متعرقٍ وعينين دائختين!

- إن عرضت عليك ... ... تقاسم فنجانيّ قهوةٍ في مقهى قريب ..... أتوافقين!

ردت بالسلاسة التي عكست تأتأته فخجل من ضعفه وتردده الذي توضح في عرضه..

- لِمَ لا؟! لا ألذ ولا أطيب من القهوة!

تحررت روحه وإنبسطت أساريره كالأطفال وبدا على حركته أنه يريد القفز إلا أنه ضبط مشاعره المنفلتة فبادرته بضحكةٍ عفويةٍ جنّ لأجلها وكأنها عرفت!! أتراها عرفت؟!.

توجها نحو المقهى الذي لم يكن بعيداً للغاية عن موقعهما وطيلة الطريق كانا متقاربين دون حديثٍ يذكر فعلت الحمرة وجنتي "مهند" بينما لم تأبه "مروى" لما جرى فهي معتادةٌ على إهتمامه على أنها تفاجأت بعض الشيء لجرأته غير المعتادة وسعدت لتحسنه!.

عندما طلبا فنجانيّ القهوة شعرت الأخيرة بأنها أول إمرأةٍ تقاسمه فنجان قهوةٍ دون والدته! فتعجبت لأمره وبادرته بسؤالٍ للمرة الأولى يكون خارج عملهما..

- لِمَ أنت خجولٌ للغاية؟!

تأتأ ... ثم أردف قائلاً..

- لم أعتد مقاسمة فتاةٍ حلوةٍ مثلك القهوة!

قالها وسط إنبهاره من ذاته! أهو من بادر بالغزل الآن!! كيف تجرأ؟. إبتسمت إبتسامةً حلوةً كلها خجلٌ ثم قالت..

- أأنا الأولى!
- بكل تأكيدٍ ... (ثم بصوتٍ لا يكاد يسمع) والأخيرة!
- الأخيرة!

تعجبت بشيءٍ من المكر فتلعثم وأصابه السعال عدة مراتٍ قبل أن يجد منفذاً من كمينها..

- أقصد أن الشجاعة لشابٍ خجولٍ مثلي لا تأتيه كل مرة!
- إذاً تعترف بأنك رجلٌ خجول... ولِمَ كل هذا الخجل؟!
- هكذا رُبيت!

صمتت كي لا تنقد تربية والدته فغيرت منحى الحديث..

- أممم ... أخبرني إذاً لِمَ تركت العمل؟ وماذا فعلت في كل تلك الفترة حتى اليوم؟!

ضحك في سره أيقول لها كل ما فعله وهو إنتحارٌ ثم ملاحقةٌ مستمرةٌ لها! على أنه قرر ترئيس الدراسة كسبب أساسيّ لإنسحابه وإنطلت عليها الحيلة هي التي تكبره بسنتين وهو الصغير الذي

يراها سيدة الجمال على الأرض!. تقاسما القهوة وسط حديثٍ هامشيٍّ خفيف ثم تصافحا وسلك كلٌ منهما طريقه بينما يستفسر قلبه عن رأي الآخر به!!.

-11-

الحب هو أكثر شعورٍ كانت تخافه "نورا"!! فلطالما خُيّل لها بأنه مطرقةٌ ضخمةٌ تسقط على البيوت فتهدمها بما فيها لتزهق الأرواح وتستل الأنفس برضى أصحابها!! هو لابدّ مجرمٌ يتنكر لهم حتى يطمئنوا له فيحدث أن يتغير ليظهر بهيئته الرهيبة بعد أن يتملك قلوبهم فيقلب حياتهم كالجحيم ساحباً أقدامهم رويداً رويداً نحو نافذة الإنتحار!!

الحب كان لابدّ المسبب الأول والأخير في إنتحار طفلها لكنها تعجبت فيمن تكون تلك الفتاة التي سحرت قلبه حتى رمى بنفسه من الطابق الرابع دون أدنى إحترامٍ لروحٍ وهبه الله إياها لكأنه حاول رميها كالرافض المعارض!!! كيف إستهان بمشاعر والدته التي لا تحب إنساناً على الأرض مثله! تلك التي شقّ عليها أن تدع مستقبله يشبه ماضيها فكدحت سنواتَ طوالاً دون كللٍ أو مللٍ لتؤمن له حياةً كريمةً لا يشوبها الفقر أو الحاجة بينما يكافئها هو بالإنتحار فداءً لحبٍ تافهٍ لا يهبه سوى الموت!! إذاً ماذا عن حبها لفقيدها الغالي! لِمَ لم يدفعها الحب أو الموت للإنتحار ... ألو كانت بغير وضعها آنذاك أي لو أنها لم تكن بحاملٍ أتراها إنتحرت؟! أو سلمت جسدها العفيف لجارها القذر!! ماذا يحدث للدنيا! ما هذا الجيل الذي يحبو على الأرض فيأكل خيرها ويترك كل ضرر!!! كيف يحولون الحب لموت والورود لدم والفرح لأحزان فاقت الحدّ فإنقلبت ضحكاً ... كيف تستطيع ترك ولدها، فلذة كبدها يبحر في غياهب هذا العالم الغامض ...!! يالله! ما هذا الحب الذي يدفع الإنسان للموت...!

كانت "سهى" هي الإحتمال الأول بالنسبة لـ"نورا" لكنها بعد مغيبها حذفتها من القائمة ذلك أن عودتها بعد محاولة إنتحاره زادت الشكوك حولها لكن عدم تضايق "مهند" من مجيئها أكد لها إلا قليلاً بأنها لم تكن السبب ... ثم وجهت أصابع الإتهام نحو عمارة "هالة" التي شهدته يدخلها متخفياً عدة مراتٍ فبدأت تحصي فتياتها حتى كادت تجن ففتياتها كثيراتٌ ومن أين لها أن تعرف أية واحدةٍ هي؟! كيف يمكن أن تنزع مشاعر الحب المدمر من قلب طفلها!! وعاد طفلها ذلك اليوم مشرقاً يدندن بأغنية حبٍ متراقصاً بمشيته كغزالٍ عاشقٍ ليعيد إلى ذكرياتها هيئة والده المغرم بقلبه النابض وروحه الهائمة!! ... إقشعر جسدها فجأةً لما رأته وتأكدت بأنه قابلها اليوم ولابدّ عطرها على ثيابه! ... لابدّ أنه تأخر لتقاسمهما الوقت والحديث التافه! ترى من هي؟! ولِمَ إنتحر

يومها!! أتراها في موقع عمله السابق! أتراها بإستقالته قطعت عليه الطريق فإنتحر ... وإن يكن فهو الآن يقابلها إذاً لِمَ إنتحر..!!

تحيرت الأم بشدةٍ في أمر طفلها وكلما خرج من المنزل قاصداً الكلية تأكدت من خزانته فوجدتها مقفلة بينما على طاولته كثيرٌ من رسومات الكاريكاتير وقليلٌ من أوراق الدراسة!! ... فكرت قليلاً، جلست وأخذت ترتشف قهوتها الحارة بينما إسترخت أعصابها لتركز في كل ما جرى، وما أن خطر في بالها أمرٌ مهمٌ حتى حملت نفسها متوجهةً إلى بيت "جيسيكا"!! "جيسيكا" التي لم تطأ منزلها من لحظة إتهام "سهى" بخطف قلب إبنها، تقصدها الآن عازمةً على الإعتذار نظراً لتيقنها إعتماداً على حدس الأم بأن الفتاة ليست الفاعلة!.

نقرت الباب بتمهلٍ لتمر ثوان قليلة قبل أن تفتحه "سهى" متعجبةً لهذه الزيارة غير المتوقعة فنادت والدتها التي إستقبلتاها بحرارةٍ كأن إتهاماً لم يلصق عنوةً بإبنتها فرحبت "نورا" بهذه الحرارة وبادرت بالإعتذار على أن الصديقة نفت إنزعاجها إحتراماً للضيفة متحججةً بمشاغلها الكثيرة فإطمأن قلبها وإنتظرت مغيب صديقتها لتختلي بإبنتها ... وحدهما في الغرفة وصديقة الطفولة تحضر فنجانيّ قهوةٍ تكفيان لبضعة أسئلة!! همست لـ"سهى" بالإقتراب فإقتربت الأخيرة بتعجبٍ لتستطرد هامسةً..

- جئتك اليوم بمشورةٍ يا طفلتي وأتمنى أن تساعدي خالتك!
- أأمري يا خالتي؛
- لا يأمر عليك ظالم يا إبنتي! ... كل ما في الأمر أن إبني وكما علمتِ وشاهدتِ حاول الإنتحار، وما حاول الإنتحار إلا لسببٍ عظيمٍ وقد بحثت عنه حتى عرفته ..
- وما هو يا خالتي؟!
- الحب!!

قالتها فنبض قلب الشابة بعنفٍ حتى كادت مشاعرها تطوف على وجهها فتفضحها إلا أنها ضبطتها خوف شكوك السيدة وأنصتت لما تقوله..

- إنه يحب فتاةً لا أدري مَن وإنني متيقنةٌ لقوة صداقتكما بأنك تعرفينها أو على أقل تقديرٍ ذكر إسمها أمامك ... وأنا اليوم جئت بيتك طالبةً مساعدتك في إيجادها علّي أبعدها عن

طريقه فإنني أخاف شديد الخوف أن يحاول الإنتحار مرةً أخرى لا سمح الله! إذا كانت هي ذاتها السبب بإنتحاره الأول!!

كل كلمةٍ قالتها "نورا" دخلت قلب "سهى" بإرتياحٍ غريب ... ستبعدها عنه إذن هي التي ستبقى مالكةً له، لقلبه، لفنونه، لرسومه، لكله!! وكيف يمكن أن ترفض القدر الذي جلب والدته رغم شجارها الطويل مع أمها إلى بيتهم!! كيف لا تخبرها بإسمها وعنوانها ومكان عملها ... كيف ترفض هكذا فرصة؟!. سيطر عليها الشيطان سيطرةً تامةً فافترت شفاهها عن إبتسامةٍ خبيثةٍ أمالت رأسها سريعاً بعدها كي لا تلمحها الأم البائسة!! وعزمت على إخبارها بكل شيءٍ رغم علمها بسبب إنتحاره إلا أن أمل بقاء "مهند" لها وحدها أمرٌ يدفعها للتغاضي عن الحقيقة والعبور نحو الهدف مبررةً الوسيلة!!. ذهبت بخطواتٍ سريعةٍ إلى غرفتها بغية تسجيل معلومات الحبيبة المجهولة ثم وضعت الورقة بيد "نورا" بسعادةٍ لا توصف ... وقبل أن تغادرهم الضيفة الكاذبة بشوقها كانت قد سرحت الشابة في خيالاتها، في حبهما! كانت صادقة مغرمةً به على إنعدام شخصيته وجماله البسيط إلا من عينين ساحرتين ورثهما عن أمه على أنها لم ترَ سوى بياض قلبه فزالت عن بصرها مساوئه بينما لم يرَ فيها رغم حبها ولطفها وجمالها الحب! بل تجلت مشاعر الأخوة صافيةً في علاقتهما فقررت تغيير مسرى حياته!! لابدّ أن يعاود النظر في علاقتهما إن إختفت تلك الفتاة الجميلة من دربه!!! لابدّ أن يميل إليها طالما أنه يرى الحب مندفقاً من قلبها وقد ملّ قلبه قسوة أمه وصلابتها.

نامت ليلتها مرتاحةً بشدةٍ بينما أخذت الأم تطبخ الخطة على مهلٍ وقد فهمت ما المخفيّ خلف الخزانة وسرعان ما ستُفتح أمامها ليختفي كل مكنونها يوماً إثر يوم!! شعرت هي الأخرى بالسعادة والسيطرة على طفلها التائه كأنها تمسك يده عن الموت لتجره نحو حضنها!! كل هذا كان يحدث والشاب الذي تركض الإمتحانات نحوه سعيدٌ بالحب، بالخطوة الأولى نحوه! سعيدٌ جداً حتى نسيّ الدراسة رافضاً أن يمسك كتاباً متخذاً قراره بالعودة إلى الصحيفة عاجلاً أم آجلاً!!.

سيطرة الأشخاص على الآخرين ... على الضعفاء منهم لابدّ أن تكون إلغاءً لهم؛ على أن هؤلاء الأشخاص يرونها عوناً، بناءً للمستقبل ... أي مبررٍ آخر إلا القيادة ... أي مبررٍ آخر إلا مسح الآخرين!"

نسرين برادعي

الفصل الثالث

-1-

رفض "مهند" أن يكون طفلاً في مواجهة قلب "مروى" تماماً كأن تكون سجيناً ومقابل حريتك عليك أن تبرز جميع قواك .. هكذا كان الشاب يريد الحرية على الموت سجين والدته فأخذ يُحكم اِبراز شخصيته أمامها في كل مرةٍ يتقابلان بها فمرةً يحدثها عن كتابٍ قرأه فتنعش روحه وسط اِنبهارها لثقافته ومرةً يصطحب معه رسوماته تاركاً بينهم -كصدفةٍ- رسمةً لها فتحمر وجنتاها خجلاً ... وكان آخر ما عزم على فعله هو اِصطحابها بسيارته، وكان هذا أخطر قرارٍ اِتخذه منذ اِنتحاره حتى اليوم! ولأنه ومن أشهرٍ طويلةٍ يحاول الاِبتعاد عن الشجار مع والدته اِستأذنها في اِستعارة السيارة نصف يومٍ فمنعته متحججةً بخوفها عليه! ثم مرةً كانا سويةً فطلب منها أن يقودها طالما هي بقربه فرفضت متأففةً من اِلحاحه! ومرةً كانت الأمطار شديدة الهطول وكان قد تأخر على كليته نظراً لأوامر الاِفطار الدسم فتوسل إليها أن يستخدم سيارته عوضاً عن السير تحت تلك العاصفة الهوجاء فرفضت!! وعلى هذا المنوال اِستمرت بالرفض حتى ثارت نفسه ذات يومٍ فتساءل بحقدٍ "إذاً لِمَ اِبتاعتها على اِسمي إن كانت تريدها لها" ... وهل هو غير قادر على حمل المسؤولية حتى ترفض ما هو من حقه؟ ... أجل، حقه وسيأخذه إن شاءت أم أبت لكنه يحبها وقد تعلق بها كطفلٍ صغيرٍ فكان كلما عزم على عصيانها نازعته نفسه لتخمد غضبه فتراجع وبحث عن أمرٍ آخرَ يتباهى به أمام معشوقته بيد أنها ذات يومٍ فاجأته بغضبها عندما اِلتصق بقربها ملقياً التحية وقد زال بعض الخجل ما بينهما فجاءه صوتها حاداً غير ما اِعتاده منها..

- ماذا تريد الآن!!

نظر إليها بتعجبٍ شديدٍ ثم تساءل..

- ما بكِ!! لِمَ أنت غاضبة؟!
- وتسألني لِمَ!! ولكَ عينٌ أن تسأل... اِغرب عن وجهي!! ماذا دهاني حتى أقبل الخروج مع شابٍ مثلك!!!

توقف عن المسير فجأةً بينما أكملت هي دون أن تدير نحوه وجهها ... أكملت حتى غابت عن ناظريه، فما عاونته نفسه على المضي نحوها ليستفسر منها ما حصل بل شعر بقلبه يتقطع كمن

لا يستطيع التقدم خطوةً أو التراجع أكثر، فتبسط الرصيف وبكى!!! ترى ما بها؟! ما الذي جرى حتى تقسو عليه بهذه الشدة!!. ظلّ على هذا الحال من الذهول فترةً قبل أن يشد أذياله عابراً الطرقات سيراً على الأقدام متجهاً نحو منزله حيث وجد حضن أمه ملجأً من ضيقه فغرق فيه مكملاً بكاءه بينما لم تبخل الأم عليه بعطائها وحنانها فضمته بشدةٍ وأخذت تهدئه حتى ساندته إلى سريره علّه يأخذ قسطاً من الراحة.

لكن كيف له أن ينام وترتاح أعصابه وحبيبة قلبه تتخلى عن عطفها مبتعدةً عنه... أتراها خُطفت من بين يديه! أيعقل أنها لم تشعر بأنه يفعل المستحيل ليثبت بأنه رجلٌ يستطيع الوقوف على قدميه لوحده!! وكيف يستطيع المضي ليلاً نحو بيتها وأمه تخفي مفاتيح المنزل، آهٍ كيف يمضي هذه الليلة الشديدة الألم دون أن ينفطر قلبه!! زحف نحو خزانته ليفتح بابها متنعماً برؤية القاسية الغالية! ثم اِقترب من الصور ولثمها بحرارةٍ وحزن بينما تكدست رسومات الكاريكاتير في أرضية الخزانة فوق مجموعة الكتب الغنية التي ملأتها! آهٍ وما فائدة كل هذا دونها؟! هي التي أشعلت روحه نحو النجاحات والفنون، وهي التي قد تقتلها دون رحمة!!.

مازال الشاب ينتظر بزوغ الشمس محتمياً بصورها الغالية من المرارة والأسى إلى أن برز بعد صبرٍ جميلٍ شعاعٌ يشق سواد الليل وقد ملّ القلب من الاِنتظار الجارح فقضى يومه في الكلية كرقمٍ زائدٍ لا يفيد ولا يضر! ثم هرول إلى الصحيفة ينتظر لقاءها على أحر من الجمر ... كان غائباً في آلامه لا يستطيع تخيل رفضها له بهذه الطريقة الجارحة! لِمَ .. وماذا فعل حتى يستحق ذلك؟!! رآها متأنقةً بشدةٍ، كان قربها شابٌ يحمل أوراقاً وصحفاً .. تصافحا ثم عرجت إلى طريقهما المعتاد فتبعها حتى جاورها، لمحته فتجهم وجهها على الفور وكادت تلقي عليه سمها إلا أنه أشار بإبهامه أن تعطيه دقيقةً واحدةً وقد اِمتلأت عيناه بالدموع فاِبتلعت ما كادت تقوله تاركةً له الفرصة..

- لم أنم ليلة البارحة ولم تكف عينايّ عن البكاء... أنا لا أعرف ما اِقترفته لتعامليني كما فعلتِ البارحة ... أنا لا أستحق كل هذا! لقد تبعتك أشهراً تتلوها أشهر لأصل لهذا اليوم الذي تضحكين لي فيه موافقةً على تقاسم فنجان قهوةٍ أسرقك به من العالم ... لماذا وماذا فعلت ليحصل هذا؟ أنا حاولت أن أكون لبقاً ولطيفاً معك أكثر من أي إنسانٍ آخرٍ عرفتُه أو عرفتِه! فلماذا تجازينني بهذه القسوة... لماذا يا "مروى" ..

كاد يقول بأنه يحبها طيلة الفترة الماضية بيد أن ضغط دمه جاوز المعقول فشعر بصداعٍ حادٍ وثقلٍ كأنما يجذبه نحو داخل الأرض فصمت وكانت شديدة التعجب لما قاله! وكيف اِستطاع قوله؟! ... إلا أن الحب يفعل المعجزات ويخلق ما لم يوجد قط!!.

نظرت إلى عينيه بشيءٍ من الشفقة ثم قالت بقسوةٍ..

- أنت بابٌ يأتي منه الريح وأنا أريد اِغلاقه... فأرجوك اِعكف عني واِبحث عن أخرى تتناسب مع ذوقكم!!

غادرته هكذا .. حتى قبل أن يستطيع الاِستفسار أو الفهم! وتماماً كما حصل البارحة تعلقت قدماه في مكانه فلم يستطع حراكاً وغاب عن وعيه غارقاً في أفكارٍ مشتتةٍ ثم أعاد كلامها حرفاً حرفاً "بابٌ يأتي منه الريح"!! ثم ختمت قولها بـ"اِبحث عن أخرى تتناسب مع ذوقكم"... رنت في أذنه ميم الجماعة! جماعة من وهو الوحيد في حبها؟! ذوق من!! من تراها قصدت في جمعها أم تراها أخطأت قولها!! هو لم يحدث عنها أحداً ... لا ... هو قد حدث "سهى"! لكن أيعقل! هي تحبه ... لكنها بكت بحرقة قلبٍ حين أخبرها بحبه لـ"مروى" ومن الجائز أنها التي فعلت ما فعلته لتبعد عنه حبيبته! وهل تفعلها "سهى" وهي التي كانت يداً بيدٍ معه طيلة حياته.. أيعقل أن تكسره أختٌ ظنها نصف عمره من رحم ذات الأم! نظر نحو حبيبته التي لم يعد يتبين منها سوى فستانها الطويل بعيداً يتمايل تحت أشعة الشمس فشعر بدوارٍ شديدٍ شلّ حراكه فجلس كالبارحة متبسطاً الرصيف لكنه لم يبكِ! بل أخرج من جيبه ورقةً وأخذ يبحث لاهثاً عن قلم بين جيوبه فوجده وراح يرسم عملاقاً أسوداً بعد اِنتهائه هابه!! أتراها أمه؟! أم أخته! أم حبيبته... حينها بكى! شعر كأنه فارغٌ من الداخل كجسدٍ يحمل عبء هيكلٍ عظميٍّ ونفسٍ معقدةٍ ومكبوتة، ولولا الرسومات التي يجيدها ويرى فيها ملاذه لاِشتهى الموت..!

وقف على قدميه .. وسار كأنما تقوده الأرض لا قدماه، كان يفكر وهو يمشي دون أن يرى ما حوله، كيف تراه الله يراه وهو يرمي بجزء الروح التي وهبه إياها مرةً أخرى كأنه لا يأبه بالكون الذي خلقه... ومن هو ليرمي هذه الروح؟! وكيف يفعل محرماً وهو يحب الله حباً جماً!! لكن الحياة أقسى... الحياة والأم كانا أقسى ما مرّ عليه في هذا العبور الحياتيّ الهزيل، إنه عذابٌ أقسى من عذاب القبر! فكيف يعيش الإنسان مهمشاً لا يحبه أحدٌ! مكبوتاً مسجوناً لا يسمع له حرفٌ

ولا صوت! الناس إن شعروا بضعفه ضحكوا! والمعارف شفقوا! والأم كبتته أكثر فأكثر.. إذن أين الملاذ؟ أين الخلاص من دنيا لا تدس في روحه سوى السم والألم!!.

كان قريباً جداً من سكة القطار التي تقطع طرف المدينة كقطعة حلوى وكان بارعاً بحشو رأسه بالمشاعر الكئيبة السوداوية المؤلمة!! .. ذكر كثيراً قسوة أمه، ذكر أيضاً الغمازة الجميلة .. دمدم قائلاً مقولة كاتبةٍ لم يذكر اِسمها ..

"أحبكِ،
كل ما في الأمر أن اِبتسامةً تنجب غمازةً تأكل قطعةً من التفاح الشهي تستطيع اِستلال قلبي حتى ولو جيوش الأرض تحميني!! .."

كان هناك غائباً عن الوعي لكن عيونه كانت ترى وأنفاسه منتظمة رتيبة!! ... كان ميتاً على قيد الحياة! يحبها لكنها تركته ليموت ثانيةً لأجلها! .. لأجلها هي التي لم تعرف بأنها قتلته مرةً لتقتله ثانيةً دون رحمة!! أخلقت النساء يا الله كي يحطموا الرجال لا غير!! ... بغمازتين واِبتسامةٍ قاتلةٍ حقاً .. بكل معنى الكلمة!.

عبر الحاجز الذي يُرفع طالما لا قطار على السكة وبدل أن يكمل طريقه نحو الطرف الآخر اِتجه سالكاً السكة الحديدية بخطواتٍ واثقةٍ تماماً كما خطى خطواته نحو النافذة .. كان شارداً عن الدنيا ... ذاهلاً فيما حدث، تتردد على مسمعه كلمات "مروى" و"نورا" وزملاؤه .. تكرر حادث الاِنتحار فلم يستطع تذكر شيءٍ منه سوى الزجاج الذي حطمه!!. شعر بالوحدة رغم أن الله كان يهمس له "أن اِعكف عما تريد فعله بذاتك .. فأنا معك!!" ... إلا أن روحه كانت صماء وما غير أصوات الحقد تصدح في صميمه.. تشده ثانيةً نحو الموت! تحثه على قتل نفسه!

مدد جسده على السكة بتمهلٍ شديدٍ كأنه لا يهاب الموت .. كأنه رجلٌ أمامه حين يكون طفلاً أمام سواه!. طالع السماء وهو يشعر بقلبه ينبض باِضطرابٍ، عدّ الغيمات المتفرقة ثم راقب السكة حتى آخر نقطة تتوضح منها .. كانت طويلةً جداً فكيف لا تكون له فرصة الخلاص فوقها!! ..

أخذته الأفكار إلى بيت جده المحترق .. تذكر اِعتراف "هالة" ... بكى حينها وقال لنفسه بأنه تمنى لو أنه زار المنزل قبل موته!! .. كان المنزل يلوح في خيالاته كبيت أمواتٍ مرعب! وجده الغريب بهيئته اللامنطقية يحثه بيده على المجيء!!

ورن جرس السكة .. تين، تين، .. تين .. يصم الآذان!!

مرّ بعض الفتية مهرولين قبل أن يهبط الحاجزان أوتوماتيكياً فيظل وحيداً هناك أمام الموت القادم ... كان يعرف أن الرنين ذاك وهبوط الحاجزين يعطيه عشرة دقائقٍ قبل أن يقبله القطار قبلة الموت!!

وحيداً هناك ... وحيداً بحيث لا يسمع حتى صوت نفسه .. تراه كان راضياً؟! نظر إلى السكة الطويلة حيث سيعبرها القطار قريباً متنهداً .. هل يملك يا ترى خياراً آخراً؟! لقد تركته "مروى" فكيف يستطيع الصمود بعد عينيها أكثر!! ... ما أن تذكر "مروى" حتى بكى بكاءً شديداً فعلى صوت أنينه وكان شابٌ قد رمى بصره إلى طرف قدوم القطار فرأى بأنه لم يأتِ بعد فكرفس عابراً تحت الحاجز الأول وحين اِنتصف الطريق بين الحاجزين ترامى إلى سمعه أنينٌ فتفحص السكة ورأه!! رأى "مهند" متمدداً فوقها يبكي بصوتٍ مسموعٍ وقد غطى عينيه بكفيه! هلع الشاب إليه وقد صرخ لشابٍ ينتظر خلف الحاجز الآخر أن يأتي فعبر مثله وعندما وصلا إليه حملاه رغماً عنه وقد بدأت السكة ترتج تحت أقدامهما .. لكنه أبى وأعاقهما بحمله حتى سقط وعاد زاحفاً إلى السكة حيث قال بصوتٍ محتقنٍ..

- اِتركاني فألم الموت أقل جرحاً من عذاباتي!!

- اِنظر إليّ يا أخي ..

قال الشاب لـ"مهند"

- لله صوتٌ يبثه داخلنا يهدينا إلى الصراط المستقيم.. فهل سمعته؟!

- بعد كل ما حصل لي لا صوت يداوي جراحي ..

- اِستغفر الله يا رجل .. صوت الله أقوى من أي صوت! أترمي هبة الحياة دونما اِعتبارٍ بأن الروح روحه؟!

نظر "مهند" إلى السكة وكانت ترتجف تحته بتزايدٍ فقال الشاب الآخر..

- دعنا نحمله فما عاد لدينا متسعٌ من الوقت!!!

- يا أخي اِعدل عن رأيك فالقطار قادم..

- وكيف تداويني الحياة وهي أقسى عليّ من الموت!!

- يداويك قربك من الله

- مدّ إليّ ذراعك، هاتها وإبدأ صفحةً جديدةً من الآن

نظر إليه الشاب وقد اِصفر وجهه بينما طفح الكيل بالشاب الآخر عندما سمع صفارة القطار تدوي في أذنيه وقبل أن يثور على المنتحر الخائف مدّ يديه إليهما وقد اِنهار نهائياً فساعدها بالعدول عن جلوسه ثم حملاه مسرعين متساعدين حتى اِلتصقا بالحاجز الثاني حيث مر القطار بسرعةٍ هائلةٍ قاطرةً إثر أخرى فأخذوا يراقبونه مرتابين يمر قاطرةً تلوَ الأخرى بينما يرتجف "مهند" بين يديهما غائباً عن الوعي تارةً مراقباً القطار بعينين دائختين تارةً أخرى!!. وما أن اِختفى القطار خلف الأشجار المرتفعة المحيطة بالسكة حتى بدأ الحاجزان بالاِرتفاع فعبرا حاملين الشاب حتى وصلا لأول دكانٍ صادفاه ليتصلا بالاِسعاف الذي لم يتأخر عنهم فنقلوه إلى المشفى العام ذاته ليقوموا بالفحوصات الأساسية حيث اِتصلوا بوالدته التي هرعت بالمجيء إليه والدموع تملأ خديها .. طلبوا منها الاِعتناء به ... قالوا بأنه حاول الاِنتحار مرةً أخرى ولولا شابان أنقذاه لما كان حياً يرزق بين يديها .. هددوها بأنها المرة الأخيرة التي يسمحون لها بإيصاله لهذه الحالة وأن المصحة رغم قسوتها خيرٌ له منها!! .. قسوا عليها بكلامهم جداً فساندته إلى السيارة وهي تبكي ثم وصلا إلى المنزل فصعدا بصعوبة الدرج حتى مددته على فراشه ليغرق في نومٍ عميقٍ! حيث بكت بكاءً غاب قلبها بعده فشعرت بأنها كادت تفقده حين حاولت للمرة الثانية تخليصه من فتاة أحلامه!! .. "مروى" الشؤم الذي دخل منزلهما فكاد يودي بحياة مدللها مرتين!!

مرت تلك الحادثة الأليمة بعد أيامٍ وليالٍ من حالات الفزع المتتالية التي كانت تنتابه كلما ذكر القطار وهو قادمٌ ليدهسه أو كلما أتاه وجه "مروى" شريراً حقوداً كارهاً له!! ... ثم كان يتساءل عندما تهدأ نفسه قليلاً ... كيف يستطيع الآخرون كسرنا بهذه الطريقة اللامبالية بأرواحنا!! ... كيف؟! ثم كيف وهي تعلم ضعفه زجرته بهذا الأسلوب القاسي .. ألم تخف عليه ولو لوهلة!! .. أي إنسانةٍ هذه خلقت بجمالٍ مبهرٍ لم يعكس مطلقاً حقدها الدفين! ... حاول بهذه الطريقة كرهها!! .. كان يذكر دوماً مساوئها، كان يحشو رأسه بتصرفاتها، ببسمتها الكاذبة ... بعينيها الحلوتين الخادعتين! ثم نهض ذات يومٍ من سريره دون أن ينظر للسماء .. كان خجلاً!! كان يستحي من الله أن يرى وجهه بعد رفضه مرتين لجزءٍ من روحه! .. ولماذا يرضى عليه بعد كل ذلك؟! ثم عاتب

نفسه .. الله غفورٌ رحيم، هو وحده من يعرف كم يعاني، شخصيته المهزوزة، تحطمه .. عنف الحب عندما يلكمك بلكمته القاضية فتموت صريع الهوى! هو من خلق هذا العذاب وهو مدركٌ تماماً لقدراتنا فكيف لا يغفر! وكيف لا يرى بأن مصائر الضعفاء مثله قد تكون على سكة قطارٍ إن تخلُ من الإيمان بعض الشيء فجرهم الشيطان من أيديهم كالذليلين نحو الموت!! ..

تمشى يومها في غرفته كثيراً ثم قرر الخروج بعد أسبوعين من التحطم النفسي إلى الدكان فجلس أمام التلفاز حيث ضجيج الزبائن مرتفع لكنه لم يأبه! كان محتاجاً لبعضٍ من الأُنس ليستمد الحياة من أولئك الذين لا يعرفون بأنه أقدم على الإِنتحار مرتين! قضى يومه هكذا حتى المساء فنام في سريره بهدوءٍ غريب وما أن حلّ ظهر اليوم التالي حتى خرج من المنزل تحت نظرات أمه المرتابة فتوجه إلى الجامع القريب من منزلهما حين سمع الأذان يرفع فقصده ليريح نفسه بالصلاة مستغفراً الله بكل جوارحه على كل ما اِقترفه سابقاً .. اِستغرق في الصلاة التي أعقب بها صلاة الظهر كما لم يستغرق سواه من المصلين فتقدم نحوه شابٌ بذقنٍ مهذبةٍ وهيئةٍ لطيفة متبسماً بعد أن أنهى صلاته .. أتاه مطبطباً على كتفه حين رأى وجهه أصفرَ وجسده مرتجفاً متعباً..

- ما بك يا أخي؟
- لا شيء.
- الصلاة مفيدةٌ لأي مخلوقٍ لا شك، لكن الكبت مؤلمٌ رغم الصلاة!
- وماذا تريدني يا شيخي أن أحدثك! القلب متألمٌ فدعه بما يعانيه
- حدث الله، أخبره وهو دليلك ... هو نورك المشع في الظلام
- ونعم بالله.

وهكذا خرج من المسجد بعد أن تشكر الشاب على اِلتفاتته وقد رأى فيه ما لم يره في سواه من تعصب وغضب! إذ إنه يذكر بأنه دخل مسجداً آخراً وقد اِنتهى من صلاته باكياً محزوناً فتقدم إليه شيخٌ كهيئة هذا الشيخ أبيض الثوب جميل الهيئة فغضب حين رآه باكياً وقال له بصوتٍ مرعبٍ بعد أن أفشى له ما أقدم عليه من اِنتحارٍ..

- استغفر الله، ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا!! معافى وليس بك عيبٌ خلقيٌّ وحياتك كريمةٌ لا ظمآن ولا جائعٌ ومازلت تبكي كالنساء... استغفر الله العظيم!! ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا!!

حينها عكف عن الصلاة في المساجد طويلاً لشدة ما كره هذا الرجل الذي اِدعى الدين بذقنٍ طويلةٍ ولسانٍ سليط! والدين ليس إلا مسامحةً وموعظةً لطيفةً ترافقها اِبتسامةٌ وحسن خُلق! والآن ها هو يعيد الإعتراف بخطئه لهذا الشيخ الذي طبطب ثانيةً على كتفه قائلاً بصوتٍ حنونٍ وواعظٍ..

- الله سميعٌ عليمٌ بما نعانيه يا أخي، حياتك بعد اِنتحارك مغفرةٌ من الله وبابٌ جديدٌ لتحيا، حاول أن تبحث في حياتك عن أمل، لكل روحٍ خلقها الله منفذٌ لابدّ والسائل لابدّ يُجاب! والباحث لابدّ يجد.. اِبحث لِمَ وهبك الله الحياة ثانيةً وحينها ستجد كل السعادة فيها!.

تمشى إلى منزله بينما يفكر فيما قاله الشيخ راضياً مرتاحاً على الرغم من بأسه ثم تمدد على فراشه دون أن يخبر أمه بما حدث وغطّ في نومٍ عميقٍ لم يستيقظ منه إلا على صوت أمه تناديه ليحدث صديقه "سعيد" فهمّ بالتوجه نحو الهاتف قلقاً تحت نظرات أمه التي لم تخلُ من الشك فحدث "سهى" بهيئة صديقه فتواعدا في الحديقة كما السابق، وبعد أسئلةٍ وتحقيقاتٍ شديدةٍ اِستطاع الخروج من المنزل متجهم الوجه كارهاً لقاءها!! .. وهناك وجدها على ذات الكرسي تنتظره وقربها بضعة كتبٍ لم يفرح لأجلهم كعادته وقد اِستشفت ذلك من نظراته..

- مساء الخير..
- مساء الورد! كيف حالك؟
- الحمدلله.

نظرت إليه بعطفٍ وشوقٍ شديدين ثم قالت،

- جئتك اليوم بمجموعة كتبٍ لن تجدها في مكاتب المدينة أجمع!
- جئتك بكتابك هذا (أعطاها اِياه) لقد تفرغت للرسم هذه الإيام لا داعِ للكتب بعد اليوم!
- لا داعِ للكتب!
- أجل لا داعِ.
- وكيف يعيش "مهند" بلا كتب! أيعقل؟
- ولِمَ لا! عليّ أن أذاكر محاضراتي جيداً ثم عليّ أن أجتهد في التدرب على الرسم أكثر.
- وما ضرّك بضعة دقائقَ من القراءة
- ... لا ضرر في ذلك لكن أمي تعيقني في القراءة لذا عكفت عنها!

نظرت إليه بتعجبٍ توضح في ملامحها فأكمل قائلاً..

- لا تتعجبي، وشكراً على جهودك المبذولة.
- جهد ماذا!! أنت لست طبيعياً اليوم!
- وكيف تريدينني أن أكون طبيعياً؟! أن آخذ الكتب وأركض إلى المنزل؟! هكذا..
- ماذا حصل؟!
- وماذا يمكن أن يحصل ... خمني أنت!

صمتت كأنها اِستشعرت ما أقدمت أمه عليه..

- أهي والدتك؟!
- لا!
- إذن من الذي أزعجك؟
- أنت!

قالها دون زيادةٍ أو نقصانٍ ثم مد بصره نحو الناحية الأخرى فأمسكت يده قائلةً..

- أنا! وهل أؤذيك وأنا أحبك!

سحب يده بجفاءٍ وضيقٍ..

- اِبتعدي عني وعن "مروى" وأكون لك من الشاكرين.
- "مروى"! وما أدراني بها؟!
- لقد عرفت كل شيءٍ ولا داعي للنكران..
- نكران ماذا؟!
- أنك التي قابلتها وأبعدتها عني
- كيف تؤلف القصص كيفما يحلو لك!!
- لا والله لست أنا
- إذن من؟!

أطرقت بصرها إلى الأرض ثم حين شعرت بأن الدائرة تضيق تضيق لتخنقها وحدها، قالت بصوتٍ لا يكاد يسمع "والدتك"!

- أمي أنا! وما أدراها بـ"مروى"!!
- لست أدري...
- أنت الوحيدة التي تعلمين ... ياا خسارة!! أخبرتي أمي لتبعديها عن طريقك أليس كذلك!!
- من قال لك هذا!! ... كذّاب!
- الحقيقة واضحة يا خانم! حبك نقمةٌ عليّ!

صمتت بتلبكٍ ثم سقطت منها دمعتان صغيرتان وقالت بصوتٍ مبحوحٍ حزين..

- أنا لا أؤلف، وكما قلت لك الحقيقة واضحة... أمك جاءتني طالبةً أوصافها ... فأخبرتها.
- برافو!!! المثل يقول "من أمنك لا تخونه لو كنت خوّان" وأنت أبشع من هذا وذاك! اِسمعي، دعي كتبك عندك فأنا لا أريد أن تتصلي بي ثانيةً! ولا أن أراكِ أو أسمع عنك شيئاً بعد اليوم!! ... اِبتعدي عني وعن "مروى" ... نهائياً!.

قالها بغضبٍ شديدٍ حتى اِحمرت عيناه وتبينت عروقهما ثم نهض وخرج من الحديقة وهو يسمع بكاء "سهى" على أنه لم يعد يهتم! ولِمَ يهتم وهي التي أبعدت حبيبة قلبه عنه! وما الفائدة من البكاء وهي الأخرى تريد أن تصيّر حياته كما تريد! لا هي أخته ولا هو أخوها... من اليوم هو وحيدٌ لأمٍ عقيمةٍ عن فهمه! من اليوم سيريها بأنها لا تستطيع أن تخطط حياته كما يحلو لها!

دخل المنزل تحت نظرات والدته المتطلعة على أنه لم يلقي عليها التحية بل أومأ برأسه مكتفياً ثم عكف من فوره عابراً باب الغرفة ليغلقه بإحكامٍ خلفه! وضب على عجلةٍ من أمره بضعة حاجياتٍ منتظراً سماع زقزقة باب الحمام ليخرج مسرعاً ملتقطاً مفاتيح سيارته المعلقة قرب المرآة كما مفتاح المنزل الذي مازال منسياً على بابه!! مغلقاً إياه بهدوءٍ شديد! ... جلس داخل السيارة التي بدت شديدة الغرابة من موقعه الجديد! أخذ يتذكر كل مرةٍ طلب قيادتها فرفضت متحججةً بعدم مسؤوليته وإنعدام قدرته... اِشتعلت روحه غضباً وصمم أن يبرهن لها قوته ... قدرته ومسؤوليته فأدار محرك السيارة بعد أن وضع حقيبة حاجياته قربه مغادراً المنزل لأول مرةٍ على هذا النحو!

كان في سيارته رجلاً كباقي الرجال يقودون سياراتهم غير آبهين بالموت، متحديين الحديد والشوارع والإشارات! هو قويٌّ ومسؤولٌ وأمه التي تنعته باللامسؤول والضعيف دائماً ستندم على ما قالته حين ترى سيارته مختفيةً! ... لكن أين يذهب؟! هو لم يفكر بوجهةٍ معينةٍ بعد ... أخذ يبتعد عن

المنزل قدر المستطاع خوف أن تلحق به!. مرّ قرب الحديقة فلم يرَ "سهى" ، توقف قليلاً ليخرج من جيب حقيبته رفاة والده الذي أخذه من الخزانة قبل رحيله!! ثم قال محدثاً اِياه "آهٍ يا أبي ليتك كنت معنا!! أتراك مثلها؟ ديكتاتورٌ عنيدٌ قامع! أتراك كنت ستمحو شخصيتي كما فعلت هي لتهدم أحلامي كما اِقترفَت؟! أنا اِبن الخامسِ والعشرين عاماً تركض بي السنين نحو الثلاثين ركضاً ومازلت أخاف أن أقرأ كتاباً لا يعجب أمي! أو أن أرسب في مادةٍ لأنني عوض أن أدرسها تسليت في فيلمٍ كنت أشاهده ليلة الاِمتحان ... أنا أخافها يا أبي كما يخاف الطفل الصغير أمه إن عصاها! أنا رجلٌ وسوايّ رجالٌ أصبحوا آباءً وأنا مازالت محروماً من قيادة السيارة لأنني غير مسؤول!! بأي عقيدةٍ أو قانونٍ قيل هذا!... أنا يا أبي خلقت لتعذبني أمي!! أيمكن للأم أن تكون نقمةً على طفلها؟ عذاباً وجحيماً واِنكساراً؟! أتراك لو كنت معنا لتغير الأمر أم لا... أترانا كنا سنصير أسرةً سعيدةً لا يشوبها الحزن أو الألم؟! وما حالنا اليوم إلا العناء، ما حالنا إلا الاِغتراب في أرضنا، في بيتنا نشعر بأننا لسنا كما نريد أو نرتاح ... ما حالنا وقد حاولت الاِنتحار مرةً ثم أقدمت على الثانية عليّ أهرب من أمي لعالمٍ لا أراها فيه ولا تراني!! ورغم كل ذلك الهروب الأليم أحبها!! أهي تحبيني؟ وهل من محبٍ يعذب محبوبه بهذه القسوة... أنا يا أبي رسام كاريكاتيريٍ قمعت أمه كل سبله للرسم! أقالته من عمله، حرمته من الأقلام والورق! مزقت رسوماته يوم غضبٍ! ثم خرّبت بينه وبين من أحب!! أهي أمي؟! وما حالها صديقتها "جيسيكا"!! هي أيضاً فتاة ملجأ على أنها رحيمة حنونةٌ لطيفةٌ ربت فتاتها على أكمل وجهٍ فصارت فتاةً جميلةً بشخصيةٍ قويةٍ بينما صرت فتىً لا يستحم إلاإذا أخذ إذن أمه!! أجل يا أبي ... والله أجل، إنها الحقيقة المرة! وكيف لا تكون حقيقةً وأنت ترانا من السماء فتبكي على حالنا!! حالنا يا أبي تعيسٌ مؤلمٌ وأمي لا تريد التغيير وأنا لا أريد الخنوع... فما يكون الحل سوى الهروب!!"

أعاد تشغيل محرك السيارة بعد أن مسح دموعه فأطاعته متجهةً هناك .. حيث رأى "مهند" في ذلك كما رغبه دوماً!

-2-

عندما خرجت "نورا" من الحمام ذهبت لتحضر العشاء فاِستغرقت في سلق البيض وتسخين الماء وتقطيع البندورة لشرائحٍ بعض الوقت على أنها شعرت بغرابة الهدوء في غرفة طفلها لكنها خمنت بأنه نائمٌ فحضرت مائدة العشاء كما في كل يومٍ ثم قصدت غرفته لتوقظه فنقرت على الباب بهدوءٍ واِنتظرت للحظاتٍ بيد أنه لم يجب! فنقرت بقوةٍ أكبر عدة مراتٍ لكنه أيضاً لم يجب

ففتحته مندفعةً نحو الداخل كأن حدس الأم أخبرها بأنه ليس هنا فوقعت عينها على سريره الفارغ وحقيبته المختفية فإنتابها غضبٌ شديدٌ إذ إنها فهمت بأنه إنتظر دخولها إلى الحمام ليخرج سارقاً مفاتيح المنزل فإندفعت نحو باب المنزل كحركةٍ لا إراديةٍ كأنها ستراه خارجاً على أنها تفقدت الدرج الصاعد ثم الهابط إلا أنهما كانا خاليين مقفرين!! أدلفت الباب على عجلةٍ من أمرها واضعةً كرسياً ليسنده بعد أن بحثت عن المفتاح فلم تجده! ونزلت مسرعةً إلى الطريق الذي تفحصته على عجلٍ ذات اليمين وذات الشمال فلم تجد طفلها ومرت عينها على سيارته فلم تجدها فإزداد غضبها وتشنجها ... يا الله سرق السيارة وهرب!! قالتها وهي تلطم وجهها دون إنتباهٍ للمارين الذين أخذوا يرمقونها بعين التعجب وهي في رداء النوم تنوح في الطرقات ليلاً!!. ركضت إلى المنزل كالمجنونة ثم بحثت عن رفاة زوجها العزيز علّها تفشي له بهمها على أنها لم تجده وكانت المرة الأولى من خمسة وعشرين عاماً تبحث خلالها عن رفاته فلا تجده! وكيف يكون منزلها بلا رفاة العزيز الغائب... تفاقم غضبها فنعتته بأبشع الصفات و ثارت أعصابها حتى إتصلت بالشرطة الذين جاؤوها بعد نصف ساعةٍ فأخبرتهم بما حصل، أخبرتهم بإنتحاره وضعفه!! ... ثم أعطتهم رقم لوحة السيارة فغابوا عنها ليفرغ المنزل بها من أعوامٍ كثيرةٍ فلا إبنها الصغير قربها ولا رفاة العزيز ينجدها!! وكيف لطفلها من لحمها ودمها أن يفعل بها ما فعله؟! أيسرق ما تبقى لها من زوجها! لِمَ كل هذه القسوة؟!

هذا أن "نورا" لم تستطع حتى اللحظة أن تعي بأنها المصدر الأوحد لعذابات إبنها!! هي لم ترفض الإتهام... هي لم تعِ أصلاً بأنها السبب! ولهذا تحيرت الليل أغلبه في إيجاد سببٍ لفعلته حتى إستقرت على أن "مروى" اللعينة لابدّ نعتته بأقسى الصفات وزجرته حتى إشتدّ عليه ما آل إليه فهرب بنفسه بعيداً عن أي أحد.. لكن إلى أين؟! ولِمَ رفاة "هيثم" معه! أيعقل أن يكون قصد بيت "سعيد"! ذاك الشاب الذي لم يفتأ يتصل به كل أسبوعٍ مرةً أو مرتين! ... ضجّ رأسها بالأفكار فآلمها، وبكت كثيراً حتى إختنقت أنفاسها فإفترشت سريره ونامت!.

"مهند" الذي تبع قلبه دون عقله إنطلق بسرعةٍ جنونيةٍ نحو هدفه دون أن يفكر لحظةً بعواقب ما أقدم عليه حيث كان كل ما يدور في ذهنه هو أن هذا حقه الأكمل، ولن يرده عنه إنسان! ... كان يردد بروتينٍ مخيفٍ /136/ ... أعادها أكثر من خمسين مرة بتكرارٍ موحدٍ لا يشيبه توقف! هذا حقه ولابدّ أن يعرف من هو! مِن مَن أتى! وعلى مشارف الهضبة الغربية حيث تزداد المباني إنخفاضاً تبعاً للسهل المجاور على عكس الهضبة التي تزداد إرتفاعاً في الجهة المقابلة تبع خطا

والدته مما يقارب الثلاثين عاماً! مرّ وهو يبحث عما أخبرته به "هالة" ذات مرةٍ ... بيتٌ محترقٌ تتصاعد منه ألسنة الذكريات اللاسعة... زاد الوقود فاِندفعت السيارة أسرع نحو أمله الوحيد المتقد في عينيه وعندما لمح بين البيوت التي بقيت كما كانت ملونةً زاهيةً منزلاً بطابقين محترق الواجهة منكسر اللافتة فأوقف السيارة جانباً ثم ترجل منها ساحباً قدميه نحوه لشدة الرهبة!! ... توجه بخطواتٍ مترددةٍ نحو الباب العتيق الذي غطاه الغبار حتى دفن ملامحه، دفعه فكان السواد كما قُصَّ عليه غامقاً محزناً كنسوةٍ لا يملَنَّ اِرتداء الحزن عاماً بعد عام!!

كان في أواخر الليل فلم تشع الشمس لتلغي ما زاده الليل سواداً ولا أطل القمر منبثقاً من النوافذ المنكسرة لينير طريق الشاب الذي أنار مصباحه متفحصاً الطابق السفلي بدقةٍ متناهيةٍ كباحثٍ يأمل اِيجاد كنزه بين الحطام! ... مرر الضوء على المطبخ المحترق وغرفة الجلوس المتهدمة ومن الذكريات المؤلمة الهامدة لمع تحت الطاولة الصغيرة قرب أريكةٍ شبه متفحمةٍ زجاجٌ جذبه! فتقدم نحوه ليسحبه فإذا هو صورةٌ أزال عنها الغبار بيديه حتى تراءى له رجلٌ بني الشعر جميل الهيئة ببدلةٍ بيضاء وقربه عروسته ذات الحلة السوداء بأنفٍ يشبه تماماً أنف والدته وعينين كبيرتين جميلتين!!. أطال النظر في صورتهما ثم قلبها علّه يجد لهما اِسماً، لكن أمله خاب حين بقيا مجهولين بلا اِسم! مما أحزنه فزج بالصورة في حقيبته متأملاً اِكتشاف اِسميهما في أقرب وقت!.

اِستمر الشاب بالبحث دون كللٍ أو مللٍ فالليل طويلٌ والمنزل مليئٌ بالذكريات المكسورة المهدمة، هو من هذا المنزل لابدّ إذاً لِمَ حرمته أمه حق التعرف على أجداده!! ... لِمَ لم تبحث بين الحطام! بين ذكريات والديها، بين أثاثهم المحترق! كيف أعانها قلبها على ترك المنزل هكذا سنواتً طوالاً لا تعترف بملكيته إلا أمام الدولة والقانون!! وقلبها؟! وأصلها... ووالداها، صورهم ... أشياؤهم الحبيبة ألا تسحبها كل ليلةٍ أليمةٍ إلى هنا!!.

وبينما يبحث في غرفة الجلوس وجد مكتبةً تختفي خلف ظلام الليل ولمسات الحريق فيها من الكتب الكثير لذا أطال المكوث أمامها متفحصاً اِياها، باحثاً عن كتابٍ بحالةٍ جيدةٍ يمكن قراءته إلا أن واحداً جذب اِنتباهه عن الآخرين بعلبته الحديدية المحفوظة بقفلٍ صغير!! حاول الشاب فتحه على أنه لم يستطع فأتبعه بالصورة وكله فضولٌ لما بداخله!. أكمل بحثه بين الكتب بشغفٍ بيد أنهم كانوا شبه أغلفةٍ متآكلةٍ جميع أوراقها مُحرقة!! لذا تركها ليعرج إلى المطبخ الذي لم يجد

فيه ما يذكر فصعد الدرج الذي لاحظ كما لاحظت والدته بأن أحداً كسر حافته فواصل الصعود وهو يدقق به كأنه يتخيل الحادثة بتفاصيلها!!.

وصل إلى الطابق الثاني بعد سنفونية الحريق الأليمة وهناك بدأت الشمس تشق الظلام ببطءٍ وخفة شديدةٍ فأكمل بمصباحه البحث في الغرف العليا ليجد غرفة الوالدين أولاً، تفحصها جيداً فلم يجد فيها ما يذكر ولا رأى آثار الأقدام التي ذكرتها "هالة"! لذا عبر إلى الغرفة المجاورة ليجد سرير والدته الصغير ببصمة الحريق الواضحة على هيكله مركوناً قرب النافذة حاملاً بهدوئه ذكريات الماضي! اِقترب منه بحزنٍ ثم جثا على ركبتيه وبكى كطفلٍ صغيرٍ يعتذر لأمه!! وما أن اِمتدت الشمس حتى قبلت يديه بحرارتها فاِستيقظ من ذهوله مستجمعاً قواه ليكمل البحث مدققاً في جميع التفاصيل المتبقية من ماضي والدته!

بحث تحت السرير ثم خلف الخزائن ثم فوقها حتى ملّ التفاؤل والأمل الذي يضمر شيئاً فشيئاً فتأفف لعجزه عن فهم الماضي بحذافيره وفجأةً تهاوت إثر زفيره القوي صورةٌ كانت عالقةً بحافة سقف الخزانة حتى حُبست بينها وبين الجدار فنزل من فوره متعجلاً ليسحبها ثم أخذ ينفخ عليها ويمسحها بكلتي يديه مندفعاً بحماسه إلى أن تبين له بعد حينٍ أنهما جداه ذاتهما وبين يديّ الجدة والدته وقرب جده يدٌ لطفلٍ صغير أكلها الحريق!! تفاجأ حتى اِنفرج فمه لشدة الصدمة!! وعلى الفور أعاد البحث ثانيةً فوق الخزائن وتحتها ثم خلفها وداخلها على أنه لم يجد شيئاً! فأكمل متفحصاً الغرفة شبراً شبراً ليوشوشه السرير الملتصق في الطرف المعاكس للسرير الصغير والذي اِعتقد بأنه لوالدته بعد أن كبرت!.

نزل الدرج ذاته حاملاً في حقيبته ثلاثة ذكرياتٍ وألغازٍ ثمينةٍ عليه كشفها!. جلس أمام المنزل منتظراً شروق الشمس واِستيقاظ أهل الحي فنام قليلاً حيث أسند رأسه إلى شجرةٍ كبيرةٍ نبتت عبر أسوار المنزل مخترقةً نوافذه! ولم يوقظه من غفوته تلك إلا صوت قطتان تتشاجران ففرك عينيه وقد تجاوزت الساعة التاسعة والنصف! حينها قصد المنزل المجاور لمنزل جديه مستفسراً من السيدة التي فتحت له الباب عن أصحاب ذلك المنزل فهزت رأسها ذلك لأنها لا تعرف شيئاً عنهم مفسرةً السبب بأنها جديدةٌ في الحي. اِستمر دون كللٍ أو مللٍ في سؤال الجيران الذين نفوا معرفتهم بأصحاب المنزل المهجور المهيب من سنين طويلة إلا اِمرأة عجوز واحدة تسكن على بعد خمسة منازلَ منه؛ كانت ذات اِنحاءة ظهرٍ مهيبةٍ وتجاعيد وجهٍ لشدتهنّ أقسم "مهند" بأنها لابدّ فاقت مئة العام بكثير!!. سألها عن المنزل فأمعنت النظر إلى عينيه كأنها تتذكر أمراً ما! ثم

اِبتسمت كما لو أنها كانت بإنتظاره!! فأفسحت له ليعبر ثم جلسا بعد أن قدمت له قدحاً من الشاي الذي كانت قد جهزته لنفسها. ساد الصمت برهةً إلى أن اِحتسى الشاب القليل من الشاي اللذيذ ليبادرها السؤال الذي خُيل إليه بأنها تنتظره! ..

- آسفٌ يا خالتي على الإزعاج! ولكنني أبحث منذ فترةٍ لا بأس بها عن أحدٍ يعرف من هم أصحاب ذاك المنزل..
- ولم يخبرك أحد؟!
- لا يا خالتي..
- إذاً أنا أخبرك..

اِبتسمت في وجهه اِبتسامةً عذبةً ثم اِرتشفت القليل من الشاي كأنها لم تلحظ توتر أعصابه، وعلى اِنجذابه واِهتمامه الشديد قالت بهدوءٍ وروية..

- الإبنة حية! رأيتها من زمنٍ طويلٍ فاق العشرين عاماً وعلى ما يبدو أنك اِبنها أو أحد أقربائها! (قالت وهي تنظر في عينيه بحدةٍ ثم أكملت) المنزل كان عامراً يا بني! الحياة تدب فيه من كل أنحائها، كانوا أسرةً محبوبةً لاسيما أن الوالد كان سيداً مرموقاً آنذاك كما زوجته كانت اِمرأةً ذكيةً ومحبوبةً، وقد كان يقام في منزلهما بين الحين والآخر حفلاتٌ راقيةٌ حضرتها كثيراً في صبايّ! لقد كانا ثريين ولهما عدة منازل عدا هذا المنزل المحترق ودكاكينٌ وأراضٍ كثيرة!! وكان كل حفلٍ يضم نخبة من مرموقيّ المجتمع وإما أن يقام الحفل في هذا المنزل أو في منزل المنطقة الشرقية أو في البيت الصيفيّ في الجبل!! ...
  اِحتسِ الشاي يا بني قبل أن يبرد!!

سحبته من حديثها ببرودٍ بينما رجف جسده كأن الماضي يتجسد أمامه بتفاصيله وألوانه! فتنبه لبرودة الشاي وتبسم شاكراً لتنبيهها ثم شرب ما تبقى منه ومدّ بصره إليها كإشارةٍ لإكمال حديثها فأكملت..

- لست أذكر السنة التي حملت فيها الأم فضج المنزل الفرح وما أن أتمت شهرها الرابع حتى أقيم حفلٌ رائعٌ على شرفه حيث شاهدتها حاملاً للمرة الأولى (اِبتسمت بعذوبةٍ رقّ لها قلب الشاب) ولم أدرِ شيئاً عن المولود حتى زارتني اِحدى المرات لتطمئن على صحتي حينها أخبرتني بأنها فتاةٌ ونوت تسميتها "جود"!

بهت الصبي ... "جود"!! أيعقل أنه أخطأ المنزل.. وكم بي؟ط-جت حرق في هذا الحي!!

- وعند الولادة أقاما حفلاً في البيت الجبلي لكبره ... رأيتها هناك لأول مرةٍ وقد كانت قد غيرت الإسم ربما بعد مشورة زوجها!
- وماذا سمتها؟!! (قالها بإندفاعٍ وإضطراب)
- "نورا"...

إقشعر جسد الشاب لذكر إسم والدته ... جود ونورا إسمان لإنسانةٍ واحدةٍ ينبش اليوم في ماضٍ هي ربما لا تعلم عنه شيئاً!! ياه كم غريب حاله وكيف جاءت به الأيام إلى هنا ليطرق باب إمرأةٍ شديدة الكبر مستفسراً عن ماضٍ إحترق ثم إندثر كالغبار المتطاير! وما حال أمه يا ترى... "جود" أم "نورا"!! ما حالها وهو يتعرف عليها صغيرةً في الرحم ثم المهد! .. أكملت العجوز حديثها دون أن تعير لشروده بالاً!..

- كلٌ شيءٍ كان جميلاً في الفتاة إلا أنفها! معكوفٌ وهذا ما كرهته بها وهذا ما دلني عليها حين سألتني عن المنزل ذات يوم!!

كلما أضافت العجوز التفاصيل إضطربت روح الشاب لتزداد نبضات قلبه فرحاً وربما رعباً! ... هو بحد ذاته يجهل شعوره فلم يجد مبرراً للتعرق أو الإرتجاف الذي إعتلى يديه!

- بعد أعوامٍ من ولادة "نورا" حملت والدتها ثانيةً!! وبعد شهورٍ عديدةٍ علمت من معارفَ مشتركين بأن جنينها صبي!

تذكر كأن الصورة بين يديه ذراع الطفل أمام جده! أتراه خاله... شقيق أمه!

- وبعد شهور الحمل التسعة أقيم حفلٌ آخرٌ للطفل وشاهدته للمرة الأولى هناك، كان أشقرَ بعينين كعينيّ أخته تماماً ... كان جميلاً لا تشوه أو بشاعة تتخلل صفاء وجهه... كان كالنور المشع وسط الحفل..
- وما كان إسمه..

تنفست بعمقٍ ثم قالت..

- "وائل" كان وسيماً كأمه محباً للعب، تترامى لك ضحكاته حتى هذه الغرفة!!

- وكيف حدث الحريق؟!
- قيل طويلاً بأنه اِنتقامٌ ثم مع الأيام قالوا بأنها سرقة!!
- اِنتقام!! ومن يفعل فعلاً اِجرامياً كهذا!!
- الضباع في الغابة لا تشبع.
- وماذا فعلت الشرطة!
- أتت متأخرةً فما تبقى من الجثث شيء
- وكيف نجت "نورا"!!
- لابدّ من لغزٍ وراءها!
- وماذا عن "وائل"!!
- قالت الشرطة يومها بأنهم وجدوا جثتين فقط كانتا للأم والأب ثم فتحت دائرة بحثٍ غطت المنطقة كلها والمناطق المحيطة مع توزيع صور للطفلين ذلك أن أحداً لم يرهم ثانيةً مطلقاً! وأغلق الملف بعد سنواتٍ عديدة، ثم قيل في الحي أن الطفل الصغير ربما ذابت عظامه لصغره على أن الفتاة التي لم يجدها أحدٌ كانت حكاية كل شخصٍ في هذا الحي لسنواتٍ طويلة..!

أعقب بإستهزاءٍ..

- ذابت عظامه لأنه صغير!
- هكذا يقولون! وما أشطر الناس بِاختراع الخزعبلات!
- وكيف فسرت الشرطة قيام الحريق؟!
- اِنتقام الأخ من أخيه ... أو سرقته ثم نشوب الحريق لتمويه البصمات
- اِنتقام الأخ!! العم يقتل أبناء أخيه!! .. ولِمَ كل هذا الاِنتقام الشنيع!!
- لله العليم!

صمتت كأنها أنهت حديثها فتطلع الشاب نحوها بيد أنها ألهت نفسها بتحريك الملعقة في فنجان القهوة الفارغ فبادر بسؤالها..

- وهل لك علم يا خالتي عن الطريقة التي عرفت فيها والدتي منزل جديها!
- والدتك!

سؤالها قسمه لنصفين فتأتأ كالمجرم على حافة الإعدام ثم تذكر هفوته واضطر للإعتراف بأنها كما سمعت والدته بعد مناورةٍ فاشلةٍ واضحة! ..

- وهل نويت البحث عن خالك!
- لست أدري يا خالتي... الأمر برمته مفاجئ! لم أتخيل أن يكون للبيت المحترق جذورٌ أكثر من ذكرياتٍ هادئةٍ قديمة..
- لا هدوء يا بني في منزل قتل أصحابه لأجل المال!
- وأين خالي يا ترى... أتراه مازال على قيد الحياة..
- طالما أن أمك عاشت بعد الحريق ووضعت في ملجأ للفتيات فلابدّ أن خالك في ملجأ للصبيان! لابدّ أنه مازال حياً إن كتب الله له ذلك!

بعد خروجه من ذاك المنزل الذي لم يترك لغزاً أو ألماً أو قضيةً إلا وضعها ثقلاً على كاهله ركب سيارته متجهاً نحو مقهىً يبعد عن المدينة بنحو عشر دقائق حيث كان يرتاده مع أمه من زمنٍ بعيدٍ وظلّ يتمنى المجيء إليه وحيداً خاصةً بعد أن وبخته والدته حين رفض وجبةً إختارتها له فضحك النادل من ضعف شخصيته وإنحناء رأسه دون أية ردة فعلٍ تذكر!! ها هو اليوم يعود إليه مرفوع الرأس باحثاً عن ذلك النادل النذل! ورغم أنه لم يذكر تفاصيله إلا أنه ألقى ببصره على مجموعة نُدلٍ مترفعاً عنهم بقدر ما آتته شخصيته من قوةٍ ليطلب كأساً من الشاي وقطعة حلوى مغطسة بالشوكولا... هكذا تختار له أمه عندما يذهبان إلى مقهىً ضمن المدينة وها هو يطيع خيارها متناسياً هروبه وعصيانها!

أثناء إحتسائه للشاي الذي أخذ الدخان يتصاعد منه فتح حقيبته ليخرج الكتاب! ترى ماذا بداخله؟ وما المهم ليقفل بهذا القفل ويخبأ خلف الحديد!! نظر إلى القفل بتمعنٍ... قلب الغلاف الحديد، هزه فشعر بوجود كتابٍ داخله، لا أشياء متناثرة. حاول تحريك القفل علّه مع الزمن تعطل أو إنكسر إلا أنه كان قوياً متيناً فعزم على كسره في المنزل! ... المنزل، غصّ عندما تذكر! وكيف يعود إلى منزل بعد كل هذا! وما ردة فعل أمه... من المؤكد أنها جنت وربما ستضربه ضرباً مبرحاً إن عاد كأن شيئاً لم يكن!! ... هي أول ليلةٍ في حياته يقضيها خارج المنزل لينام على أعتاب بيت جده المليئ بالألغاز والأسرار.. كيف حُرق المنزل! وكيف نجت والدته من حريقٍ كهذا وإن كانوا ينوون قتلهم من رمى بوالدته أمام الملجأ؟! وأين خاله؟ وهل تراها أمه تعرف بأخيها... تذكره؟!

تعرف بأنه ربما على قيد الحياة!!. نظر نحو الكتاب المغلف بالحديد ثم تساءل ومن أخبرها بمنزل والديها؟! ولِمَ لم يشتريه أحدٌ حتى اليوم!!

- تفضل الحلوى، سيدي!

قطع النادل سلسلة أفكاره فتذكر الشاي ثم تناول الحلوى بتمهلٍ وتلذذٍ وعندما أنهاها رفع هاتفه ليتصل بوالدته متمسكاً بكل الشجاعة التي يمتلكها مذ خلق حتى الآن!

- أرأيتِ ... ها أنا مسؤولٌ! ها أنا قد قدت سيارتي وحدي في أواخر الليل ثم بِت خارج سجني الأبدي!! ها أنا أحدثك من المقهى الذي وصفتني فيه بالمتمرد الملعون! قلت يومها بأن الأطفال عليهم الإنصياع لوالدتهم في كل شيءٍ حتى الطعام فأطرقت رأسي وإرتجفت يدايّ خوفاً وخجلاً فإستهزأ النادل مني ضاحكاً فلم تنهريه كما فعلتِ بي!! بل أكملت طعامك ثم ضحكتِ على حديثٍ أكملتِه بعدما جرحتِ كرامتي!

هذا أول ما سمعته "نورا" بعد أن رفعت سماعة الهاتف لتنصت بذهولٍ منتظرةً إنتهاءه علّها تبرر موقفها بيد أنه أكمل قائلاً..

- حتى اللحظة لم أجد مبرراً لِمَ فعلته... لكل ما فعلته! ما دخلك إن أحببت أم لا!

رنّ قوله في أذنيّ "نورا" فأدركت معرفته بفعلتها على أنه تابع قائلاً..

- وما دخل تلك التافهة لتساعدك! أتجهلين حبها لي؟! أم أنك تسمحين بحب فتاةٍ على أخرى!!. أنا رجلٌ أتسمعين!! رجلٌ أستطيع القيادة والإستحمام والزواج والأكل والسفر والمبيت حيث أريد... أنا رجلٌ ولن يستطيع أحدٌ على وجه الأرض طمس هذه الحقيقة!
- لكنني لم أطمسها! أنا حاولت أن تكبر على أكمل وجهٍ كما حلم والدك..
- كما حلم! أتراه كان قاسياً مثلك..
- قاسياً!! وهل الحب والرعاية أصبحا قسوةً!!
- وهل تحطيم الأحلام وحرقها يدعى حب؟؟

صمتت برهةً ثم سألته بصوتٍ حنونٍ فيه رجاء..

- بالله عليك أرح قلبي وقل لي أين أنت!

- أولا تذكرين؟

قابلت سؤاله بالصمت المرتبك..

- في مقهى اليراع
- خارج المدينة!!
- ولِمَ لا؟! أنا رجلٌ ... رجل!

وبعد خمسة دقائقٍ من قوله لتلك الجملة كانت الشرطة تدخل المقهى لتصطحبه مع سيارته إلى منزل والدته! كان موقفاً أليماً لكليهما حين دخل المنزل تاركاً على المنضدة رفاة أبيه متجهاً نحو غرفته ليقفلها رغم منعه لسنواتٍ من قفلها إلا أنه أقفلها رغماً عن جميع الأوامر التي لم يعد يطيقها!!.

تدخل يومها طبيبٌ نفسيٌّ طلبته "نورا" لرؤية حال الصبي فما وجد نفعاً من الحديث معه إذ أنه لم ينطق بحرفٍ واحدٍ مجدٍ! وعلى هذا الحال قضى عدة أيامٍ حتى توجه الطبيب نحو الأم محاولاً فهم نقاط ضعف اِبنها ومنحى وصوله إلى هذا الحد من البؤس والنفور والحالة النفسية المزرية.. تعجب لحال أمه وحرصها الشديد عليه كطفل الأشهر!! وعرف منها ما يحبه فجاءه ذات صباحٍ مقدماً له كتاباً مفصلاً عن الكاريكاتير وأساليبه ورساميه فرقص قلب الشاب لهذه الهدية المفاجئة واِنفرج غضبه واِنبسطت أساريره فافترت شفاهه عن اِبتسامةٍ عذبةٍ ليحدث الطبيب بحرارةٍ فتكون المرة الأولى التي يسمع بها صوته!!.

- شكراً لك، ما أحوجني لكتابٍ كهذا!
- ولِمَ لم تخبرني مسبقاً بِانجذابك نحو هذا النوع من الرسم!
- ولي أيضاً رسوماتٌ في عشرات الأعداد من جريدة المدينة
- ما شاء الله! وكيف رسامٌ ناجحٌ مثلك يحاول الاِنتحار!!

قلب سؤال الطبيب الجو فعكره وعاد "مهند" زاحفاً نحو صمته! بيد أن الطبيب اِستدرك الأمر قائلاً..

- أخبرني أيها الشاب الشجاع كيف تجرأت وسرقت سيارة والدتك! ثم أين بتَ ليلة أمس... في الطريق!

نجح الطبيب بجذب الشاب الذي يبحث عمن يلقبه بالشجاع ناظراً إليه بعين الرهبة، فأجاب متفاخراً..

- في البداية أحب أن أخبرك بأنها سيارتي أنا! وليست سيارتها.. ثم إنني بت على أعتاب منزلٍ مهجور.
- أستميحك عذراً فلم يخبرني بذلك أحد! ... لكن ألم تخف!
- وكيف يخاف شابٌ مثلي يا دكتور!.

تبسم الطبيب وقد فهم طريق الوصول لقلب الشاب فسايره وأخذا يتحدثان كشجاعٍ مغوار وطبيبٍ بسيط إلى أن توصل في نهاية الجلسة لتحليلٍ ألقاه على مسمع الوالدة المنتظرة على جمر..

- اِبنك يا سيدتي لديه ضعفٌ حادٌ في شخصيته! هو طفل.. لا يملك شجاعةً ولا قوةً ولا ردات فعلٍ ذاتية! لابدّ أنه عانى الأمرين خلال فترةٍ طويلةٍ من حياته جعلته بائساً حزيناً بهذا الشكل!!

لقد تحدثنا لمدة ساعتين كاملتين فلم يتجاوب معي إلا عندما حدثته كطفلٍ يجاملونه بمسميات الشجاع والبطل!. لابدّ أن أزوره على الأقل مرةً في الأسبوع! عليَّ أن أستمع إليه، أن أهبه شعور الرجل الكامل! أن أخرج الرجل القوي داخله!.

خرج الطبيب من المنزل بعد أن نفخ الخوف في روح "نورا" ... يا إلهي ما الذي قصده بأنه سيخرج الرجل القوي داخله! ... وكيف سيغير كل ما بنته خلال سنين وسنينٍ ليصبح قوياً لا يطيعها!!.

كانت هواجس "نورا" عظيمةً بينما غرق الشاب في بحر كتابه الجديد بعد اِنقطاعٍ طويلٍ عن كتب "سهى" على أنه هذه المرة قرأه بتمهلٍ شديدٍ على مرأى والدته مستلذاً بكل صفحةٍ متذوقاً كل حرفٍ على حدة! إنها شهية الحلم! صدق صوت نفسه وقضى الأيام منقطعاً عن الكلية منجذباً نحوه بينما الأم التي كبتت ضيقها تحت طلب الطبيب الذي شدد على ضرورة عدم تأنيبه أو زجره نفذت أوامره رغم تصميمها على اِلغاء الفكرة فكيف جاءت بعدوها إلى بيتها بكلتي يديها وبكل قواها العقلية ليهدم ما بنته حجراً حجراً لخمسةٍ وعشرين عاماً وأكثر ؟!! طفلها العنيد ذاك يأبى أن يذكر فضلها! يختصر نظرته نحوها بخوفها وتضيقها عليه متناسياً ليالي الشقاء حين لم يملكا لسنةٍ طعاماً أكثر من وجبةٍ غداء وحساء!! كانا فقيرين حتى أنها كانت تغمض عينيه مدَاعَبةً

له عند مرورهما بالقرب من دكان حلوياتٍ أو وجباتٍ سريعة! ولولا مهارتها في الحياكة لما اِستطاعا اِرتداء الجديد! كانت موقنةً بأنه لابدّ يذكر جوعهما ليلاً ووجبة غدائهما الفقيرة ولولا آلة حياكة أبيه لظلا كما كانا إلا أنهما الآن متوسطا الحال يأكلان ما يحبان ويرتادان المقاهي والمطاعم ثم إنهم يرتديان الجديد مسابقين الموضة! منزلهما الصغير اِمتلأ بالأشياء اللاتي تمنياها من سنينٍ وحرما منها وها هي لم تمل يوماً التسوق واِبتياع الأشياء الثمينة منها والزهيدة! المفيدة منها وغير المفيدة! ليتحول منزلهما خلال السنوات الأخيرة إلى غرفٍ اِمتلأت بالكراتين المكتظة!! هو يريد أن ينسى بأنها عانت آلاماً شديدةً في الرقبة وتراجع بصرها لأجله هارباً من الماضي مختبئاً من مسؤولية معاناتها ... وربما لذلك اِنتحر!! ولذلك هرب من المنزل ولذلك أيضاً يقفل خزانته ويرسم ويحب ويرمي بدراسته أرضاً ودون أن يهتم بكل ما اِبتاعته لأجله يمر قرب الكراتين راكضاً نحو حبه الفاني! ياالله كيف يمكن أن تأتي فتاةٌ بلحظةٍ فتخطف طفلاً من يديّ أمه التي أفنت عمرها لأجله! ... إذاً لِمَ لم تتزوج!!! لِمَ لم ترَ حياتها بعيداً عنه إن كانت فتاةٌ لم تحارب لأجل عينيه يوماً ستدفعه لتركها مثكولةً خلفه!!.

الأسبوع الأول الذي تلا زيارة الطبيب كان خالياً من أي نزاعٍ يعكر صفو "مهند" لذا قسّم وقته بين كتابه الجديد وأسرار المنزل المحترق! لم يخبر أحداً بسره سوى تلك العجوز التي جاوزت مئة العام بعمرٍ مديد! فكان يقفل باب غرفته بإحكامٍ ثم يسدل الستائر جيداً ليخرج من حقيبته الكتاب بغلافه الحديديّ والصورتان المهترئتان فيضعهم أمامه محاولاً الربط بين حديث العجوز والمنزل المحترق وبقايا الصور! ثم حاول عدة مراتٍ فتح القفل دون كسره فجلب اِبرتان وأخذ يحاول فتحه فهدر الساعات دون جدوى فهو ليس بلصٍ ولا حاول سرقة شيءٍ يوماً لذا كان من البديهي فشله وكان اِختياره لكسر القفل حلاً واضحاً من البداية على أنه رفضه للحفاظ على الإرث! وتوضح له في النهاية أن السر لن يكشف إلا بالقوة!.

الطبيب الذي كان على موعدٍ معه في صباح هذا اليوم كان متحمساً بشدةٍ للقائه كأنه يزور فناناً كبيراً وهذا ما أعجبه ودفعه لغضّ البصر عن أنه طبيبٌ نفسيٌ يزوره لمعالجته من عقده!. جلب هذه المرة مسجلاً صوتياً وهذا ما لم يعجب "مهند" كما حضرّ ورقةً وقلماً وطلب منه الاِستلقاء على سريره ففعل ممتعضاً.. ثم طلب منه أن يرخي أعصابه وعضلات جسده ويتنفس بعمقٍ شديدٍ ثم أن يحدثه عن أكثر الذكريات التي تزعجه! أكثرها ألماً، أكثرها تأثيراً في نفسه، فقال بعد أن أغمض عينيه وتنفس الصعداء..

- أمي ... السبب.

ثم اِنتظر الطبيب دقائق علّه يكمل ذلك أن الشاب لم يضف على ما قاله حرفاً! فاِضطر لسؤاله محاولاً جذبه نحو الحديث فلم يزد على ما قاله شيئاً. وهكذا أخفق الطبيب مرةً أخرى في جذب مريضه نحو العلاج وخرج من منزلهم محملاً بكلمتين فقط "أمي السبب!" تحيّر في أمر الأم التي تبدو للناظرين شديدة الخوف على اِبنها وبالمقابل يقدم هو على الاِنتحار بسببها! كيف يستوي الأمران معاً؟! الحب والتحريض على الاِنتحار!. لم يستطع الشاب أن يضيف حرفاً واحداً أكثر مما قاله! ثم ندم على قوله! وظن كما ظن الطبيب بأن الغلام سيظن بأمه السوء وكيف لأمٍ أن تقتل اِبنها؟! هي قتلته بشكلٍ غير مباشرٍ، دفعته بكلتي يديها نحو الموت لكن من غير قصد! هي لم تقتله فعلياً... هي دمرته بكل قواها؛ أجل! لكن لم تقتله.. الأم لا يمكن أن تقتل اِبنها.

إخفاق الطبيب الذي توضح في أنين الشاب وبكائه أغلب الليل دفع الأم لاِتخاذ القرار مستندةً إلى دوافعَ وأسبابٍ باِعتقادها كافية، وباِنتظار الصباح لم تنم! وبعد مطلع الشمس بقليلٍ اِتصلت بالطبيب لتعتذر عن اِكمال العلاج وتحت إلحاح الطبيب عن السبب أخبرته عن بكائه طيلة الليل وسوء وضعه النفسي منهيةً المكالمة دون اِعطائه فرصةً للنقاش!!

هكذا بدأت "نورا" يومها سعيدةً مرتاحةً وما كان منها إلا بضعة أيامٍ تسبق عودتها لما كانت عليه من غضب ونَهرٍ واِضطهاد فتعجب الشاب في بداية الأمر وعندما مر أسبوعٌ دون مجيء الطبيب تساءل فجاءه الجواب قاسماً بأن الطبيب لن يأتيَ ثانيةً!! أي أن سلطة الأم ستعود بقوتها وعنفها من جديدٍ كسابق عهدها وربما أشد لذا وقبل أن تأتيه بغضبٍ عارمٍ اِلتقط كتبه وبدأ بالدراسة بقلبٍ حزين... أين طبيبه الذي حماه من جنون أمه أسابيعا وأسابيع واليوم بقي هو وهي ... كما كان سابقاً يتعرض للتكسير والتحطيم والغضب والزجر دون أي شخصٍ يختبئ من ظلمها خلفه!!.

كان "مهند" يدرس محاضراته وقلبه معلقٌ بذاك الغلاف الحديدي وما أن سنحت له فرصة غياب أمه لثوانٍ قاصدةً بقال الحي حتى اِلتقط مطرقةً من خزانة المطبخ وأخذ يضرب بكل قواه القفل مرةً ومرتين وثلاث حتى اِنكسر.. فاِنفتح السر أمام عينيه وقبل أن يجذبه فينسيه الوقت أعاد المطرقة حيث كانت راكضاً إلى غرفته محملاً بسره الغريب ليقفل الباب خلفه باِحكام. ها هو الكتاب مفتوحٌ أمام عينيه ليدخل في أسرار ذاك المنزل بعد أن حرقه الفضول والتشوق أسابيعَ!.

جلس على السرير بعجلةٍ من أمره ثم دفع غطاء الغلاف ليتناثر الغبار تحت أشعة الشمس ويستنشق هذا السجين الحياة من جديد!. توضح الكتاب أمام عينيه المتشوقتين جلدي الغلاف شديد السماكة قد غطاه الغبار حتى موه ملامحه، حمله بتمهلٍ ليمسح عنه الغبار متأملاً إياه لثوانٍ غارقاً بتفاصيله قبل أن يقتحم ما ليس له! ماضٍ غريب... وكتابٌ من سنينَ طويلةٍ بقي هناك لا سرق ولا اِحترق!... ولماذا غلف بالحديد كأن أحداً يريد أن يعطيه حمايةً مضاعفةً من الحريق! ... تحمس بشدةٍ بعد أن ضجت الأفكار الكثيرة في رأسه، ففتح الكتاب مندفعاً بالفضول وعلى أول ورقةٍ منه كتب بخطٍ مرتبٍ

"أتقن صعودك لحلمك ونم قرير العين! عين الله ترعى أمانيك!"

تمعن هذه الكلمات المكتوبة بميلانٍ وترتيبٍ يدلان على أناقة كاتبهما ثم أكمل نحو الصفحة الثانية فكانت فارغةً ثم الثالثة فكتب فيها:

"ليس مهماً أن يكون لي اِسم... فلا بدّ أني فانٍ يوماً! الأهم من الاِسم فعلي، الأهم هو ما سأتركه أثراً من بعدي! ترى من أنت؟ وهل تعرفني؟ ربما روحي تطوف حولك بشكلٍ دائريٍّ مفزع! وربما أكون على قيد الحياة لكنك وجدت هذا الكتاب صدفةً، فأخذته! اِحتمالات الوجود واللاوجود لا محدودة لذا دعنا منها! ولنلتفت إليك قليلاً دونما تحديدٍ للجنس؛ فكلنا سواء!

إذن، من أنت يا صديقي..؟!

ودون أسماء لأن الأسماء لا تعنينا! فقد لقبونا بها دون أن نختارها وهذا ربما ظلم! ... محامٍ يا صديقي كل ما في الأمر أني محامٍ عرف من قضايا الناس ما اِستطاع أن يبث الشيب في رأسه!! لذا قررت أن أكتب لأن الكتابة حياةٌ أخرى وصوتٌ يظل رنينه مستمراً حتى يوم القيامة!! قررت أن أكتب ربما لك! ... ربما لي .. ربما لكلينا يا صديقي فكلانا محتاجٌ ليد عونٍ إن كان سمعاً أو بوحاً لذا أخذت كتابي ولذا أكتب ربما قبل قرنٍ مضى لتقرأ ما بحته بفضول لص لأن هذا الكون يصير أمام الكتابة ملكي لوحدي .. ملك أناملي، لا شريك لي فيه إلا كتابي فيه مني مثلما فيني منه .. صوتي، وشكل عينيي .. وهدوئي! فيه مني كالطفل في أحشاء أمه يستمد الحياة منها مثلما تستمد منه الأماني!؛

لابدّ أنك تتساءل برهبةٍ هل كتب الكتاب لي فقط! أجل ... لك أنت حيث تختفي في غرفةٍ مغلقاً أبوابها خائفاً من روحي الهائمة حولك.. متسائلاً في باطن نفسك ما أجبرني أن آخذ كتاباً كهذا! لكنك أخذته إذن أنا متأكدٌ بأنك ستقرأه حتى الصفحة الأخيرة كما أراك الآن بأعين الأحرف وبصر الكتاب!."

هنا أغلق "مهند" الكتاب خائفاً! أتراه جده؟! أتراه يراه حقاً وروحه الغاضبة تدور حوله في هذه اللحظة...!. أعاد الكتاب إلى الغلاف ليطمره تحت مجموعةٍ من ثيابه... ثم أجاب بعد أن تمدد على سريره بعينين تحملقان حوله "سرقته لأنني أريد معرفة السبب! أريد أن أعرفك، أن أعرف أين خالي، ما بها أمي... ما هذه الحياة التي أورثنا اِياها الحريق!".

-3-

قدم الشاب اِمتحاناته كما توقعت أمه فرسب بالكثير منها ونجح ببعضها بيد أنه لم يهتم بينما اِشتعلت الأم غضباً فلم تجد من اِبنها رغم الكثير من المشكلات والغضب تغيراً أو شعوراً بالذنب! فجلست قرب رفاة زوجها الحبيب كما تفعل دوماً لتشتكي عن حال اِبنه! قالت له بأن اِبنهما يضيع منهما فلا هو مهتمٌ بشهادةٍ ولا هو طالبٌ رضاها!! قالت بأنه ربما مل! ربما لم يعد يريد المزيد من المحاربة ففضل الرضوخ للحياة..! وكيف يرضخ وهو مازال صغيراً وعندما تسحب روحه يوماً لن يكسبه الله يوماً آخر في الأرض! ستنتهي حياته ولم يرَ فيها إلا السقم، لم يرَ إلا السنين الجميلة تضيع من يديه... آهٍ يا "هيثم" كان يجب أن يكون خريجاً الآن أو على وشك ذلك بينما هو يلهو بين كتبه التافهة وحبه الفاني... آهٍ وماذا فعلت لأجني كل هذا! ونحن كدحنا وحرمنا حياتنا من كل ملذاتها لأجله... وهو لا يهتم! .. آهٍ يا "هيثم" نحن نعاني لأجله، لأجل مستقبله وهو يرمي بعذاباتنا يميناً وشمالاً ويفني حياته بين الكتب.. بين الغرام وخزعبلاته!."

في هذه الأحيان كان "مهند" غارقاً في سره المكنون رامياً كتاب طبيبه الذي تركه فجأةً جانباً! هذا الكتاب الذي بين يديه أمرٌ عجيب.. هو يخاطبه! هو يعرف بأنه من يمسك الكتاب! كان كلما فتحه شعر بالرعب فاِقشعر جسده على أنه لم يستطع يوماً اِبعاده عنه! رغم الخوف والقلق إلا أنه لابدّ يقضي معه بعض الوقت كل يوم، وهكذا وباِستمرارٍ روتينيٍّ ظلّ الشاب يقرأ كتاب "جده" المتوفي مستشعراً اِشراقاً غريباً في روحه! أمه التي لم تتوقف عن الغضب يوماً بدأ يرى جنونها أمراً عادياً فلم يعد يبكي! ووجد هذا غريباً أيضاً لكنه أحبه ووجد بقوته لذةً جميلةً ثم رسب في مواده

فشعر للمرة الأولى في حياته بأنه ليس ملزماً بدراسة كليةٍ لا يحبها!! نظر إلى أمه التي أخذت تعيد عليه لومها فلم يندم إلا على ألمها، أما ما عداه فلم يؤلمه!

روتين قراءة الكتاب بات محبباً وإستمداد القوة منه صار مريحاً فأصبح يقلب الصفحات على عجلٍ في كتابٍ سميكٍ وصفحاتٍ عتيقةٍ كأنها من أسلاف أسلافه! ... ومن أشد ما أثر به في هذا السر الغريب كانت العبارة ذاتها التي قرأها في بداية الكتاب ليعيدها الجد بعد حينٍ في صفحةٍ خاليةٍ من أي حرفٍ آخرٍ! .. "أتقن صعودك لحلمك، ونم قرير العين! عين الله ترعى أمانيك" قرأها بتمهلٍ كما رغب كاتبها ثم أغلق الكتاب ليعيده حيث كان، جلس كما اِعتاد مذ وجد الكتاب مفكراً في ما قرأه ثم متذكراً المواد التي رسب بها وزملاءه المستهزئين به والكلية التي لم يتمنها يوماً فضحك مستهزئاً ثم قال بصوتٍ مسموعٍ "أيُّ حلمٍ لا أطيقه سأتقنه!!". كانت أمه هي من اِختارت له هذه الكلية نظراً لمعدله الملائم وكم فرحت فرحاً عظيماً به بيد أنه لم يجد نفسه بها... كيف يقتحم صالةً فيها مجرمٌ ويناقش قاضياً ويرفع دلائله أمام لجنة المحلفين بكل قوةٍ وجبروت!! كيف وهو مايزال يخاف أمه! ويخجل من بوح مكنون قلبه أمام من يحب! ... ضحك ثانيةً بإستهزاءٍ أشد متطلعاً لمستقبله بنظرةٍ جديدةٍ غريبةٍ عليه!.

*****

هالة التي لم تعد ترى سوى أشباحاً تتحرك خلف ستائر الجارة اِنشغلت لمدةٍ طويلةٍ بمزاج زوجها الشديد العصبية خاصةً بعد أن قرُب موعد تقاعده ذلك أنه كان مولهاً بعمله متعلقاً شديد التعلق به فلم يجلس يوماً في المنزل منتظراً الغداء ولا نام على الأريكة كي يريح جسده بل كان دائم السعي خلف أعماله وإن أنهاها بحث عن أعمالٍ أخرى ليشفي روحه العطشى!.

كان شبح التقاعد مخيفاً بالنسبة للأسرة بأكملها فلم يرَ الأبناء فيه راحةً ولا وجدت الأم فيه سلوى لوحدتها الدائمة أو عزاءً لسنين الإنتظار القاهرة على أنها كلما رأت في عينيه حزناً تألمت فأخذت تطبطب عليه ذاكرةً بأنه رجل أعمالٍ حرٍ بقدرته اِنشاء عملٍ خاصٍ به، عمل صغير لكنه ناجحٌ لابدّ! كان يهز رأسه دائماً وقد ملأ الشيب شعره ورسم القرع بذروة رأسه دائرةً لم تكف عن التوسع من عشر سنوات مضت ورغم ذلك كان دؤوباً في عمله، نشيطاً في مهامه، عفيفاً عن أي رشوةٍ أو أذية وفي ذلك كان ألمه وعزاؤه في آنٍ واحدٍ فهو لم يفعل إلا كل خيرٍ فلِمَ يتقاعد ويرمى كالعديميّ الفائدة وبذات الوقت كان فخوراً بنفسه التي لم تذل يوماً لشهواتها ولم ترتفع عن

الأرض فوق أرواح البريئين وآمالهم كما فعل زملاؤه الذين لم يملوا جرائم القتل العمد ولم تشبع نفوسهم الدنيئة من السرقة والإختلاس! .. أجل، كان يرى في اِختلاس المواد المخصصة للبناء جرماً يعادل القتل تماماً فإن حدث ما لا يحمد عقباه كان قتلاً عمداً مع سبق الإصرار والترصد بنية السرقة والنهب وسلب أبسط حقوق الإنسان، وإن لم يحدث كانت نيةً في بناءٍ ركيكٍ قد يسقط وقد لا يسقط!! ... الأرواح بأيديّ المهندسين الفاسدين لعبةٌ... قمارٌ وحظ!! وهو على الرغم من عشقه لعمله إلا أنه كان يرى من الفساد ما يُكره الإنسان مهنته ويفسد عليه هناءه!!

"هالة" التي كانت تعلم بمعاناته مدركةً تماماً عشقه لعمله كانت توازن في مواساته فتنجح بإرضائه ورفع معنوياته دافعةً إياه خطوةً أخرى نحو محو الذكريات القبيحة من المهنة التي ستغدو قريباً ذكرى جميلة لا يجب أن يشوبها أي كره؛ عملت على ذلك بمهارةٍ واِحترافيةٍ تماماً كما كانت المشجعة الأولى ليمارس من جديدٍ هوايته التي لطالما أحبها فاِبتاعت له آلة تصويرٍ اِحترافيةٍ في عيد ميلاده السابق وأخذت تشده في أيام العطل مع الأطفال متجهين نحو الغابات القريبة لتحفزه على التصوير والتعلق من جديدٍ في الحياة فوجدت منه القبول والتمتع حتى اِنشغل عن أعماله المخصصة للمنزل بالتصوير فاِرتاحت روحها وعزمت على دفعه نحوها بكل الوسائل والطرق المتاحة علّ روحه تنتعش بعد التقاعد.

حدث كل هذا بعد أن طردتها "نورا" من المشفى فوجدت في عزلتها الراحة مكتفيةً بمراقبة "مهند" في ذهابه وإيابه من الكلية ففرحت لتحسنه الواضح ثم قلقت لغيابه المفاجئ وخاصةً بأنها لمحت رجلاً غريباً يدخل منزلهما عدة مراتٍ حاملاً معه حقيبةً تشبه حقائب الأطباء... ترى هل أصابه مكروه!! ذلك أنها لمحته بعد بضعة أيامٍ يتمشى في المنزل بكامل طاقته وقوته، إذاً لِمَ لم يعد يرتاد كليته كل يوم؟؟. اِكتفت الجارة بأسئلتها دون إجابةٍ شافيةٍ فقد حدث وتفرقت الجارتان بشدةٍ فلم يعد السلام وارداً بينهما! فكيف تقصد بيتهما مستفسرةً عن صحة الصبي!.

ألغت الفكرة واِطمأنت لخيالات الأسرة المنطبعة على الستائر حتى شاهدت الشاب بهمته العالية ووجهه المشرق خارجاً من المنزل بعد اِنقطاعٍ ملحوظٍ فكان يتلفت حوله على غير عادته مستنشقاً الهواء وهو يتفحص السماء والعمارات .. كان غريباً! ما الذي غيره؟! كيف يمشي بهذه الحرية بعد أن اِقتصرت اِنتقالاته على تفحص الأرض مهما طال الطريق؟!.

لقد تغير حقاً! فلم ترَ من "مهند" إلا القليل وقد طغى عليه أسلوبٌ جديدٌ مختلف.. راقبته حتى غاب عن ناظريها وأخذت تضرب الأخماس بالأسداس... ترى هل ذاك الطبيب عالجه! نفسياً... وكيف؟ بهذه السرعة!!.

أدخلتها أسئلتها متاهةً جديدةً فعزمت على الإستفسار منه حين عودته فإنشغلت بترتيب المنزل وتوضيب الغرف ومسح الغبار وغسل الخضار حتى جاوزت الساعة منتصف النهار فأخذت كتاباً قد شارفت على إنهائه لتجلس قرب النافذة فتقرأه ريثما تراه، وما أن أنهت ما يقارب العشرين صفحةً حتى لمحته متبختراً في مشيته قادماً ووجهه مشرقٌ أكثر مما سبق، نهضت تاركةً الكتاب دون أية علامةٍ لتنزل الدرج بسرعةٍ شديدةٍ منادیةً عليه محترسةً ألا تسمعها أمه فلباها وصعد معها ليجلسا في الزاوية التي كان يقرأ فيها الكتب مستفسرةً منه عن أخباره وتحسن أحواله وسبب تغيره المفاجئ فلم يخبرها بالحقيقة التي فضل تركها لنفسه فقط، بل رمى بالفضل على طبيبه الذي عالجه فتعجبت "هالة"..

- بأسبوعين فقط!!
- أجل! وقد أعطاني كتباً أقرؤها وإستفدت عليها
- الحمدلله والله لا أصدق عينيّ... لكن قل لي ما الذي أخرجك سعيداً من المنزل وأعادك أسعد!

قال ضاحكاً..

- أتراقبينني يا خالتي؟!
- مذ كنت رضيعاً

ضحكا ثم حدثها بفخرٍ وسعادةٍ لا توصفان..

- يا سيدتي الكريمة لقد غيرت فرع دراستي!
- غيرتها! إلى ماذا؟!
- الفنون لأتخصص فيما بعد في الرسم.
- وأمك هل لها علم!

- وكيف يكون لها علمٌ فتدعني أخرج من المنزل!! (قالها ضاحكاً ثم أكمل بجديةٍ) ليس عليها أن تعلم بشيءٍ حتى أنهي على الأقل السنة الثانية!
- طبعاً يا صغيري طالما أن ذلك يسعدك ... مباركٌ عليك، ألف مبارك .. وبما أنك سعيدٌ بما أقدمت عليه فأنا سعيدةٌ لأجلك وأدعو لك بالنجاح حيثما توجهت
- شكراً يا خالتي
- لكن ... هل الكتب التي تقرؤها دفعتك بهذه القوة لتغير ما أُجبرت على دراسته وإرتياده سنيناً!!
- أجل يا خالتي
- قل لي ما الكتب التي تقرؤها... أعطني اِسمها فقد شوقتني

تلبك "مهند" بطلب الجارة غير المفاجئ.. كان متوقعاً طلباً كهذا على أنه خاف اِنكشاف كذبته فهو لم يتعلم كيف يخفي الأمور بِامتيازٍ بحيث لا يُكشف!. رمى اِسم الكتاب الذي أعطته إياه "سهى" عن الثقة في النفس وقال بأنه أحدهم وسيجلب لها أسماء البقية في الزيارة المقبلة. حين عاد الشاب إلى المنزل سألته والدته عن أول يومٍ في دوام السنة الجديدة فتبسم بوجهٍ ملؤه الرضى وقال بأنها كانت رائعة فسعدت الأم لرضى طفلها بدراسته وتأملت خيراً دون أن تفكر لحظةً فيما أقدم عليه من رميه لكليته راكضاً خلف حلمه ... "أتقن صعودك لحلمك" ها هو قد أتقنه سابقاً، ساعياً اليوم ليكمله بروحٍ عاشقة! فيرعاها الله من أعالي السماء ... إنه كلام والدها، كلام جده العزيز فكيف سترفضه حين يخبرها! كيف ستنكره إن واجهها بخط والدها؟!!. كانت حجته قويةً دون أن يعلم ما يخبئ له القدر .. دون أن يفقه بأن الباب الذي يسده لابدّ سيعصف به يوماً!.

-4-

"ربما يجب عليّ أن أعرفك! فطالما أنك وصلت لهذا القدر من كتابي فلابدّ أنك مهتمٌ جداً لأمري... أو أنك متعبٌ حقاً من هذه الحياة!

الملاكان اللذان لا يفارقانك مازالا يقرأان كلامي معك! يسجلان حروفي ذلك لأنك مهتمٌ بهم .. تشتم من رائحة الحروف ذوقي في العطور! وترى في تكوراتها لون عينيّ... الألم يا صاحبَ العينين المنجذبتين نحوي شعورٌ لا إرادي... للبعض! حين يؤلمك رأسك أغمض عينيك طويلاً تنفس جيداً بتمهلٍ، ولا تفكر بأحد، لا تفكر بأعمالك وأهلك أو حتى أحلامك... اِدفع كل الأمور جانباً وطِرْ في

ملكوت الله .. حلق عالياً، اِفقد الشعور بأطرافك.. اِفقدها لأنك حينها لن تشعر بالجاذبية تشدك إلى قعر الأرض! لا تحمل على ظهرك المتعب عناء الكتابين والملاكين الرحيمين! امدد يديك وقدميك وأسند رأسك ثم تنفس ولا تفكر وطِرْ... عشر دقائقَ تكفيك إن لم تفكر خلالهم بألمك ... قل في نفسك مرةً كل بضع دقائقَ رأسي لا يؤلمني! ... رأسي لا يؤلمني وعد من فورك لحيث كنت، لذاك الفراغ العظيم .. لملكوت الله والرحمة من الجاذبية.. عشر دقائقَ وستنسى ألمك! ستفتح عينيك مشفياً بإذنه، مشفياً من ألم رأسك وعناء روحك وإنهاك جسدك من شده نحو الأرض".

جربها مرةً بعد أن اِشتدّ به ألم رأسه فرأى فيها العلاج النسبيّ والراحة النفسية فشكر روح الجد مستشعراً وجوده الدائم قربه! هذا الكتاب الذي سرقه يوماً من المنزل المحترق وجد فيه محبةً ورحمةً وعلاجاً لم يجده في أي كتابٍ أو إنسانٍ آخرٍ!. كان كلما آلمته كلمات أمه أو ضاق بضعفه ذرعاً ركض إلى الكتاب فوجد فيه الطمأنينة والقوة التي تزيد ثقته وثباته، وكان يتعجب جداً لحاله أمام هذا الكتاب العجيب فينزاح منه الضعف كأنه عَرقٌ ومُسح! أو خيط شمسٍ يتعلق بكفه ثم اِنطفأ!! كيف يمكن لإنسانٍ أن يملك علاجاً بهذه البساطة! إنه ليس حتى كاتباً.. هو محامٍ عانى من المجرمين حتى مل فكيف يعالج أحداً بهذه الطلاقة والبساطة والغرابة؟ أتراها اِحترقت كتبٌ أخرى من صنع يديه في ذاك الحريق المفتعل!! ... عادت العجوز بحدبتها العظيمة إلى مخيلته فاِرتعش جسده لكأنها خلقت أمامه اللحظة! تذكر حديثها عن مقتل جده وجدته... عن ثرائهما، عن خاله وعن مجيء أمه من عشرين عاماً إلى منزلهما!! كيف! ومن أخبرها؟!

ضاقت به الأسئلة فاِحتضن كتاب جده وغطّ في نومٍ عميق رأى فيه جده جالساً حيث أغمض عينيه منتظراً شروق الشمس.. كان جالساً بقامته الطويلة وقد تعجب من قبعته الفرنسية السوداء، بدا رجلاً مهيب الطلة متقن الملبس عنيد الرأي وقوي الشخصية، نهض من جلوسه حين رآه متقدماً نحوه فتبسم ليكشف شارباه الكثيفان ولحيته العظيمة المنمقة عن اِبتسامةٍ وقورةٍ، نهض وسبقه إلى داخل المنزل الذي لم يكن كما شاهده ذلك اليوم، كأنه لم يحترق! بدت المكتبة التي خطفت بصره في بادئ الأمر مكتظةً بالكتب فبحث عن كتابه المغلف بالحديد فلم يجده! تبع جده وقد صعد ذات الدرج القديم المتكسر حتى دخلا غرفة أمه فوجد فيها سريراً لم يره مسبقاً ثم منضدةً صغيرةً وضعت قرب سريرها ليرى عليها الكتاب فخفق قلبه وتقدما فجلس الجد ولم يشر له بالجلوس! فبقي كما كان وبدأ الجد في تقليب الصفحات التي كاد "مهند" يحفظها عن ظهر قلبٍ! إلا أن الجد وصل لصفحةٍ لم يكن الشاب قد وصل إليها! فتمعن النظر

إليها ليجد في مقدمتها علامةً حمراء! وما أن لمحها حتى شبّ حريقٌ اِبتلع كل شيءٍ إلا الكتاب فأمسكه وخرج راكضاً من المنزل فشاهد اِمرأةً تسقط من الدرج ودون أن يرى وجهها خرج من الباب ليجد العجوز ذات الجبل العتيد على ظهرها منتظرةً خارجاً، لم تنزع عينيها عنه حتى اِستيقظ من الحلم متعرق الجبين لاهث الأنفاس وقد شدّ الكتاب إلى صدره بقوةٍ. فتح الكتاب على عجلٍ بينما يداه ترتجفان تأثراً ورهبةً وأخذ يقلب الصفحات بسرعةٍ كبيرةٍ حتى وصل إلى حيث لم يصل مسبقاً، أخذ يقلب الصفحات ببطءٍ ورعبٍ شديدين... أيمكن أن يكون ما رآه في الحلم من علامة حمراء صحيحة! وما تراها الصفحة التي أشار إليها جده!! أتراها تتحدث عن خاله؟ عن من اِفتعل الحريق لذا وضع عليها إشارةً حمراء كإنذارٍ خطير!

قلب الكتاب صفحةً صفحةً حتى أنهاه ثم أعاده بحذرٍ أشد فلم يلمح أية اِشارةٍ حمراء! فبرد خوفه بيد أنه كان شديد التأثر بالحلم حتى اِصفر وجهه فاِستلقى مرةً أخرى علّه يستعيد قواه.

كان الوقت صباحاً حين اِرتدى ثيابه خارجاً من المنزل بعدما اِستجوبته والدته فزاد على الكذب كذبةً! قاصداً الميتمين المخصصين للذكور في المدينة، لابدّ أن يكون خاله قد عاش في أحدهما إن لم يقتل! اِنتفض قلبه لذكر القتل... كيف تجرأ أحدٌ على قتل ذاك الرجل القدير!! مازال في تخيلاته رجلاً وقوراً، قوياً اِستطاع التأثير في شخصيته أكثر من الكتاب وأشدّ من رهبة الحلم! فكيف اِستطاع أيٌّ كان قتله!! .. وهل يا ترى قتل خاله أيضاً؟ لكن العجوز قالت بأنها تشك في أمر الطفلين! .. من أنقذهما! ولِمَ يُحرق المنزل ثم ينقذ فقط الطفلان!

دارت الشكوك والتخيلات في رأسه حتى وصل إلى الملجأ الأول وحين طلب البحث في سجلات الملجأ أُعطيّ السجل كما حصل مع والدته تماماً وأخذ يبحث ساعات تتلوها ساعات دون أدنى فائدة... السنوات كثيرةٌ وخاله أصغر من أمه بكم! في أية سنةٍ عليه أن يبحث؟ وكيف يجده وسط مئات الأسماء!! قضى أربع أو خمس ساعاتٍ وهو يبحث ثم عاد إلى المنزل بعد أن اِستسمح من مدير الملجأ المجيئ في الغد لإكمال البحث فوافق، وعاد الشاب بعد قلقٍ أطال عليه ليله وأطبق على ضيقه عتمه حتى شعر بإختناقٍ شديدٍ وحزنٍ ما بعده حزن فاِستل الكتاب من بين ثيابه وقلب صفحاته إلى حيث وصل فوجدها صفحةً بيضاء ثم أعقبتها صفحةٌ كتب في منصفها "حان دوري!" قلب الصفحة وبدأ بالقراءة

"هذه المرة دوري! فلن أجعل هذا الكتاب حُجةً عليَّ في اِنقاص العدل بين المحامي والسارق!! حتى في هذا الكتاب سأضع للعدل ميزاناً فيكون نصفه لك، ونصفه لي!."

قلبَ الصفحة التي لم يكتب فيها سوى ما ذكر..

"عائلتي صغيرةٌ جداً وزوجتي اِمرأةٌ فاتنةٌ وذكية عندما كانت صغيرةً تنبأ والدها بأنها ستكون من أشهر عازفيّ البيانو وكما تنبأ فقد شاركت بالعديد من الحفلات العظيمة وها هو، على يساري تماماً، البيانو الأسود اللامع يخفي رؤوسه البيضاء كي لا تمسه سوى أصابعها الماهرة.

هذا المنزل الذي أكتب فيه من مدةٍ لا بأس بها هو منزل أبي الذي ورثته عنه كما لديّ منزلان أحدهما في اِحدى الجبال القريبة من الساحل والآخر في المنطقة الشرقية... عدا الأراضي والدكاكين .... الغنى يا صديقي لا يعني بأنك سعيد! السعادة تعني أن تملك من الحياة أسرةً تخلق لك الفرح والرضى وهذا تماماً ما خلقاه "نورا" و"وائل".. طفلايّ الحبيبان. "نورا" اليوم تتم سنتها الرابعة و"وائل" الصغير مازال يخطو خطواته الأولى! وعلى الرغم من ضيق الوقت الذي يسببه عملي المرهق من جهة وأطفالي الأحباء من جهة إلا أنني أجد في أطراف الليل متسعاً من الوقت أنزوي فيه لأكتب.. قرأت مرةً كتاباً قال فيه راهبٌ توفي من قرونٍ كثيرةٍ "اِكتب يا هيبا! فمن يكتب لا يموت!" وها أنا أكتب كي لا أموت حتى وإن واريت التراب! فلأحيا إذن فيك يا سارقي! فلأحيا وترقص روحي في شرايين هذه الأحرف التي تخترق عقلك وتسلب منك روحك!.

"المحاماة كانت حلم الطفولة المنتظر فعندما كنت في الثامنة من عمري سألني جار والدي عما أتمنى أن أكونه فقلت له محامٍ وعندما تخرجت من كليتي ضحك الجار ذاته وقال بأنني ثابت المواقف لا أتغير! وكان كلامه صحيحاً فأنا من النوع العنيد فإن رغبت أمراً لا أُحيد عنه حتى أحققه.

ثم كتب في طرف الصفحة بخطٍ واضحٍ مائل "جاهد! لن يأتي حلمك على طبق!!"

أغلق الكتاب بعد أن اِمتلأ رأسه بما قرأه! ثم قال بصوتٍ بدا عليه الاِنبهار "جدتي عازفةٌ محترفة! وجدي محامٍ عنيد وخالي يصغر أمي بأربعة سنوات تقريباً! ماهذا الكتاب الذي بين يديّ!!"

في اليوم التالي قصد الملجأ ذاته ليبحث في السنة الموافقة لظنونه على أنه لم يجد اِسم خاله فيها فأعاد البحث في السنوات القريبة منها، التي قبلها بأربعة سنوات وبعدها بمثلهنّ بيد أنه لم يجد

ما يبتغيه أيضاً! فخرج محزوناً قلقاً ليتجه نحو الملجأ الثاني، أمله الأخير فإن لم يجد الإسم كان خاله إما مقتولاً أو مُباع!! في الطريق إلى الملجأ بدأت الأفكار تحتل مساحات عقله الهادئة فتشعل الظنون وتصبح النتائج أسوأ فأسوأ حتى وصل إلى الملجأ فإنقبض قلبه عندما وضع مديره أكوام السجلات أمامه... كان الظن السيئ لا يفارقه، لم يعتقد للحظةٍ بأنه من المستطاع إيجاد شخصٍ لا يعرفه بعد أن فُقد عشرات السنوات... عن ماذا هو يبحث؟! أتراه يحمل إسمه الحقيقي كأمه! ربما كانت مصادفة أن تتمسك الصغيرة بإسمها طالما أنها ذات الأربع سنوات ... لكن ذو السنة! كيف يتمسك بآخر خيطٍ يربطه بأسرته! ... أسكت ظنونه التي كاد صوتها يصمه مكملاً بحثه مبتور الآمال وكلما أنهى صفحةً وأخذ يقلبها شده قلبه بأنه لابدّ مر بإسمه في الصفحة السابقة لكن بإسمٍ مغايرٍ مموهٍ خلف معاناة الملاجئ، لقبوه به لأنه لقيطٌ لا أم له!! ... لابدّ أنه يضيعه مرةً أخرى لتغير الأسماء... ظلّ متشائماً حتى أنهى ستة سجلاتٍ صفحةً صحفة.. إسماً إسماً. شعر بيأسٍ عظيمٍ يتملكه فعكف عن الإستمرار في البحث! أعاد جميع السجلات لأماكنهم ثم غادر الغرفة متجهاً نحو المدير وعند بابه الضيق وقبل أن تلمس أطراف أصابعه الباب نازعه شعورٌ قويٌّ بالرجوع والبحث في السجل الأخير... كيف يترك سجلاً كاملاً فلا يلقي عليه حتى نظرةً واحدة؟! عاد راكضاً نحو الغرفة المليئة بالسجلات ليسحب ذاك السجل الأخير المنسي .. أخذ يبحث ويبحث فيه إلى أن وقعت عينه على طفلٍ يدعى "وائل" كان عمره آنذاك أصغر من أمه بأربعة سنواتٍ بالضبط فتفاءل بما وجده خيراً ناقلاً الملاحظات التي سُجلت في قسم التنقلات خارجاً من الملجأ فرحاً سعيداً بما وجده منزعجاً من فقده الأمل على مشارف السجل المنتظر! ودون أن يهتم بالتوقيت إتجه مباشرةً إلى المنزل المقصود... شارع "سريدة" البناء الخامس، ركض في مشيته مندفعاً بحرارة جسده وفرحته حتى وصل إلى الشارع المقصود الذي كان يبعد عن الملجأ بمسافةٍ لا بأس بها، وأمام البناء الخامس شعر بقشعريرةٍ تسري في جسده ونبضاتٍ كأن مدفعاً يُضرب في أحشائه! .. تردد في الصعود إلى المبنى، خاف وإرتبك بيد أنه تذكر كلام جده، ضغط على نفسه.. توكل على الله في خوفه العارم هذا ثم صعد وكان مقصده الطابق الثاني وهناك بحث في البيوت الثلاثة المتجاورة فوجد أن أحد مُلاكهم يدعى "وائل" فإزدرد ريقه وبعد محاورةٍ طويلةٍ مع ذاته رن جرس المنزل رنةً بسيطةً! ثم تراجع عدة خطواتٍ نحو طرف الباب وكان جسده آنذاك يشع حرارةً ورهبةً وقد أطرق رأسه إلى صدره وإنكمش على نفسه كأنه مذنب!. بعد ثوانٍ وجيزةٍ سمع خطوات تتقدم نحو الباب فإستشعر بأنها خطوات إمرأةٍ لخفتها، وصدق عندما فتحت الباب إمرأةٌ بحجابٍ أبيض يكشف عن وجهٍ جميلٍ دقيق الملامح. بادرته بالسؤال "من تريد؟!"

فأخبرها لتومئ برأسها أن اِنتظر متواريةً خلف الباب الذي أغلقته ليسمع خطوات أيقن بأنها خطوات رجل... إنه خاله! متأكدٌ بأنه "وائل".. تراكضت نبضات قلبه بشكلٍ متزايدٍ وطرديٍّ مع اِقتراب الخطوات، وحين فُتح الباب أحس بضيقٍ شديدٍ وكان مع كل جزيئةٍ من الثانية يقسم بأنه سيهرب ثم يتمسك بالدرابزين ليوقف نفسه المرتعبة!.

حين أتم الرجل فتح الباب نظر إليه نظرة تعجبٍ ثم سأله "من حضرتك؟! بماذا أخدمك!" كان الرجل طويلاً ... لا بل شديد الطول عريض المنكبين، ضخماً!! وكان له شاربان كشاربيّ جده الذي اِنطبعت صورته في قلبه من خلال الحلم لكنه كان أسود الشعر أبيض الحلة مخيف المظهر رغم جمال تفاصيله! ... عيناه المحدقتان به كأنهما عينا أمه بشكلهما ولونهما إلا أن جميع تفاصيله الأخرى مغايرةٌ حتى صوته الجهوري كان مخيفاً... اِرتعد جسد الشاب حتى شعر الرجل بذلك فتعجب لأمره وأعاد عليه سؤاله بنزقٍ واضح فتأتأ الشاب..

- حضرتك السيد "وائل"؟!
- نعم ... ماذا تريد!!

وماذا يجب أن يجيبه! كيف يقص عليه القصة من بدايتها حتى النهاية... كيف يذكّره وهو اِبن السنة أنه كان له أخت.. ولِمَ أمه لم تبحث عنه؟ أتراها أيضاً نسيت! وهي اِبنة الثالثة تنسى!

- بماذا أساعدك!!!!

قالها بصوتٍ عاصفٍ كاد يوقع الشاب أرضاً! .. فقال متمتماً مطرقاً الرأس إلى الأرض

- هناك موضوعٌ مصيريٌّ في غاية الخطورة عليّ أن أشرحه لك إن كنت تريد أن أشرحه في منزل حضرتك أشرحه أو كنت تريد أن أحدثك في مقهى ما فلنذهب!
- تفضل..

أمال الرجل جسده ليمر الشاب قربه وقلبه يخفق رعباً.. ماذا لو لم يكن هو! أيعقل أن يكون لأمي أخٌ قويٌّ كهذا؟ وإن كنت مخطئاً هل يمكن أن يضربني!!

جلس في غرفةٍ أنيقةٍ متواضعةٍ فلمح على الجدران صوراً له ولزوجته التي فتحت له الباب في بادئ الأمر وحين تبعه الرجل طلب منه أن يخبره عن الأمر..

- قل ما عندك فقد أقلقتني!
- أنا أدعى "مهند" رسّام كاريكاتير

نظر الرجل إليه بكثيرٍ من اللامبالاة بشخصه ودون أية اِضافةٍ منه أكمل الشاب..

- أعلم بأن حضرتك عشت حياتك في الميتم!

فتح الرجل عينيه مذهولاً فبدا كعاصفةٍ هوجاء ستنفجر! وكان من الصعوبة بما كان أن يخبر رجلاً لا يعرف من هم والداه عن قصته إلا أنه أمام هذا الغضب والنزق والاِنزعاج الذي ملأ الجو اِضطر للبوح خوف الطرد أو الضرب!

- أمي عاشت في ميتمٍ أيضاً..

قطب الرجل حاجبيه كأنه فهم شيئاً ثم قال "وما دخلي أنا!"

- والدك ووالد والدتي ماتا في حريقٍ أكل منزلهما وكان لهما طفلان يدعيان "نورا" و "وائل"

عندما ذكر اِسم الرجل شعر بكيانه ينجذب نحوه كأن ضخامته وغضبه في لحظةٍ تلاشيا فعاد طفلاً صغيراً فاِرتخى حاجباه المشدودان وذبلت عيناه المذهولتان كأن دمعةً ترقرقت فيهما..

- عندما حرق المنزل توفي جدي وجدتي إلا أن الشرطة لم تستطع اِيجاد طفليهما لا في المنزل ولا في أي مكانٍ آخر! غير أن أمي عرفت بطريقةٍ ما مكان منزلهما فزارت أطلاله، تبعتها وفي ذلك الحي وجدت اِمرأةً عجوزاً أخبرتني بأنها حضرت من زمنٍ بعيدٍ حفل ولادة طفليّ هذه الأسرة وهما "نورا" و"وائل" وكان الصبي يصغر الفتاة بأربعِ سنوات، وقالت لي أيضاً بأن أبحث في الملجأين الوحيدين للذكور في هذه المدينة علّي أجد طفلاً يدعى "وائل" رغم أنه يستحيل تكرار صدفة تسمية أمي بذات الاِسم! بحثت كثيراً حتى وجدتك...

ثم بنبرةٍ زال عنها الخوف لثوانٍ ...

- أتراك خالي!!.

قالها ثم على الفور أطرق بصره خوفاً

- ولِمَ أنت متأكدٌ بأنني قد أكون خالك!

- عيناك ... عيناك هما عيناها كأنكما توأمٌ أمامي! ثم إن عمركما بالنظر متقارب، ..

بعد أن ذكر ما ذكره عن تشابه العيون لم يعد يخيفه الرجل الضخم الذي اِنقلب دون اِنضباطٍ للمشاعر كالصغار فرسمت دمعةٌ خطاً واضحاً على خده حتى غاصت خلف لحيته الكثيفة المرتبة. أطرق رأسه قرابة الدقيقة وهو يسمع صوت الرجل الذي يتنفس بصعوبةٍ فأدرك ضيقه! فاِستمر مطرقاً كي لا يزعجه وشعر بشعورٍ غريبٍ أنه حقاً خاله! ولِمَ يبكي إن لم يكن خاله!!

- غداً أراك أمام الملجأ؛ سوف أبحث عمن سماني! لابدّ أن أجد عنده الإجابة!.

قالها بشكلٍ مختصرٍ كأنه يطرد الشاب بشكلٍ مؤدبٍ على أن "مهند" كاد يرقص في حضرة دموع الرجل القوي فعكف وضبط نفسه حتى خرج وأخذ يقفز كل خمس درجاتٍ سوياً إلى أن وصل إلى الطريق فواصل الركض حتى مدخل منزله!!.

"نورا" التي لم تعد تستطيع ضبط طفلها رغم قرارتها الصارمة وشخصيتها العنيدة وجدت فيه اِندفاعاً غريباً! ظنت في بادئ الأمر أن كلية الحقوق هي من تدفع طلابها للقوة والصلابة بيد أنها وجدت منه اِستهتاراً بدراسته أغضبها واِنجذاباً متفانياً للرسم دفعها للوم نفسها على تشجيعه! كيف شجعت طفلاً على موهبةٍ لا تفيد!! ومن تفيد؟ وكيف تستطيع موازاة المحاماة تلك التي تخرج المظلوم من براثن الإعدام! مع زاويةٍ في اِحدى الجرائد لا تفيد ولا تضر يخربش فيها طفلها ليشوه ملامح الآخرين!! .. كيف تمشي في الطريق من اليوم فصاعداً دون أن تتباهى بمستقبل اِبنها ... محامي الضعفاء!!.

أحلامها تكسرت أمام عناد طفلها الذي لم تعد تستطيع تأديبه! هو يخرج دون أن يخبرها إلى أين! يتأخر حتى تظنه هرب ثم يعود متعباً دون أن يخبرها أين كان!! هي تفقد السيطرة عليه لا بل فقدتها من يوم أتت بذاك الطبيب النفسي المشؤوم! ماذا جرى لها حتى أتت بالذئب الجائع لطفلها! كيف واتتها الفكرة؟ ... لقد كانت تحاول اِنقاذه من اِنتحارٍ ثالثٍ بيد أنه الآن يدفعها للاِنتحار!! هي تفقد اِبنها... وماذا يمكن أن يحصل إن تركها؟ إن حدث وصارت مثل "هالة" حزينةً وحيدةً ترى أسرتها كل يومٍ دون أن تلتف حولها مداويةً جراحها!! تنبهت لِمَ قالته.. "هالة"!! اِعتصرت ذاكرتها إذ كانت آخر مرةٍ رأتها في المشفى عندما حاول اِبنها الاِنتحار... أي مما يقارب السنة! تقدمت نحو النافذة فوجدت جميع الستائر مغلقة فعزمت على زيارتها علّها تجد عندها الحل! وربما لا تجد... ربما "جيسيكا" تعرف أكثر منها فهي قد حافظت على اِبنتها بقربها رغم

توحدهما في ماضٍ أليمٍ ويُتمٍ مفجع!. عكفت عن زيارة الجارة وخاصةً بعد أن تذكرت اِتهامها لها عازمةً على زيارة صديقتها القديمة التي طلبت منها الصفح قبيل اِنتحار طفلها فاِستقبلتها بصدرٍ رحبٍ واِبتسامةٍ عريضة.. كل هذا كانت قادرةً عليه بمهارةً إلا فهم اِبنها كانت عاجزةً عنه!! ففهمها له متعلقٌ بشبح الخزانة التي لا تتزحزح من مخيلتها! وكيف له ألا ينسى قفلها مطلقاً!. كثيراً ما عزت على كسرها ثم تراجعت!! فكيف تقدم على أمرٍ قد ينتج عنه مالا يحمد عقباه!.

أخذت تنظر نحو الكراتين التي بدأت تزيد بشكلٍ غير مفهومٍ في زاوية غرفة الجلوس وبغضبٍ تملكها فجأةً ركلت اِحداهنّ فسقطت أرضاً لتتناثر حاجياتها! حذاءان صغيران ومجموعة أقلامٍ ملونة! كفان صوفيان ولوحةٌ خشبيةٌ صغيرة... خريطةٌ للكرة الأرضية وعشرات السُتَر المختلفة المقاسات ثم عندما نظرت داخل الصندوق رأت ألعاباً صغيرةً ودمىً كثيرة الألون!! كان هذا الصندوق واحداً من أربعة صناديقَ ركنت في زاويةٍ واحدةٍ من زوايا الغرفة فقد عملت على اِخفاء كل مميزٍ ونفيسٍ اِبتاعته في صناديقٍ من الكرتون بعد أن ضاقت بهم ذرعاً فخبأتهم لتبدأ بركنهم في زوايا المنزل! كانت ترى في ما اِشترته أهميةً لطفلها! لوازماً وحاجياتً إلا أنه لم يرَ فيهم ذلك! فجاملها بأخذ البعض ثم عندما أكثرت منهم ضاق به الأمر ليرفض ما جلبته إلا أنها لم تمل فاِستمرت بجلب المزيد والمزيد حتى خزنتهم في صناديق كرتونيةٍ وركنتهم في الزوايا بعد أن اِمتلأت السقيفة!! ... ربما كانت تشعر بالقوة كلما زادت من شراء الحاجيات! ربما كانت تطمس الطفولة الفقيرة أو الأمومة المفلسة!! إنها تمحو بهذه الأشياء التي لا لزمة لها ذاك الماضي إلا أن طفلها لا يريد! هو لا يعي لِمَ تقوم بذلك والدته؟ لِمَ تملأ المنزل بما لا حاجة له ولا معنى لشرائه!.

بينما كانت "نورا" غارقةً في أفكارها الحزينة كان الشاب المندفع نحو الحياة يركض نحو الملجأ، كان يعرف بأن هذا الضخم الغاضب لابدّ خاله! كان مدركاً للأمر ومستشعره بكل حواسه بينما كان يلمح في عينيّ الرجل حيرةً وضياعاً! اِستنتج فيما بعد أن الرجل مهما كان قوياً لابدّ أن تكسره الوحدة وينفيه الماضي!.

على باب الملجأ وجده منتظراً وقد اِتكأ على الرصيف فألقى عليه التحية فلم يردها! بل أمره بِاتباعه فدخلا الملجأ بخطواته العريضة ووجهه العكر الغاضب لتتبعه خطواتٌ صغيرةٌ راكضةٌ ووجهٌ بين مبتسمٍ وخائف!. كان الشاب يقوم بما يؤمر به كروبوتٍ لا حول له ولا قوة وكان يجد في هذا النوع الجديد من الأوامر لذةً غريبةً لاسيما وأن الآمر خاله.. من لحمه ودمه!. دخلا سويةً غرفة المدير العجوز بعد أن نقر الرجل على الباب وعندما تعرف المدير على الشاب قال ضاحكاً..

- أجلبت من بحثت عنه إلي؟!

فأردف الشاب متبسماً ترفرف نبضات قلبه فرحاً

- أجل هذا الرجل على ما أظن من كنت أبحث عنه!.

بدل المدير نظاراته الطبية بأخرى محدقاً في الرجل طويلاً بيد أنه لم يذكره! فقال..

- اِعذرني يا بني العمر يلعب دوره وأنا لا أذكرك!
- لكنني يا سيدي أعرفك!
- هل كنت مديرك؟!
- طبعاً... وإني يا سيدي بحاجةٍ ماسةٍ لأعرف من سماني لأتأكد إن كنت قريب هذا الشاب أم لا!.

فكر الرجل لثوانٍ بينما يحك ذقنه بأظافره ثم قال..

كان لديّ معاونٌ .. ربما تذكره بصلعته الكبيرة ووجه الجميل! هو من كان مسؤولاً عن تسمية الأطفال الذين يتركون أمام باب الملجأ ... بيد أنه للأسف توفيّ بحادث سيارةٍ من أحد عشر عاماً!!

تجهم وجه الرجل بشدةٍ فطلب منه المدير الجلوس والتروي، ثم طلب عبر الهاتف قهوةً حلوة لثلاثتهم. كان الرجل يدرك بأن هذا الحدث لن يتكرر مطلقاً... وأن أختاً لن تنبت له من السماء! هو لا يذكر ماضيه، هو لا يعرف سوى هذا الملجأ بمديره ذاته وبعض المشرفين الذين ربما ماتوا... نظر نحو الصبي الذي كان ينظر إليه أيضاً ثم خاطب نفسه "أيمكن أن يكون هذا الضعيف الوهن اِبن أختي!! .. ومن تراها أختي؛ وأبي وأمي؟! ... البيت المحترق!" رن في أذنه البيت المحترق! وقبل أن يقطع صمت الأجواء ويسأل الصبي دون أي اِهتمام لمدير الملجأ عما ذكره من بيتٍ محترقٍ وعجوزٍ حضرت يوم ولادته قدم له الآذن القهوة فرفع عينيه نحوه متشكراً فلمحه... العينان السوداوان وأثر غرزة الإبرة قد أخاطت شقاً من الخد الأيسر... والأذن اليمنى تندفع إلى الأمام أكثر من اليسرى.. تأتأ قائلاً "عم أسامة"!! فقال الأخير كردة فعلٍ "نعم!" ثم تنبه لمعرفة الشاب له كما تنبه الآخران فنظر الرجل إليه وقال بشيءٍ من الغرابة والفرح..

- ألا تذكرني؟!!

- وكيف لي أن أذكرك؟! الأطفال يتغيرون كثيراً يا بني..
- لا لا... عليك أن تذكرني! وكيف لك أن تنسى!! عندما تعرضت لحادث البلور!! الشجرة التي كسرت بلور الغرفة العليا فإنغرزت إحدى قطعه في خدك ولولا أنني كنت أعاونك لما عرف بالحادث إنسانٌ طيلة إغمائك!... أنسيتني وأنا الذي رافقتك حتى باب غرفة العمليات وكانت دماؤك التي لطخت ثيابي تنزف بشدةٍ فلم أتزحزح حتى قيل لي بأنك جاوزت الخطر!!

طيلة الحادث الذي سرده الرجل كان العم "أسامة" يتلمس الغرز التي شوهت نصف وجهه تاركاً للرجل أن يقص عليهم ما عنده فسقطت دمعةٌ سخيةٌ من عينيه بينما "وائل" بصوتٍ مرتجفٍ يقص الخبر تحت الأعين المشدودة إليه وإلى العم وما أن إنتهى الرجل حتى أردف الأخير وهو يبكي "وكيف لا أذكر!" ثم ضمه بشدةٍ وبكى بضعف رجلٍ مسنٍ هرم. عندما إنحدرت دمعات الرجل الغزيرة مسحهنّ على عجلٍ كي لا يبدو ضعيفاً أمام الشاب وما أن تمالك نفسه عن البكاء حتى أفسح له الرجل ليجلس قربه فنطق بإسمه دون معاناة التذكر "وائل! حدثني ما جاء بك إلى هنا اليوم؟! ما جلبك بعد كل هذه السنين وقد صرت رجلاً ضخماً قوياً تُهاب!!"

- جاء بي هذا الشاب! (مشيراً إليه بيده بينما تلبك الشاب كعادته!) أتذكر يا عم "أسامة" من سماني؟!

كانت القلوب تنبض بسرعةٍ خوفاً من إجابةٍ سلبيةٍ قاتلة على أنَّ الرجل قال بفرحةٍ إرتسمت واضحةً على ملامحه وعيونه الباكية..

- طبعاً أذكر يا أبله!! الطفل الذي أنقذني كان ذات الطفل الذي حملته ذات ليلةٍ ماطرةٍ وأنقذته... كان الله قد رد لي إنقاذي لك بإنقاذك لي فكيف أنسى!!
- ومن يا عمي؟!
- لا أحد!
- كيف لا أحد!!!
- كانت في جيبك ورقةٌ صغيرةٌ كتب عليها بخطٍ واضحٍ إسمك! ... لا أحد سماك يا بني... هي أمك من سمتك!!.

عند مفترق الطريق اِفترقا بعد أن اِتفقا على لقاءٍ مؤجلٍ بعد يومين أو ثلاث! لابدّ أنهما بحاجةٍ لراحةٍ نفسيةٍ لا بأس بها فالرجل العنيد مازال رافضاً لأن يكون هذا الشاب الضعيف اِبن أخته على أن "مهند" كان قد وضع يديه وقدميه في ماءٍ باردةٍ كما يقال!. هو خاله لابدّ فكيف يمكن أن يكون للصدفة دخلٌ في أجزاء قصتهم! العمران، العينان ... وحتى الاِسمان! محالٌ أن تكون صدفةً.

ما أن مر وقتٌ قصير حتى تنبه الشاب لأمرٍ رآه غايةً في الأهمية ... لقد قال العم "أسامة" بأنه وجد خاله على أعتاب الملجأ في ليلةٍ شديدة البرودة تحت مطرٍ كثيفٍ تماماً كما قالت له "هالة" حين أخبرته بالتفصيل الممل عما ذكرته لها والدته قبل ولادته! قالت بأن اِحدى المشرفات وجدتها على مشارف الموت في ليلةٍ شديدة البرودة كثيفة المطر! أيمكن أن يكون الحريق قد شبّ في تلك الليلة ثم تم نقلهما كلٌ إلى ملجأ تاركين أسماءهما الحقيقية على صدريهما!! أنوى ذلك الشخص المجهول أن يلتقيا صدفةً في مستقبلٍ ما!!.

كانت الأفكار تشده لتملأ رأسه حتى الوجع بيد أنه رغم ثقل السر أبى الاِفصاح لأحدٍ... فلمن يبث سره مطلقاً حتى لأمه التي أبت أن تحدثه عن ماضيها؟ أو جارتهم! ولا حتى "سهى" التي عندما اِقترب من الحب كسرته... أو "مروى" التي دمرت قلبه قبل أن تسعده... ثم كاد يموت لأجلها فلم تهتم! هي لا تستحقه... لا نساء تستحقه مطلقاً... كان قراره هشاً للغاية إذ إن الذين يمرون بحالة فشلٍ عاطفيٍ ينكرون بأنهم قد يغرقون في الهوى ثانيةً! وإن نادى عليهم القلب صموا آذانهم راغبين عن الاِعتراف!... كان يظن بأن قلبه قُتل.. أو أنه ما عاد يقترب من الحب مهما زاد الله في عمره أو أنقصه! على أنه بعد سنةٍ من الحادثة السوداء دخل كلية الفنون بنفسيةٍ جديدة... كان مازال يلمح في عيون البعض الاِشفاق أو السخرية بيد أنه لم يأبه .. كان يثابر على ثقته بنفسه، لا يهدأ عن قراءة كتاب جده كما لم يتوقف يوماً عن اِستئجار الكتب التي أيدها الأخير بحرصٍ على هوامش الصفحات.. كان يرى فيهم الفائدة مسجلاً ما أعجبه في دفترٍ خصصه للاِقتباسات المنيرة لبصيرته والمغذية لقوته. كان قد رأى في الفنون غايته وطريقه الذي لطالما ضله ليس فقط في الرسم والفنون فقد نجح نجاحاً مبهراً بهما وكان مميزاً عند معظم الأساتذة المشرفين على تعليمه كما كانت ثقة المدرسين به تجذب الطلبة نحوه طالبين منه العون وكان بقلبه العطوف يساعدهم في أسهل وأصعب الاِستفسارات حتى جاءته من عدة أشهرٍ فتاةٌ اِستشارته في مادة الرسم الهندسي وكان ضليعاً بها فلباها وشعر بضعفها الشديد فعرض عليها دروساً اِضافيةً عقب الدوام فوافقت شاكرة .. وهكذا اِمتدت لقاءاتهما حتى شهرين متتابعين وخلال هذه الفترة أصبحا

صديقين حميمين، وكان يتعجب سرعة الصداقة بينهما ذلك أنه فسرها بلطف معشرها وإبتسامتها التي لا تنقطع إضافةً لخفة ظلها وذكائها! ...

"مريم" التي جاءت تطلب منه دروساً في الرسم الهندسي أبى أن يعترف بأن القلب مال لها فكان يحاول طيلة الشهرين الماضيين أن يراها بعين الأخوة والصداقة بيد أنه لم يستطع ففسر ما حدث بكرهه لقرب النساء منه! ثم عندما جاءته مرةً متأنقةً لوجوب ذهابها بعد الدرس إلى زيارةٍ ما جذبه جمالها وأناقة ثيابها فكانت بحجابها الأنيق الملائم للون بشرتها السمراء يزيد لجمالها جمالاً! وعيناها اللوزيتان ذبحتاه يومها من الوريد إلى الوريد وعندما سألته عن أمرٍ لم تفهمه وأخذ يعيد الشرح مزيداً على الشرح شرحاً بحركة يديه! كانت عيناها تسحبانه نحوها فاقداً من يديه زمام الأمور، وكإتقاءٍ لا فائدة منه، كعدم النظر لقرص الشمس رفضاً ليوم جديدٍ! بدأ يخفض عينييه كي لا يخطئ أو يطفو على ملامحه الذهول بعد أن وجد بأن أفضل هروبٍ من الجمال الثاقب للروح والقلب هو الغرق في الرسم ... وكحركةٍ لإزالة التوتر طلب منها الإبتعاد عن المرسم ليترأسه! وهكذا بدأ بصَفِ المساطر آخذاً قياس الأبعاد والزوايا على أنه في نهاية الشرح وبعد أن إستراح كل الراحة في هروبه المفتعل من العينين الماهرتين في إصطياده غاصت الفتاة في نوبة ضحكٍ أضحكته لشدتها! نظر نحوها فأشارت وعيناها قد إكتستا بغلافٍ من الدمع الرقيق نحو الرسمة فوجه بصره كما وجهته محتجاً لضحكها بلا مبررٍ وما أن وقعت عيناه على المخطط حتى غرقا بنوبة ضحكٍ كانت أشد من الأولى فتلامس الكفان بغفلة الضحك البريء... كانت الرسمة مقلوبةً رأساً على عقبٍ تسعين درجةً بالضبط!! ظلّ حتى اليوم يتساءل كيف يمكن لرسامٍ أن يرسم مقطعاً هندسياً بالمقلوب!! كان يضحك وينكر بشدةٍ أن عينيها الساحرتين وصوتها الرقيق الدافئ من لبكه حتى فقد بصره وأقدم على هذه "الكفرية" بلا شعور!!.

ورغم كل هذا الرفض والعناد إلا أن ذكره لذاك الموقف جعله يعبر الطريق دون أن يتأكد من الطرفين المتعاكسين إلى أن نبهه من غيبته مع الأفكار "زمور" إحدى السيارات بوجه سائقها المتجهم يخرج من النافذة ليرميه بألفاظٍ نابيةٍ مؤذية!! كان قريباً من المنزل دون أن يشعر بطول الطريق ولا هيئات الآخرين... كان يراها فقط! فينكر هذا الشعور الغبي! أجل.. كان يصفه بالغبي ذلك لأنه أوداه مرتين للموت ومعصية الله ... وكان يستغفر ربه كلما ذكرهما.. قلبه الذي كاد ينفجر، ورأسه الذي أوشك على السقوط كحبة كرزٍ نضجت! النافذة كأنها إنفتحت من تلقاء نفسها والطريق الذي كان يقترب منه كأنه يريد إحتضانه إلا أن دكان بقال الحي منعه عنه فألمه!

... دماؤه التي سالت كانت عاصية! والإنتحار كان أسوأ ما أقدم عليه في حياته.. كان ممتناً بأنه لم يمت وكان يتخيل دائماً لو أنه مات حينها دون أن تهتم به "مروى" ثم يتهيأ له جسده بعد أن يدهسه القطار المسرع دونما اهتمام منها! وربما يمر خبر وفاته على مسمعها فتضحك ويذهب اِنتحاره هباءً منثوراً... كان يتخيلها بهذا السوء على أنها لم تكن! هو لا يعرف بالضبط ما حدث يومها... والدته وحدها تعرف ما دسته لتلك الفتاة حتى هربت! أتراها قالت ما قالته تاركةً قلبه متألماً باكياً على حافة الطريق دون سببٍ مقنع؟ أم تراها أُجبرت؟؟ هو لم يفكر بهذه الإحتمالات مطلقاً! فقط عيناها القاسيتان غلبتا على جمال ذاك الزمان فرفضه رفضاً جائراً ومسحه من ذاكرته إلا قليلاً! كيف يمكن له أن يرمي بنفسه من النافذة لأجلها؟ ثم يحاول دهس نفسه بالقطار لعينيها! أوهي السبب حقاً.. وحدها؟!

عند باب المنزل وقبل أن تفتح والدته الباب نظر نحو منزل "هالة" نظرةً حائرةً.. أيخبرها؟ أتراها تنصحه بما هو مقدمٌ عليه؟! على أنه دخل المنزل ضاحكاً بينما غاب وهو على الأريكة منتظراً وجبة الغداء خلف أفكاره ... عاد لشروده الذي اِنتزعته منه "نورا" بسؤالها عما فعل هذا الصباح فتحجج بالدراسة فتبسمت... كانت تراه بين الحين والآخر حاملاً كتباً جامعيةً يقرؤوها فتفرح بذلك بيد أنها كثيراً ما كانت تراه يرسم فيزيد بإهماله غضبها .. كانت جاهلةً بتبديله لكليته وهذا ما كان يسعده فكانت مع كل صباحٍ توقظه باكراً للقيام بتمارين الرياضة ثم تحثه على المضي نحو كليته لتجده بعد سنين المراوغة والعذاب مندفعاً نحو الدراسة بوجهٍ ملؤه الشغف مبررةً حبه المفاجئ بموادٍ دراسيةٍ جديدةٍ في سنته الثالثة على أنها كانت الرابعة على التوالي!! فكان يحمل مواداً أكثر مما يُرّفعها ويرسب في السنوات أكثر مما ينجح بها!! وهكذا وجدت في حبه الغريب فرحةً دفعتها لتدليله والإعتناء به كما السابق على أنه بدا عنيداً أكثر مما عهدته فلم يرضخ لجميع الأوامر والتنسيقات التي قررتها على أنها لم تمل فظلت تضغط عليه حتى سلمها أمره كما السابق! ذلك أنه اِستمر في اِهمال دراسته حيناً والإهتمام بها حيناً آخر بشكلٍ متفاوتٍ جعلها تتغاضى رغم غضبها عن الأمر!.

إن غرفة "مهند" كانت ملجأه الوحيد من تمثيله المصطنع أمام والدته على عكس حقدها المستمر عليها!. هكذا اِتجه الشاب بهدوءٍ نحو ظلام غرفته ليغلق خلفه الباب تاركاً والدته معلقةً بين تساؤلاتها اللاتي لم يتركنّها طيلة فترة طفولته وبين تساؤلاتها الحديثة .. حاضرها الغريب الذي لم تتخيل خطورته مدى حياتها.. كانت تتخيل أحياناً أموراً في قمة الرعب ثم تتساقط لتصبح أقل

رعباً ... إلى أن تتلاشى! تتذكر طفولة اِبنها وبالمقابل أبناء جارتها الذين كانوا يتركونها وحيدةً ثم تنظر إلى نفسها! ما الفرق الآن؟ فكل ما قامت به مذ توفي "هيثم" حتى اليوم كان هروباً من حاضرٍ كهذا! واليوم هي تقضي النهار تحيك ما قد ضجرت روحها منه بعد أن أغرمت به سنيناً لتتلقى طلبات الزبائن الذين واظبوا على دكانها بعد أن ذيع صيته عاماً بعد عامٍ حتى غدا من أفضل دكاكين الحياكة منافساً أمهر الحياكين!. كانت الحياكة في بداية المشوار حاجةً ثم لذةً ثم مللاً لم تعد تطيقه!. هي جاوزت سن اليأس وعانت من آلامٍ نفسيةٍ شاقةٍ تذكرت خلالها أيام صباها ولحظات غرامها مع زوجها الغائب خلف الحياة! كانت تراه في أحلامها كثيراً ذلك أنها أبت أن تحدث طفلها عنه! فقد اِتخذت قراراً غريباً قبل ولادته بأنها لن تذيقه طعم المرار يوماً وطالما أنك لا تعرف من تبكي لأجله فلن تبكي!! وهكذا جعلت "هيثم" في عينيّ اِبنهما خيالاً ووهماً ... رمالاً محبوسةً في زجاجةٍ لا تزيد على زينة المنزل شيئاً أو تنقصه! كان بلا شكٍ يتمنى لو أن له أباً لكنه لم يحزن يوماً لأن أباه بحدّ ذاته ليس معه! ... كانت تنجح في هذا الأمر وبينما قلبها يحترق كان يشعر بالغرابة ... أو كأقصى شعورٍ يقدمه كان يتحسر على فقد الأب... لكن أيّ أب!! ليس أباً محدداً .. ليس "هيثم" بل صفة الأبوة فيه! كان يرى نصف أسرته مبتورةً ومبهمةً خلف الحقيقة فكان كلما سأل عن أصوله ووالده لا يُجاب! حتى وجد كل الريبة في تكتم أمه بيد أن كتاب جده أعاد له الشعور بالحنان ورد له بقوةٍ اِحساساً يدعم وحدته! .. كل هذا كان يحدث كلما اِختلى الشاب بكتابه ليسرقه من واقعه المر جاذباً اِياه نحو الغرابة المطلقة والراحة اللامتناهية .. كان كنزه وكان أنانياً به حتى تكتم عنه أمام خاله مرات عديدة إلى أن اِصطحبه ذات يومٍ إلى المنزل الغريب وعندما اِقترب الرجل من المكتبة وأخذ يدقق بها بشدةٍ، شعر الشاب بتوقف نبضات قلبه لشدة الرعب ودون أي مبررٍ ملائمٍ هدأ فجأةً عندما جاءه صوت الخال قاطعاً الهدوء المطبق "من يقرأ كل هذه الكتب!! (ثم بضحكةٍ اِستهزائيةٍ أكمل) ... أنا لا أقرأ أكثر من عناوين الزبائن ... يا إلهي أقرؤوا كل هذا؟!!" اِنتظمت نبضات قلب الشاب متنفساً الصعداء! بماذا كان يفكر وهذا الرجل يأتي لأول مرةٍ إلى هنا؟! تذكر قول جده "حارب عالمك.. جابه جهلهم؛ إننا وإن كسروا عزيمتنا أمة اِقرأ" ..!! أين الإبن من الأب؟ ياهٍ لو أن روح الجد قريبةٌ منهما لبكت! .. قال في اِحدى رواياته أنه ترك مجموعةً من الكتب القيمة لأبنائه لكنها بالتأكيد حرقت ولو أنها لم تحرق فلن يقرأها حدادٌ لا يقرأ أكثر من عناوين زبائنه ولا خياطةٌ لا تقرأ أكثر من مقاسات زبائنها!! على أنه لم يلمهما فما ذنبهما! ربما لو لم يمت والداهما لكانا من أرقى طبقات المجتمع.

الحداد الضخم كان يتفحص المنزل بشيءٍ من عدم المبالاة التي اِستشعرها الشاب ذلك لأنه لم يشعر بأنه يمت لهذا المنزل بصلة! ... وما التأكيد على أنه اِبن صاحب هذا المنزل المحترق بالتحديد!

- العيون لا تتغير مطلقاً.. عيناك هما هما كأنك سرقتهما من أختك!! كأنك أمامي طفل تنظر إليّ وقد شارفت السنة ... قبل الحريق، أذكرك جيداً! ... ياهٍ يا "وائل" ما الذي أخرك عمراً بحاله!

قالتها العجوز كأنها كانت بإنتظاره! ثم قامت من مجلسهم تحت أعينٍ هائمةٍ وحائرة لتعود وفي يدها ورقةٌ مصفرةٌ، متشققة الأطراف! مدتها إلى الرجل فأخذها ليفتح ثنيتها على عجلٍ ويتوضح له اِسمٌ غريب.. فبادر بسؤالها

- ومن "أسمهان" هذه!!
- لديك الاِسم والكنية .. جدها وهي تخبرك!

كان هذا آخر ما قالته العجوز قبل أن يطبق الصمت الذي لم يتمزق إلا برحيلهما! كانا جاهلين من هذه المرأة! وما علاقتها بعينيه وطول السنين التي غابها.. شعر كأنها حقاً تعرفه وسرى في عروقه رعبٌ فاِقشعر جسده لشدة التأثر ثم قرر البحث عن هذه المرأة حتى قبل أن يفكر في التعرف على أخته!! كان الشاب مدركاً لرغبته عن مقابلة أخته! إنه لابدّ رافضٌ لما فعلته! هي لم تبحث عنه! ... هي لم تحاول حتى .. لذا لم يحاول التعرف عليها بالمقابل .. !!.

-6-

كان لابدّ من هشاشة العلاقة بين الأم واِبنها أن تدفعها إلى معين ينجيها مما خافت منه طويلاً!. وكثيراً ما حاورت قلبها بيد أنه لم يدلها إلا على صديقتها دون جارتها البعيدة رغم قربها! فاِنساقت الأم تحت أوامر القلب مرهقةً متعبة على أنها وجدت في الفتاة من الجفاء ما لم تعهده منها ثم وجدت الصديقة على حالها متسامحةً ودودة. ربما لم تخبرها كل شيءٍ فقد كانت تجد خلال البوح صعوبةً كأن حجراً يسد حلقها! فتخجل فجأةً من أفعالها على الرغم من تفاخرها بهم مع نفسها!! لذا أخذت تحذف من الأحداث ما قد يدفعها للعار! ملخصةً القصة بأقل المساوئ الملتصقة بها وأخيراً وبعد أن أدلت بدلوها سألتها العون، فكيف لاِبنتها هذه الشخصية توازياً مع

حسن العلاقة بينهما على عكس ضعف اِبنها متوازياً مع سوء العلاقة! وصفت علاقتهما بالمشوشة... قالت بأنهما يوماً صديقان ويوماً عدوان وأخر متباعدان... هما ليسا على مايرام! هناك خطبٌ ما، سرٌ وأمرٌ ليس بمقدور البساطة والسهولة أن تمحيه! إنها خائفةٌ أن تخسره كما كادت تخسره سابقاً! أخذت تبكي والصديقة الوفية تطبطب على كتفها وتهرع بالمناديل لتكفكف دموعها بينما أخذت الفتاة تتلصص على الأم وحديثها عن اِبنها التائه بين حب الدراسة وعدمها، وبين الخروج من المنزل مطولاً وعدمه... عن خزانته، عن أسراره ورسوماته الغريبة، عن كتبٍ لا تفهم من عناوينها مغزىً! عن غنائه ونومه القليل وساعات طوالٍ داخل غرفته... أخبرتها عن قوة شخصيته ثم عن اِنصياعه الأخير لأوامرها. حدثتها حدثتها حتى شعرت بجزءٍ من الهم يرحل عن قلبها المنهك زاحفاً إلى مسمع "جيسيكا" التي تلبكت بين مواساة الأم وسماع شكواها وإيجاد الحلول لها!

عندما اِنتهت الأم من البكاء والشكوى معاً حدثتها "جيسيكا" بالمقابل عن بساطة العلاقة بينها وبين اِبنتها.. أخبرتها كيف يلعبان سوياً أتفه الألعاب ثم حين تريد قراءة كتابٍ تتركها لتركز بما تقرأه على أنها تعيد اِستعارته لأمرين أولهما لتعرف على ما دخل من أفكارٍ وقناعاتٍ لعقل اِبنتها وثانيهما لتزيد من ثقافتها ثقافة ثم عن أنهما يتناقشان طويلاً حتى تغلب الواحدة الأخرى! أخبرتها همساً بأنها وجدت بالخطأ ورقةً تركتها الفتاة تحت وسادتها تتحدث فيها عن شابٍ بدا لها بأنها معجبةٌ به على أنها لم تحدثها عنه بل اِنتظرت مرور فترةٍ لا بأس بها حتى حدثتها الفتاة بنفسها عن تجربتها الأليمة مع الحب! نبهتها ووجهتها دون أن تجرحها أو تشعرها بأنها ربما أخطأت!. كانت "نورا" خلال حديث "جيسيكا" منصتةً بتركيزٍ منقطع النظير لكل شيءٍ تقوله الصديقة التي كانت تعرفها عن ظهرِ قلب!! ... كيف لاِمرأةٍ عاشت أكثر من نصف عمرها على نمطٍ معينٍ أن تتغير! ومَن! "نورا"... محالٌ أن تتغير إلا بمعجزةٍ عظيمة!! وتماماً كما توقعت "جيسيكا" كان الحديث يمر على بال الأم كل صباحٍ فتستعد ليومٍ جديدٍ جميلٍ مليءٍ بالتفاهم ثم ما أن تلامس أرض الواقع حتى تعود الأم الصارمة التي إلى حدٍّ ما لا تطاق! على أن الشاب الذي اِنتشلته الإكتشافات المؤخرة رأى في أمه تغيراً طفيفاً فكانت إذا لمحته يقرأ كتاباً من الكتب التي لا تروقها غفلت عنه كي لا تشنّ شجاراً جديداً وكان هذا من أعظم التقدمات التي أحرزتها الأم في عين الشاب فوجد تطورها عظيماً وقدر لها ذلك بيد أنه كان منشغل العقل والقلب! فالعقل الذي يخطط لأفضل أسلوبٍ للقاء الأخت بأخيها والقلب الذي مازال يرفض وقوعه فريسة الحب حتى أدمنه! فكان

نهاره منقسماً بين "أسمهان" التي رفضت العجوز رفضاً قاطعاً ذكر أي شيءٍ عنها! ... فبقي الرجل والشاب هائمين على وجههما باحثين عن اِمرأةٍ قد تغير مجرى حياتهما! وبين "مريم" التي كلما ذكرها قفز إلى الدراسة فزاد اِحترافه في الرسم الهندسي دون أن يقرّ بأن جنونه في هذه المادة ليس إلا اِرضاءً لطمعه بالاِبداع فيها والتميز بالمرتبة الأولى كي يكون مثالاً تحتذي به وأستاذاً يستحق الاِعجاب! فكانت خزانته السرية بقفلها المحكم تخفي بداخلها عالمه الخاص! ذكريات مروى! كتاب جده ومخططات تحتوي على خط "مريم" ثم على اليمين داخل الظلام أخفى مسطرة الهندسة وكراتين الرسم وأقلام التحبير وكتب الدراسة ومسوداته وعلى اليسار كانت مجموعةٌ من الكتب التي اِشتراها تحت مشورة جده فرأى فيها معزةً لم يجدها في أي كتابٍ آخرٍ فحافظ عليها وخبأها من والدته التي حرقت من عدة أعوامٍ كتاب "سهى"... كانت الخزانة ليست للثياب! بل للأسرار والذكريات المؤلمة والعزيزة ... فقد ألصق على بابها صورة جده وجدته وعلى اليسار صورة الأسرة منقوصةً من الخال! كان كلما فتحها وقد خلت من ثيابه التي رتبها ببضعة أكياسٍ وضعها فوق سقفها تاركاً ما يرتديه يومياً فيها تهيأت له كالحلم الجميل!! ذلك لأنه كلما اِختلى بها اِنتابه شعور الأمان والاِرتياح سارياً في عروقه ليحيي ما قُتل من قلبه! كانت له حياةٌ بين جنبات وظلمات هذه الخزانة وكان لها قسمٌ من قلبه لا يقل عن حبه لأمه بشيءٍ! وعزاءً لعمره الذي ذهب فراغاً في فراغ! ... الحياة فيها والنور يحي ظلماتها الغامضة والعشق ينبض في ضلوعها الباردة .. الحب! وهل يمكن أن يحب ثانيةً؟ وهل القلوب تعشق بعد الحب الأول الطاعن!! .. ربما نعم؛ قالها بعد أن قرأ ما كتبه جده ... ربما اِقتنع بعدما قال ما قاله الجد الغالي، وربما كان الجد الوحيد الذي يستطيع المشورة عليه ليقنع قلبه التائه بما يريد..!

" الحب يا قارئاً صرنا دون علمٍ منا أصدقاءً لا يمكن أن يمر العمر دون أن يلاطف قلوبنا! حتى الرُهبان الذين يتركون الحياة لأجل الله لا تتخيل بأن قلوبهم لم تعذبهم! ولربما اِلتجؤوا لبيت الله رحمةً منه! ... الحب داؤنا ودواؤنا في الوقت ذاته وفي عيون من نحب خلاصنا وفي غيامبه مماتنا ورغم عذاباته المؤلمة إلا أننا لا نمل البحث عنه وإن ترّفعنا عن الاِعتراف بذلك! ... لا يمكن أن تنكر بأن قلبك وإن كنت تبكي ألماً لم يزل بعد يبحث عن حبٍ جديدٍ ذلك لأن الحب لا يشفَ إلا بالحب! والخنجر المغروز في خاصرتك لا ينزع إلا بيدٍ حنونةٍ تضمك ... لا تنكر يا صديقي قلبكَ، لا تيتمه وهو اِبن ضلوعك! لا تنبذه وهو أصدق ما فيك! ... دعه يفصح بصوتٍ عالٍ، هو شفاؤك الأوحد في التقرب من الله، في الحب، في القرارات المصيرية ومخاطبة الذات ... ! قلبك منارتك فلا

تطفئها إن كنت نازفاً متألماً، دعه يقودك لخلاصك .. دعه ولا تغيبه بصوتك الرافض ونفسك الخائفة؛ دعه يحيي شجاعتك.. دعه ينير عتمك لتصير قمراً في سمائك الباكية."

مع كل كلمةٍ تخطاها "مهند" كان يشعر بأن قلبه يكاد ينفجر بصراخه فأغمض عينيه متمدداً على فراشه متنعماً بسكون صوته الغاضب القامع... وبعد لحظاتٍ، وفجأةً، أخذ يتلو الحقيقة ككقرآنٍ يخشع لذكره فإنكمشت أطرافه وتلبك بهدوءٍ لا يكاد يفصح عن إضطرابٍ .. قال لنفسه بصوتٍ ترك صدىً في جوفه: "أنا أخاف من قلبي.. أخاف أن أضحي بحياتي فداءً لشخصٍ لا يهتم فلا يبالي إن عشت أم مت! كان خوفاً من عينيها اللوزيتين المندفعتين نحو الحب والعلم! كان خوفاً من وجهٍ جميلٍ أسمرَ حلو! ... كان خوفاً شديداً ورهبةً من مشاعرَ قد تسحبك كطفلٍ نحو النافذة" .. هو يعرف بأنه ضعيفٌ ويدرك بأنه أشد ضعفاً أمام الحب ولا يملك أية مقوماتٍ ولا دعائم تحميه من آلام القلب التي تجرح دماغه بمساميرَ لا ترحم!! كان عكس براعته في الرسم الهندسي فاشلاً في تفادي عواقب آلامه لذا خاف وإحتاط وقمع وكذّب روحه وقلبه العطش على أنه بعدما قرأ من كلام جده الذي صار مثلاً أعلى يحتذي به أفصح بخجلٍ شديدٍ بأنه يحبها وأن قلبه كما كان يركض خلف "مروى" يركض خلفها لا بل منجرفاً بقوةٍ أعظم نحو هذه السمراء لوزية العينين! فضحكتها الرقيقة وتفهمها لخجله وإنجذابها نحو الدراسة والكتب والعلم وجمالها اللطيف وأناقتها الفاتنة تدس في عقله الجنون! هو يحبها لكنه لن يقوم بما قام به سابقاً.. لن ينام الليل تحت منزلها ولن يتأتئ أو يتغابى أمامها .. لن يظهر ضعفه رغم ما تدركه منه! سيكون صلباً وسيقدم لها عرضاً قوياً ليحسم الأمر دون خوفٍ أو رعب!

*****

برودة أعصاب الخال كانت تستفز "مهند" حتى بدأ يتساءل كيف له أن يصبر على لقاء أخته كل هذا الوقت! هو بلا أسرةٍ فكيف لا ينجذب كل الإنجذاب نحو ماضيه راكضاً إلى حضن أخته ملتمساً منها حناناً لم يذقه طيلة حياته!. لازال الخال مترفعاً عن الإعتراف بصلة القرابة بينه وبين هذا الشاب الرقيق!! كيف لرجلٍ تهابه الناس أن يكون خالاً لشابٍ خوّاف! شابٍ إن تلاقت عيونه بالرجال خفضها...! شك لمدةٍ طويلةٍ بشذوذه على أنه عندما سمع حديثه مع فتاة ثم لمح في عينيه الغرام إستغفر الله على سوء ظنه ذلك أن شعور الإشمئزاز لم يفارقه على رغم حنو قلبه عليه.. فكان كثيراً من الليالي ما أن شعر بنوم زوجته حتى سهر الليل نصفه وهو يفكر بهذا القدر العجيب، فكيف بعد عمرٍ طويلٍ هادئٍ وبينما هو مبتور الماضي مخلوقٌ بلا رحمٍ ولا أهل يرزقه

الزمان شاباً رخواً يقتحم حياته ليغير مسارها رأساً على عقب!. كان رجلاً ضخماً يُهاب ولا يَهاب على أنه في هذا الواقع المهتز القوام خاف المستقبل! كان يحقد على أخته..! أجل حقد عليها كثيراً من لحظة أخبره هذا الولد بأن أمه زارت المنزل المحترق ودون أن تبحث عنه مضت في حياتها ما يقارب الثلاثين عاماً! أيُّ أختٍ هذه التي تنتظره خلف ركاكة هذا الشاب؟!.

كان الرجلان متشاركان في فكرة البحث عن المرأة التي تدعى "أسمهان" على أن قلبيهما كانا مليئين بالإنتقادات والأفكار الخفية! .. أين يمكن لـ "أسمهان" أن تكون! ومن هي؟ أهي الماضي خلف أبوابه الموصدة! أهي رائحة الجدة في عطرها المنعش ووقار الجد بشاربيه المفتولين!! ماذا يمكن لهذا الرجل الضخم أن يذكر عن والده! كيف يمكن أن ينسى رجلاً كهذا؟! كانا يتقاذفان الرفض داخلاً والهدوء والجدية خارجاً... كيف يمكن لهذا الرجل أن يكون خالاً حبيباً بينما هو رجلٌ شديد القسوة جديٌّ المعشر!!

دامت التساؤلات غير منتهيةٍ بينما يبحثان أشهراً من حيٍّ لحيٍّ ومن عمارةٍ لأخرى ... هكذا حتى فقدا الأمل وعكفا عن البحث ليرجع كلٌّ منهما إلى مقصده فالخال إلى العمل والشاب إلى الكلية كان كلما طل الصباح الباكر نوى نيته المرعبة! ومضى وهو يشجع نفسه مستمراً بذكر مقدار قوته وصلابة شخصيته إلى أن يصل إلى المرسم فيراها غارقةً في كرتونة مُلئت بالخطوط والزوايا كان يعكف في اللحظة الأخيرة خوفاً وإرتباكاً إلا أنه ذاك الصباح كان أقوى من أي يومٍ مضى فتنحنح حتى رفعت رأسها إليه فأشار لها برأسه أن تعالي! وكانت حركةً تدرب عليها كثيراً بعد أن رأها في فيلمٍ رومانسيٍّ لمحه على شاشة التلفاز فأتمه حين شعر بحاجةٍ لتعلم المزيد!. رأى في عيونها خجلاً وفرحةً تبينها من إنفراج شفتيه فإستمر بذكر محاسنه وتشجيع نفسه حتى وقفت أمامه متبسمةً بثغرها الصغير وعينيها المتطلعتين إليه فتفحص الأرض متهرباً من نظراتها ثم حك رأسه بطريقةٍ مماثلةٍ لما رأه في الفيلم وبقوةٍ عظيمةٍ نظر إلى قلب عينيها وقال..

- أتشربين فنجان قهوةٍ معي!

كان سؤاله غريباً عليه وعليها! هو لم يسأل فتاةً بهذا الأسلوب الشجاع مسبقاً! وهي لم تعهد منه عرضاً رومانسياً كهذا من قبل! لقد إعتادت أن يذهب بغفلةٍ منها ثم يعود بفنجانيّ قهوةٍ يضعهما على المرسم القريب منهما ودون قصدٍ أن يدفع بأحدهما أثناء رسمه فينقلب ويضطرا لمسح القهوة وهما يضحكان... ما الذي تغير اليوم حتى يعرض عليها بهذه الطريقة التي تصيب القلب

حتى النخاع!. أومأت برأسها خجلاً أن أجل وكانت السعادة تضج فيه حتى اِرتفعت حرارة جسده وتوردت وجنتاه غبطةً وسعادةً فشكر الله ضمناً واِكتسى بالهدوء والوقار حتى لا تشعر إلا بِاحمرارٍ وشى بقليلٍ من الجنون!

كان المقهى الذي عزم مسبقاً أخذها إليه يحتاج مسيرة خمسة دقائقٍ فغالبته ذكرياته مع "مروى" إلا أن حديثها طرد الذكريات مذلولةً من الجو الممتلئ بالحب الخجول..

- لم تخبرني مرةً عن والدك! دائماً تحدثني عن والدتك كأنك تحبها أكثر! (أتبعت جملتها الأخيرة بضحكةٍ رسمتها بفتنٍ على شفتيها الرفيعتين)

قسم سؤالها الفرح في قلب الشاب المغامر نحو الحب فوجد نفسه صغيراً جداً أمام سؤالٍ خاصٍ لا يعرف إجابته... ماذا عليه أن يخبرها؟! بأن أمه لم تخبره عنه! وأنه لا يعرف سوى بأنه كان نجاراً ماهراً سماه "مهند" ثم مات بسرطانٍ أكل جسده! كيف يسحب اِعترافه بالحب من هذا السؤال المحزن... كيف لا يغضب من أمه ويتشاجر معها اليوم؟ كيف يقرأ كتاب جده الليلة وهو لا يعرف شيئاً عن زوج اِبنته! كيف ستراه العينان اللوزيتان بعد اِجابةٍ فارغةٍ من الحنين! نظر إلى عينيها كأنه يتوسل منها ألا يجيب فقالت بسرعةٍ خاطفةٍ قبل أن يفرج شفاهه بتثاقلٍ..

- ما أغباني! وما هذا السؤال الساذج!... هيا هيا، نتحدث بهذا في ما بعد..

تقدمت بمشيتها عندما لم يستطع اللحاق بها لشدة الصدمة! كيف عرفت... كيف قرأت أفكاره!! كان يظن بأن جده الوحيد الذي يستطيع قراءتهنّ حتى بعد موته! ثم أتته "مريم" تنظر في عينيه لمحةً فتستخلص منهما مشاعره وآلامه! ... تبعها بقلبه لا بعقله مسنداً روحه المنهكة على كتفها، قال لها اِسرقيني فأنا عجوز النفس وروحك مرحة! اِسرقيني فهذه الدنيا دون العينين اللوزيتين تقرأان ما بي وتستفسران لا جمال فيها ولا فرحة!

عند باب المقهى فتح لها الباب كفارسٍ يخطف من قلب فتاته الحب ثم سحب لها الكرسي حتى كادت تجلس فدفعه، كانا مراقبين من عيون الآخرين إلا أنه ولأول مرةٍ مذ خلق كان شجاعاً! شعر بأنه ليس ذات الشاب الذي اِرتدى بطل الفيلم بعد أن حفظ دوره غيباً ليلهب مشاعر محبوبته إنما شخصٌ آخرٌ لا يعرفه مطلقاً! أحدٌ مندفعٌ للحب بِإغراء الهوى، روحٌ لا يستفزها أي عائقٍ ولا ينحيها أيُّ قول. جلسا هادئين في بداية الموعد ثم بدأا الحديث بخجلٍ كعصفورين تقابلا للتو! كان

يحرك يده بطريقةٍ عصبيةٍ حتى اِستفزها اِستمراره لساعةٍ كاملةٍ بهذا الشكل ... وفجأةً وضعت يدها عليها مهدئةً له! حينها شعر بالهوى عصف به كزلزالٍ هائجٍ قسم الأرض كبرتقالةٍ لنصفين! وشق الأفق الهادئ قاشراً السماء من مكانها!! كان شعوره مندفعاً كنيزكٍ كل مبتغاه أن يصدم الأرض، فنظر إلى عينيها المحدقتين به ثم لفظ اِعترافه الأغرب على الإطلاق... "أحبك يا مريم!" قالها فذهل بها أكثر من ذهولها هي!! سحبا يديهما في اللحظة ذاتها كأن أمراً معيباً قيل ثم أخفضا بصرهما وكانت قد شقت نقطة عرقٍ طريقها على جبين الشاب فرفعت "مريم" عينيها إليه متبسمةً اِبتسامةً رقيقةً عذبة على أنه ودون أن يشعر بذلك كان قلبه مشرفاً على الاِنفجار! كان يريد أن يترك المقهى هارباً من شخصيةٍ ليست هو! لكن الخجل اِعتراه فكيف يهرب من فتاته وكيف يلقاها بقلبه من جديدٍ إن هرب! تمسك بالطاولة بكلتي يديه كأن زوبعةً شرهةً تريد اِبتلاعه، .. صارع خوفه ورهبته الشديدة من الحب.. كان يذكر مشاعره اللحظية حين ضحى بنفسه لأجل "مروى"! أتاه الشعور لحظتها فاِصفر وجهه... كان خوّافاً من الدرجة الأولى في مسائل الحب خاصةً بعد تعرضه لذاك الاِنتحار الجنونيّ ثم تلك المحاولة الفاشلة فرأى نفسه كفأرٍ توسط الطريق بين يد القط وقطعة الجبن فلم يطاوعه قلبه على تركها ولم يساعده خوفه على التقدم! كان متحيراً بينما يداه تتعرقان وهما متمسكتان بحافة الطاولة! .. ومن بعيدٍ جاءه صوتها الرقيق ليمسكه من عجزه..

- وأنا أيضاً ...

رفع عينيه إليها قليلاً وعندما تلاقت العينان قالت بصوتٍ أكثر أنوثةً وخجلاً.. "أحبك!".

-9-

"أسمهان" لحنٌ لطيفٌ يضيع في العاصفة! ووجه بشوشٌ تأكله الضباع! ... أسمهان يا قلباً تنيره كل المنارات إلا منارته فتطفئك وتمحي لغات النوارس من على شفاهك! ... أسمهان ضيعي في نصف مدينةٍ شرقيةٍ عزباء لم تمسها يدا اِحتلالٍ أو عدو.. عيشي في سلامٍ مع عدوك الأوحد! اِفتحي عينيك كل صباحٍ واِنظري بعينٍ للحياة إن تألمت عينٌ من العنف! ... لقد رأيتك ذاك الصباح دون أن تشعري، كانت نظاراتك الشمسية غير قادرةٍ على اِخفاء ذاك الورم! زرقاء مرعبة.. كيف ليدٍ أن تمزق بصيرة ملاك!. وحين سألتك في الأيام التالية ما الذي جرى؟ قلت بأنك وقعت من الدرج، وكنت كاذبةً عاشقة! ... إنك حمامةٌ تحب من يسجنها ليلاً ويطلق سراحها

صباحاً... حمامةٌ وديعةٌ تتهم درج المنزل بالضرب العنيف لتنحت من زوجها تمثالاً كالآلهة في أعين الآخرين!! ..

وجد ورقةً مطويةً كأنها نُسيت في الصفحة التي تلتها، ففتحها على عجلٍ ...

"إليك أيتها الغائبة! .. إلى نصف المدينة النائمة في منتصف النهار! إلى بيتك الصغير بشباكه الأحمر وحمامتان نامتا يوماً على شرفةٍ تستسقي ضياء الشمس من مطلعها! ... إلى "أسمهان" بشعرها الملفوف وعينيها بلمعة ذكائهما! .. إليك وأنتِ تحملين "نورا" تندنين لها كأنك لم تحملي من الزوج عبئاً أليماً! ... إلى عينيك الحبيبتين تصغيان إلي كلما حزنت .. كوني بخيرٍ وقوةٍ كما عهدتك دوماً"

كاد الذهول يسرق ملامح الشاب والأفكار تنسج من رسالةٍ ماضياً مليئاً بالخيانات على أن كلمتين مرميتين على هامش المقطع المكتوب بخطٍ أنيقٍ والورقة المختلفة الترتيب والشكل حلتا الأمر! "تمارا" ... كان يعلم من هي "تمارا" وكيف له ألا يعلم وقد ترك الجد في كتابه العزيز مقاطعاً مطولةً عنها!! لقد تخيلها اِمرأةً طويلة الشعر، لابدّ، فقد أكد الجد على وصفه له حيث قال بأنه لشدة طوله كصلة وصلٍ بين الشرق والغرب! ثم تخيل فمها كأنه التوت البري الشهي كما أطال الجد في وصفه! وتصور روحها المرحة وصلاتها الخاشعة وحجابها الأبيض الناصع. "تمارا" المرأة التي ذكر الجد تفاصيلها بدقةٍ شديدةٍ حتى تخيلها الشاب أمامه دون شكٍ أو ريبة كانت زوجته الحبيبة فاِسترسل في بعض المقاطع واصفاً اِياها كأنه نسيَ أن الكتاب مهدىً لمجهولٍ قد لا يكون قريباً أو صديقاً، ثم إنه قد شطب بعض الجمل التي خمن الشاب بأنها زادت عن الغزل المسموح لمحامٍ أن يجهر به!

إذن هو يعرف "تمارا" جدته الجميلة بفمها الصغير وشعرها الطويل الطويل! ثم فهم بعد شكوكٍ وأفكارٍ كثيرةٍ بأن الورقة الثانية رسالةٌ من جدته لـ "أسمهان" بعد أن سافرت لـ "ألمانيا" مدة سنةٍ كاملةٍ قضتها وزوجها يبحثان عن عملٍ في بلاد الغرب لتعود ولكمةٌ أليمةٌ على عينها! أخبرتها فيما بعد أن زوجها كان كلما خسر مالاً أو رُفض من وظيفةٍ ضربها! ثم أنهما تشاجرا قبل سفرهما بليلةٍ فلكمها تلك اللكمة الموجعة! ... كان الجد يصف مدى حب "أسمهان" لأخيه .. ثم يَتبع رقة كُنته بأقبح الصفات التي اِرتبطت بأخيه من الصغر!!!. كان معارضاً لكل ما يقوم به من ضربٍ لزوجته وقمارٍ واِدمانٍ على الكحول على أن زوجته كانت على العكس تماماً فرغم تعنيفها كانت ترفض

رفضاً قاطعاً تركه، ولم يكن الطلاق مصيبتها بل ترك شخصٍ أحبته عشرات السنين بعد أن اِلتقيا على مائدة اِحدى عزومات صديقتهما فتعارفا ثم بعد بضعة أشهر غرقا في الحب الذي توجاه بالزواج.. كان يحبها في بادئ الأمر هكذا اِستوضح الشاب من جده إلا أنه مع تدهور وضعهما المادي وتحسن وضع أخيه اِزدادت نوبات غضبه حتى جن وقرر المضي إلى "ألمانيا" وفي غربته قاسى ما قاساه كل مغتربٍ من مذلةٍ لم يعهدها بعد ما كان به من نعيمٍ زال لعدم حكمته في تدبر أموره فعاد مذلولاً مقهوراً شرّ قهرٍ وهكذا ولسوء طباعه كان يشفي غليله بضرب زوجته وبالشرب حتى الثمالة!.

كان الأخوان متصلين دائماً بيد أنهما على غير وفاقٍ فكان الأخ الفقير ينظر إلى ثروة أخيه بعين الحقد والحسد وكلما جاءه الأخير ناصحاً بالاِقلاع عن ضرب زوجته والاِمتناع عن إدمان الكحولى والاِلتفات إلى عملٍ بسيطٍ يبدأ به ما دمره بانياً ثروته من جديدٍ كان يلقى منه شتى أنواع الشتائم! كان يحطم في بعض نوبات غضبه فنجان القهوة المقدم له أو يتقدم نحو خزينة أخيه ليضربها بيده مشيراً إلى أن الأخ عليه مساعدة أخيه!! ... وهكذا اِستجاب الجد لطلباته المتكررة عدة مراتٍ حيث أقرضه بعض المال على أنه اِعتاد الأمر فصار يأتيه كل آخر شهرٍ مستلفاً منه مبلغاً جديداً دون أي ذكرٍ لاِرجاع الدين! إلى أن جاء ذلك اليوم الذي رفض فيه الجد اِسلافه فكانت ردة فعله مفاجئةً عنيفة عندما ضرب زوجة أخيه بلا خجلٍ أو حياء فجن الجد لمّا رآه فرد ضربه لزوجته بضربٍ أشدّ وأعنف ... تشاجر الأخوان بشدةٍ! بالأيدي والألفاظ النابية حتى تجاوز الأخ كل الحدود ليحمل "نورا" الصغيرة مهدداً بقتلها!! حينها طرده الجد من منزله تحت تهديد المسدس كما لو أنه أي شيءٍ إلا أخوه! وما عاد يسلفه أي نقودٍ ولا يستقبله في منزله ما حيّ! ... كان الجد يشير في حديثه بعد ذكره للحادثة بأنه يخاف أخاه بشدةٍ .. كان كلما ذكره أعقب حديثه بمشاعر الرهبة والخوف حتى أنه بدل أقفال المنزل احتراساً من أي سرقة!!.

بعد أن خرج الشاب من صدمة ما حصل في الماضي أخذ يعيد قراءة الرسالة المحفوظة كورقةٍ دخيلةٍ على صفحات الكتاب ثم تمعن بالمقطع السابق لها .. إن منزل "أسمهان" في منتصف المدينة الشرقية، ذو نافذةٍ حمراء جارتاها حمامتان!! ... صاحبته تتسم بالذكاء، جميلةٌ بشعرها الأشقر الطويل!. حمل الرسالة في جيبه عازماً على المضي قدماً في البحث عنها! هو يعرف الآن بأنها تقبع في نصف المدينة .. فلا داعي للبحث فيها كلها من بابها لمحرابها!.

وصل إلى نصف المدينة الشرقي بعد نصف ساعةٍ من قيادة دراجته الهوائية التي اِبتاعها وأخذ يخبئها يوماً بعد يومٍ كي لا تراها والدته فترميها في حاوية القمامة! وأمام هذه الكثافة السكانية الضخمة والمباني التي تتبين للناظر كأنها بلا نهايةٍ وقف حائراً باحثاً عن نافذةٍ حمراء تنام فوقها حمامتان! من أين له أن يجدها؟! أتراها أمه قابلتها؟! وهل كان من السهل أن يستفسر منها! وكيف تقبل منه اِستفساراً يمت بالماضي بكل الصلات ويكشف كل الخفايا التي عملت طيلة حياتها على اِخفائها؟!.

اِبتاع خريطةً من بقالٍ في ذاك الحي ثم أخذ بتقسيم المناطق تقسيماً دقيقاً بعد أن قرر البحث في كل زقاقٍ عن تلك النافذة الحمراء مستفسراً كل بقالٍ يصادفه عن اِمرأةٍ تدعى "أسمهان"! .. "مريم" التي كانت تعرف بجميع مخططاته كانت مؤيدةً لاِندفاعه شادةً على يديه بالاِنغماس في ماضيه دون أن تعرف أو تتلصص على تفصيلٍ واحد! كانا يلتقيان بضعَ دقائقَ بعد دوامهما ثم يباشر بمسح أربعة شوارعٍ إن كان الجو ماطراً وثمانية إن كانت الشمس تمسح بيديها على وجه الأرض البائسة! ذلك أن الخال كان يلتقي به عدة مراتٍ فيطمئنه الشاب عن بحثه المستمر الدؤوب عن الغائبة "أسمهان" ليجد في اِجتهاد الأخير راحةً من عناء اِيجاد اِمرأةٍ تقطن في نصف مدينةٍ مستحيلة الحصر!. كان ضرباً من المستحيل أن يبحث مثله في كل زقاقٍ سائلاً كل بقال عنها! كان يمكن أن يرفض الماضي كله إن كان مجبراً على ذلك!! على أن الشاب اِعتمد على ذاته لا لأجل خاله بل لأجله هو نفسه، كان يريد أن يعرف من هي "أسمهان" ... كان يبحث عن ماضٍ قد يغير أمه لإنسانةٍ طبيعيةٍ كسائر الأمهات بدل مما يعانيه من تسلطٍ جائرٍ كأقفاص الحديد تحيط بيديه وقلبه! أيمكن لـ"أسمهان" أن تكون منجدته؟! سأل أحد البقالين عنها فهز برأسه نافياً ثم قال وهو يقهقه "أسمهان التي أعرفها توفيت لكن صوتها لن يموت!!".

"نورا" التي كانت على حافة فقدان السيطرة على اِبنها كانت قد بدأت تعاني من آلام الرقبة بشدةٍ فأخذت تعتمد على الخياطة باليد ثم طلبت اِمرأةً تتقن اِستخدام آلة الحياكة ووزعت الاِعلان في الحي فجاءتها عدة فتياتٍ ماهراتٍ على أن أمراً غريباً غيّر قراراتها في اِختيار الفتاة فبعد خمسة أيامٍ من الاِعلان دق باب المنزل حوالي السابعة مساءً وما أن فتحته "نورا" حتى رأت مقابلها جارتها التي لم تكلمها من سنينٍ مضت! شعرت بأن ما يحدث غريبٌ فهي تذكر آخر شجارٍ شنَّ بينهما عندما اِتهمتها "هالة" بدفع طفلها للاِنتحار ثم طردتها الأم المثكولة من حياتها مستمرتين على هذا المنوال أكثر من ثلاث سنواتٍ، فماذا حدث الليلة حتى قصدت بابها!.

- تفضلي ... تفضلي!

أزاحت جسدها الممتلئ لمداومة الجلوس أمام آلة الحياكة وتناول الحلوى بغية التسلي مفسحةً المجال لجارتها الغريبة بالدخول! كانت غريبةً فعلاً وقد اِشتعل في رأسها الشيب ثم تقسم وجهها ببعضة تجاعيدَ تركت أثرها على جبينها لتتمدد تحت عينيها هالاتٌ سوداء تبينّ بصعوبةٍ ليفضحنّ اِرهاقها! .. كانت "نورا" من النساء اللواتي يحببن التزين فكان تزينها على أكمله فلا يتبين من الكبر إلا القليل تحت العناية ومستحضرات التجميل! على أنها اِتخذت قراراً شجعها عليه اِبنها بأن تدع الشيب ينبثق من بصلة شعرها العاطلة عن العمل ليكسو رأسها جميعه وقد قصته كالرجال فبدت على رغم ذلك أنيقةً لولا تعرجات جسدها التي اِشتدت عند البطن!

دخلتا إلى غرفة الجلوس دون أن ينبثا بكلمةٍ ... ربما شعرت الأخيرة حينها بالخجل من تصرفها الغابر على الرغم من أنها رأت في ما قالته الجارة ظلماً شديداً ذلك أنها قست عليها بالمقابل وها هي تعود لتصلح ما حصل فكيف لم تخطُ هي هذه الخطوة! كان وجه "هالة" غائباً خلف الهموم فلم تكن جارتها تعلم شيئاً عما حدث لزوجها! زوجها العفيف عن أية رشوةٍ.. كان مؤلماً أن يحدث لمثله ما حدث له قبل أن يقدم اِستقالته ناجياً من أنياب الذئاب! لقد طُلب منه ذات صباحٍ مشؤومٍ تقديم طلب موادٍ تكفي لمشروعين بدلاً من المشروع الصغير الذي كان يديره فرفض مستفسراً عن الطالب فأُجيب بأنه شخصٌ لا يُذكر اِسمه! ثم عندما اِستنكر وضعوا يدهم على فمه وقالوا بنبرة تهديدٍ بأنه مسؤولٌ مرموقٌ لا يرفض له طلب! لكنه رفض مستهزئاً .. قال "أنا لا أخاف إلا الله!" وأكمل المشروع الذي وكل إليه من قبل الدولة بالمواد المطلوبة لا زادت حفنةً ولا نقصت وعندما عاد إلى روتين عمله المكتبيّ ببضعة أيامٍ قبيل البدء بالمشروع الذي تلاه أعيد طلب المواد لكن بشكلٍ أعنف حيث سحب الرجل من يده أثناء مغادرته المبنى وزج في سيارةٍ مجهولةٍ!! وعندما أُخرج رُميَّ أرضاً وهو معصوب العينين مُشبعاً حتى بصق الدماء مغمياً عليه لوهلةٍ!! .. وقبيل أن يهرب الفاعلون قالوا له ما لن يستطيع نسيانه "اليوم اِكتفينا بركلك ككلبٍ مسعورٍ لكن في المرة القادمة سنقدم قلبك النتن هديةً لزوجتك الجميلة وسنهدي اِبنتك ما لن تنساه يوماً!! ... المواد يا اِبن الكلب مضاعفة عن الطلب السابق وإلا ستندم أنت وكل فردٍ من أسرتك".

بعد ساعتين اِستطاع أن يصل إلى حافة الطريق حيث نقله أحد المارة إلى المشفى ليعالج أسبوعاً كاملاً.. كان يفكر في هذه المدة عن حل! كيف يخون أمانة الناس ليسرق من بيوتهم الأمان واضعاً إياه في جيوب مسؤولٍ اِمتلأت بالمال! ... أليس جرماً! كيف يمكن لرجلٍ عفيفٍ لم يقبل سرقة

قطعة نقودٍ واحدةٍ أن يطلب أربعة أضعاف الكمية المطلوبة ليسرقها رجلٌ غنيٌّ ويفقدها فقيرٌ مُعَدم!!. تأنيب ضميره المستمر دفعه للجنون كيف يسرق وهو شريفٌ قضى سنين الخدمة رافضاً لأبسط زلة خاتماً مطافه بالسرقة والرشوة والحرام! ثم تساءل ألا يمكن أن يطلبوا أمراً كهذا من موظف سواه! وكيف لهم ذلك وهو المهندس المسؤول عن أغلب المشاريع الموكلة للمؤسسة!. تنهد بألمٍ ثم اِستغرق يومين في حساباته قبل أن يتوجه إلى المؤسسة مقدماً ورقة اِستقالته تاركاً لمن بعده الحمل! .. كان رجلاً طاعناً في السن ولولا لطف الله لقتل ذاك الصباح ثم لِمَ يعاني هذا الشعور بالذنب ولِمَ يحمل في قبره أثقالاً على ظهره تغرقه نحو جهنم أكثر فأكثر؟!!. حمل اِستقالته تماماً قبل خمسة أشهرٍ من تقاعده وعندما تم توقيعها بعد عناءٍ واِستفسارٍ غليظين من المدير خرج ملوحاً بنسخته فرحاً بها!!

خرج السيد "ماهر" من شرخٍ عظيمٍ كان سيرمي نفسه به ليرى الحياة أبسط فقد كان من الصعوبة بما كان أن تستطيع زوجته الحبيبة اِنتشاله من حزنه لولا أنها تفاجأت ذلك اليوم وهي تراه مترنماً حاملاً بين يديه ورقة اِستقالته.. كانت تعرف عن أمر المسؤول والضرب الذي تلقاه لكنها مطللقاً لم تتوقع أن يستقيل! قالت بأنه لابدّ أن يجد منفذاً كما فعل دوماً لكن أن يستقيل!! وقبل تقاعده بخمسة أشهر!! ... كان الأمر مضحكاً خاصةً وأنها وجدته راضياً فرحاً بما فعل!.

الهموم التي غطت وجه "هالة" كانت رعباً دائماً من أن ينفذ ذاك المسؤول تهديداته لكنه على ما بدا لها بشكلٍ غير موقنٍ أنه لم يعر اِنتباهاً لرجلٍ كزوجها ذلك أنه يريد التقدم في مشاريعه التخريبية لا أن يعاقب من يرفض المساعدة! .. فسرت بأن من عُين مكان زوجها كان ذا قلبٍ رحبٍ بالنصب وخذلان البشر فاِبتعد الخطر عنهم مع كل يومٍ أكثر.

لم تسأل "نورا" عن اِرهاق الجارة الذي فسرته بالكبر والهم تماماً كما فعلت الأخيرة التي لم تستفسر عن الشيب الذي ضرب رأس المتباهية بصباها!! ... تفادتا الكبر الذي لاح في وجهيهما فرحبت "نورا" بالضيفة بصدرٍ رحبٍ واِبتسامةٍ عريضةٍ متناسيةً الماضي بمآسيه!

قالت الجارة بعد حينٍ..

- لقد قرأت اِعلانك، ولي رغبةٌ في العمل معك!.

كان واضحاً التفاجؤ على ملامح "نورا" إذ إن "هالة" كانت آخر اِمرأةٍ في الكون تتوقع أن تقاسمها عملها!! كيف وهي عدوتها المختفية خلف قلاعها وستائرها التي لا تكشف مطلقاً ما يحدث خلفها! كيف وطفلها يتسلل بين الفترة والأخرى لعمارتها دون أن تعرف له مقصداً؟! أيمكن أن تدخل لعملها صديقة الماضي وعدوة الحاضر!! هي تذكر جيداً بأنها ماهرةٌ في الحياكة على أنها ليست بمهارتها! ليستا بنفس السوية فكيف تقبل أن تقاسمها عملها ورزقها!! ... كانت "نورا" محبةً للعمل مع جارتها بيد أن قلبها رفض لثأرٍ قديمٍ كاد يندثر لولا ظهورها اليوم!.

تكهرب الجو قليلاً تحت وطأة الهدوء فبدت الصديقتان متلبكتين بماضيهما الغريب ذلك أن كلتيهما رمتا على الأخرى الذنب فكانتا في نظريهما بريئتين من القطيعة الطويلة تلك! ... اِستمر الصمت حتى بدا ثقيلاً على كاهلهما فمزقته "نورا" بتشجيعٍ بسيطٍ رأته كافياً حين قالت "لدي أسماء كثيرة وعليّ الاِختيار، وطالما أن خبرتك واسعةٌ فعلى الأغلب ستكونين أنت!!" لم تفرح "هالة" بما قالته الجارة فقد توقعت ترحيباً أكبر منها لا عجرفةً وحقداً لا يزول!. وفي صباح اليوم التالي رن هاتف منزل "هالة" لتخبرها الجارة عن عملها الجديد! وللحق فإن "نورا" لم تراجع أي اِسمٍ آخرَ ذلك أن اِسم "هالة" كان طاغياً على جميع الأخريات فرأت فيها معاونةً دؤوبةً ومحبةً للعمل كما صديقةً قديمةً محبةً لابدّ غفران زلاتها!

وبعد عناءٍ وألمٍ شديدين وجدت "نورا" ضالتها ومن تتكئ عليه أثناء ألم الرقبة الكاوي وضعف البصر الحاد فبدأتا تتقاسمان العمل ثم عندما اِزداد الاِتقان والاِنتاج اِزداد معهما الربح وكان من طباع "نورا" عدم حب مشاركة الغرباء في شيءٍ ذلك أنها وجدت في نصائح شريكتها مربحاً لا يستهان به وفي تصميماتها الشخصية التي كانت تضيفها على بضاعة الدكان في زاويةٍ مخصصةٍ اِقبالاً شرهاً من الزبائن لذا طالبتها بالمزيد مقابلاً للمزيد من الربح وهكذا ومنذ بداية الشراكة أصبح وضع الدكان بِازدهارٍ مستمرٍ حتى تناقشتا بعد بضعة أشهرٍ عن اِمكانية شراء دكانٍ أكبر حجماً ليتسع لعدة آلاتٍ مع عاملاتٍ تحكن ما تصممانه هما؛ كانت الفكرة رائعةً كما أنها تخفي خلف بساطتها مستقبلاً لابدّ باهراً! لكن "نورا" عارضت بعض الشيء ذلك خوفاً على اِبنها فكيف تتركه طيلة اليوم وقد تعلمت من حادثتيّ اِنتحاره الكثير!. فخلال تلك الأشهر الطويلة الماضية اِعتادت على غيابه من المنزل وكان كل ما يهمها نشاطه الجامعيّ وأحلامها العظيمة بمحامٍ يشتهر اِسمه في أقاصي الأرض! كانت كلما رأته منكباً على كتبه غرد قلبها كعصفورٍ يرى في طيران اِبنه الحرية! وبدأت في التغاضي عن الرسم لشعورها بعدم تأثيره على دراسته مهما طال فهي هوايةٌ لن

تزيد ولن تنقص مادام مهتماً بمستقبله مجتهداً بمواده اللاتي كلما مرّ اِمتحانٌ أتاها مبشراً بنجاحٍ مبهر!. بدأ الرضى يُكسب لحياتهما السعادة فكانت بشوشةً طيلة الوقت رغم مضايقاتها له عند معاملته كطفلٍ صغيرٍ فمرةً كانت قد أوصته بجلب كميةٍ من الأقمشة من دكانٍ في أخر المدينة وعندما تعارض سعر المبيع مع السعر المتفق اِتصل بها ليخبرها فجاءه الجواب صادماً "سآتي بالسيارة ولن أتأخر.. لا تفعل شيئاً؛ سأفكر أنا!!" ثم مرةً قالت بعد أن اِبتاع حاجيات المنزل مخطئاً فيما أوصته به "لماذا لا تكبر!! ألا يمكن أن أعتمد عليك بشيء!! ... كالأطفال كنت وستبقى دوماً ... ليعني الله عليك، ليعني الله عليك!!" كانت تؤنبه ثم تدلله ثم تسحب منه المسؤولية وتعيدها متى شاءت! كان محتاراً في وضعها ثم محتاراً في أمره أهو المخطئ أم هي؟! أهو الغريب أم هي! .. أحقاً هو طفل؟! وماذا عن "مريم" التي كانت تعيد على مسمعه دوماً بأنه رجل أحلامها؟! ... فلم تقل مرةً بأنه فارس بل كانت تكرر كلمة رجلٍ بفرحةٍ فيستلذ بقولها نافشاً ريشه متباهياً كرجلٍ حقاً! لكن أمريم تحاول حثه على أن يكون رجلاً وهو طفلٌ لم يكبر بعد! أأمه الصادقة؟! وحبيبته الكاذبة ... إذاً لِمَ خاله بقدر ما يحاول اِخفاء نظراته يشعر بِاِشمئزازه الذي يكسر روحه! أهو فعلاً طفلٌ لن يصير يوماً بمستوى الرجولة والقوة التي ترفعه في عينيّ من يحب؟!. كان يحاول بقدر ما يستطيع أن يغير من ضعفه ليكون في أجمل صورةٍ وأكثر كماليةٍ ممكنة أمام "مريم" التي لم يلحظ عليها إلا الحب والهيام! كان يتعجب الأمر فمن ناحيةٍ أمه وخاله يكرهان ضعفه وطباعه ومن ناحيةٍ أخرى عشق "مريم" وهناؤه معها دون أن يشعر بضعفٍ أو ضيقٍ أو حتى اِنزعاج! .. كان يعيش بين هؤلاء الثلاثة منفصم الشخصية فمرةً مقموعاً ومرةً ملكاً ومرةً ممسوحاً أمام خاله! ذلك أن اِنفصام شخصيته وضياعه بينهم لم يبعده يوماً عن بحثه المستمر عن "أسمهان" ... المرأة المغيبة خلف خيالاته الكثيرة لها بأن تكون ذات عينٍ مازالت متورمةً وشعرٍ ملفوفٍ أنيقٍ وجسد متناسقٍ لا عيب فيه! ... "أسمهان" لابدّ أن يكون صوتها رائعاً كـ"أسمهان" ... كان يتخيل أن تغني له حين يلقاها، فربما اِنتظرته طويلاً! وهل تراها والدته اِجتمعت بها؟! ... كان لغزاً عقيماً أن يكتشف من أين لأمه أن تعرف منزل والديها! وكيف بين ليلةٍ وضحاها ذهبت قاصدةً منزلهما المحترق!.

"أسمهان" لغزه الأعظم! كان يمشط الطرقات يوماً بعد يومٍ بحثاً عنها، وكانت نصف المدينة كبيرةً مكتظةً بالطرقات الفرعية والمباني الغزيرة الشقق لذا كان مع كل طريقٍ جديدٍ يقصد بقال الحي ليسأله عن نافذةٍ حمراء واِمرأةٍ جميلةٍ تدعى "أسمهان"! ... كانت كل الإجابات متشابهةً جداً

"أسمهان!! .. لم نسمع بإمرأةٍ بمثل هذا الإسم" ... لكنه لم يمل مستمراً بالبحث في كل عمارةٍ عن نافذةٍ حمراء ثم سؤال المارة حتى أنه كان يقضي نصف يومه كاملاً على طريقٍ واحدٍ لشدة الإزدحام وتكاثف السكان! ذلك أنه إختصر الأمر فحث خاله على عبور الخطوة بسرعةٍ أكبر وظلّ على هذا الحث الخفيف خوفاً من غضب يلم به فيعصف بخوفه ويقضي على ثباته! وبعد شهرين من المحاولات الخوّافة والتقدمات التي تلتها التراجعات فوراً تحركت مشاعر الخال تجاه ماضيه! كان يحدثه بكل عواطف الرسام المتهور المجنون عن ماضٍ لابدّ يخفي نصفه الآخر فيه! ماضيه .. طفولته .. حنان والدته! كان يحثه لأن "نورا" أكبر منه سناً ولابدّ تذكر! تذكر وجه أمها وأبيها .. تذكره! تذكر الحريق وربما تذكر من أنقذهما! .. كان يشعل الفتيل في حطامٍ رطبٍ لا يمكن إشعاله! بيد أنه تعلم بمهارة جده كيف يلتف حول الفريسة ليدفعها حيث يريد وكانت تلك أولى تجاربه! .. كان خاله كسور الصين العظيم رهيباً بإرتفاعه وخشونته وغضبه السريع وكانت زوجته هادئةً لا يسمع لها صوتٌ ولا تظهر إلا قليلاً مبتسمةً بوجهها الهادئ لتختفي ثانيةً خلف الباب الذي تغلقه بهدوءٍ في كل مرة. هذا السور المرتفع بمزاجاته المتقلبة وضيق صبره كان صعب الوصول على أن الشاب كان يملك من الصبر ما إستطاع به تحمل والدته عمراً قبل أن ينفذ مرتين فيحاول الإنتحار! لذا كان ممتلكاً لصبره أمام محاولاتٍ وأشواطٍ عديدةٍ قبل أن يمل ويفقد الصبر مجدداً! فكان يحتوي غضب خاله مرةً ويهرب من وجهه مرةً أخرى لكن الإلحاح على نفس القضية لم يتوقف ولم يهدأ يوماً فكان يحث دوماً على الناحية العاطفية كأن يصف له تشابهه مع "نورا" أو أن يبرر له عدم بحثها عنه بجهلها لوجوده لسببٍ لا يمكن أن يختلقه هو دون أن يستند على أقوالها! ... كان ناجحاً في لعبته تلك وبعد شهرين وخمسة أيامٍ من المحاولة نطقها الخال بنترةٍ وعصبيةٍ معتادتين "فلنذهب يا لحاح!" وكان هذا اليوم يومٌ مميزٌ بالنسبة له غالٍ على قلبه فلا يذكره إلا وتنبسط أساريره وتفتر عن شفتيه إبتسامةٌ عذبةٌ عريضة، يومها ذهبا قاصدين المنزل في الساعة الخامسة بعد الظهر.. هو يعرف موعد إنتهاء عمل والدته ويعرف بأن الغداء ينتهي في الرابعة وفي تمام الخامسة ستكون أمه قد وضبت المنزل لتستلقي قليلاً أمام التلفاز... كان الموعد الأنسب ورغم ذلك كان متلبكاً على فرحه فكيف يعرّف أخاً على أخته بعد أن جاوزا الخمسين دون لقاء!! على أن الخال كان لا مبالياً وكان قاصداً سؤالها عن عدم بحثها عنه بنفس مستوى رغبته برؤيتها وضمها! ... وعند بداية الحي تلفت "وائل" كأنه يرى في بساطته أمراً عجيباً فإستفسر الشاب عن الأمر ليجيبه الخال وهو يكاد يلمح إلى أنه كذب عليه أو زاد على الحقيقة رشة ملحٍ!

- قلت لي بأن أحوالكم المادية جيدة فلماذا تسكنون هذا الحي البسيط؟!!
- أمي لا تريد الإنتقال ولا حتى تفكر بتوسيع دكانها .. هي متعلقةٌ بهذا المنزل أكثر من تعلقها بي!

عند هذا القول كانا أمام المنزل تماماً، ولأن الشاب كان في المقدمة تركه الرجل ليفتح الباب على أنه حين شعر بخجله وتلبكه وفهم بأنه لا يملك مفتاحاً كان إنزعاجه منه تماماً كإنزعاجه من هذه المرأة التي أقنعه بأنها أخته!! ... كيف لأخته هذا الشاب الغبي! كيف يمكن أن يتزوج ويرفع إسم أسرتهم عالياً!!

دفعه من كتفه بقوةٍ فترنح الشاب يمنةً ثم ضرب الباب بقوةٍ مرتين! إنتظر ثوانٍ قبل أن يسمع خطواتً متجهةً نحو الباب فإنتابه شعورٌ غريبٌ! شعورٌ مخيفٌ وجميلٌ بذات الوقت! أيمكن أن تشبهه؟ وإن كانت أخته فماذا عليه أن يفعل وهو لم يضم طيلة حياته سوى زوجته! أن يضمها؟ ... هي أخته، هي من لحمه ودمه! ماضيه في عينيها الشبيهتين لعينيه، ولعبةٌ تقاسماها تختفي في صوتها القريب! .. هي أخته. وإشتعل قلبه في ثوانٍ لنارٍ ملتهبةٍ كالتي إبتلعت والديهما فتسارعت نبضات قلبه حتى كاد ينفجر وما أن أتاه صوتها متسائلاً عن الطارق؟ إستند بيده إلى الجدار كي لا يقع! حينها تقدم الشاب نحوه مسنداً إياها مجيباً أمه بعد أن زال عنه الإرتباك "أنا أنا إفتحي!" كانت "نورا" لا تعرف مطلقاً من خلف الباب ... تفتحه ببراءةٍ لطفلها القادم متأخراً عن موعد عودته بساعةٍ، كانت تنوي أن تؤنبه! ثم أن تطعمه من قالب الحلوى التي صنعتها خصيصاً له ثم كانت تريد أن تريه ما إشترته له اليوم ذلك أنها تعلم بأنه لا يحب أغلب ما تبتاعه فتضطر لتركهم في صناديقٍ كرتونيةٍ في زوايا الغرف التي ضاقت بكثرة الأشياء والصناديق!. كانت تنوي الكثير حتى فتحت الباب ورأت رجلاً مستنداً بيده إلى الجدار وقد إصفر وجهه وتسارعت أنفاسه وبقربه إبنها يسند يده الثانية!

"وائل" البطل الذي رآه "مهند" طيلة أشهرٍ رجلاً لا يمكن أن تهتز له شعرةٌ كان اليوم طفلاً عاد لعمر السنة فكاد يقع على باب منزله غائباً عن الوعي!

- من هذا؟! وما الذي يجري؟!!

رن صوت الأخت في أذنيّ أخيها لأول مرةٍ في حياته ... هو متأكدٌ أنها ليست الأولى! هي ربما المرة الألف لكنها المرة الأولى التي يستسيغ صوتها وهو رجلٌ عاقلٌ وواعٍ. رفع جسده بصعوبةٍ لينظر إليها بتدرج الخجول رافعاً عينيه شيئاً فشيئاً حتى إستقرتا عند عينيها الشبيهتين لعينيه، أحس بقلبه

يرتفع ليلامس أحداقه! ثم شعر بأن العدوى تنتقل لأخته! ... وعندما لمح النظرة التي لمعت تحت دمعةٍ ربما تخيلها قال لها بصوتٍ عالٍ "أختي!!" ... سرت القشعريرة في جسد "نورا" فأعادت كالبلهاء قوله "أختي!!" ثم أخذت تجول في وجهه وجسده بعينيها يميناً ويساراً بسرعةٍ كبيرةٍ كأنها تعيد تركيب أخيها الصغير لرجلٍ ضخمٍ بمنكبين عريضين ... أعادت قوله أختي!! فهز برأسه وفتح يديه ليضمها حيث اِستغرقت دقائقَ قبل أن تلبي نداءه! ظل خلالهم فاتحاً ذراعيه منتظراً أن تعي الأمر ... هو يعرف بأنها أخته من شهورٍ كثيرةٍ لكن ماذا عنها؟ هي التي لم تعرف بأن أخاها على قيد الحياة سوى الآن؟! في هذه اللحظة بالضبط يعود ذو السنة إليها فاتحاً ذراعيه ليلتحما جسدين تقاسما ذات الرحم ورضعا من ذات الأم.

خلال هذه الدقائق الطويلة كانت "نورا" تعيد لذكريات الماضي الحياة فتذكر جيداً حين نطق الطفل اِسمها بصعوبةٍ وثقلٍ واضحين .. قال "نونا"! ثم بعد شهرين أصلحها إلى "نورا" ... كانا طفلين في منزلٍ ضخمٍ جميلٍ كما هيأت لها أوهامها في الملجأ لسنين طوالٍ تزينه أمٌ بهية الطلة أنيقة الملبس ... هي تذكرها جيداً كأنها أمامها اليوم! تذكر كيف كانت ترضعه بينما تراقبه بعينيها وهو ينام أثناء الرضاعة فتضعه على سريره ليغيب ساعتين قبل أن توقظه هي بشتى الوسائل كي تلعب به! ثم عندما بدأ يمشي كان الوضع مختلفاً فقد كانا يتفقان على اللعب ولم تكن تدرك حتى كبرت لِمَ كانت أمهما تغضب منها لتلك الدرجة!. صوتها كان يدوي في المنزل فيرتعد قلبهما إثره! ثم أدركت حين كبرت بأنهما كانا شيطانين لا طفلين! كانا يجران السلم الصغير ذي الدرجات الثلاث ثم يضعانه أمام أريكة غرفة الجلوس وتقفز "نورا" من السلم إلى الأريكة معيدةً الكرة عشرات المرات بينما الصغير الذي لم يقوَ بعد على فعل ذلك ينظر بشغفٍ ليكبر ويجربها! ثم كانا يقصدان الحديقة الصغيرة ليقطفا الزهور فتسرق "نورا" من خزانة والدتها شالاً أحمراً لتضعه على رأسها وكتفيها دون أن تهتم لاِتساخه بالتراب أو اِنتساله بجذع شجرة!! بينما يمثل الصغير دور الذئب بعربته الصغيرة التي تقيده من كل جانبٍ كي لا يقع فكان يدفعها بقدميه دفعةً فتركض به بعجلاتها الصغار لتكمل "نورا" دفعه حتى تكاد العجلات تُخلع من مكانها! .. أجل هي تذكر جيداً كم كانا مشاغبين لا يهدأان إلا مع غياب أرواحهما في عالم الأحلام!. في هذه اللحظات وبينما اِستغرقت في حلمها الطويل رأت في ملامحه وجه أبيها!! أجل ذاك الرجل الأبيض الشعر ذو اللحية المهذبة بهندامه المرتب وصوته الوقور ومكتبته الغنية يكتب في كتبه بحيث لا ينتهي! ... أمها كانت على الدوام سعيدةً بما يكتبه زوجها فقد كانت تقدم له فنجان قهوةٍ على ما تذكره من

سوادها قرب حلوى كانت تسرق أكثر من نصفها كل يوم! وكان الأب سعيداً بها وهي تحت منضدته تأكل الحلوى بينما يتظاهر هو بأكلها أمام الأم المحافظة على وجبات اِبنتها المنظمة!. كانوا أرستقراطيين فكانت تذكر لمحاتٍ من حفلاتٍ كثيرة وأكثر ما علق في ذاكرتها حفلٌ كان "وائل" محط أنظاره في سريرٍ وفيرٍ تطير حوله البالونات التي تحايلت طويلاً حتى اِستطاعت اِقناع أحد الزوار بإعطائها اِحداهنّ!! .. هي لا تذكر الكثير فقد كان عمرها لا يتجاوز ثلاث السنوات هكذا قيل لها في الملجأ حين كبرت، هي لا تذكر من المنزل وأهله سوى ما يتعلق بالبالون أو الحلوى أو الشجار! كان معلقاً بشدةٍ في ذاكرتها شجارٌ عنيفٌ حدث! تذكر بأنها كانت مغشياً عليها من البكاء بينما أحدهم رفع سكيناً حادةً في وجه أبيها وهو يصرخ بكلماتٍ لم تفهمها ثم تذكر الكثير من الدماء بعد ضربة السكين الخطيرة خاصرته!! كان يوماً لا يمكن أن تنساه بيد أنها لم تستطع يوماً تذكر الوجوه أو الكلام .. فكل ما تذكره دماءٌ وبكاء أمها التي تولول!! ثم تذكر جيداً يوم الحريق! حريقٌ كبيرٌ أكل المنزل بمن فيه، كانت أمها تحملها لتخبئها وأخيها في غرفتهما ثم أقفلت الباب عليهما فلم تستطع الصغيرة فتحه!! لقد كان عالقاً أو مسدوداً!! ثم تذكر صراخاً يمزق طلوع الشمس حتى فُتح الباب وكان أحدٌ بوشاحٍ ولباسٍ أسودٍ حملها حيث أغمي عليها نهائياً!! أتراه أخوها حُمل أيضاً؟! ... كانت تنظر إلى عينيه ووجهه فترى والدها يتظاهر بأكل الحلوى ضاحكاً بينما يمتلئ وجهها بالشوكولا! إنه لابدّ هو... أين كان وكيف أتى! نظرت بتفاجؤ إلى اِبنها نظرةً ملأى بالاِعجاب والصدمة! ثم بكت راكضةً إلى حضن أخيها الذي لم تترنح يداه المفتوحتان لحظةً وهو ينتظرها لتضمه .. هي أخته لا شك! الدم ذاته والعينان ببريقهما لا يكذبان!. تعانقا بحرارةٍ كادت تشعل الحريق مرةً أخرى! وبكيا كطفلين جائعين ... هما أطفال الملاجئ أكثر من عشرين عاماً يظنان بأنهما وحيدان في هذا العالم لا سند ولا ظهر يحميهما في أية وعكةٍ أو أي يأس! تزوجا وأنجبا ولا أحد بكى فرحاً لفرحهما! وحيدان كجذع شجرةٍ يموت بلا ربيعٍ يلفه بزهوره ولا شتاءٍ يضمه بثلوجه!! ها هما الأخوان يلتقيان بعد حريقٍ قيل بأنه أكل الأسرة من جذورها لتنبثق بعد عمرٍ مديدٍ بذورٌ تعيد للأسرة الحياة وتحي من الموت أرواحاً قُدر لها رغم الحقد أن تعيش...

تعانقا باكيين والباب مفتوحٌ على مصراعيه والشاب مستندٌ على الجدار قربهما يبكي! أطفالٌ عادوا لا يستطعون فكَ لحام عناقٍ اِفتقدوه أمداً ما كاد يُنهي أساه ليحييه من جديد ... وعلى عتبة هذا المنزل قتلا الأسى بنبضين اِنسجما بنفس الوتيرة ونفس اللحظة فرفع الرجل رأسه ماسحاً على شعر أخته ليقبل جبينها مغمضاً عينيه كأنه يقبل أمه الغائبة. سحب الشاب نفسه

لشدة التأثر إلى غرفته فتنبهت الأخت لذلك وطلبت من أخيها الدخول... ها هما يغلقان الباب على أسرتهما الصغيرة من جديد دون فواصل تحرمهما أبداً..!.

-10-

"مهند" الذي ترك الأخوين وحدهما لصق أذنه بباب غرفته علّ حديثهما يترامى إليه ... وقضى الليل حتى مطلع الشمس ملتقطاً ما دار بينهما من حديثٍ وبكاء!. كان صوت الأخت غالباً على كل الأحاديث فقصت عليه كل ما ذكرته من الماضي ثم أخبرته عن حياتها في الملجأ وزواجها ووفاة زوجها الأليم ثم عن طفلها ومحاولاته للإِنتحار!! ثم إِلتزامه بالدراسة وعودة حياتهما طبيعيةً كالسابق، حدثته عن عملها في الحياكة وعن الدكان وتحسن أوضاعها بشدةٍ بعد مشاركة العمل مع جارتها فكان الرجل مهتماً شديد الإِهتمام بحديث أخته حيث كان ضمنياً بين الحين والآخر يذّكر نفسه بأنها من لحمه ودمه! إذ كان ينسى! أو لا يعي الأمر فكيف تخلق له من اللاشيء أختٌ وهو الذي ظن طيلة حياته بأنه وحيدٌ لأسرةٍ رمته على عتبة ملجأ! ثم دار الحديث إليه فقص عليها حياته! قال وصوته يرق للبكاء أحياناً ثم يستعيد خشونته أحياناً أخرى..

- أكثر ما أذكره في طفولتي هي إصابة الآذن في الملجأ! هو ذاته الذي أكد لي بأن أمنا التي تركت إِسمي على صدري .. كانت إِصابته شديدةً إذ إِخترق زجاجٌ متطايرٌ خده فشاهدته ينزف فاقداً الوعي حيث إِستمريت بالصراخ حتى أتى المدير ليحملوه بعد بضع دقائقَ في سيارة الإِسعاف، وعندما طلبت البقاء معه تركوني ومضيت في السيارة حتى المشفى الذي توضحت بساطته وإِنخفاض أجوره من بنائه العتيق!. وهناك عولج بعد آلامٍ شديدةٍ وعمليةٍ شوهت نصف وجهه ليعود ممتناً لإِنقاذي حياته... كانت حياتي في الملجأ ليس بسوء حظك! فقد كان المدير طيباً والآذن محامياً على مدار السنين يدافع عني في كل أمرٍ أو حادثٍ وقد قضيت الطفولة بين عصبةٍ من الأصدقاء الذين كانوا خيرة الصحبة فلم يؤذيني أحدٌ إلا في حوادث قليلة! ثم في الثامنة عشرة خرجنا للعمل في مزارع الريف، في القطف والحصد أو في تقطيع الأخشاب .. لا أنكر بأنه كان عملاً شاقاً بيد أنه بنى القوة فيني والصبر فتعلمت من قسوته تحمل ما لا طاقة لي فيه من حرٍ وساعات عملٍ طويلةٍ جداً وتعالياً من أصحاب الأراضي... حملت من تلك الأعمال الكثير من المهارات ثم تعرفت على زوجتي التي كانت نادلةً في مقهى أرتاده كلما ضاق بي أنا وصُحبتي الملل والشقاء. كنا نقصده بغية شرب شيءٍ باردٍ ويوماً بعد يومٍ زادنا الإِعجاب قرباً، وأذكر كم كان الإِعتراف بهويتي أمراً محفوفاً بالمخاطر والرفض على

أنها رغم الحقيقة العارية من أية حيلةٍ لم تنفر مني ويوماً بعد يوم اِتخذت قراري الأسعد بالزواج منها! زاد حبي لها فجأةً حين رأيت في اِمرأةٍ غير النساء الأخريات حباً لرجلٍ لا أصل له! لرجلٍ إن دفن لم يقرأ على قبره أحدٌ آيةً أو يدعو له أحدٌ برحمة! وهكذا تزوجنا واِنتقلت من الملجأ إلى بيت الزوجية الذي اِستأجرته بعد أن وجدت عملاً لم أكن أفقه عنه شيئاً ... كحداد! ثم اِحترفته عند معلمٍ قاسٍ أذاقني الويل بسم لسانه وضيق أخلاقه ثم عندما اِستقليت بعملي وربحت منه ما ساعدني على شراء منزلٍ قررنا اِنجاب طفلٍ يؤنس وحدتنا ... ولكن الله يا أختي لم يرزقنا! ومازلنا على أملٍ بذلك ..!! هكذا مضت الأيام حتى أتاني اِبنك من حيث لا أدري وقال بأنك أختي! ثم أخذني إلى منزل والدينا

فتحت "نورا" عينيها لشدة الصدمة لكن الأخ أكمل قائلاً ..

- ثم عرجنا إلى اِمرأةٍ شديدة الكبر في ظهرها حدبةٌ لم أرَ مثلها مطلقاً! اِستقبلتنا بحرارةٍ وحدثتني كأنها تعرفني! ثم أعطتنا اِسماً قالت بأن علينا البحث عنه..
- وما الاِسم!! (جاء سؤالها كأنها تعرف الإجابة)
- أسمهان
- أسمهان!!
- وهل تعرفينها؟!!

لم يعطِ "مهند" لهذه الأمور بالاً عندما أصر على خاله في القدوم! ثم اِستشعر الخطر من الاِنزلاق الأول عندما عرفت أمه بالمنزل القديم! ثم بالعجوز وأخيراً بـ"أسمهان"! يا إلهي ما هذه الورطة التي وضع نفسه بها؟!! ... سلم أمره لله وأخذ يلقي باله لبقية الحديث باِهتمامٍ وخوفٍ متساويين..

- "أسمهان"!! ... أتعرف من "أسمهان" هذه؟!
- لا والله يا أختي!!

همت بالقول على أن اِصفراراً طغى على سحنة وجهها متملكاً قواها ساحباً إياها بجنونٍ وعنفٍ نحو غرفة اِبنها!! فتحت الباب بكامل قواها فاِندفع الشاب الذي لصق رأسه به إلى السرير حيث اِرتطم ظهره بحافته ودون أن تنتبه لآلامه صرخت في وجهه حتى شق صريخها الليل إلى منزل "هالة" التي كانت تغط في نومٍ عميقٍ فأقلق الصريخ نومها بينما أزعج "ماهر" بشدةٍ!

- ما بالها صديقتك كلما جن الليل جُنت!
- والله ليس لي علمٌ بحالها! ... أتأمل بأن يكون خيراً..

وأي خيرٍ تأملته "هالة" وقد فقدت "نورا" أعصابها حين أحست بتسربٍ يجري في منزلها دون علمها! إن طفلها الصغير عارض أوامرها وأخذ ينبش في ماضيها.. كيف تجرأ على المضي إلى منزل والديها وما الذي جمعه بتلك العجوز الخرفاء! كانت قد اِلتقتها في بادئ الأمر فسألتها عن المنزل وعندما صعدت باحثةً عن شيءٍ يصلها بماضيها وجدت أثار الأقدام التي شغلتها طويلاً ... ثم بعد ولادة "مهند" قررت أن تقصد منزل أسمهان كما وصف لها!! ... وكما تُرك ذات يومٍ عنوانها بين يديها وبعض صفاتها الأساسية ذهبت لتكون هي "أسمهان" كما وصفت بشعرها الأشقر ذاته عدا عن الشيب الذي تسلل من بين الصبغة المطابقة للون شعرها الأصلي! لم تذكر منها شيئاً لا عينيها الحلوتين ولا طيبة صوتها ولا اِتقانها في ترتيب المنزل بشكلٍ مرضٍ!. دخلت المنزل بعد أن كتبت لها العجوز بخطها الركيك العنوان بالتفصيل الممل، بنافذته الحمراء وحمائم تتجمتبع على درابزين الشرفة ... بِاسم الشارع ورقمه ووصفٍ دقيقٍ للحي! ... كان المنزل كبيراً هادئاً جداً ... لا بل بشكلٍ يوحي بألا أحد عاش فيه على الإطلاق غيرها!!

المنزل الهادئ الضخم بأساسه الفاخر وشراحته التي تدل على غنى أهله وسيارةٌ من الطراز الحديث تحكي بأن صاحب المنزل لابدّ غني!! ... كانت وحدها السيدة "أسمهان" هادئةً كمنزلها بفستانها الأنيق وحذائها الذي اِختارته بلا علوٍّ كي لا تزعج الهدوء الطاغي! حتى أن صوتها اِتفق مع الهدوء المريب فأضحى هامساً رقيقاً لا يكاد يشق الصمت أو يصل للسامع! ..

- كاللغز يا صغيرتي ... كاللغز! قصتك .. وقصة أخيك! لو كان بيديّ لوفرت عليك عذاب السنين، ولكن الأمور لا تكون في صالحنا غالباً! .. نحن الذين نحاول تغيير الواقع، وربما لا ننجح! ولكننا مطلقاً لا نخطئ لأن نياتنا صافية وقلوبنا إن وجهتنا وجهتنا بدافع الرحمة .. لا غير!

صمتت قليلاً ثم أكملت ..

- من المؤكد أنك لا تذكرينني مطلقاً ولا أخبرتك العجوز عني .. ! أنا يا صغيرتي زوجة عمك!

حين ذكرت المرأة صفة القرابة بينهما اِرتبكت "نورا" ورقرقت الدمعة بعينيها فأخفضتهما، بيد أن "أسمهان" أومأت لها بيدها ألا داعي للخجل مكملةً حديثها..

- لا تخجلي يا حبيبتي ... فالأتيُّ أشد قسوةً!!! ... أجل يا صغيرتي أنا زوجة عمك ولي مع والديك من الصداقة ما كان، أعرفهما كما أشاهدك الآن وأعرفك! وأعرف أخاك... حملتكما كثيراً في رحاب منزلكما نغني ونضحك ... أعرفك وصوتك للآن مازال يرن في أذني "ماما" والحريق يزداد نشوباً من الأسفل للأعلى! ...

شهقت بألمٍ ...

- أنت وأخوك كنتما أملي بمغفرة كل ما حصل!

قاطعتها "نورا" متساءلةً بشيءٍ من الحيرة..

- قبل أن تقصي عليّ أي شيء.. ألأحدٍ سواك علمٌ بما حصل لي؟ أأحدٌ يعلم اِبنة من أنا؟!
- مطلقاً .. لا أحد له علمٌ سوايّ أنا وعمك.

صمتت "نورا" برهةً .. تذكرت بالتفصيل ألفاظ المديرة .. "لقد ماتوا حرقاً" .. كيف للحقيقة أن تذكر على لسان جاهلةٍ ترمي بأقوالها ذات اليمين وذات الشمال لتسكت طفلةً تبحث عن والديها .. عن جزءٍ أضاعته من روحها!! .. الحقيقة التي لطمتها بها، معترفةً على مسمعها، بكل وضوحٍ بواقعٍ جهلته وكان عين الحقيقة! .. وعلى الرغم من أن الحقيقة صادفتها صغيرةً إلا أنها حتى اللحظة مؤلمة.. تكوي كالنار الملتهبة! .. غابت للحظات تجوب بطيفها حول المديرة التي تتلفظ بالحريق بكل كراهية .. ببساطةٍ مقززة! .. الوجه العبوس، الألفاظ الممزقة للروح، الوحشة التي تغتال قلب الطفلة البريئة الوحيدة أمام مصيبتها .. غابت كأنما لم تأتِ ولم يكن لها وجودٌ هنا، ثم أعادها الضيق لحاضرها .. نظرت في عينيّ "أسمهان" .. ثم قالت بحزمٍ شديدٍ

- قصي عليّ ما حدث بالتفصيل ..

تنهدت "أسمهان" بألمٍ شديدٍ ثم اِستطردت ..

- والدك وزوجي لم يكونا على وفاقٍ مطلقاً! كانا عدوين! مذ خسر زوجي كل أمواله في القمار متبعاً مصيبتنا بكذبة خسارته في العمل وهو يغار من والدك .. من أمواله ومنازله! منزلٌ في الجبل ومنزلٌ في المدينة ومنزله الكبير وسياراته ومعملٌ كان يشيده! كان يحترق كلما رأه يربح

ويزداد غنىً!. قصدنا الغرب علّنا نعوض ما خسرناه على أننا اِزددنا فقراً وكان لي نصيبٌ من الضرب كلما خسرنا!. لقد كان عمك رجلاً كريهاً! حقوداً، غيوراً! ... رجلاً لا يخاف الله!! .

عندما عدنا كان طامعاً بمساعدة أخيه .. كان دائماً هائجاً كالثور يريد الرعاية من الأخ الكبير .. يريد المال دون عمل! وكما أراد حصل عليه! وكان هذا خطأ أبيك الأكبر! فأعطاه في بداية الأمر مبلغاً صغيراً ثم زاده ثم زاده كلما جاءه زوجي باكياً مستجيراً به ... ثم عندما سهر ليلةً حتى مطلع الشمس في مكتبه يحدثه فيها عن مشروعٍ رابحٍ سوف يغنيه فلا يحتاج بعد ذلك أحداً فتح والدك أمامه خزينته ليخرج منها مبلغاً كان قدره مليونٌ بالضبط! كاد زوجي يفقد صوابه عندما عاد إلى المنزل! قال بأن أخاه شديد الغنى وما ضرّه لو تقاسم معه الذهب والحليّ والأموال المكدسة ودفاتر الشيكات لأرصدةٍ في البنك!! جن أياماً ثم بدأ مفعول المخدر بالعمل .. فهدأ وبين يديه نقودٌ أخذ يصرفها دون اِستثمارها بشيءٍ!. آهٍ ... كنت كلما جئته مناجيةً ضربني لا بل وصلت به الحال لكسر كتفي! حينها تركت المنزل وضاق ذرعاً حتى أعادني وحلف بأنه لن يضربني مهما كان! ثم كنا زواراً لديكم ذات ليلةٍ شتويةٍ فسمعنا أنا وأمك مشاداً بين الأخوين ما فتئ صار صريخاً ثم كسر زجاجٍ فركضنا إلى المكتب حيث شهدنا الأخوين متعالقين يشدان ياقات قمصانهما وقد تسرب العرق على جبينهما واِحمرت عيونهما فصرخت أمك أن اِهدأا فجن زوجي قائلاً..

- اِخرسسسي!! أموالٌ وذهبٌ ونحن لا جبن في منزلنا ولا لحم!! ... أموال زوجك فشلت في مشروعٍ فاشل والآن تتركوننا نبيع منزلنا لنأكل وأنتم في غناكم تسبحون.. ألا تخافون الله!!.

كانت كلماته كخنجرٍ يقسمني نصفين في حضرة أنبل رجلٍ واِمرأةٍ عرفتهما! ... من أين لوديعٍ شهمٍ أحببته وهو يشق طريقه بعرق جبينه أن يصير بهذا الجشع وهذه القسوة ... بهذا التوحش!! ... عدنا ليلتها فضربني، ضربني بلؤمٍ يا "نورا" ليس كما في كل مرةٍ .. كان يضربني ليشفي غليله.. كان ضربه لؤماً كأنه رغب هذا الضرب لأخيه! ضربني حتى ما اِستطعت الحراك ثم أقفل عليّ الباب أسبوعين كان يرمي لي خلالهما الأكل من الباب ويتركني أقضي حاجتي ثلاث مراتٍ في اليوم!... كان يخاف أن أهرب! يخاف أن أتركه في بأسه! ثم بعد أسبوعين عاد وعلى لباسه دماءٌ لحظتها وأنا أدخل باب الحمام فاِرتعدت وسألته ما الذي حصل؟؟ فضربني! وعندما أقفل باب الحمام ورائي كسرت نافذته وحاولت الهرب لكن الخوف من العلو منعني وما شعرت إلا بيده تشد شعري لأسقط

أرضاً ... عاد وحبسني في غرفتي ... كحيوانٍ لا يعلم بعذابه إلا الله!. كان يقامر كل ليلةٍ ويعود ليسلب مني ثيابي بالغصب! حقائبي وساعاتي حتى علب التبرج! كان متوحشاً كذئبٍ محصورٍ في الزاوية!! ... ثم بعد يومين كان يعيشهما كأن شيئاً لم يكن دق باب المنزل وأعتقل بتهمة التعدي على أخيه ثم أخرجوني! وطببوني.. وخلال السنة والنصف الأخيرتين قبل الحريق كانت الأيام رتيبةً هادئةً وجميلة... عاد المنزل خالياً منه، من فجوره وحقارته! وقد عرفت في الأيام الأولى بعد خروجي من المشفى ما حصل عندما قصدت منزل والدك فأخبرني بأن زوجي اِقتحم المنزل وهاجمه راغباً بكل أموال الخزينة بيد أنه رفض فغزَّه بسكينٍ في خصره وكاد يودي بحياته! ..

- كنت شاهدةً على تلك الحادثة

حينها خرج صوتها ركيكاً رقيقاً باكياً...

- أذكر دماءً كثيرةً ورجلاً بسكينٍ ووجهٍ مموه .. لا أستطيع نسيان عويل أمي الذي لم يهدأ أبداً!
- بالضبط هذا ما حدث! لكن الحياة عادت هادئةً عندما نجا والدك بأعجوبةٍ ثم ولد "وائل" وتم الاِحتفال بعيد ميلاده الأول وكنت حاضرةً هناك كقسمٍ من الأسرة لم يفرقوني عنهم لحظةً، كانوا أسرتي بكل معنى الكلمة. لكن الحياة عادت مخيفةً عندما صدر عفوٌ عامٌ شمل زوجي! أو بالأحرى طليقي لأنني طلبت الطلاق منه وهو في السجن فطلقني! وخرج الوحش ثانيةً .. كان وحشاً يا "نورا" ما أن سمعنا بإطلاق سراحه حتى تأهبنا لأشد العداء إلا أنني ما توقعت ما فعل!
- ماذا فعل؟!
- خطفني!
- خطفك..!!!
- أجل! كنت ذاهبةً إلى بقال الحي قاصدةً شراء بعض الحاجيات وما أنا خرجت وعرجت إلى طريق منزلكم حتى جاءتني يده ملتفةً حول خصري لتسحبني إلى سيارةٍ سوداء قال فيما بعد أنه اِستأجرها ثم قصد منزلاً لم أتبين منه شيئاً فقد عصب عينيَّ بخرقةٍ سوداء! وقضيت هناك ثلاثة أيامٍ كان فيها ملتصقاً بي لا يخرج مطلقاً! كان في البداية حنوناً على غير طباعه فحدثني عما قاساه في السجن ثم عن شوقه لي ثم بعد يومٍ من الحنان والحب ذكر طلبي

بالطلاق فجن! عاد الرجل لما كان عليه بيد أنني كنت مقيدةً إلى السرير بحبلٍ غليظٍ وفي منزلٍ لا أدرك الهرب منه! كان يجن فيضربني ثم يضمني ثم يقبلني ثم يطعمني ثم بعد قليلٍ يعود إلى جنونه فيصرخ ويضربني! كانت ثلاثة أيامٍ مرهبةً ومخيفة... وفي مساء اليوم الثالث بعد صباحٍ شديد الغرابة مؤلمٍ ومرعبٍ جلس قربي وأخذ يشربني قدح شايٍ بيديه وقال وأذكر قوله جيداً ... حرفاً حرفاً!!

- أنا طلقتك ولكنك لست طليقتي ولا أعترف بهذا الطلاق!! وما دمت زوجتي فعليك أن تساعديني! ... ألا تحبينني

نظر إليّ نظرة غريبة، شعرت إثرها بأن عليَّ مسايرته ريثما أفهم ما الأمر! فأومأت له برأسي مع نظرةٍ ذكرته بحنين الماضي وحبٍ دفين فانتعش وجهه واحمرت وجنتاه وقال بأريحيةٍ غلبت على التردد..

- مادمت تحبينني فعليك أن تكوني معي في كل شيءٍ أقوم به! وفي أخطر ما يمكن أن أنوي عليه!!!

شعرت بقشعريرةٍ سرت في جسدي ... أخطر! أيوجد أخطر مما قام به! ثم أومأت إليه باسمةً لألغي شك الخوف والإنكار الذي انتاباني مذ جلس قربي متوددا

- علينا أن نتقاسم الثروة مع أخي!! ... هذا ظلمٌ أن نبيع منزلنا ثم نسكن في العراء وأخي يصف الآلافات والذهب في خزينته! ... أأنت معي في خطوةٍ كهذه؟!

ترددت ثم قلت ..

- طبعاً يا حبيبي! ولكن ما هي الخطوة؟
- سأسرق الخزنة! سأسرق هذا الجزء اليسير من أمواله وليشبع هو بأمواله المتبقية!
- ستسرقه!
- أجل وسنغنى يا حلوتي غنىً ما بعده غنىً وسأترك القمار وأعمل كما السابق ... سنشتري بيتاً أجمل من بيتنا .. أعدك!
- لنجرب مصالحتهم ... ربما يقرضك المال!
- لا يا "أسمهان" هذا الرجل لا يفهم! يريد مال الدنيا له.. هو لا يشعر بأننا ننام جياعاً بينما تصطف الأطباق بشتى أنواعها على سُفرته! أليس جزءٌ منها حقنا؟!

- لا يا حبيبي ليس حقنا! ذاك من عرق جبينه وجده في العمل لا من عملك!
- إذاً لمَ نحن أخوة؟! ... لِمَ!!

وبدأ بالصراخ حتى خفت أن تهوي العمارة لشدة غضبه المزلزل

- يأكل ويشرب وأنا على لحم بطني ... وعندما ألعب القمار لا أجد شيئاً في جيبي يحمي ماء وجهي أمام الجيوب الملأى بالأموال ... بيتنا رهن البيع وحتى مبلغه لن يكفي لِإسترجاع ما ضاع مني على طاولة القمار وكله لأن لا مال لدي! لو كان في جيبي مالٌ لانحنوا أمامي وخسروا... أنا ملك القمار ... أناا ملك القمار والمال ذلني وشتت ذهني فخسرت وخسرت وهذا اللوم كله على عاتق أخي!! أخي الذي لم يرأف بحالي ولم يعطني إلا القليل ... خزينته لا مكان فيها للمزيد من المال، يفتحها أمامي على مصراعيها ليخرج من بين الملايين بضعة آلاف يسكت بها جوع معدتي! وهل هذا عدل يا ترى؟! أهذا عدل يا نااس!! لا والله هذا الكلب سأربيه أنا، وماله سيقسم بيننا بالعدل... سأعيد ما خسرته بالقمار حين أجلس ملكاً رافع الرأس وجيبي يفيض بالأموال! ... سوف أسرق المنزل غداً .. غداً قبل مطلع الشمس ثم سأحرق الطابق السفلي كي لا يبقَ لي أثرٌ وإن لم تعاونيني قسماً بالله لأقتلك! لأشنقك هنا وأغادر البلاد من غير رجعة!

كان الخوف من صوته في أتمه حتى ذكر الحريق فإزداد إلى أن ذكر شنقي فبدأت أطرافي بالإرتعاد وكان صادقاً في قوله صدق العبد أمام ربه .. صادقاً كصفاء الينبوع يعكس قاعه! رأيت نيته السوداء ... رأيت ضرباً مبرحاً ومشنقةً أو ربما سكيناً أو رصاصاً يخترق رأسي ... رأيت نهايتي! فقبلت!! أجل يا "نورا" قبلت خوفاً وربما رغبةً مني في إنقاذكم ... نويت أن أضربه حين يدخل المنزل وأخبر الشرطة، نويت أن أصرخ فيستيقظ والدك ثم عندما عزم آخر الليل على المضي وجاء ليفك يديّ بغية أخذي معه رفع في وجهي مسدساً فوهته ضخمةٌ بحيث قد تقتلع نصف وجهي!! .. وجه المسدس نحوي وقال بأنه لن يتوانى لحظةً عن قتلي وقتلكم جميعاً إن حاولت هدم خطته فإنصعت لأمره، وخرجنا ليلتها وقد سكنت الشوارع وهدأ المرور وما كان طيرٌ يعلو في السماء!. وصلنا أمام منزلكم في الخامسة والنصف قبل مطلع الشمس بساعةٍ كاملة، شعرت بإحتقارٍ عنيف لذاتي! والداك اللذان إحتوياني سنين أقدم على سرقة وحرق منزلهما! لم أفكر بفكرة الموت مطلقاً كان كل ما في الأمر حريق يأكل بعض الأساس ليموه الدلائل، إن وجدت، ثم تهرب

الأسرة خارجاً ويُطفأ المنزل ليُتهم بالسرقة هو أو مجهول .. وتنتهي القصة!! لكنها كانت أشد اِجراماً حين اِقتحمنا المنزل بمهارة لص! كان ماهراً كأن أحداً علمه السرقة وكسر الأقفال!. توجه راكضاً نحو غرفة المكتب وكان بطريقة ما حافظاً للكلمة السرية، فخُيل إليَّ بأنه راقب والدك بدقةٍ وتربصٍ شديدين حتى حمل في جعبته خيارين كان الأول خاطئاً ليكون الثاني الصحيح!!. وفتحت الخزينة ليندلف بابها الثخين ببطءٍ نحونا وتتوضح أمامنا تحت إنارة مصباحٍ يحمله الأموال والذهب والحلي والشيكات بقربها أوراق رسميةٌ عديدة!! لقد أفلتت شهقةً شقت السكون فنبهني بمسدسه الذي وجهه نحو رأسي!! .. كانت الأموال كأنها محشوةٌ في صندوقٍ صغير فأمسك بكيسٍ وأخذ يرمي بهم جميعاً داخله فمنعته حين ذكرته بِاقتسامهم معه بيد أنه نهرني بعنفٍ ثم هددني بالمسدس للمرة الثانية واللؤم يلمع في عينيه!.

أكمل حتى ما ترك في الخزينة أية قطعةٍ نقدية!!. شعرت بالخزي ... اِقشعر بدني قرفاً مني، ومن هذا الرجل الذي يصر على الإدعاء بأنه مازال زوجي!!. نهض وأخذ يتمشى في المنزل كأنه منزله بينما يمسكني من خصري بقوةٍ والمسدس بيده! كان يودعه ربما متبسماً كلما لمح صورةً تجمع والديك سوياً!! وفجأةً طلب مني الوقوف أمامه ثم أخرج من حقيبته قنينةً ملأى بالبنزين وأخذ يتراقص وهو يوزعها في كل ناحيةٍ من الطابق السفلي ثوانٍ مضت قبل أن يخرج من جيبه سيجارةً أخبرني مسبقاً بأنه غطاها بمادةٍ تقاوم لفترةٍ النار علّهم يتهمونها بالجريمة! هززت رأسي متوسلةً إليه أن يعكف عن فعلته بيد أنه ضحك دون صوتٍ طالباً مني بإشارةٍ من يده التنحي نحو الباب ... حينها أخرج قداحةً حمراء أشعل بها سيجارته التي سحب منها نفساً واحداً قبل أن يرميها على الأرض فرحاً!! ... يااهٍ يا "نورا" لبّ البنزين دفعةً واحدةً في كل أرجاء الطابق السفلي كأنه تلك الأقراص في السيرك تمر منها الأسود دون أذية!! اِشتعل الظلام إلى نارٍ ملتهبةٍ عالية وأخذت تأكل كل شيءٍ وآخر ما رأيته هو تقدمه إلى منطقةٍ لم يغطها بالبنزين لأمرٍ نواه مخرجاً من حقيبته بسرعةٍ قصوى قنينةً أخرى مملوءةً حتى المنتصف بالبنزين وبلمح البصر رماها هي وكتابٌ مشتعلٌ نحو الطابق العلوي وما أن رمى ما رمى عالياً حتى خفت خوفاً شديداً وأيقنت بأنه ينوي قتلكم وما كان مني إلا أن عزمت أمري وضربت الرياح هاربةً حيث لا أدري!! كان علي أن أهرب منه، كان علي ألا أكون شريكةً في قتلكم حتى ولو على قتلي! ركضت في الليل حتى وصلت إلى منزل العجوز التي قابلتها اليوم مختبئةً خلف المنزل

بحيث لا يمكن لمخلوقٍ سوى الله أن يراني! جلست هناك نصف ساعةٍ حتى تأكدت من ذهابه حيث سمعت سيارته تدور بسرعةٍ خياليةٍ كأنه هاربٌ من شيءٍ أو أدركه الوقت وهو يبحث عني ... كنت موقنةً بظنونه في عودتي إلى منزلنا .. كان ينوي الذهاب إلى هناك لقتلي إلا أنني كنت أنبل من أخٍ مجرم. خرجت من مخبئي قبل أن يستيقظ الناس على الحريق الذي خنق كربونه والدك فغط في نومٍ اِنتهى بموته على أن والدتك ركضت إليكما وعندما حملتكما لتخرجكما رأت الطابق السفلي مشتعلاً كفرنٍ وما من مخرجٍ لمرأةٍ بولدين وثيابٍ رقيقة، أعادتكما إلى الغرفة ولصقتكما بالنافذة التي فتحتها على مصراعيها وأخذت تصرخ وتصرخ ... سمعت صوتها فدبت فيني الشجاعة وأخذت أركض إلى المنزل وعندما وصلت سمعت اِرتطاماً شديداً بالأرض فدفعت الباب الذي أُعيد اِقفاله لكن دون جدوى! فاِضطررت لكسر الزجاج والدخول إليه بثيابٍ ألبسني إياها بغية حمايتنا من الحريق، كنت أستطيع المشي بين النار بسرعةٍ كبيرةٍ بحيث لا أبقى فيها سوى لحظات فلا أحترق... كان هذا ما فعلته بيد أن ذلك لم يمنع عني بعض الحروق الشديدة التي لم تزل حتى الآن!

رفعت كمها الطويل الضيق فتبينت علامة حرقٍ شديدٍ على زندها ثم أخرى على صدرها الأيسر وثانيةٌ على كاحلها وأخيرةٌ تحت قدمها!! .... أكملت قائلةً وعيناها مثبتتان بالأرض وقد تغطى خداها بالدموع..

- كانت أمك قد سقطت من حافة درابزين الدرج وبين يديها مطفئ حريق .. خمنت بأنها اِستندت على الدرابزين فكان شديد الحرارة فترنحت بثقل المطفئ ومالت عليه لينكسر وتسقط فيرتطم رأسها بحافة المكتبة قتيلةً!! حين رأيتها خارت قوايّ لكن لسعة حريقٍ مدويةٍ أيقظتني فركضت للأعلى حيث رأيت غرفتكما وقد جمعت أمكما كراس وطاولات جعلتهم كمربعٍ أفسح أمام الباب مجالاً لمزيدٍ من الوقت بحيث أغرقت الأثاث بالماء كما فعلت بالممر الصغير الفاصل بينكما وبين الدرج! ... كانت كلبوةٍ تحاول اِعطاء أطفالها مزيداً من الوقت للحياة! ثم ماتت وهي تبحث عن مخرجٍ لهم! ... حين لمحت والدك وهو غارقٌ في النوم وقد غطت ضبابة الكربون غرفته وبدت مموجةً بنافذتها المغلقة تحت حرارة واِختناق الجو هززت جسده عشرات المرات وكنت قد أفلتت بكائي الشديد حتى دفعته أرضاً فسقط دون حراك! لحظتها أدركت المصيبة التي أقدم عليها ذلك الوحش فاِندفعت كالمجنونة أزيح

الأثاث كي لا أكون مجرمةً بحق أسرةٍ كاملة حين سمعت صوت اِسعافٍ آتٍ من بعيدٍ لأول مرة وضجيجاً بدأ يعلو خارجاً!. فتحت الباب لأراكما تبكيان قرب النافذة المفتوحة، كنت حينها موشحةً بالسواد فلم تعرفاني. خلعت ثيابي الواقية بأسرع ما يمكن لألفكما بها ثم حملتكما لأهبط الدرج بشديد الحذر وشديد الألم .. كنت أحترق بصمتٍ كي لا يسمع أحدٌ صوتي .. كان الاِسعاف قد وصل وصوت عنانته تدوي في أذنيّ! كان عليّ أن أهرب .. أن أهرب بكما وبنفسي فخرجت من باب المنزل الخلفي الذي كان يحافظ والدك على سريته كي يستخدمه إن جرى حادثٌ مماثلٌ لما حدث! خرجت أهرول والحروق تأكل جسدي حملتكما وركضت بعيداً عن المنزل الذي كان بضبابته الشاقة للمطر الغزير يُرى على بعد كيلومتراتٍ! في حديقةٍ بعيدةٍ جداً وقدر المستطاع عن منزلكما طلبت من فتاةٍ وجدتها منتظرةً الحافلة ورقةً وقلم... حينها كتبت اِسميكما بعنايةٍ على ورقتين منفصلتين، تركت كلاً منهما في جيبٍ من ثيابكما، وهكذا تركتكما أمام ملجئيكما علّ زوجي لا يعرف بوجودكما مطلقاً!!. كان قدري أن أقتل لكن ليس قدركما!

تنهدت قبل أن تكمل..

كان المطر غزيراً يوم تركتكما وقلبي يتمزق إرباً إرباً ... فليلة البارحة كنتما في كنف والديكما واليوم أصبحتما بنظر مجتمعٍ متخلفٍ لقيطين لا تنالان من المجتمع سوى أقل تقديرٍ وأسوأ تفكير!. قصدت مخفر الشرطة بعد أن تركتكما هناك لأخبر الضابط بكل ما جرى عدا عنكما! قلت بأنني لا أدري شيئاً عنكما حين ترامى إلى مسمعي اِختفاؤكما فرجحت بأن يكون زوجي قد اِختطفكما.. وهكذا بدأت حلقة بحثٍ واسعةٌ اِنتهت بفقدان الأمل لتغلق القضية ضده!! ... لقد عشت بعد الحادثة سنواتً رهيبةً اِستعنت خلالهم بأطباء نفسيين إلا أنهم لم ينجحوا في اِقتلاع جذور الألم من جوفي! كان الأمر أشد صعوبةً من تصورهم... أشد ألماً من تصور طبيبٍ يتحدث طيلة جلساته عن أعراضٍ يتخيلها ... أنا كنت أعيشها! كنت أتمزق إرباً إرباً كحريقٍ ينشب مجدداً في أحشائي يمزقني بألمٍ؛ يجعلني أتمنى رصاصته! ... كان قد هرب فعلاً دون أن يتسنى له قتلي، ربما لم يرغب .. فلو أنه نوى لقتلني حتى ولو كنت داخل أسوار السجن! بيد أنه لسببٍ ما تركني هارباً لبلادٍ لم يعرف لها اِسم!

كان شريط ذكرياتٍ قد اِمتد لأكثر من خمسة وعشرين عاماً يمر بسرعةٍ خياليةٍ أمام عيون "نورا" بينما الغضب كلما زادت "أسمهان" على الحقيقة ألماً يزداد اِزدياداً مريباً ... كان الأخ ممسكاً يد أخته يهزها دون أن تشعر بشيء! كان الماضي أعنف من أن تستيقظ منه بسهولةٍ حتى ولو كان الموقظ أخاها الحبيب .. نصف ذكرياتها وألمها الباقي.

وللحق، ربما تنبأ "مهند" بما سيحدث على أنه كان متلبكاً في حضرة غضب أمه الشديد .. توقع منها زجراً، كلمتان جارحتان ذلك أنها، وعلى غير المتوقع، هجمت على غرفته كلبوةٍ اِنتظرت سقوط فريستها طويلاً ... نترت يد أخيها الضخم بقوةٍ تعجبها ثم توجهت نحو الشاب المرمي أرضاً لتمسك ياقة قميصه وتسحبه إليها بقليلٍ من الصعوبة، قالت وعيناها تنضحان اِحمراراً مخيفاً "من سمح لك أن تتدخل في ما لا يعنيك!! أنا الذي أمضيت عمري أحاول تجنبيه ماضٍ كذاك بتدليلك وحبك وحمايتك ترفس نعمتي لتركض نابشاً في خصوصياتي وماضيي .. من تظن نفسك كي تعصيني؟!! آه! أجب؟؟ الاِبن البار! الكافر المنتحر! الفاشل عاطفياً وربما دراسياً أيضاً ... ماذا جلبت إلى الدنيا؟! قذارةً أم رجل؟ ألا تستطيع أن تحمل مسؤوليتك يوماً ... أعاجزٌ عن أن تفكر!! ... اِبتعد عن ماضيي وإن كنت اِبني فستنال ما لا يرضيك أتفهم" .. رمته أرضاً تحت اِستسلامه الكلي أمام ذلك الغضب الكاسر ليرتطم ظهره مرة اخرى بحافة السرير! إلا أنه هذه المرة نهض رغم ألمه وقبل أن تمضي من غرفته قال كأنه يتحداها "وجدت منزل "أسمهان" ولن يحيدني عنه إلا الله! .. ماضيك ماضيي وليس من حقك أن تمحي من حياتي أبي وخالي وجدي ودفتره الحبيب!!" كل ما قاله مُحي حين ذكر بأنه وجد منزلها .. كان يتحداها في منزلها! يجد بيت السر الدفين، ينبش أسرار أسرتها الهادئة ... عاودها الغليان والغضب الشديدين فتقدمت منه وبصقت في وجهه بِاشمئزازٍ وقرف!! حينها عاود الخال اِمساكها حين أحس برغبتها في ضربه مرةً أخرى!. أخذت تحاول التملص منه بيد أنه لم يكن من مجالٍ للتملص من رجلٍ كـ"وائل" ضخمٍ بيدين قويتين وقدمين صلبتين. ثم وبينما هي تؤنبه بكلامٍ مماثلٍ لما قالته رن في أذنها قوله الأخير "دفتر جدي الحبيب" .. فرددت قوله بتخديرٍ واضحٍ "دفتر جدي الحبيب!! دفتر من؟! أتدخل البيوت لتسرقها! ألا لعنة الله عليك من اِبن! أعطني الدفتر لأرجعه ... أين هو؟ أين هو!!" شعر الشاب بأن الخال ترك أخته لحريتها مرةً أخرى بنيتي تقاسم السر معه! كان يستطيع اِبقاءها أسيرةً كعصفورٍ في قفصٍ حديديٍّ بيد أنه تركها تعاود تقمص اللبوة فتوجهت على عكس ما خمن الشاب هذه المرة نحو كتبه التي أخذت ترميهم أرضاً بعصبيةٍ ودون أن تعطي لهم بالاً! ثم فتشت بين الصور وفوق

الخزانة فرمت بثيابه أرضاً! .. كان يرى أمه كما لم يرها مسبقاً، أماً تمشي بغريزة الغضب، يدفعها نقصها قبل اِنزعاجها وغيظها لاِمتلاكه جزءً من أبيها بينما لا تملك هي أي شيءٍ منه سوى وجه يلوح بين الدماء والشوكولا!!. حين اِنتهت من بحثها الجنوني كانت غرفته ملقاةً على الأرض كقتيلةٍ هاجمها عدو شرسٌ بعد رغبات شديدةٍ وقديمةٍ بالتفتيش العشوائي لكل شيء إلا الخزانة المقفلة التي كانت مقصدها الأخير فأحس ببحثها وجنونها السابق في سبيل الوصول إليها فأمسكت بمقبضها لتسحبه إليها إلاأنها كما عهدتها سنينَ طويلة مقفلة!! وفجأةً وكأن برقاً عظيماً ضرب الأرض قالت "اِفتحها الآن وإلا ستطرد من المنزل ما حييت!" قالتها بصوتٍ وقورٍ واِصرارٍ لم يعهده.. كان الخال في حضرة كل هذا الجنون غريباً .. بعيداً جداً عن خصوصياتهما فتنحى جانباً يتفحص بعينٍ كتب الشاب وبعينٍ يراقب ما سيجري حتى وقعت عينه على كتابين متماثلين شك في بداية الأمر أن يكون الأول دخيلاً ثم بحث فرأى ثانياً مثله ثم ثالثاً ثم رابعاً!! أين كتب الاِقتصاد اللاتي حدثه عنهنّ؟! فنون ...! ما دخل كل هذه إن كان اِقتصادياً في سنته الرابعة! شدته الأسئلة والتحير العارم عن الحدة التي اِتصفت بها الأخت فجأةً والاِصرار الذي تشبث به الشاب فأجابها وكأنه لا يأبه "لن أفتحها على جثتي!"

- وترضى بأن تدخل بيت أبي وتسرق منه كتاباً! ثم تبحث عن أخي وتجد بيت زوجة عمي ظاناً بأن ذلك من حقك وهذا ليس من حقي؟! بأي أمارةٍ تتحدث يا ولد! ولدٌ لم يتخطى الثالثة من عمره أنت، وأسفاه لم أربك كما يجب! ضاعت فيك سنوني وشقائي سدىً! كان علي أن أتزوج وأنعم في حياتي .. أن أرميك في ملجأ لتتربى! ذهبت سنوني بك هباءً .. .. إن رغبت عن فتح خزانتك المشؤومة فاِخرج الآن وليس غداً من منزلي، لعنة الله عليك.. لعنة الله عليك!!

وبينما تلعنه "نورا" بتكرارٍ روتينيٍّ كشريطٍ غليظٍ يعاد على مسمعه كان الشاب يلملم كتبه التي تعلقت عينا الخال عليها ثم يخرج معلق القلب بخزانته المغلقة تحت جنون وفضول الجميع! ... وتماماً كما طلبت خرج مع بزوغ الشمس حامداً بزوغها إذ إنه لا يملك مكاناً يقصده.. فكر بالذهاب إلى البيت المحترق على أنه أبى خوفاً من جنون والدته ولحاقها به! ثم فكر بجديةٍ لا مثيل لها وهو مستندٌ إلى جذع شجرةٍ سماها أهل الحي لضخامتها وكبرها "الأم" وأخيراً عزم على قراره قاصداً مبتغاه بسرعةٍ شعر فيما بعد أنها أسرع ما نوى الوصول إليه ووصله!

وعند عتبة الباب رن الجرس أمام منزلٍ كبيرٍ تلفه حديقةٌ لم يعتنَ بها من زمن، وخلال ثوانٍ فتح الباب رجلٌ ضخمٌ بعض الشيئ ليسأله عمن يريد ومن هو؟! قال بأنه "مهند" ويريد مقابلة السيدة "أسمهان"!! فأومأ الرجل أن اِنتظر ومرت دقيقةٌ طويلةٌ قبل أن يرجع فيفتح له الباب على مصراعيه! ثم يدله على غرفة الجلوس ليتركه مستريحاً على اِحدى الأرائك وسط غرفتين كبيرتين للغاية قد اِمتلأتا بالأرائك والطاولات الصغيرة .. كان المنزل معتماً بشكلٍ مهيبٍ والغرف الأخرى بعيدةً نظراً لكبر المسافات! كما أن الهدوء كان شديداً وغريباً حتى بدأت أذناه بالرنين! لم يعتد هدوءً كهذا في حياته فتساءل كيف لاِمرأةٍ أن تعيش بهذا الهدوء؟! وكيف لإنسانٍ أن يعشق الظلام في وضح النهار! وأن يكره تداخل خيوط الشمس الأولى بين جنيبات منزلٍ ميتٍ كهذا!! خيّم عليه جوٌّ من الرعب الغريب متداخلاً بهدوء هذا المنزل وعتمه وكبره! حاول البحث عن أية صورةٍ تمهد له عن شخصية وشكل "أسمهان" على أن المنزل كان مجرداً من أي اِنتسابٍ أو هوية! كان منبوذاً بلا صاحبٍ أو وجهٍ ضحوك! لذا ظلّ منكمشاً في مكانه حتى أرعبه صوتٌ رقيقٌ قادمٌ من خلفه فوقف بشكلٍ لا إراديٍ ملتفتاً نحو لغزه العقيم عن الحل ... فبدت "أسمهان" بجلال اِسمها وسلطان جمالها لغزاً حلواً بعينين عميقتين أكثر من لغزٍ دام ما يزيد عن خمسين عاماً! رحبت به مرةً أخرى "أهلا وسهلاً مهند! اِبن نورا أليس كذلك؟!" فأومأ برأسه أن نعم فمدت راحة يدها قاصدةً أن يستريح وجلست على الأريكة القريبة منه على أنها كانت بعيدةً بعض الشيء لكبر المنزل. أمالت رأسها كأنها تنتظر منه قولاً ما فلبى طلبها ..

- ورقةٌ صغيرةٌ كتب عليها اِسمك جعلتني أبحث عن بيتٍ بنافذةٍ حمراء خمسة أشهرٍ متعاقبة!!

وما فاجأه ردة فعلها حين ضحكت ضحكةً صغيرةً واضعةً يدها على فمها بأنوثةٍ بالغة! ثم أعادت نظرتها المتطلعة نحوه حتى أردف قائلاً..

- "نوارا" ... "وائل" ... البيت المحترق، العجوز بحدبتها الضخمة ... ونصف طرقات المدينة الشرقية بحثاً عنك! فماذا وراءك يا سيدتي حتى بلغت في اِيجادك كل هذا العناء؟!

تبدلت نظرتها بعد قوله كأنها شخصٌ آخرٌ حمل عبء سؤاله على كتفيه فزاده ألماً وضعفاً! ثم رن صوتها بصدىً تراقص في أنحاء المنزل الفارغ من أي حياةٍ..

- ورائي طفلٌ صغيرٌ جداً كلما تطلع بعينيه أحدٌ ضحك وحرك قدماه بفرح!! ..
- وائل!
- "وائل" الصغير وأخته بفستانها الأصفر وزوهوره البيضاء الصغيرة تركض نحوي لتسرق علبة الشوكولا قبل أن تراها أمها!! يااهٍ كيف تمر أيام عمرنا دون أن نبالي بها!
- ومن لا يكبر يا سيدتي.

اِنقطع الحديث عند هذا الحد! وكان الشاب محترق الأعصاب منجذب المشاعر نحو هذا اللغز الجميل .. اِمرأةٌ تجاوزت الستين من عمرها بشعرٍ مصففٍ بطريقةٍ شديدة الأناقة وجسدٍ نحيلٍ ربما تخفي الثياب الفضفاضة بعض عيوبه!. كانت اِمرأةً جميلةً بلا شك تشي ملامحها عن شبابٍ نضرٍ وجمالٍ لا يستهان به!. تحرقه دفعه لسؤالها وقطع صمتها الهادئ..

- أزوجك من فعل ذلك!

مرت دقيقة هدوءٍ أخرى تشابكت خلالها يداها ثم اِصفر وجهها ربما خجلاً! ..

- أجل!
- حدثيني سيدتي، أنا قصدت منزلك لأعرف ما جرى!
- ولك ما تريد ...

وقصت عليه ما حدث تماماً كما حدثت أمه لكنها كما كانت تحاول في كل مرةٍ ومع كل من يقصد منزلها بحثاً عن الماضي اِخفاء جزء قصتها الأخير! وكانت تخاف دوماً الفشل لأن المرض لا يخفيه سرٌ ولا يغطيه صمت!.

"مريم" التي كانت حاضرةً حتى في غيابها متجسدةً في قلادةٍ تركتها على الدوام معلقةً حول رقبة حبيبها طويلةً حتى نهاية صدره لامسةً قلبه ليشعر بالأمان يسري في عروقه! كانت تدري كل الدراية عن "أسمهان" متقاسمةً معه اللهفة في معرفة الحقيقة والحنين لنبش ماضٍ هو نصفه بلاشك! لذا فإنها كانت سنده على الدوام محيطةً بفشله في اِيجاد المنزل المُغَيب بين الطرقات المتشعبة والمدينة التي تشبه بكبرها الفضاء! كان كأنه يبحث عن نجمٍ لا يكاد يلمع بين ألاف النجوم منقباً في ماضٍ فقير المعالم لا يصله به سوى منزلٌ مشوهٌ واِسمٌ قديم الطراز وكتابٌ لا يشبع من تفحص وتقبيل صفحاته!

كانت "مريم" مقاسمةً له في جميع أسراره حتى أنه بعد أن مضى على حبهما فترةٌ لا بأس بها ووجد في عينيها ملاذه وفي قلبها الرقيق مهرباً من عالمه القاسي فقاسمها سره وأطلعها على كتاب جده فرأت في ثقته أمراً عظيماً وفي كتابه لغزاً ورهبةً لا تخفيان عن إنسان! فاِستمتعت به ليالٍ وقضت في قصصه طويلاً حتى وجدت "أسمهان" بعينها المتورمة فعرفت من تكون وتخيلت ما قاسته إلا أنها لم تصل لما سمعه "مهند" ذلك اليوم ولم تتخيل أن تكون "أسمهان" اِمرأةً حقيقيةً!! فتخيلتها كفيلمٍ كرتونيّ يركض في شاشة التلفاز بألوانه الفاقعة وحواره الساذج أحياناً والمضحك أحياناً أخرى! لقد كانت عاجزةً عن تخيل بأن "أسمهان" هي مفتاح لغز الماضي بأكمله وأن اِحتمالية عدم وجودها هو هدمٌ للغزٍ قديم وأملٍ عظيمٍ يركض خلفه "مهند" كبحارٍ يستدل بالميناء لينجو من هبوب العاصفة! وعلى الرغم من عدم تخيلها لعظمة الموقف وشدة تعلقه بالماضي إلا أنها كانت خير عونٍ وخير حبيبةٍ تقاسمت مع نصفها الأوحد الطرقات والخرائط والاِحصاء والبحث ... فكانت قد دخلت في رحلة البحث عن ماضيه كما لو أنها دخلت قصةً من قصص "تان تان"! فكانت تقضي الليل وهي تشطب الشوارع التي تم البحث فيها لتحسب كم طريقاً سوف يتم البحث فيه غداً! ثم تعيد التدقيق في الصور التي اِلتقطتها لكل حيّ مروا به دون أن تجد ما ذكره لها عن النافذة الحمراء!! بالله أين هي؟! وكيف يمكن أن يكون في هذه المدينة نافذةٌ حمراء بعد كل هذا البحث .. كما لو أنها اِختفت عنوةً أو لم توجد من الأزل!. كانت أحياناً تفقد صوابها لشدة تعلقه باللغز باحثاً عنه دون أن يهتم لها! لعنائها مثلاً! أو لشوقها ... أو حتى لجهودها فيمر اليوم بطوله دون أن يذكرها بكلمة شكراً! وكانت بارعةً بتبرير مواقفه كما كان بارعاً في سحرها!

"مريم" لم تنكر يوماً على نفسها بأن من تحبه ضعيف الشخصية! ذلك أنها كانت تقنع نفسها بصلاحه وحبه وقلبه النقي، وكان على الفعل كذلك فكان نبيلاً إذا ما اِحتاجت لأمرٍ لباها كبرقٍ مفاجئ! وتفخر شديد الفخر إن جاء غريبٌ ليهمس لاِحدى صديقاتها بأنه يخدم كل من جاءه محتاجاً بابتسامةٍ ولهفةٍ شديدتين! كان ضعيفاً وهشاً وفي الوقت ذاته رجلاً وفارساً لا يُستهان بنبله! وكانت تقع وسط رأيها وغرامها فترفضه حين تجمع كل سلبياته معاً ثم تذبل عيناها عشقاً حين تذكر نبله وجماله الذي اِستلطفته من اللحظة الأولى! هي تحبه وهذا الحب دفعها نحوه كل يومٍ بعد الكلية يدخلان طريقاً ويخرجان من آخرٍ دون أن تفكر بمصيرها إن لمحتها والدته يوماً! هو لم يخبرها بالتفصيل عن أمه .. وكيف يمكن لفتاةٍ أن تفكر بأن على الأرض أماً لا تريد لابنها أن

يحب أو يتزوج! كان يلمح لها وكانت تهز برأسها بأنها فهمت وتفهم حقاً بأن أمه تريد أن تجد له فتاةً على مزاجها! تماماً كالمقاسات التي تحب والأفكار التي ترغب وكانت تخطط طويلاً كيف يمكن أن تتعرف على أمه صدفةً ثم تثير اِعجابها عندما تعرف كم تكن له من حبٍ فتختارها من تلقاء نفسها زوجةً لاِبنها بيد أنها لم تدرك مراد الشاب أو ما رمى إليه دون أن يصرح به .. لم تدرك بأن أمه قررت منذ أن رأته ضعيفاً ألا زواج لهذا الشاب! كلمةٌ قاطعةٌ رمتها على مسمعه حين سمعته مرةً يبكي لأجل "مروى" ففتحت باب غرفته كعادتها غاضبةً متضايقة وسردت على مسمعه قرارها

- كفى بكاءً على اِمرأةٍ لا تساوي ظفرك!! كفى نحيباً كاِمرأةٍ ثكلى! ما بالك لا تملك طاقةً على قلبك... ولأجل من تبكي الرجولة في منزلي؟! على اِمرأةٍ بلا سببٍ ولا مبررٍ رمتك!! .. اِسمع يا ولد اِسمع واِفهم كلامي حرفاً حرفاً لأنه لا رجعة فيه ولا تغيير!! ... أنا عملت طيلة عمري كادحةً لأجلك أنت .. أنت فقط! وما دمت بهذا الضعف فلا اِمرأةً ستدخل هذا المنزل إلا وكسرت رجلها!! لا اِمرأة ستدخل منزلي لتسرقه وتنهبه وتدفع اِبني للاِنتحار! ... اِنظر في عينيَّ! اِنظر فأنا لا أمازحك أو أرمي كلامي في الهواء! لا تجلب لي بعد اليوم عاهرةً أخرى من جيلكم المقرف! لا تسحب إلى منزلي حيةً تلدغنا لتسرق كل شقاء عمرنا!! باب الزواج قفل إلا إن كسره الله بمعجزة! ... أنت يا "مهند" لن تتزوج مادمت حيةً! الزواج للضعفاء قهرٌ وذل وأنا لن تقهر اِبني اِمرأةٌ ما حييت..

كان قرارها لا لغو فيه فلم يستطع الشاب تأويله لأي ضوء أملٍ ينير درب حبه، على أنه أحبها! ورأى في عينيها اللوزيتين بريقاً محبباً وأملاً وطاقةً جعلاه يضحي بقرار أمه لأجلها ذلك أنه كان يستيقظ من الحلم أياماً كأن أحداً لكمه على وجهه فيمسك رأسه ويبكي! وينسى القوة التي وهبه إياها كتاب جده العتيق ثم يعود لخدر الحب كلما غمزته بعينها فذاب كقطعة شوكولا تحت شمس الصيف! كان يتمسك أمامها بها ويحلف بأنه سيهدم العالم ليتزوجها ثم بينه وبين نفسه يتساءل أيمكن أن يرمي بأمه التي عانت لأجله الأمرين مقابل حبيبة قلبه؟ .. ثم يعاوده التساؤل بعد قليلٍ أيمكن أن يضحي بحب حياته لأجل أمه التي لم تشعر به طيلة حياتها؟! ... كان يصاب بِانفصام شخصيةٍ متعبٍ ثم كلما رآها تعالج كمعجزةٍ وركض بطاقةٍ لا مثيل لها إليها ليقضيا الساعات سوياً ثم يتفرقا ليرجع إلى المنزل محملاً بعطر الحب وفرحات الهوى فتلمحه أمه على أنها لم تتخيل بأنه سيقدم على الحب مرةً أخرى بعد كل ما حصل! .. أيمكن أن يتجرأ بعد أن دفعه الهوى بقدمٍ حديديةٍ نحو أرضٍ لا تشبه حضن أمه بل تفتح حين اِستقباله بوابات الجحيم! ... ثم

دفعه مرةً أخرى لسكةٍ لا نهاية لها سوى غضب الله!! ... كانت تراه منهمكاً بدراسته منشغلاً بكليته يعود منهكاً ثم ينهض صباحاً ليعيد الروتين ثم ينهي سنته بين أوائل الدفعة! فكيف للحب أن يتدخل في حياة طالبٍ مجدٍ لهذه الدرجة؟! .. على أنه كان يقضي معظم وقته معها ولولا اِنتقاله لكلية الفنون لكان اِستمر في الرسوب إلى ما شاء الله!!.

"مريم" التي اِعتادت أن تصف له هيئة "أسمهان" محاولةً قدر المستطاع فصلها عن "أسمهان الأطرش" غير أنها عبثاً نجحت لتخرج الاِثنتان متماثلتين إلا أن واحدةً بجلال عينيها شامخةٌ وأخرى بألوانها الفاقعة الكرتونية هائمةٌ في خيالاتها تصفها له فيضحك! كانت جميع تخيلاتها لا يمكن أن تمس حقيقة ما سمع ذلك الصباح! كان في حضرة تلك السيدة الجميلة الوقورة وصوتها الذي يكشف عن اللغز القديم رويداً رويداً ضعيفاً فبكى دون أن يرد لرجولته اِعتباراً! على أن السيدة كانت تتوقع الدموع في حضرة ماضيها المريب.. كانت قصةً لا تصدق لولا وجود المنزل المحترق حتى اليوم أثراً تثبت الصحف القديمة صحته! كما اِمساكه لسره المحكم في خزانته يؤكد بألا مجال للتلاعب بماضٍ كهذا!. سردت عليه الماضي وكان يستقبله بدموعٍ حارةٍ واِهتمامٍ بليغٍ كشف عن عدم مبالاته بالبكاء أو اِعتياده عليه!! ثم كما فعلت مع والدته تماماً اِحتفظت بنهاية القصة لها كمكافأةٍ على حياة الطفلين!! وأخذ الصمت يعود للمنزل متشعباً بين الغرف والممرات! كان ينتظر المزيد .. لا يمكن أن تكون القصة اِنتهت على هذا النحو! إلا أنها لم تضف أي حرفٍ لما سردته فاِضطر في نهاية المطاف للعبور نحو باب المنزل الكبير محاولاً التلصص على الغرف الأخرى .. كان هناك لغز! كان يشعر بذلك الشعور يضمه كأمه! يخنق رئتيه ويدفعه نحو المزيد من البحث والتعب! .. فلا شك بأن اللغز لم يكتمل مادامت عينا السيدة تنطقان بسرهما على أن فمها يكبته.

خرج الشاب بعد ساعتين ونصف بلا منزلٍ ولا وجهة! ... كان صغيراً أمام الماضي فشعر بأن الطرقات أكبر مما بدت له دوماً وأن السماء تدور وغيمةٌ يمنى أصبحت يسرى ثم عادت لما كانت عليه! ... ثم أيقن بأن الماضي ثقيلٌ على كاهله وكثر البكاء أتعب صحته وزغلل عينيه فقصد بقال الحي ليتصل بـ"مريم" حيث طلب لقاءها على عجلٍ ... وفي كليتهما جلسا على حافةٍ مرتفعةٍ عن الأرض بعض الشيء وكأنها جبلٌ صغيرٌ يطل على جزءٍ بسيطٍ من المدينة وجزءٍ كبيرٍ من السماء فتغرب الشمس فاتحةً ذراعيها أمامهما وكأنها ترقص فرحةً بموعد راحةٍ محدود! هناك كانا يلتقيان غالباً وكان مكانهما المحبب في الشتاء القارص والربيع المبهر والصيف الحارق ... اِعتادا

شكل الشمس وهي تودعهما لغدٍ وألِفا عدّ السيارات من هذا العلو الذي يتوضح عبره الطريق الأساسي لهذا الحي كما ألِفا لعبةً اِبتدعاها فكانت مسليةً للغاية خاصةً لهواة الرسم! كان أحدهما يضع يديه على عيني الآخر ثم يصف له ماراً بلا ألوان ثيابه بشرط أن يكون ممهلاً! ثم يظل الآخر يتخيل ما يصفه الأول حتى ينتهي ويفرج عن عينيه اللتان تبحثان عنه حتى تجده! وإن تخطى عدم عثوره على المار المراد ثلاثة مراتٍ كان اِفطار الصباح التالي على نفقته! .. كانا يقضيان في هذه اللعبة وقتاً طويلاً فلا يشعران إلا والغروب هاجم الأرض فسلب نورها وأضاء مصابيحها!. هناك تماماً على تلك الحافة كان ينتظرها ليفشي لها عن السر الدفين علّ أحداً يحمل معه قلبه المثقل بالماضي ... عن ماذا كان يبحث؟ سأل نفسه بتأوهٍ وتألم .. عن الألم؟ عن مزيدٍ من غبار الماضي الذي كاد يخنقه ويجهز على أمره؟! ولماذا كل هذا العناء إن كان الماضي لن يعود ولن يكون له يدٌ في تغييره .. ألم يكتفِ بإيجاد خاله ثم جمعه مع والدته ليلتم جمع الأسرة من جديدٍ؛ إذاً عن ماذا يبحث في منزل "أسمهان"! وما السر الذي مازال مختفياً خلف شفاهها تكتمه خوفاً أم رغبةً في حفظه!

كانت الأفكار تتقاذفه حين قطعت "مريم" تلك التخبطات بسلامها فأشرق وجهه المصفر وتراقصت عيناه المقتولتان على عتبة المنزل المحروق! .. كانت شفاؤه وطاقة فرجٍ أطلت من حيث لا يدري وكم شكر الله على اِستطاعته دخول كلية الفنون التي غيرت حياته بالحب والرسم وكان له نصيبٌ من السعادة فيها ما لم يحظ به في تلك الكلية البائسة!. جلست قربه بخفتها المعتادة وبهدوءٍ طالعت صفحة وجهه بإهتمامٍ بلغ الحزن! ثم قالت بعد إطالةٍ..

- قل لي يا حبيبي ما بك؟! أويمكنني الهناء في صباحي وأنت حزينٌ كئيب؟!
- وكيف الطريق إلى السعادة يا "مريم" والماضي يلاحقني..
- بل تلاحقه!

اِستدار حتى واجه وجهها ثم قال وعيناه اِختلطتا بمشاعرهما بين الجدية والحزن..

- وكيف لا ألاحقه!! إنه يمص دمي ... يقهرني كلما نظرت إلى أمي فلم أعرف عن أصلها شيئاً!! أين قبر جدي؟! ما اِسم جدتي ... كيف يبدو قاتلهما!! ليتني ألقاه .. ليتني!
- وما الفائدة! .. ربما مات
- لم تقل بأنه مات!

- من؟!
- "أسمهان"!
- "أسمهان"!! كيف وجدتها!
- عندما اِتفقنا ألا نخرج بسبب سوء الطقس، ذهبت .. وفي ذلك اليوم رأيت النافذة الحمراء!! رأيتها كأنني أرى عزرائيل أمامي! واليوم طرقت بابها باكراً فاِستقبلتني
- أكمل!
- كانت هناك يوم حرق المنزل! أجبرها على المضي معه ليسرق أموال جدي وأوراق ملكية منازله وأراضيه ثم أحرق المنزل بيد أن "أسمهان" أفلتت من براثنه وعندما أيقنت هروبه تسللت إلى المنزل لتنقذ أمي وخالي بعد أن تأكدت من أن من تبقى توفي! وهكذا علقت اِسميهما على صدريهما لتتركهما أمام ملجأيهما..
- كانت هناك!
- ولم تكمل! ... لم تذكر بأنه عاد أو مات ... قالت بأنه غادر البلاد نحو الغرب كما قيل
- وهل يمكن لقاتلٍ أن يعود إلى مكان جريمته؟!
- ولِمَ لا؟!

صمت برهةً ثم قال أمام دهشتها الواضحة..

- جمعت الأخوين البارحة!
- جمعتهما!
- أجل .. وكان لقاءً تدمع له العين
- قل لي ما ردة فعل والدتك؟!

ضحك ساخراً ...

- ضربتني! رمت كتبي أرضاً ثم لعنتني وطردتني!
- طردتك!
- أجل يا "مريم" ... قالت بأن ماضيها لها وحدها ولا دخل لي فيه!
- كيف لا دخل لك فيه ... ماضيها أصلك وماضيك!
- أمي يا "مريم" قصةٌ لا يفهمها إلا فيلسوفٌ مخضرم!

- وأين ستبات الليلة!
- في العراء .. أين سأبيت برأيك؟!
- ليتني أستطيع دعوتك لمنزلي!

فكر بصمتٍ عميقٍ كأنه يجمع الماضي بين يديه ثم قال بقليلٍ من الحب وكثيرٍ من التصميم

- تحت منزلك ... سأبيت الليلة!
- تحت منزلي!!
- أجل سأقضي الليلة أراقب شرفتك حتى تستيقظي!
- أجننت؟
- لا والله قمة العقل ... روحي فيك ولا ملجأ لمطرودٍ إلا بين يديّ من يحب!

رفضت بشدةٍ لكن رفضها لم يدفعه عن رغبته! لذا بعد حلول المغيب شاهدته يعرج إلى زقاقها ليحط حقيبته قربه فارشاً سترةً صوفيةً تحته متبسطاً الرصيف! حقدت لحظتها على والدته! شعرت بغلٍ يتسرب إلى قلبها كلما شعرت بالدفء يحيط أطرافها بينما البرد يأكل أطرافه! ... كان عليه أن يقصد منزل خاله لكنه لم يرغب، كان يريد أن يثبت بأنه رجلٌ للمرة الألف دون أن تأبه به أمه! .. قالت بأنه ولدٌ عديم المسؤولية، أكُل ما فعله و في المقابل ولد؟! ولد ..! لِمَ تكسره أمه دوماً ثم تتباهى بفناء عمرها في سبيل إسعاده!.

بينما يتلوى الشاب المسكين من تجلد أطرافه وإحمرار يديه برداً كانت الأم تدور في المنزل عاضةً على أسنانها غضباً ذلك أن الأخ ملّ من تهدئتها فغادر منزعجاً لتظل "هالة" قربها مندهشةً من وجود أخٍ لـ"نورا" لم تسمع عنه طيلة حياتها! في بداية الأمر لم تفهم سبب الغضب الشديد والموجة المرعبة التي تضرب المنزل بين دقيقةٍ وأخرى من صريخ وغضب .. كانت خزانة الشاب مركزاً للأرض في نظر الأم وكلما همت لخلع قفلها أو تحطيمها بفأسٍ قد عث عليه الزمان بعد أن تركه زوجها الراحل في القبو هدأت فورتها فجأةً! لتحسب خطواتها وتتأكد بأن كسرها بهذه الهمجية لأمرٍ عزيزٍ على طفلها ربما يؤدي بالمسكين للإنتحار!! وقد يدفعه لترك المنزل للأبد .. ولِمَ تعيش هي إن هجر المنزل! ... دخلت الجارة في موجة الغضب عندما سمعت الأم تنهر إبنها الغائب وبين يديها كتابٌ تلوح به كحركة إستهزاءٍ "واحسافة ... واحسافة سنينٌ وسنينٌ وأنا أراك محامياً ثم تصبح فناناً ...!! وتكذب علي؟! وتأتيني فرحاً بنوالك للمرتبة الأولى وتفرحني وتجعلني أحتفل

بغبائي! أحتفل بغبائي أنا لا بنجاحك!! يا ويلتي! فنون!! أين محامي الأسرة .. أين الذي سيدافع عن المظلوم ويزج بالمجرمين في السجون!! الآن صرت فناناً ترسم اللوحات بزهيد السعر وتقبل الأيادي لتعرض فنونك!! ... يا ويلتي بعد أن كنت ستلبس البدلة بأناقتها وشياكتها صرت ستملأ وجهك بالألوان وتلطخ يديك بالفحم!! .. من غيّر أفكارك بعد أن زرعت تربتك بعنايةٍ!! ياربي لِمَ لم أحصد ما زرعته بشقائي!!"

لا تمل "نورا" الدوران في المنزل عند غضبها مرددةً القول ذاته حتى قاطعتها "هالة" بعد أن فهمت القصة كلها خاصةً وبعد أن أفشى لها "مهند" بسره على ألا تخبر والدته إلا أنها اليوم عرفت فلمَ لا تحاول اِقناعها ...

- يا حبيبتي اِهدئي بما أنه ناجحٌ فيما يدرسه فمعنى ذلك بأنه يحبه! .. أتذكرين سنينه في المحاماة! كم سنةً رسب دون أي أملٍ بالنجاح؟! كان فاشلاً رغم كده وتعبه ... لا يمكن أن نرسم للآخرين حياةً ثم نطبقها عليهم .. البشر ليسوا دمى ونحن لسنا الله لنُحكم مصائرهم!
- تجادلينني بعد ما رأيته من عصيانٍ وتطاول!!
- تطاوله على ماذا؟! على ماضيكِ ... يا "نورا" هو ماضيه! جزءٌ منه كما منك .. الطفل الذي يملك أماً بلا ماضٍ كشفت له الأيام ماضيها من حقه ولو بدافع الفضول أن يركض خلف اِنجذابه! ...

ودون كللٍ أو مللٍ اِستمرت الجارة في الدفاع عن الاِبن العاق حتى تعدى من الليل ربعه فحملت نفسها عائدةً نحو بيتها تاركةً النار تزداد نشوباً والغضب يتفاقم في صدر الأم التي أفنت أكثر من نصف عمرها في رعاية اِبنٍ جعل منها أضحوكةً وحول جهدها وعناءها هزواً!! ... كانت تمسك بين يديها كتاب الرسم الهندسي! الكتاب الوحيد الذي لم يره "مهند" بعد أن دُفع بفعل رميها للكتب نحو أسفل الخزانة فلم يحمله معه كما فعل بالبقية تيقناً بتفتيشها لكل أغراضه حافظاً بذلك سره الذي كشف على مصراعيه نتيجة لمح الخال لأربعة كتبٍ لكلية الفنون فاِستفسر من أخته عن فرع الشاب فنفت وأكدت له بأنه طالب حقوق فتساءل عن سبب وجود مسطرة الهندسة في زاوية غرفته فبررت ذلك بهوايته فضحك وهو يؤكد لها بأنه طالب فنون فركضت إلى غرفته وأخذت تفتش بين أغراضه باحثةً عن دليلٍ يثبت لأخيها بأنها تعرف كل شيءٍ عن اِبنها! إلا أنها على العكس تماماً وبصدمةٍ جعلتها تشعر لبضع دقائقَ بالدوار رأت كتاب الفنون مرمياً تحت خزانته ثم تذكرت لهفته بأخذ الكتب جميعاً قبل مضيه دون أي شيءٍ آخرٍ فاِستنتجت بأنه خبأهم كي لا

تكتشف سره الدفين!! تفحصت غلاف الكتاب فوجدته للسنة الثانية الفصل الثاني! سنة ونصف! .. "يا إلهي كيف اِستطاع أن يجعلني أضحوكةً بهذا الشكل!!"

كانت قد جلست بعد اِنهيار أعصابها على الأريكة راميةً الكتاب قربها بقرفٍ وغضبٍ شديدين .. نظرت نحو ساعة يدها فكانت قد تركت الواحدة ليلاً من زمن! ... كيف يجرؤ! كيف يستطيع النوم خارج المنزل ... ماذا ربيت في منزلي أنا! اِبناً! لا والله الاِبن لا يفعل هذا بأمه ... لا والله يا "هيثم" لا والله أنا لم أربِ اِبنك كما يجب ... إنه عاقٌ، لا شك في ذلك!!

كان الغضب قد أعمى بصيرتها فظلت قرابة الساعة قرب السر الأعظم الذي لطالما حاول بكل قواه وقدرته أن يخفيه إلا أن الله قدر أن يكشف أعظم سرين في حياته في ليلةٍ واحدة! فعندما نوى اِسعاد أمه بجلبه أخيها من الماضي إليها ... إلى يديها لتضمه وتعيد اِحياء فقيديها خلاله كانت ناكرةً للجميل! ففزعت لماضيها الذي اِعتبرته ملكاً خاصاً بها فضربته وأهانته بكامل قواها أمام خاله الذي لطالما رآه ضعيفاً لأنها هي ربته على ذلك! ثم طردته والآن تغضب لعدم رجوعه! .. أجل أعماها الغضب الذي نزع بصيرتها دوماً إلا أن فضولاً غريباً طغى على قلبها بشكلٍ مفاجئٍ فسحبت الكتاب نحوها وأخذت تكتشف ما الذي جذب اِبنها بكل هذه القوة ليترك كلية الحقوق ويلاحق كلية الفنون!!. كانت معظم الصفحات لرسومٍ هندسيةٍ مبسطة ثم مع اِزدياد الصفحات أخذت تزداد صعوبةً، شعرت بمللٍ عندما وصلت لنصف الكتاب وعندما نوت أن تعيد رميه حيث كان لمحت صفحةً على بعد بضعة صفحاتٍ من حيث وصلت وقد رسم عليها بلونٍ أحمرٍ غامقٍ قلبٌ كبيرٌ دفعها لمتابعة تقليب الصفحات فكان التطور كسلسلةٍ واضحة! ففي البداية كان الأمر مختصراً بقلب ثم بكلمات أغنيةٍ ثم بزخرفةٍ لاِسم اِمرأةٍ غريبٍ ثم يتدخل خطٌ جديدٌ بلونٍ مغايرٍ ترك كلمةً واحدةً كتبت على عجلٍ "أحبك"! ثم كتب بعد عشرين صفحةً من الاِعتراف "سأترك لك قبلةً كي يكون لي جزءٌ قربك حين تنام!" وعلى نهاية الصفحة طبعت قبلةٌ بحمرةٍ ورديةٍ تركت علامةً على الصفحة التي سبقتها! .. اِستمر تطور الحب حتى اِشتعلت شرارة الغضب مرةً أخرى في قلبها وشعرت بأنها اِمرأةٌ غبيةٌ حقاً وأن هذا الولد ما فتئ يكسر كلامها ثم يعيش كما يحلو له كأن لا قانون يسري في منزلهما! أيعقل أن يحدث كل هذا وهي التي ظلت تنظر إليه بعين الاِعجاب ما يزيد عن السنة متفائلةً بمحاميها البارع! كيف تجرأ على أن يحب وهي التي سردت على مسمعه بشكلٍ واضحٍ وصريحٍ ألا زواج طالما هي حية! فكيف يجرؤ على الاِستمرار بحبه بينما قرارها لم يلغَ أو يعدل!

قصدت غرفته للمرة العاشرة هذا المساء وأخذت تفتش بين أوراقه، على مكتبه .. تحت سريره عن دليلٍ آخرٍ ... من هي "مريم" بحق الجحيم!! من "مروى" إلى "مريم" .. ألا يكف هذا الطفل عن العناد والمضي قدما فيما ليس له سعادةٌ فيه ولا هناء!! ألم يفهم بعد أن أمه أعلم منه بما هو مضرٌ ونافع! وكيف لولدٍ لا يستطيع دفع فاتورةٍ بمفرده أو قيادة سيارةٍ منفرداً بها أن يحمل على عاتقه همّ اِمرأةٍ ربما تريد سرقته! .. من المؤكد أنها تنوي سرقته فلماذا إذاً تحب شاباً خجولاً ضعيف الشخصية؟! ... ظلت "نورا" تدور حول الفكرة مقنعةً نفسها أكثر من أية مرةٍ سابقةٍ أن اِبنها غير قادرٍ على تحمل مسؤولية الزواج كما أن من ستختاره لن تختاره حباً به وإنما حباً بأموال أمه! لذا كان عليها منعه بكل قواها فهي لا تدري منذ متى بدأ الحب يطغى على قلبه ولا إلى أي حدٍّ وصل بطغيانه!! كانت "مريم" المستقطب الأعظم لغضبها فتضاءلت مصيبة تغيير الكلية لتبرز "مريم" كمشكلةٍ أهم وأخطر!. ستخطفه هذه الفتاة منها كطفلٍ رضيع تجذبه حلوى رخيصة!! كانت كلما فكرت بتجاوز الساعة لما بعد الثالثة صباحاً سرى في جسدها تيارٌ كهربائيٌّ أحرق أعصابها ودب في أطرافها الرعب فنهضت تتمشى في المنزل وقد تركت جميع أنوار الغرف منارةً بيد أنها رغم إنارتها كانت تتعثر بالكراتين والصناديق التي أصبحت لا تطاق! المشكلة بأنها تراهم "جميعهم" مستلزمات لا يمكن رميهم أو التفريط بهم!!!.

الوضع المزري الذي وصل إليه منزلها أجبر عامل تصليحٍ كهربائيٍّ أتى بعد اِنقطاعٍ مفاجئٍ للكهرباء على حبس ضحكته بعد أن توضحت آثار الدهشة أمام منزلٍ غريبٍ كهذا عندما حاول العبور خلال الممر الضئيل المتبقي من باب المنزل الذي لم تملأه بصناديقها إلى المطبخ المحشو بهنّ ... وكانت الصعوبة بما كان في الوصول إلى مقبس الكهرباء! حيث كان أمامه صندوقان مرتفعان ثقيلان ثم طاولةٌ خشبيةٌ صغيرةٌ وضع عليها أقمشةٌ وبناطيلٌ بشكلٍ غير مرتب! اِضطر الرجل لجرّ كل تلك العوائق حتى يصل لفتحةٍ صغيرةٍ ينبثق منها المقبس!! ... إنه منزلها الحبيب مهما كان ممتلئاً وضيقاً بأنواره الساهرة القلقة يقبلها الليل الداكن مضمحلاً لتطلع الشمس متثائبةً تاركةً للأم قسطاً من النوم ممزوجاً بقلقٍ واِضطرابٍ شديدين.. كانت رغم نومها منتظرةً لمجيئه! على أن الصباح قرع النوافذ واِجتاح الغرف الهادئة دون أن توقظها خطواته مطلقاً ... لكن صراخاً شديداً قطع نومها فأخذت تترنح آخذةً طريقها بين الصناديق نحو غرفة الدكان فاركةً عينيها ذلك أن تكرار الصراخ عدة مراتٍ متتاليات دفعها للتركيز بوجهة الصوت وما أن فتحت نافذة الدكان حتى عرفت بأن الصوت لا شك قادمٌ من منزل "هالة"!!. مع تتابع الصراخ الذي اِنتهى بنحيبٍ

اِرتدت المرأة أي شيءٍ يدفئها لتنزل أربعة طوابقٍ بسرعة البرق ميعدةً صعودهم في عمارة "هالة" حتى وصلت إلى الباب فضربته بعنفٍ وبعد عدة ضرباتٍ وثوانٍ فتحته "سهى" وقد اِحمرت عيناها لشدة الصدمة والبكاء فلم يتبقَ من بياضهما شيءٌ! جمد شكل الفتاة "نورا" التي باغتتها بعد هدوءٍ صادمٍ بصوتها المرتعب "ما بك!!!" فوضعت الأخيرة يديها على وجهها علّها تخفي بكاءها وقالت بصوتٍ متقطعٍ محتقن "بابا يا خالتي "نورا" ... بابا توفي!!" فتحت الجارة عينيها دهشةً إذ لم يمضِ على مشاهدتها له إلا الأمس وكان عائداً بكاميرته الحبيبة متنشطاً لجمعه صوراً جديدةً للطبيعة، فكيف حصل ذلك!!. عبرت الباب متجهةً نحو الداخل فوجدت "هالة" ملقاةً على سرير المتوفى تبكي وقد أغشي عليها من البكاء وبالقرب منها تبسط "سامي" الأرض أمام السرير مخفياً رأسه بركبتيه وقد تصاعد صوت نحيبه ليملأ الغرفة! وعلى السرير كان يرقد في سلامٍ "ماهر" دون أن يبدي اِهتماماً لتهدم الأسرة ونحيبها!! ... هادئاً، ساكناً بوجهه الأصفر وصمته المرعب! .. كان قد مضى على اِكتشاف الوفاة دقائق وكانت "نورا" أولى المقتحمين لحزن الأسرة المنكسر. حاولت رفع الزوجة عنه على أنها عبثاً تخلت عن اليد الباردة التي لفتها بيديها تاركةً عينيها تلمسانها مبللتانها بالدمع ثم حاولت أن تستفهم من الشاب أسباب الوفاة فلم يجب ثم عادت إلى الفتاة فاِستفسرت منها لتجيبها الأخيرة بصوتٍ مختنقٍ أكثر من سابقه بأنها اِستيقظت لتراه على ما هو عليه وقد كان البارحة بحالةٍ جيدةٍ لا تشي بأي مرضٍ أو ألم!. أخذت "نورا" الهاتف متصلةً بالطبيب الشرعي الذي قدر بأن الوفاة حصلت منذ ساعتين تبعاً لسكتةٍ قلبية .. كانت "هالة" تلطم خديها متحسرةً على وفاته بقربها ملتصقاً بها دون أن تشعر بعذاباته ولا مستطيعةً وداعه الوداع الأخير بينما اِنهار الإبن نهائياً لشدة تعلقه بأبيه ذلك أن الفتاة كانت الوحيدة التي تماسكت في حضرة اِنهيار الأسرة! فظلت بقواها على الرغم من بكائها المؤلم.

شعرت "نورا" بحضرة المنزل المحزون والأسرة المفجوعة بعودة الماضي إليها ... تذكرت اِستيقاظها لترى زوجها الحبيب مفارقاً الحياة بين يديها! على أن عذاباته فاقت عذابات جاره بآلاف المرات ... تذكرت ورأت بأن بكاءها مع الباكين لا يلفت اِنتباهاً فبكت وأفرغت دموعها المعتصرة في أحداقها ثم شعرت بِارتياحٍ شديدٍ على أن الضيق عاودها عندما شاهدت من جارتها سوء الحال وقلة الحديث والوجه الأصفر الميت! ساعدتها على النهوض من جانب الجثة التي جاء رجلٌ ليغسلها ثم لفها بغطاءٍ أبيض تاركاً الوجه بارزاً كالقمر!. جهزت "نورا" بمساعدة الفتاة أكياساً من الجليد ليضعوهم حول الجثة وبين قدميها ويديها ثم أخذتا تصليان عليه وتقرأان ما تيسر من القرآن

حتى اِمتلأ المنزل بالمعزين الذين لم ينتظروا العصر حتى حملوا الجثة متجهين بها نحو المقبرة التي لا تبعد عن المنزل الكثير ... لم يكن الخروج سهلاً مطلقاً فقد أفلتت الزوجة قواها وسقطت أرضاً تلطم وجهها صارخةً بِاسم زوجها الذي يتخطى هذه المرة عتبة المنزل بلا رجعة!! .. كانت "نورا" مع كل حركةٍ تقوم بها "هالة" تذكر نفسها وألمها ... ألمها الذي زاد عن ستة وعشرين عاماً ومازال يحرقها كما لو أنه حديث الولادة!.

أشرقت الشمس من بين غيوم الليلة الماضية لتزيحهنّ الرياح التي بدأت قويةً ثم عادت لطبيعتها فأفاق الشاب من اِستناده إلى سيارةٍ بدت من اِتساخها أن صاحبها قد رماها من زمنٍ فتطلع إلى شرفة محبوبته المغلقة كأن الفتاة حين رأته وأطمأنت لحاله ذهبت في نومٍ عميق!!. وهكذا حمل الشاب كتبه بتثاقلٍ مقرراً التوجه إلى منزله مرور الكرام ليطمئن على أحوال أمه من بعيدٍ ذلك أنه حين وصل وترامى إلى سمعه صوت القرآن ينضح من عمارة "هالة" والنحيب قد كشف بأن ميتاً قد أُخرج من هناك صعد بسرعة البرق نحو وجهة الصوت وكان كلما اِقترب اِنقبض قلبه حتى وصل إلى بابها فتوضح له صوت النساء وهنّ يبكينّ، فزاوله شكٌ عميقٌ بأن "هالة" قد أصابها مكروهٌ!! فنقر الباب بحدةٍ ثم فتحه لتنكشف أمامه حلقة نساءٍ منهنّ يبكينّ ومنهنّ يدعينّ ومنهنّ يقرأنّ القرآن، بحث بعينيه عن "هالة" على أنه لم يرها فاِغرورقت عيناه بالدموع إلا أن أمه التي خلقت أمامه بينما كان يعصر عينيه ماسحاً عنهما أثار البكاء أرعبته بوجهها المتجهم فاِضطر لمحادثتها وسؤالها عن "هالة" التي طمأنته وأكدت له بأن المتوفي زوجها فحزن كثيراً لهذا الخبر إذ إنه غالباً ما كان يصادفه بعد اِستقالته خاصةً عندما كان يقصد منزله للقراءة كل أسبوعٍ مرتين فكان يرحب به بهز رأسه ثم يكمل وقد علق على عنقه كاميرته نحو الغابة. تذكر تفاصيله كأنه أمامه فعادت الدموع تغلف عينيه لترسم خطوطاً تفضح ضعفه أمام النساء.وعندما طلبت منه "هالة" الدخول نحو المطبخ دخل وعانقها على غير عادته فبكت كأنها ترى زوجها الميت من جديد! وعندما طبطب على كتفها اِبتلعت بكاءها بصعوبةٍ واِبتسمت اِبتسامةً كاذبةً كلها حزنٌ واِنكسار، ودعها ودعا لها بالصبر والسلوان ثم عرج إلى الخارج فاِلتقى بأمه التي وضعت مفتاح المنزل بيديه كأنها تتوعده بعراكٍ آخر عنيف!!

قصد المنزل وأخذ حماماً ساخناً ثم تمدد على فراشه في غير نيةٍ للنوم ودون أن يشعر غطّ في نومٍ عميقٍ لم يخرجه منه سوى صوت الباب وهو يرتطم! تنبه بأنها أمه وقد تحسر على عدم وجود خاله الذي أوقف جنونها المرة السابقة! إلا أنه اليوم أمامها، لوحدهما! كان يظن بأن الأمر عظيمٌ

لكنه لم يكن أعظم مما حصل ... كان يرسم المصيبة القادمة لكنه مطلقاً لم يتخيلها أشدّ عصفاً مما مضى! وأشدّ جنوناً مما قد تقدم! الطفل الذي لطالما رأته أمه لا يكبر قد كبر شاءت أم أبت وهذا الرفض الذي تحتد به تجاه ماضيها قد اِخترقه عشرات المرات ووصل لأسرارٍ لن تعرفها يوماً! هو ماضيه وبه تعلقٌ نحوه أكثر منها! ... ظنّ مراراً بأنها بعد أن أدركت بأن أحداً من أقربائها تخلى عنها تخلت هي بالمقابل عنهم جميعاً! حتى عن والديها! حتى أنها زارت منزلها فلم تبحث عن طرف خيطٍ يربطها بهم! ما أقساها!! وربما ما أشد ما حصل معها ... ثم اِنتابه ذات السؤال الذي ينهش هدوءه دائماً، من الذي دلها على الماضي؟ من الذي أفاقها في شبابها على البيت المحترق لتقصده غير آبهةٍ بما سيجري لها عقاباً لهروبها!!. كانت الخطوات تقترب فتتلاشى مع صوت كعبها كل فكرةٍ خطفته لسنين مضت! كان يشد مع اِقترابها عزمه .. يتذكر كلمات جده، تشجيعه .. وقوته! تتراءى له من بين خطواتها الصفحة الأخيرة لكتابه السري حيث ترك الجد آخر حروفه قائلاً ..

"اِياك .. ثم اِياك أن تستسلم لعاصفةٍ زائلة!! الحب داخلك يجب أن يكون أعظم من الكره، وما أن اِختلف الميزان ستخسر! .. كن محباً لذاتك، لغيرك .. لإلهك! كن ناجحاً لأن الحب لا ينتهي إلا بالنجاح! .. اِياك أن يسرقك الكره لجحيم الفشل.. فكل الذين يكرهون بقلوبهم القاتمة فاشلون، وإن نجحوا!! ..

الله محبة، والنجاح بدون الله فشل! .. أحب الله قدر اِستطاعتك برومانسيةٍ لا يفهمها الآخرون! أحب نفسك، آمن بذاتك .. اِبتسم ومن حيث لا تدري سيُخلق النجاح بين يديك لأنك غيرت تضاريس الزمان بثقتك!! ... أجل، لا تضحك! فالقدر نحن وحدنا من نستطيع تعديله! لأنك ببساطةٍ تستطيع الآن قتل نفسك منتحراً بينما تستطيع في الوقت ذاته التقدم نحو بدايةٍ جديدةٍ، إن أردت، ناجحة!. القدر، يا صديقي، نحن من نستطيع تعديله عندما نؤمن بنفسنا، وحدنا نحن من نستطيع تحديد اللحظة التالية إن كانت فاشلةً أم مفعمةً بعبق النجاح!.

أن تكون فاشلاً يعني أن تكره ذاتك بقدراتك الهزيلة وتجاربها المحطمة ومحاولاتها التافهة بينما أن تكون ناجحاً هو أن ترى في الفشل الفرح! .. أن تحتفل! أن تقسم بأن فشلك كان خطوةً للأمام وأنك تعلمت أن ما فعلته خطأ .. ببساطة! أن تتمعن في محاولاتك، أن تقدسهم!! أن تكون أنت كل اِيمانك في الحياة وكل قدوةٍ قد تتخيل وجودها على وجه البسيطة!! ... كن أنت، فلا خوف عليك حين تؤمن بنفسك، بهذه الأنفاس التي تسحب من الحياة قدراً منها لتستمر في محاولة أن تكون

أفضل، كل يومٍ .. أعظم وأكثر نجاحاً .. وأكثر ثباتاً ضد المخاوف التي لا مبرر لها سوى أننا نتقدم نحو أمرٍ لم يتقدم غيرنا نحوه! لأنك مميز ولأن الآخرين، هؤلاء الذين يكسرونك يخافون أكثر منك اِندفاعك ونجاحك ذلك لأنهم عندما تسبقهم نحو القوة سيضطرون اِتباعك كارهين؛ لأنك أنت؛ عليك ألا تخاف، أنت وحدك بكل خفقةٍ تزيد من عمرك لحظة، وبكل نفسٍ تسرقه لأنك تريد أن تكون! .. بكل طرفة عين، بكل حبٍ ينبض في عروقك ... بكل لمحةٍ للمرآة تنظر إليها بتمعنٍ فتخاف ... لا عليك الخوف، عليك الفخر؛ لأنك أنت، يا صديقي، .. لأنك وحدك اِختارك الله لتكون على هذه البسيطة، أنت!.

مر كلام الجد كالفرس في مضمار سباقه راكضاً أمام عينيه .. خالقاً في روحه قوةً لم يعتدها!! .. كان يصبح رغماً عن والدته، بمنارة الأحرف في ظلامٍ يخنق الأنفس ويعري الأرواح من جبروتها، رجلاً فيتلمس ذقنه التي بدأت تنبت بعد قضائه ليلةً في العراء ثم يتذكر شعرتين بيضاوتين نبتتا من جديدٍ لتكسباه أولى ملامح النضج! هو لم يعد طفلاً ... هو لن يخافها مادام في روحه جدٌ كان رجلاً .. كان شهماً وعادلاً فلِمَ تكون اِبنته غير عادلة! .. ما الذي تغير حتى اِستفاق هذا الكهل في أحشائه منذ أن غادره ذاك الطبيب! .. أكان رسولاً من الله ينبئه بأنه قد حان وقت الدفاع عن الرجولة! عن كونه ليس طفلاً يحبو على أربع! هو رجلٌ في أعماقه أحلامٌ ستتحقق وقوةٌ سوف تخرج وتصميمٌ لا يستهان به!. حبه المخفي في أحداقه سوف يتحول لأغنيةٍ تعلو في أرجاء الليل منيرةً مصابيحه على وقع الغزل! ... اِستعاد كتاب جده بمجمله في لحظاتٍ كأنه تعويذةٌ تقيه خُطا أمه الغاضبة وضربة كعبها التي تحفر دماغه كمعول!. وعند اللحظة الفاصلة بين اِمساك مقبض الباب وفتحه قال بصوتٍ مسموعٍ لذاته "أنا رجل!" وفتحت أمه الباب بثوبها الأسود الذي أتت لتبدله بعض ظهر اليوم ليليق بالعزاء، ووجهها الممسوح بالغضب وصوتها الذي تنذر شفاهها عن اِنبعاثه في أية لحظة!. نهض من سريره كمقاتلٍ جاهزٍ للحرب! وما أن اِستوى ظهره حتى قالت بهدوءٍ أدهشه ووعيدٍ أرعبه!

- "مريم" وكلية الفنون ... ماذا تخفي أيضا؟!

في جملتها الوجيزة كشفت جميع أسراره الخفية فسقطت نقطة عرقٍ مرت بعينيه المحدقتين بدهشةٍ عميقةٍ وخيبةٍ ثقيلة! كيف عرفت! ومن أين لها بِاسم حبيبته! ... ماذا يمكن أن يقول الآن! وأين الرجل الذي ظلّ طويلاً ينعشه! ... لم يقوَ على قول حرفٍ واحدٍ فأعادت السؤال بحقدٍ أشد فتردد كثيراً وقد تبين ذلك من اِرتجاف شفتيه حتى اِنبعث صوته أقوى مما كان في الحسبان!

- حياتي الخاصة .. كما ماضيك الخاص!!
- أترفع صوتك في وجهي!

أخفض عينيه اِحتراماً حتى أكملت بتسلطٍ توضح بنبرة صوتها الرنانة..

- طفلٌ مازلت، لا تعرف الخير من الشر!
- أنا لم أعد طفلاً!!

صرخ في وجهها بكبتٍ دام أكثر من ستة وعشرين عاماً! ثم حمل بنترةٍ حقيبته وهمّ خارجاً وقبل أن يقطع غرفة الجلوس لمح على المنضدة كتاب الرسم الهندسي! فسحبه بغضبٍ ولطم الباب خلفه! حينها أدرك من أين عرفت بأسراره الدفينة وتحسر بلا مبالاةٍ لعدم اِنتباهه له حين أخذ كل الكتب المتبعثرة على الأرض لكن ربَ ضرةٍ نافعة! لابدّ لكل أمرٍ نفع! حينها قضت أمه طيلة الليل متجمدةً أمام رفاة والده تبكي حظها العاثر! ثم اِعترفت بشيءٍ من الترفع بأنها السبب في كل ما جرى خلال السنين الماضية على أنها فعلت كل ما فعلته لأجله فلِمَ لم يفهم! ولِمَ لم يراعي مشاعرها وكدها!.

في صباح اليوم التالي قصدت "نورا" بيت جارتها لتطبطب على كتفها في فقدها إلا أنها وجدت منها عزيمةً لم تعهدها وقوةً وجبروتاً جعلاها ترى ماضيها مخجلاً واِنهياراتها في بادئ الأمر هواناً! فجلستا كما كانتا في الماضي بثيابهما السوداء ووجهيهما الشاحبين! فاِستفسرت الأرملة عن سبب شحوب جارتها فحدثتها عما جرى بالأمس وعن عصيان اِبنها لدرجة أنه أحب فتاةً دون أن يستفسر رأيها!! أو يراعي وجود أمٍ في المنزل يجب اِحترامها! وعلى الرغم من حزن "هالة" وصدمتها العارمة بفقدان خليلها ونصفها الأوحد في هذه الحياة إلا أنها اِستلمت زمام الأمور رغم اِحمرار عينيها واِنتفاخ وجهها بشكل مقلقٍ!

- وحدي الله يا "نورا"!! فليحب من يشاء طالما أنه سعيدٌ بذلك! كاد يتجاوز الثلاثين عاماً وأنت تحاسبينه على شهيقه وزفيره! اِنظري ... ها هو "ماهر" لم يعد له وجودٌ كأنما لم يلد ولم تنجبه أم! ما الفائدة إن كانت أمه خانقةً في معاملته أم لا؟! نهايتنا جميعاً حفرةٌ ضيقةٌ لا مفر منها فلِمَ بالله عليك تنغصين عمره وعمرك بشروطك وقراراتك وغضبك!! دعيه يعش حياته، دعيه يختارها فما ظلّ من العمر أكثر مما مضى!
- أأتركه يدمر حياته!

- أجل!! إن كان سعيداً بذلك دعيه..
- أوليس هذا الجنون بعينه! ماذا لو رأى السعادة بالقتل .. بالسرقة! أأتركه!
- ومن قال لك بأن اِبنك هكذا! كل ما في الأمر أنه أحب فتاةً فليحب بحق الجحيم ما ضرك أنت إن كان وجهه منشرحاً كل صباحٍ حالماً برؤيتها والعيش معها!!
- بل لم يقتصر سره على الحب بل وزادها بتغييره لكليته أيضاً!!

اِبتسمت الأرملة رغم اِصفرار وجهها وبؤس قلبها فأزعج ذلك الأم الغاضبة فتأففت بِاحترامٍ لآلام الموت الشديدة..

- أوفٍ ثم أوفٍ منك! تبتسمين! وهل أنا أزف عليك خبراً سعيداً!! أحب يعني أنه سيعصي أمري من جديدٍ ويصل في الحب لأقصاه ثم وما أدراني أن يحاول الاِنتحار إن خانته أو دعت الظروف لاِنهدام ما بينهما!
- أنت ظلي بعيدةً عنها ولن ينهدم شيء!
- ماذا تقصدين؟!
- أقصد يا جارتي الغالية بأننا لسنا من نقرر مع من يعيش أبناؤنا ومع من لا يعيشون؛ الحب هبةٌ من الله كما قال رسول الله عن خديجة "لقد وهبت حبها" فكيف يستطيع إنسانٌ على الأرض رفض هبةٍ أو تغيير قدرٍ بقواه الدنيا وقوة الله العليا تريد وما من بعد تلك القوة قدرةٌ أو اِستطاعة!!
- وهل تشبيهين "مريم" بالسيدة "خديجة"!!
- وما الفرق؟!! ألسنا في النهاية نساء والنساء سواسية قلوبٌ تنبض وروحٌ ترهف وتطير نحو من تحب ... إن شعرت بحبهما نقياً فلا تهدميه، اِبنك لن يلتقي كل حينٍ بِامرأةٍ تحبه وأنت تدركين ما أقصد!
- ليس بِاستطاعتي .. كيف أتركه يهوي من الطابق الرابع في كل حلمٍ دون أن أحاول في واقعنا البائس أن أنقذه!
- أتراه هوى من الحب أم من ضغوطٍ تقهره؟
- أتلومينني؟؟!!
- لا والله يا جارتي ... لا والله! كل ما في الأمر أنني أريدك أن تعطيه فرصته في الحياة .. هو أيضاً، كما كان لك الخيار في زواجك ثم اِفتتاح دكانك ثم تربيته بهذه الطريقة، له الحق في أن تكون

له حياةٌ خاصةٌ به، قراراتٌ تعكس طباعه وشخصيته، أجزاءٌ من روحه تتنفس في حياةٍ من اِختياره ... لا تكسريه بالله عليك لا تكسريه! لقد عاش حياته مكسوراً فلا تزيد اِنكساره!

فهمت "نورا" كلام جارتها اِتهاماً ثانياً مكملاً لاِتهام الاِنتحار ذاك واِحتراماً للعزاء والجو الخانق الذي لف المنزل من كل أنحائه اِعتذرت الأخيرة منسحبةً من منزل خصيمتها التي كانت تؤكد في كل مرةٍ عداءها لها! كما عذرتها دون طلبٍ منها عن دوامها في الدكان متحججةً بتعبها النفسي واِستطاعتها الاِنقطاع لفترةٍ هي تختارها ريثما تتحسن! وقبل أن تستطيع الأرملة مناقشتها سحبت نفسها بِابتسامةٍ عطوفةٍ قاصدةً منزلها بجسدٍ يرتجف حنقاً وغضب!

الفصل الرابع

-1-

أتت الذكريات فيضاناً يسحب "هالة" من مأساتها نحو ماضٍ اِنقسم بين السعادة والأسى! وكان "مهند" فيه المظلوم دوماً! ذلك أنها كانت بمنتهى السعادة لرفضه ومقاومته تيار أمه الجارف... كانت مقتنعةً بأن هناك شيئاً غيّره، وكان اِعتقادها الأوحد بأنه الحب ثم وفجأةً نازعه الحلم ليعود أخيراً الليلة الماضية؛ ... الحب هو السبب الرئيسي ... ولطالما نظرت إلى "نورا" بعين الأسى فكانت لا تشك لحظةً بحبها العارم لاِبنها ووحيدها وكل ما لديها في هذه الحياة على أنها كانت ترى في مآسيها الخطأ! هي أمٌ ككل الأمهات تخاف على اِبنها إلا أن ما مرت به طيلة حياتها كان قدراً صعباً على اِمرأةٍ تذكر الحريق ثم معاناة الملجأ ثم محاولة الاِغتصاب ثم وفاة الزوج ثم سنوات الكدح في سبيل الحياة الكريمة ثم اِنتحار الاِبن وعصيانه! كانت مدركةً لكل أمرٍ تقدم عليه تلك البائسة وكانت مقدرةً لعصفها وتخبطها في كل قرارٍ لكن لومها الأوحد كان في عدم بحثها عن أخيها! لِمَ؟! ما السبب وراء عدم بذل المستحيل لاِيجاده!! وما الفرق بينها وبين اِبنها الذي مسح المدينة بحثاً عن نافذةٍ حمراء!! كانت واثقةً بأن هنالك سراً آخر خلف ما أقدمت عليه تماماً كما كان "مهند" في تشرده الجديد واثقاً بأن النافذة الحمراء والوجه البشوش والهدوء الغريب يخفي خلفه سراً مكنوناً ربما رهيباً!. الطرقات التي مشاها اليوم كانت مموهةً تحت أفكاره المتخبطة ... ترى أين يمكنه المبيت اليوم؟ في العراء ثانيةً! تحت قسوة الشتاء كمتشردٍ لا بيت له ولا أم! أيقصد بيت خاله! وزوجة خاله الخجولة تتعجب من تشرده إذ قصد بيتها للمبيت! أم يقصد بيت زوجة عم والدته! بهدوئه الذي لن يدعه لحظةً يشعر بالطمأنينة! ... الملجأ! وهل يستقبلون رجلاً مشرداً بائساً مثله قد مرَّ على الثامنة عشرة من عمر مضى!. أيُّ مالٍ يكفيه لقضاء ليلةٍ في الفندق! وأي عملٍ يجده خلال أربعٍ وعشرين ساعة مع مبيت! ... فكر طيلة الطريق الذي أخذ يسلكه كيفما جاء! كلما جاءه منعطفٌ أخذه وكلما ساقه طريقٌ عامٌ أخذ بيده! .. المدينة هذه كبيرةٌ بهمومها والرجل الذي يدب على أرضها منهكٌ وضعيف! .. في أحشائه طفلٌ يبكي قسوة أمه ورجلٌ لم تدعه الأيام ينضج إلا بالحب! وهل أنصفه الحب وكانت عينا "مريم" لضياعه منارتين؟! وكتاب جده الذي تخلى عن منزله للمرة الثانية دون التمسك به، أتراه هو من أشعل اِنتفاضةً في عروقه فرفض أن يكون طفلاً بينما هو الفنان العاشق الذي يكاد بنضجه يجاوز الثلاثين! كتاب جده الذي تحدث عن "أسمهان" كما لو أنه يصفها بكل تفاصيلها اِحتوى في صفحاته الأخيرة على

قصاصة جريدةٍ غريبة! القصاصة كانت تذكر حادثة الحريق وهروب الفاعل وإختفاء الطفلين! لقد ذكرت الجريدة حديث "أسمهان" والجارة العجوز بالتفصيل! ثم كيف وصلت قصاصةٌ تتحدث عن الحريق لكتابٍ غلافه محكم الإغلاق؟! .. تذكر الخطوات التي رأتها أمه ثم إستنتج بأن أحداً إقتحم المنزل ذي الباب المهترئ لينسى إخفاء خطواته في العليا تاركاً في غلافٍ حديديّ مذكرات الجد وقصاصةً من الجريدة! .. ألم يحترق الكتاب أثناء نشوب الحريق إذ لم يتبقَ من إخوته إلا بقايا كتبٍ محرقة! .. قطع نصف المدينة وهو يتذكر القصاصة التي وجدها قبل بضعة أيامٍ فدفعته بقوةٍ جبارةٍ للوصول إلى النافذة الحمراء .. وها هو قد وصل إليها لكن دون أن يستطيع البوح بما جرى! كان مثل قائد معركةٍ يخاف الهجوم هناك فيخسر هنا، ويهاب البقاء هنا فيخسر هناك! لذا لم يبح بشيءٍ منتظراً الإعتراف الكامل! وحين لم يحصل عليه أو ظن ذلك خبأ القصاصة في جيب قميصه مترفعاً عن وضع حجرٍ دون أن يبادر الطرف الثاني بخطوة!!.

هام على وجهه الصباح كله حتى كاد العصر أن يوشك فقصد الكلية ليلتقي بـ"مريم" التي كانت تنتظر عند الحافة ذاتها فجلسا مادين بصرهما نحو أبعد نقطةٍ تُرى من الطريق الرئيسي ولم يكد يشق الصمت إلا ولمست يدهُ يدها!! ... كان كلما ضاق به الحال حتى أشده لمسها بخجلٍ كأنه يستمد منها قوةً عظيمةً فلا يطيل لمسها خجلاً وإحتراماً لخلوتهما ... كانت لمسته عنواناً واضحاً لضيقه الشديد فإستفسرت الفتاة عما جرى في المنزل فهز برأسه نافياً ما تخيلته من خير! ثم أعقب قائلاً "الليلة أيضاً في العراء!!"

- طردتك!
- لا هذه المرة أنا الذي خرجت
- وستقضيه كما قضيته البارحة؟!
- لا يا حبيبتي سأقضيه في منزل خالي فلا تقلقي

كان يكذب عليها بعد أن حضّر ما سيقوله كي لا تخاف! هو لن يقضي الليلة في منزل خاله كما ذكر بل في المنزل المحروق! ... الليلة كلها في منزل مهجورٍ من عشرات السنين ببابٍ لا يكاد يغلق وجدرانٍ سوداء حالكة الظلام ونوافذ محطمة ودرج هوت منه جدته! ... كانت الفكرة مرعبةً لكن لا حلّ بديل ... ربما كان! على أنه أجبر نفسه على هذا القرار فقصد المنزل بحقيبته الفقيرة بعد أن أكل سندويشة "كبابٍ" دسمة! .. كان المنزل تحت الظلام مرعباً بشحوبه ونوافذه التي تعصف بها الريح وبابٌ يكاد يترنح لقدوم العاصفة! ... الحديقة التي أحاطت بالمنزل كانت في الظلام كأنها فجوةٌ

في الأرض تحيط بالمنزل الطائر في السماء والباب الذي كان منبعاً لأصواتٍ تشبه زقزقة العصافير بدا بزقزقته شبحاً يحاول كل دقيقة التسلل لجوف المنزل المكتظ بالذكريات المؤلمة! ... اِعتمد في مبيته على شمعةٍ أنارها في هدوء المنزل فعلا ظله على الجدار كوحشٍ ضخمٍ وعصفت الرياح تزيد في المنزل البرد والوحشة. في العشرين دقيقةً الأولى كان مستنداً إلى الجدار فارشاً تحته سترته الصوفية مستمداً منها الدفء والأنس! ثم عندما اِعتاد المكان حمل الشمعة وأخذ يقترب من المكتبة التي ظلّ طيلة الفترة الطويلة الماضية يتذكر كيف سحب كتاب جده منها، وأين كان مكانه، وقرب ماذا! وماذا دفعه لذلك! .. أكان واضع الغلاف قاصداً أن يجذب النظر إليه؟! ولماذا وضع القصاصة كأنه يدل من يليه بأن الكتاب سرق ذات يومٍ ثم أُعيد!. تفحص المكتبة تحت ضوء الشمعة المترنح فلم يجد فيها غريباً ثم تذكر مكان الكتاب فلم يجد سوى الغبار غطى المكان!. فأخذ يدور في المنزل دون أن يهدأ لصوت الباب بالٌ فلم يجد ما هو جديدٌ، ثم ذكر قول "أسمهان" فقصد المكتب وبحث عن الخزينة فوجدها!! كانت سوداء حالكة فارغةً تماماً من أي شيء! ودون أن يجد ما يلفت الإنتباه عاد مرتجفاً إلى مكانه ليلتحف السترة ويطفئ الشمعة موفراً اِياها .. حين حلّ الظلام واِضمحلت معالم المنزل تحت ظل الليل أخذته الأفكار حتى مدىً بعيد! كان يفكر بـ"مريم" .. بزواجه منها! همس كأنه يفشي همه لأحدٍ "إلى متى سأبقى عازباً!" .. كان يجب أن يقنع أمه بها! فيأخذها وخاله إلى بيت حبيبته! وهل ترضى؟! هي التي أخذت قراراً بعدم زواجه مطلقاً، أتقبل أن تدوس على كلامها لترضي اِبنها الطائش! وهل تكون صرامة الخال علاجاً لجنون أمه! ثم ماذا عن كليته التي كاد ينهي سنتها الثانية! أيمكن أن تحرمه منها!! ... أليس رجلاً، وهل من شيم الرجال أن يحرموا من حقوقهم بلا ذنب؟!! ... كانت العاصفة حاضنةً ممتازةً لبنات أفكاره اللاتي لم يتركنّه حتى عزم بعنفٍ عاطفيٍّ واِنجذابٍ حارقٍ أن يخترق هدوء منزل "أسمهان" غداً ليكتشف السر الخفي! وبينما كان يتخذ قراره بالاِندماج بماضي والدته للمرة ربما الأخيرة كانت "نورا" مازالت تستشيط غضباً في عزلتها التي قطعها "وائل" لمدة ثلاثة ساعاتٍ يناقش أمر "مهند" في قلقٍ واضحٍ وعصبيةٍ تخيف! كان يرى في ضعفه خجلاً لأسرةٍ اِكتشف صدفةً أنها مرموقةٌ لدرجةٍ لم يتخيلها يوماً وأن خنقه أمرٌ معيبٌ لرجلٍ كاد يدخل الثلاثينيات! عبر عن رفضه لدراسته ببرم شفتيه كأمرٍ يقرفه! وعندما دافعت الأم عن الفكرة بقولها أنه كان يتخرج من كلية الحقوق وهو من عصى أمرها، اِنقلب الأخ وأيد اِختياره لطريقه مؤكداً بأن واجبها كأمٍ اِنتهى وجاء دوره ليرعاها ويعتني بها! كانت كلماته تزيد حنقها الذي أوقدته "هالة" منذ الصباح فكان يزيد الحطب في موقدٍ لم يشتعل من سنينٍ وكانت بالكاد تمسك لجام غضبها اِحتراماً لأخٍ اِنبثق من

حيث لم تعلم وخوفاً من بطشه وهو ذو القوة والضخامة! وقد شعرت بثقلٍ عظيمٍ خلال تلك الساعات الثلاث وكانت كلما ذكرت "هالة" اِزدادت غضباً، وكلما رمى أخوها بكلمةٍ فارت عصبيتها حتى اِستأذن خارجاً فشعرت كأن هماً زال عن صدرها!! .. هو الأخ القادم من السراب كيف يحق له أن يهينها ويهين تربيتها! كيف يحق له أن يخالف اِبنها الرأي في تغيير كليته وعندما تؤيده يزداد تأييداً له!! ولماذا جاءها يستهزأ من صناديقها الكثيرة! وإن كانت خانقةً للمنزل وما ضره هو! ... ما الذي جاء يثبته! بأنه الأخ الصارم على أخته .. ما الذي جاء به في هذا اليوم الخانق؟؟.

كل ذلك كان يجري بينما الأخ سعيدٌ رغم ملامحه الغاضبة بوجود أسرةٍ يستطيع أن يزورها إذا تعكر مزاجه أو أن يصدر أراءه كرجلٍ يتم الاِعتماد على كلامه بيد أن وضع أسرة أخته كان منهاراً بنظره! الاِبن الذي بضعفه أشبه بالشواذ على أنه لم يكن كذلك ولا أحد يشبهه بذلك سوى خاله ربما ليبرز الفرق بين قوته هو وضعف الشاب! أو أنه حين تخيل وجود أسرةٍ له تخيلها بفتياتها الجميلات وفتيانها ذوي العضلات المفتولة إلا أن صدمته باِبن أخته كانت قاضيةً إذ رآه رقيق المشاعر خجولاً بطبعه وزيادةً على تلك المواصفات ضعيفاً لا يقوى على قول لا ... كان الذنب في البداية ذنبه إذ حنق عليه وكاد يخجل من المضي معه وهو ذو الجسد الضخم بعضلاته المفتولة وشارباه الثابتان كجناحيّ النسر! ثم تدريجياً تفهم بأن هذا الضعف ما هو إلا أثرٌ من أثار الحريق الذي شرد الأطفال وحمّلهم معاناةً تناسبت مع فجيعة حصولهم على مشرفاتٍ ومشرفين سيئين! فكان من نصيب الفتاة المعاناة ومن نصيب الشاب الحياة الأقرب للهدوء! فتزوج وأكمل حياته ببساطةٍ بينما حملت الفتاة معاناتها ربما حتى آخر يومٍ في حياتها!. فاِبتلع الرجل ضعف الشاب إلى أن رأى ما رآه من أمه فتعمد المجيء الليلة لينبهها على ما بدر منها، فما سمعت منه كلمةً البتة! ورأت في مجيئه مذلةً وفي حديثه قسوةً مبالغاً بها!!.

وعلى أثر الغضب ونيران الاِنزعاج أبقت "نورا" الأنوار مشعلةً إلى أن ملت "هالة" من مراقبتها وهي التي تخاف النوم في سريرها لوحدها! سريرها الذي تقاسمته مع زوجها الغائب أكثر من ثلاثين عاماً أصبح اليوم بأكمله ملكها! لم يعد نصفه دافئاً ولن يُقتلع اللحاف من جذوره كل ليلة! .. كان السرير موحشاً بهدوئه وتنسيقه الذي لم يتغير من الليلة السابقة! والخزانة اليمينية مفجعةً بأناقتها دون ربطة عنقٍ معلقةٍ فوق مقبضها أو يد قميصٍ متسربةٍ من بين أبوابها! .. كانت مرتبةً بشكلٍ يذكرها كل لحظةٍ بشكل الموت وهو متجسدٌ في وجهه .. بإصفرار بشرته، وهدوء جسده، وبرودته القارصة! إنه الموت الذي لم تكن يوماً تتخيل أن يقتصَّ من الشريف الذي لم يأكل لقمةً

حراماً روحه ككل المجرمين الذي ينهبون أموال الفقراء دون أي تفكير! لماذا مبكراً! لماذا لم يبقَ عشرة أعوامٍ أخر؟ ربما كانت توفيت قبله فلم تشعر بهذه الوحدة الخانقة! ولا تذكرت أبسط التفاصيل المؤلمة كأنه مرةً طلب منها أن تربط له ربطة عنقه فتكاسلت وتظاهرت بالنوم! ومرةً كانت قد كُسرت قدمه بعد سقوطه من الدرج فطلب منها عقب آلاف الطلبات أن تقلي له بيضةً فرفضت وصرخت في وجهه "لست خادمة!!" ثم مرةً كانا مسافرين بدافع السياحة بعد أن رقي في عمله وكسب مرتباً أعلى مما سبقه فأضاع الطريق وظلاّ أكثر من ثلاث ساعاتٍ ينتظران ماراً كي يستفسرا منه عن أي طريقٍ يسلكانه! وخلال الساعات الثلاث تلك ظلت غاضبةً ومتأففةً حتى عادا أدراجهما وظلاّ في عراكٍ مستمرٍ لخمسة أيامٍ على التوالي!! ... كانت تذكر هذه اللحظات وتبكي ثم ينتابها شعور الندم الشديد فيخنق أنفاسها كضغطٍ عنيفٍ على عنقها النحيل.. هي وحدها الآن ولا أحد يستطيع تقاسم هذا الألم العظيم معها! كانت وفاته كارثةً حين قبلها على خدها الليلة السابقة هامساً بأذنها مستعيداً أيام الخوالي "عيناك بألوانهما ... معشوقتايّ لا شريك لهما!" ثم وضعت رأسها على الوسادة كما في كل يومٍ إلا أن قلبها كان عاشقاً! فتذكرت الكثير من الأيام الجميلة كأنها تستعد دون علمٍ منها لفقده! ثم قبل أن يسرقها النوم رمقته بنظرةٍ وكان مازال جسده يصعد ويهبط بتنفسٍ منتظم فغطت في نومٍ عميقٍ لم يوحِ لها مطلقاً بفجيعةٍ كتلك! كان الصباح أسود كأن الشمس لم تشرق أبداً والدموع أشبه بسيلٍ لا يمكن أن ينتهيَ! جسده الذي توقعت بأنه فقد الروح بعد لحظاتٍ من نظرتها إليه كان قد رقد كما تركته عيناها نائماً على جنبه الأيمن مغمضاً عينيه كأنه مستمرٌ في الحلم حتى بعد الموت! جسده الذي اِطمأنت عليه بصعوده وهبوطه كان جامداً كقطعة أثاثٍ ميتة! ... كان صراخها دون وعيٍ ربما كان لا وعيها ينادي صغارها كي يحملوا عنها ما لا تطيق حمله فاِلتموا حولها عاجزين ليتراجع الشاب بعد أن هزّ جسد والده بعنفٍ حتى سقطت يده بلا ردة فعلٍ أو بصيص حياة حتى لامس الجدار تاركاً جسده يرتطم بالأرض باكياً ... في تلك اللحظة ومن غير المتوقع كانت الفتاة هي الأقوى ليس لأنها لم تكن تحب والدها كأخيها بل لأنها شعرت في تلك اللحظة بألا مفر مما حصل وإما أن تنقذ والدتها أو تفقدها هي الأخرى! حاولت حملها برفقٍ إلى الأريكة الصغيرة لكن دون نفع، ثم سحبت الغطاء بدموعٍ بللته دون اِستطاعةٍ لأي كبتٍ حتى توارى جسده تحته وبدا كأنه نائمٌ لا خوف عليه! حينها رن جرس المنزل وكانت "نورا" فما جاء بها إلا صراخ الأرملة، إذاً لِمَ جاءت في اليوم التالي؟ وإن كانت لا تستطيع اِحتمال رأيها فلِمَ أخبرتها عن تفاصيل حياتها!! على أن الأرملة رغم كل

ذلك وجدت في مراقبتها تسليةً تقيها أطراف النهار متناسيةً لهمومها حتى يهبط الليل فيحاصر أحزانها ويعتصر دموعها كالظمآن!!.

إنهم يتقاسمون الليل نفسه كلٌّ في تشرده وحزنه فلم يكن الخال الغاضب أو الأم المستشيطة غيظاً أو الجارة المتألمة أفضل حالاً من الشاب المتشرد في بيتٍ نصفه ألمٌ ونصفه خوف! فلم تهرب من مخاوفه زقزقةٌ واحدةٌ لبابٍ قد يقتحمه كلبٌ ضارٍ أو مجرمٌ هاربٌ ... أو حتى شبحٌ ربما يكون لجده!! كان للخيالات مسرحٌ عظيمٌ في هذا المنزل القديم بحروقه الموجعة وتقرحاته التي لم تبرأ بعد، وكما كان في نومه متيقظاً خائفاً يتقاسمه البرد من كل طرفٍ وكل ناحية كانت "أسمهان" في سريرها الدافئ ومنزلها الشديد الهدوء بظلمته المرهبة قلقةً كما في كل ليلة! .. لم تكد تتزحزح صورة والدة "نورا" عن عينيها وهي ملقاةٌ والدماء تسيل منها بينما تحيط بها النيران من كل جانب! ... كيف اِقترفت خطأً كهذا كلفها آلام السنين الماضية كلها! كيف صارت حياتها أغلى من حياة أسرةٍ سعيدةٍ دمرتها هي ... وهو! لِمَ! رصاصةٌ واحدةٌ فقط كانت مقابل عذاباتها لسنين طوال ... آهٍ ها هما جاءا إليها كلٌ قاسا مما اِختارته لهما حتى أنهك .. وها هو "مهند" يبكي أمامها كطفلٍ يُقسم لها بدموعه أنها متوحشةٌ مثله! فما الفرق؟! ما الفرق إن كانت مجبرةً أو مؤيدة ... هي كانت شاهدةً وصراخهم مازال يدوي في أذنيها كاِندلاع الحروب وأصوات المدافع! .. الضمير كالمنشار يقطع أوصالها ويكسر عظامها كل ليلة وروحها التي مع مرور العمر تأمل أن تستقر وترتاح كانت تثور عليها بشدةٍ تزداد في كل مرةٍ حتى عكفت عن الخروج من المنزل وأقفلت الستائر وألغت الراديو وكسرت التلفاز! ... لقد ألغت كل شيءٍ قد يزيد ضجيج نفسها! .. كان منزلها بفخامته ميتاً وباِتقانه فارغاً من العيون المعجبة به ... كانت تستضيف بعض الزوار المحددين كتلك العجوز ذات الحدبة العجيبة والتي لم تعد تزورها من سنينٍ لسوء صحتها! وطبيب خاص يزورها كل ثلاثة أيامٍ دون أن يعرف أحدٌ ما مرضها! وأيضاً عاملة تنظيفٍ تعتني بنظافة منزلها إلا بضعَ غرفٍ لم تطأهم قدماها لأكثر من عشرين عاماً!! ... كان منزلها لغزاً بالنسبة لجيرانها وخاصةً جاراتها اللواتي كنَّ يتحايلنَّ بغية اِقتحام خلوتها بيد أنها لم تدع لمخلوقٍ دخول عتبته! كانت حريصةً على الاِعتناء باِضطراباتها العصبية وبكائها العنيف فكانت تحضر فنجان نعناعٍ قبيل المساء لأنها تعرف أن وطء الليل على روحها قاسٍ! وأن عينيها ليستا إلا بوصلتين تبحثان عن البكاء تحت أقدام الليل! كما كانت كل مطلع شمسٍ تركض نحو سجادة الصلاة مستعينةً بروح الله وعظمته من ذكرياتٍ تلسعها كل يومٍ في مثل ذاك الوقت! الحريق يتكرر ... كل صباحٍ .. كل مطلع شمس! ويلمس قلبها

فيتلوى بالألم، كانت جاهزةً لكل آلامها حكيمةً في ضبط نفسها والعناية بروحٍ إن غادرت تفشى سرها!

"أسمهان" كانت لغزاً تماماً كما قدر "مهند" وكان منزلها الغريب أعجوبةً تَطَلع إليها بعينٍ تبحث عن قصةٍ كاملة وحقيقةٍ لا غبار عليها ذلك أنها كما فعلت مع الأم ظنت بأنها قادرةٌ على الإحتفاظ بسرها أمام الإبن أيضاً بيد أن الفتى الذي ظلّ أشهراً يبحث في الأزقة ويسأل المارة لم يكن يتكبد كل ذاك العناء لسردٍ موجزٍ للقصة ... كان يبحث عن أمرٍ ملموس، إعتراف تملؤه الحقيقة .. صوت بهمساته الخجولة يحمل لسمعه قصةً محكمةً بتقدير الله لا بإقتصاصٍ آدميّ لا يُشبع باحثاً عن سره! .. كان السر موجوداً خلف أسوار ذاك المنزل المغلق الستائر والمحكم الدخول والخروج .. كان يشعر بلذته تسحبه إليه، إلى باب المنزل .. إلى صوت "أسمهان" الهامس ... إلى كل غرفةٍ أغلق بابها مخفياً ما وراءه من غموض!.

مع بزوغ الشمس وإختراقها للنوافذ بعد ليلةٍ عاصفةٍ بهوائها المتجمد دخلت الشمس ملامسةً أطراف "مهند" بنعومة شمسٍ شتويةٍ لا تكاد تزيد عن المبالغة في ضوءٍ مجردٍ من أي دفء! ... مع وصولها إلى عينيه أيقظته بأصابعه المتجمدة وأنفه الشديد الإحمرار فأخذ يفرك يديه وأطرافه بسرعة علّه يولد حرارةً تساعده على الوقوف وما أن مرت خمس دقائقَ حتى بدأ يتحسسهم وكان قد عزم المضي إلى منزل السر الغريب منذ أن داعب النوم أهدابه فإرتدى سترته وحمل حقيبته مودعاً المنزل العزيز بلمحةٍ لم تزد عن نظرةٍ بانوراميةٍ سريعة. كان منزل"أسمهان" بعيداً جداً عن المنزل المحترق فكان يفكر بغضبٍ وإحتقانٍ عن أن كل هذا الطريق بطوله وزحامه لم يغير ظلم وشرور العم الحقير! ألو كانت هذه ليست طباعه بل رغبات شيطانٍ يوسوس في أذنيه لكانت إنجلت بمسافة الطريق! ... ألم يكن على هذه المسافة التي إستغرقت منه أكثر من ساعةٍ مسيراً على الأقدام أن تحرك الرحمة في قلبه! الضمير ... أو الإحساس بالذنب؟!! ... وطالما أنها لم تحرك مشاعره مطلقاً إذاً لابدّ هو الشيطان بعينه! .. الأخ الذي يقتل أسرة أخيه حرقاً ثم ينهب أموالهم قاصداً أقصى الدنيا كي يهرب من العقاب كيف له أن يكون إنساناً مثلنا! ... زادته هذه الأفكار غضباً وتصميماً في قصد منزل "أسمهان" بعد ليلةٍ غزتها الأحلام الغريبة التي لم تكن تدور إلا حول الحريق! كان إندفاعه يزداد كلما تقدم متناسياً محاولة تنسيق حديثٍ منمقٍ ومحترم! كانت رغبته في الوصول أقوى من أي تفكيرٍ قد يغير رأيه أو دربه الذي يدب عليه بخطواتٍ لم يعهدها واثقة كما هي اليوم!

المنزل البعيد اِقترب مع توزع الشمس أينما رُمي البصر، وكان وهو يتجه نحوه يرى أمه وهي تستيقظ بوجهها العبوس ويديها اللتين تفركهما كأنما بذلك تخفف شيئاً من الوضع المحزن! كان يتخيل "مريم" بجمالها اللذيذ وهي تستيقظ لتطل من الشرفة فلا تراه وتقلق .. هو لم يخبرها بمكان مبيته الحقيقي، ولِمَ يقلقها بمنزلٍ اِحترق من سنين ولا فائدة من الرهبة منه! .. كان يذكر وجه "هالة" بوشاحها الأسود واِصفرارها المحزن فيجد العزاء أمام مصابها ليهون عليه ألمه وغضبه.

أمام الباب المرتفع بغموضه اِستملك الشاب قواه لينقر على جرس الباب بقوةٍ واِختصارٍ مزعجين! وما أن اِختفى صوت الرنين حتى فتح الحارس شقاً من الباب ثم عاد لاِختفائه ليعود مبتسم الوجه مبعداً الباب عن طريق الغلام، كان "مهند" وهو يدخل المنزل يتساءل بينه وبين نفسه أتراها عرفت ما نوى القدوم لأجله هذه المرة؟! ولِمَ اِستقبلته بهذه الحفاوة مرةً أخرى في منزلها الهادئ الغريب، أولا يزعجها اِقتحامه لحياتها لساعات طوال أُخر!! ألم تتساءل بغيظٍ تَخَفى خلف اِبتسامتها الرقيقة ما الذي جاء بهذا المهشم الشخصية! ... أكمل مسيره تماماً كما مشاه للمرة السابقة ليتبعه الحارس كأن شريط الزيارة يتكرر بحذافيره بيد أنه عندما أوصله الحارس مشيراً بيده ليجلس على الكرسي نفسه طاع أمره ثم حين غاب وسكن الجو غير الكرسي! جلس ووجهه للمنزل الغارق في ظلامه إلا من بضع خيوطٍ للشمس اِخترقت رغم اِحكام اِغلاقه عتمه!. أخذ يحدق بعينيه في الممر المفضي إلى غرفتين مموهتين في الظلام ومن ذاك الظلام جاء ظلٌ طويلٌ يسبق "أسمهان" بعباءةٍ مطرزةٍ وأكمامٍ طويلةٍ عريضةٍ عند الرسغين.. جاءت كملكةٍ تشيح بقدومها الظلام، كأنها الشمس! فنهض من جلوسه تحت عيونها المحملقة المبهورة بجرأته في تغيير موضعه! لقد شعرت بتمرده فكيف لغريبٍ رغم قربه أن يغير مجلسه في بيتها!. اِبتسمت اِبتسامةً رقيقةً لتجلس على غير راحةٍ في المكان المخصص له فشعر كأنها تلطمه على وجهه لوقاحته! إلا أنه حبس مشاعره فلم تطفُ على وجهه سوى اِبتسامةٌ كردٍ على اِبتسامتها ... كان صمتها مزعجاً كأن أحداً يصرخ في أذنيه وتطلعاتها نحوه .. تلك النظرة الثاقبة الحادة تربكه فينظر للأرضية المغطاة بالسجاد والجدران البيضاء الناصعة تحيط بهما.

لم تمر دقيقةٌ على الاِرتباك الذي أشعل حرارة "مهند" حتى اِحمرت أذناه وتوردت وجنتاه وأخذ يحرك قدمه بكبتٍ لم يتسلط على رده! لاحظت "أسمهان" ذلك ومن هدوئها الشديد بادرت بسؤاله عن حاله لتخفف من وطأة جنونه! فوجد في سؤالها كل الفرج وأجابها برحابة صدرٍ

عظيمةٍ! ثم لم يكن في باله أي شيء ... ولام نفسه على مجيئه دون أية خطة! ماذا سيقول لها؟! في منزلك سرٌ عليَّ كشفه! أن يرفع عليها سكيناً ليفتش غرفها!! .. عاوده الإرتباك فطلبت بصفقةٍ واحدةٍ جلبت الحارس أن يحضر للزائر فنجان قهوةٍ، وبعد صمتٍ وبضع إبتساماتٍ لا معنى لها جلبه! وما أن رن صوت وضع الفنجان فوق صحنه بعد أول رشفةٍ منه كان "مهند" قد فكر بأسئلةٍ عشوائيةٍ لا يمكن أن تنتج بأجوبتها الكثير..

- ألم تعلمي أي شيءٍ عن زوجك يا سيدتي؟!

نظرت نحوه بحاجبين إنعقدا فور ذكره لزوجها ثم تنفست الصعداء وقبل أن تجيب أردف قائلاً ..

- أقصد طليقك..
- قيل بأنه توفي
- أين!
- في إفريقيا
- إفريقيا!!
- أجل ..
- ومن أخبرك؟!
- رسالةٌ وصلتني إلى المنزل من أكثر من ثلاثين عاماً، وكان للشرطة الإطلاع الكامل عليها وتم التأكد من وفاته هناك
- والأموال؟!
- لا علم لأحد! ..

رغب بسؤالها على أن خجله منعه فإرتشف رشفةً أخرى من قهوته، ثم من حيث لم يدر شعر بقوةٍ دفعته لطرح سؤاله حتى ولو على قتله!! ..

- أسفٌ على سؤالي .. لكن متى جلبتِ هذا المنزل الرائع! أليس باهظ الثمن؟!

أجابته بنترةٍ وضحت ضيقها من وقاحته..

- ورثته عن أبي.

كانت هذه الكلمة الأخيرة التي دارت بينهما ذلك اليوم قبل أن يغادر دون أن يكتشف أي شيء! لا بل وحصل على سخط السيدة وربما لن تستقبله مرةً أخرى في منزلها الغريب! ... عاد إلى الكلية بوجهٍ حزينٍ فوجد مكانهما المعتاد فارغاً فجلس منتظراً اِنتهاء "مريم" من محاضرتها وقد كان قد قطع الدراسة مذ جمع خاله بأمه! وبدل أن تتحسن ظروفهم ساءت فهل كان جمعهما خطأً؟! يا الله .. يا الله ما الذي حدث في ذاك الماضي! أتراها "أسمهان" مجرمة؟ قاتلة جده وجدته؟! لقد كانت اليوم إنسانةً أخرى لم تكن وديعةً كما في أول مرةٍ اِلتقاها، عيناها الصافيتين كانتا حقودتين غاضبتين، وأجوبتها الموجزة كانت خنجراً تغزه في قلبه بسرور!! من أين لها كل تلك الوجوه! لا بل من أين لها منزلٌ بهذه الضخامة وهذا الحجم! ورثته عن أبيها .. أتراها الحقيقة؟ سحبه صوت "مريم" من ضجيج أفكاره واِتهاماته فاِلتفت إليها بقلبٍ يرتجف شوقاً فرآها قالبةً شفتها السفلى بعينين حزينتين ..

- أين بتَ البارحة؟! ألا تعلم كم خفت عليك!
- وما دخلك يا حلوتي .. المهم أنني الآن هنا معك

نقر بيده مرتين على المكان الفارغ بجانبه فجلست كريشةٍ خفيفةٍ يؤنسها قربه، واِحمرت وجنتاها خجلاً وحباً .. فنظرت إليه وقالت بدلالٍ وتمنٍ

- متى ترضى عنا والدتك فنتزوج! أنا أحبك لا أستطيع تخيل العمر دون وجودك فيه كل لحظةٍ وثانية

اِنقبض قلبه لذكرها والدته .. يا الله وكيف تقبل بزواجهما وهي رافضةٌ لفكرة الزواج من جذوره!

- قريباً يا حبيبتي .. قريباً

كان يشعر كلما دار الحديث حول موافقتها على زواجهما بأنه وغدٌ يتلاعب بمشاعر فتاةٍ رقيقةٍ مثلها ذلك أنه على العكس تماماً بقلبه الملهوف وروحه المغرمة ورغبته العارمة في الزواج وقضاء العمر معها .. ولكن الأم كيف لها أن ترضى وهي التي أصدرت قراراتها اللاتي لا عدول عنهنّ، وما أن عرفت بأنه أحب كاسراً كلمتها طرد من المنزل كشيطانٍ ملعون!

-2-

بعد ظهر اليوم لم يعد إلى المنزل ولا نوى ذلك بل قصد المكتبة وأخذ يقرأ كتباً لتقوية الشخصية واضعاً جميع قواه وآماله في رسل الحرف النقي والمبادئ القيمة وفي ذلك الوقت تماماً كان شعور "مريم" بأن حبيبها عاجزٌ أمام تسلط أمه يتفاقم لاسيما حين يتراءى لها في عينيه تلك اللمعة الحزينة يرافقها التفاؤل في حديثه فيملؤها شعور الحزن والأسى .. أيمكن لأمٍ أن تمحي اِبنها لاغيةً حياته وأفراحه بهذا الشكل!!.

كانت تنوي بجديةٍ تنفيذ خطتها ذلك دون أن تخافها فتخور قواها دفعةً واحدةً لتشعر بأن الكرة الأرضية بأجمعها وجوه أمه المجهولة تهاجمها حتى في أحلامها محولةً إياهم لكوابيسَ دامية فتخنقها حتى تخرج روحها!. كانت تتخيلها بشعرٍ أشعثٍ وجسدٍ ممتلئٍ وصوتٍ خشنٍ مرعب! ... لقد تركت لكل مشاعرها الكريهة رسم شكلها في المخيلة حتى هُيأ لها اِستحالة وجود قرابةٍ ولو بعيدةٍ بين ملاكٍ كـ"مهند" ووحشٍ كـ"نورا"!! إلا أنها ذلك العصر وحين رأت ما رأته من عذابات حبيبها تحت شتاءٍ قاسٍ وبردٍ لا يرحم ودون أية شفقةٍ من أمه تحججت بالخروج مع صديقاتها قاصدةً منزله الذي لطالما عرفته بالاِسم! وتبعاً لما كان يذكره كان من السهل اِيجاده قرب حديقةٍ صغيرةٍ يرتفع بأربعة طوابقٍ فتقابله شرفةٌ تغطيها الزهور! صعدت الدرج برهبةٍ فبكل درجةٍ كانت تتراجع ثم يبث الحب في روحها القوة فتكمل!. أمام الباب الذي لا يمكن الخطأ فيه لوجود اِسم والده الواضح بقربه نقرت على الباب بخوفٍ وقلبٍ لا تكاد له قوةٌ على النبض! اِنتظرت عند زاوية الدرج حتى فتح الباب وأطل رأس اِمرأةٍ جميلة العينين قبيحة الأنف بدينة بعض الشيء، اِبتسمت في وجهها على غير ما توقعته ثم سألتها عن طلبها! فأخبرتها بأنها في أمرٍ خاصٍ يجب التحدث به على اِنفراد! فأشارت لها بالتفضل بِاستغرابٍ شديد إذ لم يزرها أحدٌ بأمرٍ خاصٍ من زمنٍ بعيدٍ، ربما يتجاوز الثلاثين عاماً!.

دخلت الفتاة لتجد منزلاً غرفته الأساسية عبارةٌ عن دكان ألبسةٍ جاهزة ثم لمحت ماكينتي حياكةٍ فاِستنتجت بأن الألبسة ليست جاهزة بل محاكة! .. قادتها السيدة نحو غرفة نومها التي اِكتظت بعلب الكرتون حتى لم يعد للمار مكانٌ ليسير فيه! فتعجبت لأمرهم على أنها لم تنطق بحرفٍ واحدٍ بل ترامى إلى سمعها صوت اِمرأتين تتحدثان في غرفةٍ مغايرة فاِعتذرت لمجيئها في وقتٍ غير

مناسبٍ على أن السيدة نفت ذلك معقبةً قولها بإغلاق الباب خلفهما!. كانت الغرفة أشبه بمخزنٍ للصناديق فبالكاد وجدت طريقاً يوصلها إلى الكرسيين اللذين أشارت إليهما السيدة وما أن جلست حتى قابلتها عينا السيدة متطلعتين مستفسرتين عن غايتها بعد أن عرضت عليها فنجان قهوةٍ فرفضت بإلحاح..

- سيدتي .. السيدة "نورا" أليس كذلك؟!
- أجل!
- لست أدري من أين أبدأ! ...
- إبدئي من حيث شئتِ يا عزيزتي! ..
- أنا أعرف عنك الكثير سيدتي ومن زمنٍ طويلٍ وأنا أشجع نفسي للمضي إليك ولكن الخوف أقوى!
- الخوف! .. مِن ماذا يا إبنتي؟!
- من أن ترفضي طلبي الذي جئتك به
- طلب ماذا؟! أفصحي عمَ جئتني لأجله..
- أنا إسمي "مريم" يا سيدتي أدرس في كلية الفنون مع إبنك.. لقد تعر..

وقفت "نورا" من جلوسها كأن أحداً غزّ في ساقها إبرةً محملقةً عينيها كأنها المغدورة المطعونة..

- "مريم"!! أنت "مريم"!!
- أجل يا سيدتي .. أنا..
- إبني ترك المنزل لأجلك أنت

وراحت تحرك إصبعها مشيرةً على "مريم" من قمة رأسها حتى أخمص قدميها إستهزاءً بها! فوقفت الأخيرة لكن بهدوءٍ شديدٍ

- أجل يا سيدتي أنا "مريم" وأترجاك رجاءً بالله أن تجلسي وتسمعي حديثي حتى نهايته
- ولماذا جئتني إليّ مازال إبني هارباً إليك!
- لا والله يا سيدتي لم يهرب إليّ ولا لأجلي ... أنا كل ما أريده أن تعلمي بأنني أحبه حقاً وكل ما أرغب به إسعاده وقد بذلت قصارى جهدي حتى مرضت لشدة الإنهاك أثناء بحثنا عن منزل السيدة "أسمهان" كي لا أتركه وحيداً

- أنت! ... يا وقحة! كيف تتجرئين على التدخل في حياتنا
- لا والله يا سيدتي لم أتدخل، أنا ساعدته حين وجدته مصمماً ووحيداً
- أنا لا أعرف من أين يأتي هذا الغبي بهذه الأشكال!

تنهدت الفتاة بحرقةٍ ثم قالت كمحاولةٍ أخيرةٍ..

- أنا لن أقف في وجه سعادتك أنت وإبنك ... ولكنني يا سيدتي أفهمه عندما لم يفهمه سوايّ في الكون!!! أقدم إعتذاري على وقاحتي لكنه كان يقسم لي كل يوم ألاف المرات بأنك لم تفهميه وربما لشجارٍ شنّ بينكما نام ليلتين أمام منزلي فإحترق قلبي حزناً عليه!! وبكيت بكاءً شديداً تألماً لوضعكما .. أنا أحبه يا سيدتي وأحلف لك بالله ألف مرة بأنني سأسعده وأهنئك في حياتك وأساعدكما بكل ما ترغبان به .. أرجوك ثم أرجوك دعينا سوياً نساعده ليخرج من ضعفه فيعود إلى أحضانك .. دعيني أساعدك!

أخذت "نورا" تصفق ضاحكةً ثم أردفت على كل ما قالته الفتاة

- الله ... الله ومتكلمةٌ أيضاً، ما أغبى من إبني إلا أنا التي إستقبلتك في بيتي لتشاهدي ما سترثينه بعد موتي .. إنقلعي لعنة الله عليك وعليه! إخرجي من منزلي يا ساقطة!

كانت المرأتان اللتان سمعتهما "مريم" عند دخولها المنزل هما "جيسيكا" وإبنتها، وما أن ترامى إلى سمعهما الشجار حتى إلتصقتا بالباب تستمعان إلى ما يجري خلفه! أرهبهما إنفتاح الباب فجأةً لتخرج "مريم" دون أن تلتفت إليهما متجهةً نحو الباب ثم لتلحق بها "نورا" وهي تقول بصوتٍ مجلجلٍ "البيوت أسرار .. أفهمتِ .. ألم تعلمك أمك بألا يجب أن تدخلي في ما لا يعنيك؟! أوتراها ربتك!!"

لطم الباب خلف الفتاة الباكية لتضحك السيدة ضحكةً مرتفعةً أمام تعجب "جيسيكا" وفرحة إبنتها المختلطة بشعورٍ مرعبٍ بأن هذا ما كان سيحدث لها!

الشاب الغارق في كتبه لم يتخيل بأن حبيبته قد تقدم على أمرٍ كهذا و"هالة" المختفية بحزنها خلف قلاعها كانت تلمح عراكاً يجري ثم خروج فتاةٍ يغرقها البكاء! ودون أن ترى "مهند" من أيامٍ كانت الحياة تجري في المنزل أشبه بالطبيعية لولا عصبية "نورا" التي كانت تلمحها وهي تحاول فتح أبواب الخزانة دون أن تحاول كسر قفلها! ثم تبكي بطريقةٍ هستيريةٍ فترمي بجميع رسوماته أرضاً

ثم بعد ساعةٍ تعيد ترتيبهم! .. كانت "هالة" في أسبوعها الأول فرأت في مراقبة جارتها السلوى خاصةً وأن اِبنتها كانت مشغولةً بعملها واِبنها الذي كاد ينهار كل ليلةٍ فيقصد أصدقاءه طيلة اليوم علّه ينسى! .. كانت تبقى وحيدة المنزل أمام الموت فيتوازيان ويمشيان دون أن يتلامسا فتراقب الجارة وتتسلى بالقراءة وبقليلٍ من الطبخ إن واتاها المزاج ثم يضمها الموت فجأةً فتزحف إلى سريرها مكورةً نفسها لتبكي ساعات تتلوها ساعات، كانت موقنةً بأن العمل في الدكان سيقيها نصف هذا العذاب على أن ما حدث بينها وبين "نورا" كان في الوقت غير المناسب! كان مريحاً لِإحداهما وقاتلاً للأخرى! وما أن لمحت ذلك اليوم "جيسيكا" حتى شعرت بأن الأمل في العمل مجدداً اِضمحل! ثم ضاقت بقلبها الدنيا وشعرت بخنقٍ رهيبٍ ودون أن تجد العزاء أو التسلية في أي شيءٍ بقيت وحيدةً تبكي حتى كادت الروح تفارقها على أن ترديدها لبضع سورٍ حفظتها من القرآن أعانها على تهدئة نفسها حتى غطت في نومٍ عميقٍ دون سابق اِنذار.

معاناة "هالة" تزامنت مع معاناة "مريم" التي صدمت صدمةً لا توصف بوالدة "مهند" ... كانت قبل الزيارة تتخيلها وحشاً على أنها الآن تتخيلها سيدة مجتمعٍ أنيقة بقلبٍ أسود! كان الإرتباط برجلٍ يملك أماً كتلك مستحيل .. كيف تتزوج رجلاً أمه ستلاحقه طيلة حياته لتقنعه بأن زوجته ستسرقه تماماً كما فعل عمها! كيف لِامرأةٍ فقدت الثقة بكل البشرية أن تعيد لها الثقة فيها! ... هي وحدها! هي التي لا تعرفها ولم ترها من قبل .. كانت جاهلةً عن قصة اِبنة "جيسيكا" ولو أنها علمت لكُسر قلبها المتأمل!. عصفت بها الأفكار وهي تسير قاصدةً منزلها والدموع تغطي وجنتيها فتخفيهما تارةً بيديها وتارةً تشد السترة حتى أنفها. ما الذي جنته من هذا الحب؟ عينان لطالما أحبتهما وقلبٌ نظيفٌ كالقطن .. لكن الشخصية الضعيفة لابدّ ستتكلف سنين لِإصلاحها والأم بقلبها الأسود من يعالجه؟!! من يعدل أفكارها وقد ربيت وكبرت على فكرة أن الآخرين خلقوا ليسرقوا ما جنته، وربما زرعت في رأسها أيضاً بأنها من الممكن أن تقتل اِبنها وربما تقتلها أيضاً لتسرق أموالهم!. عيناها الحاقدتان عليها كانتا تعرفان! هي تعرف بأن هناك "مريم" في حياة اِبنها، ومن أين لها أن تعرف! ولِمَ من حقها أن تكرهها لهذه الدرجة قبل أن تعرفها! قبل أن تفهم تفكيرها ووجهة نظرها! ... صوتها الحاد كان يخترق جسدها الغض بهمجيةٍ فيشتت خطاها ثم يسلبها كرامتها! ثم يلطمها على وجهها كمهانةٍ في منزلٍ غريب! .. غريب! وهل يكون منزل "مهند" غريب .. آهٍ كيف لأم من أحبت ألا تكون بمثابة أمها بل عدوةً لدودةً ترى في عينيها كل الشر والحقد المرعب! ... أتراها على قدرٍ من القوة لتواجهها؟ أم أنها اِستعجلت الحب... الحب الذي خطفها على منضدة

الحلم! هناك حيث كانا يقفزان درجةً في درب الأفق العريض من الأمل العظيم .. سوياً .. يداً بيد، بسمةً ببسمة .. نبضاً يتلوه نبض! هي تذكر كيف خجلت أن تعترف على مسمعه بحبها للمرة الثانية فكتبت على الصفحة المعنية بالشرح " أحبك" بقلمها الأحمر لمّا ذهب ليجلب فنجانيّ قهوةٍ لهما ... حينها شعرت كأنها تُسلب من قواها فتفقد الجاذبية والأرض بمجملها! كأن يدي الله حملتاها وبثتا في قلبها الخالي من أي حبٍ عابرٍ هذا الحب العفيف فكتبت كما لو أن قلبها رزق يدان فأبعد قضبان قفصه وخرج راقصاً فوق الورق كاتباً بقلمٍ كُون من مشاعرها الغضة حافراً على دفتر الأحلام "أحبك" ... كانت تريد أن تكتب أكثر ... "أحبك يا جنون العشق!" "أحبك يا فاتن العينين وغريباً كأول غيمةٍ للصيف تدخل الربيع دون اِنذار!" .. كانت تريد أن تصف له بأنها في هواه مجنونةٌ لا تدرك لِمَ أحبته بهذا الجنون ولا لِمَ يقدم قلبٌ صغيرٌ على الحب اليوم!.

في ذلك الصباح الجميل بشمسه الخلاّبة وسمائه الزرقاء وغيومها البيضاء التي لا معنى لها حين ندقق! .. كانت تخط تلك الكلمة كما لو أنها على فراش الحب توقع عقد قرانها لتسلم جسدها البريء ليدين لم تعرفهما قطاً! ... ربما أخطأت! كانت تفكر بهذا طيلة الطريق ... ربما القلب لا يجب أن يهوى قبل أن يدرك جميع ما يحيط بمن يقدم على اِقتراف الحب معه! لكنها اِقترفته وزجت قلبها الضعيف بين يدين بريئتين مسجونتين إلى الأبد بسجن والدةٍ متسلطة ... لماذا لم تفكر يوماً بأن تكون والدته هكذا؟! .. أويوجد اِمرأةٌ كتلك! لقد تخيلتها مراراً وتكراراً بيد أنها اليوم اِكتشفت بأن تخيلاتها لا تمت للواقع بصلة! تماماً كرسم المباني والغرف أمام عينيه الجميلتين دون أن تستطيع تخيلهم مطلقاً على أرض الواقع ... كانت تعطيهم كل المساحات الخيالية في ذهنها، الإرتفاعات والمساحات والمنظور الصحيح ثم تسقطهم كما هم على الكرتون حتى أصبحت بارعةً في ذلك لكنها يوماً لم تمشِ في طريقٍ ليتراءى لها مبناها مرفوع الرأس أمام عينيها مناطحاً أعالي السماء! بالضبط كما تهيأت لها "أسمهان" سراباً لا يمكن أن يتحقق .. كانت ضعيفة البصيرة لا واقع لتخيلاتها فكانت تصدم دوماً بما تتخيله عندما يسقط سقطةً واحدةً أمامها .. واقعاً مراً صعب التصديق، لذا ومع كل ما لمح إليه "مهند" طيلة السنتين السابقتين من الحب لم تستطع أن تتخيل وجود أمٍ كهذه! ربما كانت تظنه يبالغ .. لابدّ أنه كان يبالغ في سرده للواقع لكنها اليوم عرفت بأنه أنقص من السرد الكثير! كما أنقصت هي من الواقع المجمل! .. يا لهول مصابها! ويا لهول ما وقعت به معه!.

كانت كلما فكرت به لان قلبها لرقته وطيبته وكلما تذكرت والدته مُحيت ملامحه نهائياً ليتبين لها المستقبل مريراً بملاحقاتها الجنونية وغضبها العارم ولسانها السليط!. الشاب الذي نام حباً تحت شرفتها لأنه لا يملك مكاناً في الكون أدفأ من قلبها له أمٌ يمكن أن تهدم الحب مهما كان متيناً! أويمكن أن يعيشا بعيداً عنها .. كأن يسكنان في بلدٍ آخر وينجبان أولاداً لا يعرفون عن جدتهم سوى الخيال! خيالاً ينسجونه هم كي لا يتألموا كما تألمت! .. هي تحبه والقلب الذي تعلق بدفء العيون وطيبة القلب لا يمكن أن يترك الحب يمضي بلا عودة لأجل خمس دقائقَ من الغضب المجنون واللاذوق العارم!

"سهى" الغارقة بشماتتها وإغتباطها كانت تستمع لصراحة "نورا" العشوائية بينما يزداد غضب وإستياء "جيسيكا" من صديقة الطفولة! فقد قصت عليهما كل ما جرى من تعديل للكلية وحبٍ جديدٍ فاشلٍ والآن قدوم العاشقة بكل وقاحةٍ لمنزلها ترجو عطفها ورضاها! بأي حقٍ تقتحم حياتهما سارقةً منها اِبنها ولا شك فيما بعد مالها! ..

- الناس يا "جيسيكا" لا يرون في الآخرين سوى أموالهم، تتصنع الحب حتى تتزوجه ثم تنهب كل ما فوقه وتحته لتتركه عظمةً للكلاب، هذا إن لم تقتله!
- بالله عليك يا صديقة العمر لا تتخيلي ما لا يعقل! تقتله! تنهب ماله ... ماهذا الذي ترسمينه من لقاء خمس دقائق!
- أوتتزوجه فتاةٌ جميلةٌ لعينيه!
- ألا يستحق!!! ألم تربه بأخلاقٍ حميدة! ... أليس قلبه كالقطن الطري الطاهر؟!
- أي نعم ولكن هذا لا يبرر حباً خفياً الله أعلم كم دام
- وليدم .. وليدم إن شاء الله لأبد الآبدين!! ما الذي يزعجك في ذلك؟!
- لا وألف لا لن يتزوج ما حييت! اِبني لا يفقه في الزواج والحب شيئاً ستلعب به كدميةٍ ثم تقتله كما فعلت من سبقتها!
- كفي عن قول كلمة قتل!! هذا حب .. ألا تذكرين حبك أنت و"هيثم"؟ أكان أيضاً قاتلاً وسارقاً!
- وما كان عندي حينها؟! ثيابي! ملجأ للدولة؟! .. ما كنت أملك حينها سوى قلبي وحبي
- جرديه من مالك إن كنت ستحبسينه كفأرٍ طيلة حياته!!

- "جيسيكا" بالله عليك .. بالله عليك لا تزيدي الطين بِلة! الطفل مازال صغيراً على الزواج على كل حال، ولن تذوق حلاوة شفتيه إلا اِمرأةٌ أنا أختارها

كانت "سهى" صامتةً منصتةً شامتة بيد أن الجملة الأخيرة أثارت اِزعاجها .. أي اِمرأةٍ تختارها وهي التي جنت حين عرفت بإحتمال وجود حبٍ بينها وبين اِبنها! وحتى لو رضيت بها فلن يلين قلب "مهند" مهما طال العمر بعد أن فعلت به ما فعلت من اِنتقامٍ لئيم بغيض!!

-3-

ثلاثة أيامٍ مرت دون أن يحصل تواصلٌ بين العاشقين! وكان الأمر غريباً على "مهند" فكان يقصد الكلية فقط بحثاً عنها دون أن يجدها فيسأل صديقاتها دون أية إجابةٍ شافيةٍ لجنونه! حتى قصد صباح اليوم الرابع منزلها بعد أن قضى كالمعتاد الليل في بيت جده الحميم فتبسط الرصيف تحت شرفتها مطالعاً كتاباً قد اِستأجره من مكتبته المعتادة ليقضي ثلث اليوم وهو بين الكلمة والأخرى يرمق الشرفة بإستياءٍ حتى أثار وجوده اِنزعاج الجيران على أنه لم يأبه مستمراً بتناوب النظرات بين الشرفة والكتاب إلى أن اِستشاط غضب جارٍ لم يتمالك أعصابه فأخذ يلاسنه بالكلام حتى اِشتعلت شرارة الغضب بينهما فأمسك الرجل الكتاب ورماه وبدأت المشاحنة بينهما إلى أن اِنتهت باللكم والضرب الشرس! وكان الرجل قوياً ضخماً فأودى بـ"مهند" أرضاً ولم يكف عن ركله حتى خرج الدم من فمه فولولت بعض النسوة من الشرف حتى ترامى إلى سمع "مريم" موجة الجنون هذه فخرجت إلى الشرفة مسرعةً لترى حبيبها مرمياً على الرصيف ودماؤه تحيط به بينما قربه صديق والدها يركله بلؤمٍ وقد تبين عليه التعب والإرهاق! فصرخت بملء صوتها بإسمه حينها توقف الجار بحركةٍ لا إراديةٍ لينظر إليها فصرخت بشهامةٍ وجنونٍ لم تتوقع يوماً أن تحصل عليه لا بل لم تتوقع أن فتاةً شرقيةً قد تقدم على ما فعلته من جنونٍ تلك اللحظة "شلت يداك اِترك خطيبي بحاله!!" حين سمع الجار ما سمعه من الصفة الرسمية التي تربط الفتاة بالشاب المضرج بدمائه اِستقام مذهولاً دون أن ينزع عينيه عن الفتاة ثم تساءل بإرتباكٍ وصوتٍ جهوريّ "خطيبك!!" .. "أجل خطيبي!! اِتركه بحاله شلت يداك .. كدت تقتله!" ونزلت الدرج بسرعةٍ خياليةٍ فخُلقت أمام الرجل المذهول بعينيها اللتين ترمقانه بقرفٍ فدفعت كتفه بيديها حتى تزيحه عن طريقها تحت أعين الحي بأكمله!!.

هزت جسد "مهند" المنهك ففتح عينيه تحت تمويه الدموع وأخذ يبصق الدم بألمٍ لتلحق به دموعها عندما بدا صوتها مبحوحاً ثم أخذ يقوى وهي تدعو على جارها وصديق والدها الذي كان مذهولاً لشدة الصدمة. حدث ذلك كله قبل أن يغير ركون سيارةٍ قرب الحادثة كل ما جرى! خرج والد "مريم" من سيارته دون أن يغلق بابها راكضاً نحو اِبنته التي تضم بين يديها شاباً مغرقاً بدمائه يبدو على هيئته الاِجهاد فسألها بصوتٍ مختلطٍ بين الخوف والدهشة "من هذا! ماذا حدث؟!" وقبل أن تستطيع الفتاة اِبتلاع ريقها لتجيبه ضحك الجار ضحكةً مجلجلةً وقال بِاستهزاءٍ "خطيبها! .. يا جار الرضى!" فتركت "مريم" يد الشاب واِستقامت وهي تنظر بعينين تقدحان غضباً نحو الجار المستهزئ ثم رمقت أباها الذي بدأت عيناه بالاِحمرار فقالت "مهند .. هذا هو الشاب الذي حدثتك بأنه سيخطبني" ما أن سمع الأب هذه الكلمات حتى تنفس الصعداء ونظر إلى جاره المستهزئ بقوةٍ وثقةٍ تلغيان ما جرى "أجل سيصبح خطيبها يا جار الرضى.. هل أنت من فعل هذا بصهري؟!" تلبك الجار بفعلته المشينة حتى قبل أن يسحب أثار الضحك من ملامح وجهه على أنه برر ما حدث بقوله..

- يا جاري ظلّ أكثر من ست ساعاتٍ على هذا الرصيف يقرأ في كتابه ويرمق عمارتنا حتى ضاق بذرعه الرجال فكنت السبّاق، وما جئته ضارباً لا والله بل جئته ملاسناً على أن الشيطان أقوى!
- وتدميه يا "أبا مصطفى"!!
- لا حول ولا قوة إلا بالله ...

أخذ الجار بمساعدة الشاب حتى وقف منهكاً تتموج الدنيا أمام عينيه على أن صوت الرجل وهو يقدم له الاِعتذارات وصله فهز برأسه قابلاً مسامحاً!. ساعدهما الأب حتى وصلا إلى المنزل حيث تركهم الجار غير متوقفٍ عن تقديم الاِعتذارات والتبريرات إلى أن غاب عن ناظريّ الأب الذي ظلّ في مواجهة "مريم" ... لوحدهما وثالثهما شابٌ يكاد لا يعي ما حوله!. "مريم" التي لم تدرك إلى أي اِتجاهٍ تصوب بصرها كي لا تلتقي العيون خوفاً من غضبٍ لا تدرك حدوده فاجأتها يد أبيها التي اِمتدت إلى كتفها ترفع بِاصبعين قميصها المجعد لتصلحه ثم تلاحقها عينان اِمتلأتا غضباً بحيث لم يطل الصوت صبراً حتى ينطلق بنترةٍ وعصبية "يا فضيحتي بين الناس! خطيبك! ومن أين أدراني لأستر كذبتك!"

- والله يا أبي لم أستطع أن أراهم يضربونه

- ولِمَ جاء هذا الوغد!
- لست أدري! ما علمت بوجوده إلا وهو مضرجٌ بدمائه!
- اِسقيه بعض الماء وسينهض كالحصان، وبعدها لكل حادثٍ حديث.

كان حديث الخطوبة وهماً يتهيأ لـ"مهند" وهو بين الاِغماء والصحوة! فلم يدرك كل ما جرى إلا وهو متألم الرأس والبطن في بيتٍ يجهله وأمامه رجلٌ بشاربين كثيفين لم يره في حياته قط! وبين لحظةٍ وأخرى تذكر الرجل المجنون الذي هاجمه! ففرك عينيه بيديه ثم نظر إلى الرجل الذي تهيأ له بغضبه جالساً أمامه تماماً! .. أتراه حقاً غاضباً! ثم اِخترق صوته الخشن ألم رأسه الشديد..

- لماذا كنت على الرصيف!

كان سؤالاً محدداً دون أية اِضافةٍ! مقتضباً بحيث لا يمكن التفكير أكثر من أنه في حضرة والد "مريم" وجهاً لوجهٍ بعد سنتين من الاِخلاص والحب ... كان يراه تحت وطأة الألم فتزداد ملامحه عبوساً ويزداد رفضه شدةً! وفي ذلك الموقف العصيب مد بصره قدر اِستطاعته ذات اليمين وذات الشمال فلم يجدها! .. كان وحيداً تماماً أمام خصمه الجديد! أتراه سيضربه مرةً أخرى؟! وهل هو قادرٌ على مواجهته بحقيقة رفض أمه! وهو في بيته وأمام غضبه المتفجر! .. قرر البوح بما يجول بخاطره .. أن يقول الحقيقة كما هي!

- لقد تغيبت اِبنة حضرتك عن الكلية أكثر من ثلاثة أيام ولأنها قد أقفلت هاتفها جئت فقضيت اليوم على الرصيف أنتظر أن ألمحها لأطمئن عليها!

كان يقول الحقيقة على أية حال لكن الأب رأى في قوله الصريح حباً لا يمكن نكرانه وخوفاً يحبه لاِبنته فاِبتسم على غير ما توقع الشاب فرد الاِبتسامة واِنطلق صوت الأب يطلب من اِبنته ثلاثة فناجين قهوة! فاِزداد تعجب الشاب وهدأ ألم رأسه بعض الشيء وأخذ الرجل يتحدث عن جاره المتسرع بغية الاِعتذار عما حصل وبذات الوقت رغبةً منه في مضيعة الوقت ريثما تأتي اِبنته! وما أن أخذ الحديث عن الجار يزداد في نطاقٍ لا فائدة منه جاءت الفتاة ببساطتها قاطعةً الحديث مطرقة الرأس مقدمةً القهوة لأبيها ثم للشاب ثم جالسةً في زاويةٍ نائيةٍ بخجلٍ شديدٍ، وما أن اِرتشف الأب أول رشفة من قهوته الحارة حتى قال مثنياً "يا الله! قهوة "مريم" لا أطيب منها!!" فنظر الشاب نظرة تعجبٍ خاطفة للرجل ثم اِبتسم وهز برأسه موافقاً!! اِستطرد الرجل بلهجةٍ جديةٍ على غرار ثنائه..

- اليوم حصل ما حصل ولن نستطيع تغيير شيء! قالت "مريم" بأنك خطيبها وأنا، للطفٍ من الله حلّ عليكما، قد أخبرتني بأمرك مسبقاً وهذا ما غير كل ما كان سيحصل! ...

قطع حديثه المهم ليرتشف فنجان قهوته ثانيةً أمام اِنشداد الشابين ثم أكمل ممهلاً..

- سأتوج حبكما بالخطبة!

رن الخبر في أذنيهما رنيناً مرعباً!! بينما كان نطقه على الأب كأن اِحتفال الخطوبة من اللحظة بدأ! اِنبسطت أساريره واِحمر خداه فرحاً بينما تجهم وجههما برعب ما حدث وما قد سيحدث! نظرا لبعضهما كأنهما يريان بعضهما للمرة الأولى، كيف ستخبر والدها بما رأته من أمه! وكيف سيخبره بقرارها! .. كان الأب وهو يظن نفسه المفصل الوحيد في الحكاية آخر من يمكن الخوف من قراره بالرفض أو الإيجاب! .. جاهلاً كل الجهل حين اِنتابه الفرح بأن المصير ليس معلقاً البتة به بل بالطرف الآخر ... هناك في ذلك المنزل المعلق في السماء حيث مازالت الأم هائمةً بغضبها تحاول فتح الخزانة تارةً ثم تقليب الرسومات تارةً أخرى بينما يرقد رفاة الأب هادئاً كما كان من تسعة وعشرين عاماً! .. مازالت ترمقه بحرقةٍ ما بعدها حرقة حتى وصل بها اليأس والوحدة لضم الرفاة والبكاء بصوتٍ يشق أطراف الكون، كانت "هالة" تنظر إليها من النافذة المقابلة باكيةً أيضاً! تحسدها على الرفاة الذي تركه زوجها لتلتجئ إليه في ألمها بينما تنظر هي حولها فتجد الوحدة وحشاً بأنيابه البارزة ومخالبه الدامية يهاجمها فتتمنى لو أن رفاة زوجها معها لكانت اِستأنست به! على أنها كلما صحت من فجيعتها غيرت رأيها وحمدت الله على أنها دفنته لا شردت روحه كما حدث مع جارتها التي لطالما تخاف الأرواح والشياطين معترفةً لها في قليلٍ من المرات بأن رفاة زوجها يجذب الأرواح! فمرةً تركت اِحدى كراتينها في منتصف غرفة النوم موضبةً اِياها لتغيب لحظات وتعود فتجدها مركونةً فوق صندوقٍ آخر!! اِمتلكها الخوف طويلاً على أن وجود طفلها في المنزل كان وكما قالت بركةً تغطي المنزل حتى أساسه ثم بعد عدة سنواتٍ اِتصلت بها لاهثةً تخبرها بأنها دخلت الحمام لتستحم ثم خرجت لتجد المنزل مقلوباً رأساً على عقب! حلفت بالله للشرطي بأنها لم تسمع همساً وظلت تعتقد لأشهرٍ، رغم تقرير الشرطة، أن ما حدث ليس بسرقةٍ بل عفاريت الليل تلهو بأعصابها حتى اِكتشفت بعد مدةٍ طويلةٍ أن عقداً ذهبياً واحداً قد سرق بعد أن تركته في خزانة غرفتها ذلك أن جميع أموالها وذهبها تعودت اِخفاءهم في مكانٍ سريٍّ لا يعرفه حتى اِبنها! حيث كانت قد حفرت بعد وفاة زوجها فتحةً في جدار المطبخ بقدر اِصبعين خلف البراد تماماً ثم صنعت للفتحة غطاءً لا يمكن مع ظلام خلفية البراد الحاجب للإنارة توضح ما إذا كان

جزءً من الجدار أم لا! وهكذا نامت مجوهراتها وأموالها التي أخذت تحتفظ بهم خوفاً من الحاجة هناك، ودون حاجةٍ مرت الأيام وتجمعت الأموال حتى اِبتاعت ببعضهم سيارة لاِبنها ثم نوت شراء مشغلٍ على أنها غيرت رأيها نظراً لوجوب اِبتعادها الكبير عن اِبنها الذي لم يمضِ على محاولة اِنتحاره الكثير، وذات مساءٍ حين زارتها اِحدى جاراتها تزينت بقطعة ذهبٍ تذكرت حين لاحظت غيابها أنها لم تعدها إلى مخبئها ذلك أنها وضعتها في اِحدى رفوف خزانةٍ قرب سريرها تحت بضعة أوراقٍ لم تحتجهم إلا في ذلك اليوم الذي اِستطاعت به الاِقتناع بأن المنزل حقاً سرق! بيد أنها لم تتوقف عن خزعبلاتها عن الأرواح التي تغير مواقع الأشياء بين الحين والآخر خاصةً حين يغادر اِبنها المنزل!.

في منزل الرجل الذي شعر بأن موافقته قلبت الدنيا لأفراحٍ كان قلب الشابين غارقاً في الضياع! فتلك الفتاة التي تقاذفتها القرارات في يومين ونصفٍ من الغياب كانت لا تدري ما تجيب به هذا العاشق المنتظر! أتكمل معه أم لا! وهذا الشاب الدائخ تحت وطأة ألم الرأس والبطن كان مدركاً بما يفوق المئة بالمئة أن أمه لن تقبل بما حدث! لن توافق على خطوبته طالما أنها من زمنٍ بعيدٍ رفضت رفضاً قاطعاً نبض قلبه غير الروتينيّ ووجهه السعيد العاشق!!. كيف يفسر وهو في موقفٍ لا يمكن التراجع عنه أنه لن يستطع رمي والدته للمضي قدماً مع اِبنة هذا الرجل الذي اِقتنع به بشكلٍ فجائيٍّ كصهر! هكذا .. وفجأةً قُدر للأب الغاضب أن يهدأ من جنونه ليقبله وهو في أسوأ أوضاعه!!. تلفت الأب في حيرةٍ بين الشابين البعيدين في همومهما ليوقظهما في صوتٍ رنانٍ منزعج "ما بكما!!" وعلى الفور تبسما ومثلا بِاحترافية الخجل! ثم عندما ذهب الأب ليجلب علبة سجائره متقصداً تركهما بضع دقائقَ لوحدهما نظر إليها "مهند" كالغارق وهو يناجي منقذه ثم سألها ..

- أين كنتِ!
- قصدت منزلكم..
- منزلنا!!
- أجل منزلكم ... وطردتني أمك!

مسح شعره بيديه وهو يهمس بغضب "حسبنا الله ونعم الوكيل.."

- أمك لا تريدني يا "مهند" ... لا تريدني مطلقاً!

صمت دون أن يضيف على قولها شيئاً فزادت حدة صوتها غضباً على الرغم من همسها..

- أجب! ... ما بالك صامتٌ؟ أنا التي كان عليّ اِقتحام حياتك لأعرف من هي أمك ... أمك التي لطالما أخبرتني بأنها لابدّ ستلين وها نحن في عداد الخطيبين الكاذبين نضحك على أبي اليوم ليقيم علينا الدنيا في الغد! .... تكلم ما بك صامت!
- وماذا تريدينني أن أقول؟!! أنا خلقت هكذا .. هذه أمي ولا أستطيع تغييرها! ... وما بالك غاضبة لهذا الحد! هذه المرة الأولى التي تراك .. دعينا نجرب مرةً أخرى وثالثة! دعينا نجلب معنا خالي .. دعينا نحارب لنصل لما نريده
- خالك! أتريد أن يطردني مثلها! .. كرامتي لا تسمح لي يا أستاذ!!
- يا أستاذ! .. أصرت الآن أستاذاً يا "مريم"!!

أطرق رأسه متفحصاً الأرضية بحزن ثم قال..

- سأتصرف!
- ماذا ستفعل!!

حينها دخل الأب وعلى شفاهه تلوح سيجارةٌ من الطراز الفاخر فرحَ العيون مبتسم الشفاه! .. وعلى هذه الحرقة ظلا نصف ساعةٍ قبل أن يستأذن الشاب مغادراً دون أن يترك فرصةً واحدةً لـ"مريم كي تستفسر عما سيقدم عليه! .. هو الذي كان مدركاً تماماً لما عليه فعله، كان يجب أن يقدم على ذلك من زمنٍ بعيدٍ بيد أنه كان خوّافاً، واليوم لا!!. قصد المنزل كأنه يقصده بعد سنين طوالٍ من الغربة!! وأمام أمٍ حاول معاندتها طويلاً مدركاً تماماً بأنها لا تخنع مطلقاً لقراراته اِستعان بكلمات جده التي لم تزل تنحت قواه يوماً بعد يوم! ..

صعد إلى المنزل مسرعاً رغم خوفه الشديد لينقر على الباب ثلاث مراتٍ بقوةٍ بعد تصبرٍ طال دقائق فكر خلاله ما أنسب طريقة لقرعه! كان حله الوحيد هو الغضب .. أن تشعر الأم حتى قبل أن تراه بأنه غاضبٌ ومجنون!. وعلى عجلٍ وما أن مرت بضعُ ثوانٍ سمع صوتها تنادي من وراء الباب "من الطارق" فأجابها بحدةٍ وغضبٍ "أنا!" ففتحت الباب على الفور حتى أن خصال شعرها تطايرت لشدة اِندفاعها وعلى الفور وضعت يدها على خصرها وأخذت تهز قدمها كأنها تتوعده بحسابٍ عسير فمر قربها دون أن ينظر إليها مقتحماً المنزل مستنشقاً رائحته ليقتل الحنين القاسي الذي أضجره طيلة أيام غيابه. كان ينوي جمع أغراضه قبل بدء العراك معها على أنه وما

أن خطا الخطوة الثانية متجهاً نحو غرفته حتى سمع صوت الباب يغلق كأنه مدفعٌ دوى في أذنيه ليعقبه سؤال أمه المتوعد "إلى أين!! بهذه البساطة؟!" فأدرك بأن العراك قد حان موعده وأنه لابدّ أن يستلم الحديث ليقود المشاحنة كيفما رغب وإلا خسر لا شك!

- أجل بكل هذه البساطة آخذ أغراضي لأهجر منزلك!

صمتت إذ توقعت بأنه قاصدٌ غرفته لينام فيها لا ليغادر المنزل الذي لا معنى له بدونه!

- "مريم" وآسفٌ لإخبارك بهذه الطريقة الفظة، خطيبتي من اليوم فصاعداً ولن يردني عنها مخلوق!
- خطيبتك! "ضحكت ضحكةً اِستهزائيةً" أتظن نفسك رجلاً دون أمك!
- رجلٌ وستين رجل
- الله الله الله .. بماذا حشت هذه الحلوة رأسك؟!
- هذا ما أنا عليه فإن لم يعجبك أقصد آخر الأرض كي لا أزعجك أكثر مما فعلت!
- يا ويلتي هذا ما خفت منه .. تتركني لتكسب رضاها
- معاذ الله! أنت أمي ورضاكِ محبةٌ قبل أن يكون واجباً علي لكن الأم لا تكسر اِبنها! لا تيتم قلبه وهو اِبن ضلوعها!!
- وهل هكذا تكسب رضاي؟!
- ربما إن اِكتشفتِ بأن هذه الفتاة هي سعادتي كما سعادتك لرضيتك!
- لرضيتني!! كيف أرضى وأنا أراك تخطو أكثر خطواتك فشلاً
- الحب ليس فشلاً .. الحب منارةٌ بها أراكِ كما أراها!
- الحب هو يدٌ تدفعك لتتلقفك الأرض بعد محاولة اِنتحارٍ بائسة

صمت خجلاً من فعلته فأعقبت متمسكةً بقوة موقفها مستغلةً خنوعه..

- ما أدراك بأنها أفضل من مروى؟ أنا رأيتها .. رأيت الشر في عينيها!! رأيتك بعيداً عني فلا ترى مني سوى المال!!
- معاذ الله يا أمي!! أنا أرى فيك المال لا غير! وكيف هذا وأنت ليّ الروح والقلب
- إن كنت لك الروح كما قلت فدع عنك هذا الحب إنه مؤذٍ!!
- أوتأذيت منه؟!

صمتت .. كأنما اِبتلعت لسانها أو فقدت فجأةً صوتها! فأعقب قائلاً..

- "النسونجي" لمّا أحب أخلص لك، لكن .. كيف أقدمت على ما أقدمتِ عليه حين عرفتِ بأنه لعوبٌ من اِمرأةٍ لأخرى؟!
- اِخرس عندما تتكلم عن والدك؛ تكلم بِاحترام!
- أجيبيني ولا تغيري الموضوع! ... كيف أقدمتِ وكل الظنون تقول بأنه لابدّ سيخونك، لابدّ سيهجرك ذات يوم! .. فالعصفور الطيار يرجع دائماً لعشه! لأسلوب حياته إذا ما غيره ثم ضاق بالتغير ذرعاً..
- كم مرةً قلت بأن عليك التحدث عنه بِاحترام!!!
- أنتِ لا تريدين أن تقولي بأنه الحب ... الحب الذي جعلك تغامرين حين همست لك اِحدى خفقات قلبك بأنه هو!! هو لابدّ وكان هو فما اِستطاعت صفةٌ أو سيطٌ أو حديث نسوةٍ أن تبعدكما أو تغير قدركما .. الحب يا أمي هو دليلك ودليلي
- وهل كان دليل "أسمهان"!!

صمت بصدمةٍ عارمةٍ حين تلفظت أمه بِاسمها أمامه ... كانت تعلم بأن "أسمهان" لابدّ قصت عليه ما قصته عليها! على أنها فضلت لسنين الصمت .. الصمت المطبق على ماضٍ يخصها بآلامه التي لا يمكن لآخرٍ أن يحملها ببساطةٍ كما حملتها سنين حتى ما عادت تشعر إلا بحرقةٍ بسيطةٍ تكوي قلبها بين الحين والآخر! ... كانت "أسمهان" دليلها الأخير بأن الحب له وجهان وعندما لم يدع لها باباً للهروب من دليله القاطع رمت دليلها نادمة! ..

- أسمهان!! ..

اِحتاج لثوانٍ فكر خلالهم وعيناه المبحلقتان تحدقان بأمه الغاضبة النادمة اليائسة!!

- الحب له وجهان .. ليس قلبك على صوابٍ دائماً!
- أنا أحبها يا أمي
- وأنا لا أريدها بيننا!.
- بل عليكِ رؤيتها ثانيةً، حدثيها .. تعرفي على والدها، والدتها ... دعِ الحقد وانظري إليها بعين الحب!

أخذت تصفق له بإستهزاءٍ مزعجٍ ثم قالت..

- اِبني الرومانسي! .. تعلم، الفتاة التي تبث سمها مرةً تبتسم في المرة المقبلة لتنسيك لدغتها!

أردف بنترةٍ وعصبيةٍ كادتا تفقدانه صوابه..

- "مريم" خطيبتي وقريباً زوجتي وسأقاسمها حياتي كلها مادمت سعيداً معها..
- أها .. حياتك كلها .. حياتك أنت وليس حياتي! "أسمهان" أمرٌ يخصني لا يخص حقيرةً مثلها لتأتي حتى منتصف منزلي وتذكرها متفاخرةً بمساعدتك

صدم الشاب لثوانٍ بما قالته "مريم" أمام والدته على أنه اِستلم مجرى الحديث ثانيةً ليتهمها..

- أين كنتِ؟ .. سنون وأنت تعلمين مَن "أسمهان" سنون وأنت تخفين جدي وبيته المحروق وقصة عمك.. سنون وأنا أظن بأنني خلقت بلا أبٍ ولا أسرةٍ ولا أصل! ولوحدي أنا وبمساعدتها هي عرفت من أنا، فهمت لِمَ يتفاخر الناس بأصولهم حين يملكون أجداداً كجدي دون أن يخفوهم كأنهم عارٌ أمام الجميع حتى أقرب الناس إليهم .. حتى أحفادهم!

أردفت على جملةٍ واحدةٍ كأنها لم تسمع بقية ما قاله ..

- ساعدتك؟! ... في ماذا!!
- في البحث عن منزلها .. في معرفتها، في محاولة كشف سرها
- سرها؟! آه يا شارلوك هولمز! ... سر ماذا الذي حشرت أنفها به؟! أعلمني! أليس من حقي أن أعرف بعد خطيبتك!
- طبعاً!! لك الحق حتى قبل أن تعرفي، أنا لست مثلك! أنا لا أخفي ماضيي عنك ... أنا لا أسرق من الناس أصولهم وحقوقهم!! ..

صمتت برهةً بينما تتطلع إليه ثم أكمل قائلاً..

- في منزل "أسمهان" أمرٌ غريب!! .. هناك في غرفها شيءٌ سيجعلني يوماً أقتحمه كاللصوص لأعرفه! هدوؤها، حذرها وحرصها الشديد يزرعان الشك داخلي.. ربما هي من أحرقت المنزل لا العم! ... إنني أشك فيها لحدّ أنني قررت اِقتحام منزلها علّني أفهم ما الذي تخفيه عنا!

كان الشاب بخطته يتلاعب بأعصاب والدته وكان مدركاً تماماً بأن خوفها عليه سيكشف السر .. هي لابدّ تعرف وطالما أنها كانت الرابط الأول بين "أسمهان" والماضي فلابدّ لديها المزيد .. المزيد

الذي سيغير كل شيء! لذا أصر كل بضع كلمات أن يكرر قراره المجنون بإقتحام منزلها علّه يكتشف السر ذلك أن ما إختلقه فعلياً غير معقول فالمنزل المحاط بحارسين شديدين لا يغمض لهما جفن منزلٌ محكمٌ محالٌ سرقته بيد أن أمه زاولها الشك بأنه قد يفعل أي شيءٍ بعد محاولتيّ الإنتحار الرهيبتين اللتين أقدم عليهما! لذا عاندته بقراره أكثر من أربع مراتٍ وكان يعيد عليها جوابه الأوحد "أنا سيد نفسي .. قراري أنا أتخذه لا أحد!" وكانت مع كل مرةٍ يجيبها بهذه الإجابة الحادة تقتنع أكثر بإحتمالية فعله لأي حماقة! .. كان يمكن أن يضيع من يديها! أن يسجن! أن يُقتل! أن يفشي سراً لابدّ سيسبب له الأذية، ولأنها قطعت عهداً خطيراً بألا يعرف مخلوقٌ بما عرفته كان يجب أن تناور على جنونه فصرخت بصوتٍ قطع أنفاس جيرانها "سأغضب عليك إن فعلتها!!" وكان أكثر ما يبث الرعب في قلبه غضبها! كان يعلم بأنها لن تفعل ذلك فهي لا تملك غيره في الدنيا إلا أن الكلمة التي إنحفرت في قلبه كان صداها أوسع من مخاوفه فقد توضح له بأن خطبته رغماً عنها لم تجبرها على لعنته بينما منزل "أسمهان" بأسراره أجبروها! ما الذي يخفيه هذا المنزل حتى إستدعى جنونها لهذا الحد! وما السر المكنون المخيف الذي تورطت به أمه!!. كان تماماً عند مفترقٍ بأن يريها إستماتته على رضاها أو رغبته عنه! كأن يعبر لها عن إهتمامه بها أو لا! .. موازنةٌ رهيبةٌ بين سر الماضي الخطير والأصل المنغمس بكل أنواع المصاعب وبين أمه التي تكاد تفقد صوابها أمامه، في تلك اللحظة رُن جرس الباب فتشتت أفكارهما لتتقدم الأم كأنها هاربةٌ من الشجار متسائلةً عن الطارق؟ لقد كان الخال يمر ليطمئن على أخته فوجد إبنها غارقاً في حالة غضبٍ غريبة! وقبل أن ينطقا بحرفٍ صرخت الأم "جنّ الصبي يا أخي ... والله جنّ!" فطالبهما بالجلوس بكثيرٍ من الهدوء والتعجب ثم حين هدأا بدأ محاولة فهم المشكلة بعقلانيةٍ لم يعهدها الشاب منه! فقال بصوتٍ هادئٍ لا يكاد يسمع ..

- لماذا جنّ الصبي يا أختي؟ ما الذي يحدث يا "مهند"؟!

سبقت الأم إبنها فقالت ..

- عزم على سرقة البيوت!
- سرقة البيوت!! أهذا ما فهمته من كلامي!
- إشرح لي يا "مهند" قبل أن أفقد أعصابي..

كان هذا اِنذاراً كافياً ليفهم الشاب بأن حبل الصبر لدى خاله كاد ينقطع فسارع لشرح الأمر من بدايته حتى نهايته .. القصة عارية أمام أعين الأسرة المتقلبة المزاجات من لحظة أخبرته "هالة" بكل شيءٍ حتى الخطبة التي جرت مقتصاً من كل ذلك كتابه الغالي.. كانت العيون الأربع تتابع شفاهه أكثر من عيونه كأنها تريد سحب الوقائع منه سحباً! على أنه تمهل بشرح التفاصيل لغايةٍ في نفس يعقوب ألا وهي إنهاء صبر أمه لتنطق بما أراد! فقد كان واثقاً كما يراها بأن خلف هاتين العينين الحلوتين سراً يجب أن يعرفه .. أكان يزور مجرمة؟! وهل أمه صافحت قاتلة أبيها بترحيبٍ لا مفهوم! أهي الأموال تستطيع تغيير المنطق بهذه البساطة؟! .. كانت القصة منسوخةً في دماغه كشريطٍ يمر فينطق به دون أي عناءٍ كأنه تدرب على ذلك سنواتَ طوالاً ماراً بتبديل الكلية وحبه لـ"مريم" ناطقاً بكل لحظةٍ مرت في حياته وكل شعورٍ خالجه في غياب أمه الروحي وحضورها الغاضب المزعج!. كان يقص القصة بكل المشاعر والملامح التي توضح للمستمع بأنه يتألم لكل ماجرى على أنه في الوقت ذاته كان يتطلع إلى أمه بين الحين والآخر متسائلاً "ألن تفشيه!!" ثم يكمل متمهلاً باحثاً في آخر بصيصٍ لعينيها عن خيط أملٍ لابدّ سينقطع لتنهمر دموع الحق وتنكشف الحقائق .. كان بين كل جملةٍ وأختها يضيف نيته باِقتحام منزل "أسمهان" ذلك لأنه يشعر بأنها تخفي فيه السر الذي مازال يبحث عنه منذ سنين! .. وما أن اِنتهى من حديثه حتى عارضه الخال قائلاً بشيءٍ من التعكر..

- ومالك بهذا السر فلتحتفظ به للأبد!
- وكيف لا أهتم وفيه جزءٌ مني!

لطمت الأم وجهها بينما أخذت تهز رأسها بحركةٍ هستيريةٍ حتى صاح فيها الخال أن توقفي!! ليميل بصره إلى الشاب حيث قال بنبرةٍ لا نقاش بعدها "كفاك ... اِنتبه لكليتك وحياتك ودعك من هذا الجنون!" حينها شعر الشاب بأن مجيء خاله كان فألاً سيئاً وبدل أن يتوجب عليه مواجهة أمه لوحدها اِضطر لمواجهة أخيها الغاضب أيضاً لذا غيّر الموضوع بشكلٍ فجائيٍ كأنه يتهرب من مأزقه فقال وقلبه يكاد يُرى من صدره لشدة خفقانه ..

- ألن تبارك لي يا خالي ... بوادر خطبةٍ تلوح في السماء!

نظر إليه الخال بتعجبٍ ثم أردف قائلاً ..

- الأمل في أن تكون فتاةً مناسبة

- مناسبة! (قالت الأم بإستهزاءٍ وحسرة)
- وماذا عرفت عنها حتى تستهزئي؟!

ودون أن تنظر للسائل وجهت حديثها للخال الذي أنصت دون مقاطعة..

- جاءتني اليوم يا "وائل"! إلى هنا! تطلب مني مباركة حبهما ثم عدت على مسمعي فضائلها على إبني عندما تغيبت أنا عن مساعدته وكان أولهم بحثها معه عن "أسمهان" لتكشف الستار عن ماضيّ أنا!!

هدأ الجو فجأةً عقب قول الأم لينبثق صوت الشاب بعد ثوانٍ حاول خلالهم محاولة تدبر مأزق ما حدث في غيابه!!

- فطردتيها!
- أأترك عقربةً في منزلي!
- وما أدراك بها؟! أنت لم تريها .. لم تعرفي عنها أي شيءٍ لتحكمي عليها

قطع الخال الحديث من جذوره حين قال بتأففٍ..

- أجئت لأجل هذا اللغو!
- وما اللغو في أن أختار من أريدها لتناصفني حياتي؟!
- أنت تدخلها حياتنا ليس حياتك فقط!
- كفا عن الشجار .. كفا!!
- يا أخي هذا الولد يضيع من بين أيدينا وأنا لن أسمح له بهدم حياتنا!
- أأهدم حياتك حين أتزوج فتاةً أحبها!
- أتعرف ما نيتها!! ربما كانت تنوي نهب ثروتنا؟!
- ثروتنا!!

إضطربت الأم بزلة لسانها فقالت مفسرةً ما قالته..

- أجل ... ما أجنيه من دكاني أليس ثروةً بالنسبة لأسرةٍ مثلنا!
- أوتظنين الناس أجمعهم كخالك!!
- إخرس.

قالها الخال بعصبيةٍ زائدة قبل أن يكمل ..

- مهما حصل فهذه أمك يا ولد! أخفض صوتك.

كسر الشاب بصره أرضاً حين اِستغلت الأم الفرصة قائلةً..

- أنت ما زلت غضاً لا تعرف من الحياة شيئاً! اليوم تحبك وغداً تسرقك وربما تخونك أو تقتلك!!

- ما بالك يا أختي أنت أيضاً!!! كفاك إلحاحاً ... كفى ... حسبي الله ونعم الوكيل فيكما!

قالها بنترةٍ أقرب لما سبقها من غضب ألزم الاِثنين الصمت والهدوء طويلاً حتى اِنطلت عليه الخدعة أواخر الليل عندما شاهد ما شاهده من هدوئهما فغادرهما قاصداً منزله على أنه لم يدرك بأن نيران السنين الطويلة الماضية لا يمكن أن تُطفأ ببضعِ ساعاتٍ؛ وعلى هذا اِشتعلت من جديدٍ بعد مغيبه المشاحنة حين قال الشاب بهدوءٍ وتصميمٍ شديدين أثناء اِرتشافه فنجان قهوته..

- يا أمي لن أترك "أسمهان" بسرها لو كلفني ذلك حياتي مرةً أخرى! لا والله!

عصف بذهنها، كما نوى، اِنتحاره فاِقشعر جسدها وقالت بغضبٍ مماثلٍ لكل ما مضى..

- اِنتحارٌ ثالث!! .. ألا تخاف الله؟!

- أخافه ... أخافه يا أمي لكنه أصلي .. من أين لي أصلٌ إن تبريت من أصلي

- تبرى منه!!! ... تبرى بدل أن تقتل نفسك بين أربعة جدرانٍ متعفنة

- لا يا أمي الموت في الزنزانة أهون علي من ترك السر يموت دون أن أعرفه

- حسبي الله ونعم الوكيل .. حسبي الله ونعم الوكيل في اِبنٍ ضالٍ مثلك

- ضال... (قالها كأنها صفعته، ثم أكمل وهو يدق بإبهامه على صدره) أنا ضالٌ حين أركض خلف ملذات الحياة دون أن أريح جديّ في قبرهما

- أولن تكف عن رغبتك هذه!! كفى أرحني وأرح نفسك وكفى..

- لا يا أمي .. لا! دمي في عروقي ينتفض، قاتلهما سرٌ وكفى بي أن أكتشفه ربما يشفى ذلك غليلي دون قتله إن كان حياً! أو حرق قبره إن كان ميتاً!

- حرق قبره!

أخفض بصره خجلاً..

- أأنجبت على الدنيا خالاً آخر!!

- معاذ الله أن تشبهيني به! ... ولكن فوران الغضب قد يحفزني على فعل أي شيء

- على قتله!

بادرها بالصمت فأردفت ..

- أوجننت! .. ألأجل منزلٍ لا نعلم ما فيه تقدم على اِقتحامه وقتل أصحابه أو حرق قبورهم!! ما بالك .. ماذا حدث لك، أين طفلي الذي عهدته مسالماً لطيفاً...

- تقصدين أرنباً يخاف الجميع، لا يقوَ على قول لا! .. يخاف المضي قدماً نحو حلمه .. يهاب قراءة كتابٍ يهواه .. ماذا أيضاً ،ماذا؟!

- كفى!! ..

- أنا لم أعد طفلاً يا أمي .. وما إن رغبت شيئاً لا شيء يردني عنه!

- لن تدخل منزل "أسمهان" ما حييت..

- لن تمنعيني يا أمي ... سري هناك وأنا وحدي من سيكشفه

تنهدت وعيناها لا تملكان إلا الحزن كأنها تستسلم أمام عناده وجبروته مقابل حياته..

- أنهكتني .. أنهكتني في حياتك كلها! بين اِنتحارٍ وحبٍ فاشلٍ ودراسةٍ لم تعجبك وهوايةٍ فاشلة ... وأخيراً سرٌ نبشت من أجله ماضيّ راغباً كل الرغبة في اِقحام نفسك في ورطةٍ قد توديك قتيلاً أو تزجك في السجن طويلاً... ألا يهمك سخطي؟ غضبي! ما الذي دهاك وقد كان والدك

فراشةً لا ثقل لها ولا اِزعاج! ما بالك وقد أفنيت عمري لأجلك؟! ... لا إنسان كامل وأنا لست بكاملة، فيني من الأخطاء ما لا يحصى ولا يعد تماماً مثلك .. ومثل خالك ومثل "أسمهان"!

حينها شعر بإنتصاره الأول ... السر يزحف نحوه لاغياً مع تقدمه ضيقه واِختناقه..

- أين ستذهب وتتركني مقتحماً منزل مجرم قتل بلا رحمةٍ ولا اِهتمام .. مجرم يا غبي أحرق منزلاً كان يمكن ألا توجد لو اِستمر دون وجود ذلك الملاك .. "أسمهان"! أنا أذكرها كما أراك الآن لكن بلا تفاصيلٍ كثيرة .. المنزل المحترق أراه وهي تبعدنا عنه وعينايَّ متشبثتان به ثم ضاعت الذكريات في الملجأ فكثيراً ما ظننت بأن ما أذكره تهيؤاتٌ كي لا ينتابني شعورٌ قبيحٌ بأنني خلقت من العدم وإلى العدم سأنتهي متعفنةً في ذاك الملجأ الكريه! لكنها كانت الحقيقة، حقيقةٌ مُرةٌ بأنني كنت في ذلك الحريق وخسرت أهلي وأخي وبيتي وأموالاً كانت ستغنيني أنا وأنت ووالدك.. حقيقة بأن رجلاً ذات يومٍ دخل الملجأ يسأل عني قبل دخولي العشرين عاماً وكان اِنبهار الجميع منقطع النظير حين ذكرني بالإسم والعمر وحين طلبتني المديرة الجديدة لغرفتها لم أكن أعلم عن الرجل شيئاً صعدت بسرعةٍ متأملةً بأسرةٍ تتبناني أو عملٍ جيد الدخل أفضل من عملي في المعمل على أنني حين دخلت مكتبها كان على الكرسي اليمينيّ أمامها رجلٌ بشعرٍ أبيض لم يتبقَ منه لونٌ مغاير وقد أطال شاربيه قليلاً وترك قربه عكازتين اِثنتين! حين دخلت نهضت المديرة بحركةٍ غريبةٍ وخرجت وهي تطبطب على كتفي مشيرةً لي بيدها الأخرى أن أجلس أمامه!. خرجت وأقفلت الباب خلفها فبثت وحدتي معه الخوف .. كان شكله غير مريح لكن عينيها كانتا حزينتين بشدةٍ مزقت قلبي! نظراته كانت رحيمةً على عكس شكله. جلست أمامه تماماً واِستغرق منه الوقت لرؤيتي لحظاتٍ حين عدل نظاراته وحدق بي جيداً ثم قال بصوتٍ مرتجفٍ "نورا" مشيراً إليّ بيده!! وحين أومأت برأسي بالإيجاب ضحك من قلبه كطفلٍ صغير! إلى حد ذاك الوقت كان الأمر غريباً جداً ... لا بل كنت لأول مرةٍ في حياتي كلها أجلس مع رجلٍ غريبٍ في غرفةٍ مغلقةٍ ويحدثني كأنه يعرفني .. يعرفني! كيف؟! ومن أين! وأنا التي قضت حياتها كلها هنا... رفع نظاراته ثانيةً ليفرك عينيه ثم وضعهم من جديدٍ كأنه رجلٌ آخر! .. كانت عيناه جديتين لأبعد الحدود ... مخذولتين، حزينتين، لا بل داميتين لشدة الألم! قال بصوتٍ يكاد يتمزق..

- أنا عمك! ... أخ والدك...

شعرت حينها كأن أحداً سحب روحي من أخمص قدميّ سحبةً واحدةً أردتني باللحظة قتيلة! "أخ والدي" تأتأت في قولها لا بل بكيت! .. كان أمامي شخصٌ يعرف والديّ .. يعرفني، يختصر عذاب السنين الكثيرة التي مرت! نظرت إليه دون أن أضيف أي قولٍ وكانت شفتايّ مازالتا كما تركتهما كلمة "والدي" منبهرتان بما أراه فأردف قائلاً..

- أجل والدك! كان أخي... كما أعرف والدتك أيضاً! وأخوك
- أخي!!!
- أجل يا "نورا" لك أخٌ كان اِسمه "وائل"
- هل هو على قيد الحياة؟
- لا علم لأحدٍ إلا الله..!

صمت للحظاتٍ قبل أن يكمل اِعترافه كما لو أنه أتى يومها ليرمي بثقل سنوات عذابه على كتفيّ ويمضي!

"أنا يا اِبنتي جئتك اليوم لأرى ما اِقترفته يداي!! ... أنت فتاةٌ واعيةٌ لابدّ لك أن تفهمي ما أقوله الآن أو ربما بعد عشرين عاماً أو ثلاثين .. سيأتي اليوم الذي ستفهمين به ما أقوله فعندما تقترفين في صباك جرماً تجرك ذيوله من أقصى الأرض لتبحثي عن نتائجه وتقدمي حياتك مقابل السماح! وأنا اِقترفت جرماً رهيباً"

كان يدق على صدره بأصابعه كأنه يريد أن يغرزهم به فيقتل نفسه..

"أنا من أوصلك إلى هنا! .. أنا يا حلوتي التي لا تستحق كل هذا جلبك الطمع والمال إلى هنا ويا ويلتي من جلبك، ومن طمع بأهلك ... أنا! أنا يا اِبنة أخي غدرت بأبيك وأمك .. غدرت بأطفاله، بك! وهربت تاركاً زوجتي ضائعةً بين الذنب واللاذنب!"

كنتُ حينها فتاةً تعي كل شيءٍ وعلى قدرٍ كافٍ للزواج والاِنجاب بيد أنني أمام ذلك الاِعتراف الوحشيّ صرت خرساء بلهاء بلا وعي! لم أجد أية كلمةٍ تستطيع أن تخرسه عن اِعترافه! أن تسد فمه حتى قتله خنقاً! كما لم أستطع منع نفسي من الاِنجذاب للمزيد من الحقيقة والرغبة بمعرفة الوقائع كما كانت بالضبط! .. كان هو سر حياتي ومنبع مأساتي من عمر ثلاث السنوات حتى اللحظة وحتى بعد وفاتي كل ما ستعاني منه بسببه .. وكل ما سيعانيه أبناؤك بسببه! كان السبب بأنني سُميت لقيطة ورمي ذنبه وجرمه على شرفي وحياتي وسعادتي فكسرني المئات وظن بي الكثيرون شراً ... كنت في حضرة اِعترافه بلا حراك! فقط عينايّ كانتا بلا دموعٍ تراقبانه أثناء تحدثه ونطقه لكل حرفٍ على حدة..

حينها مسح جبينه من العرق وأكمل كمجرمٍ يعترف بأكبر ذنبٍ اِقترفه طيلة حياته أمام مقصلة الإعدام علّه يُعفى من جرمه!

"أنا يا اِبنتي جئت اليوم لأعترف أمامك بكل ذنوبي ... لأشفى من ألمي وتمزق ضميري ... أنا من ستة عشر عاماً أعاني أرقاً لا يهدأ وألماً لا يطيب وقلباً يكاد ينفجر!. أنا عشت طيلة حياتي ميسوراً وفي لحظة طيشٍ خسرت كل أموالي لأدمن القمار وتصير شاغلي ومشغلي أموال والدك! كنت أرى عزه فيتعسني ذلي وفقري .. سنون مضت وهو يعطيني المال بالقطّارة وكنت راضياً عن غير طيب خاطر حتى أعطاني ذات يومٍ مبلغاً محترماً لأبدأ به من الصفر بعد أن أفقدته صوابه من الإلحاح فرأيت الأموال المكدسة في خزينته وصار همي في الحياة سرقتها!! لكنني لم أتوقع بأن عراكاً بيني وبينه قد يودي بي إلى السجن، وسجنت عقب غزه بسكينٍ كنت أحملها طيشاً.."

حينها شعرت بأن كل الماضي الذي أذكره .. كل تلك الذكريات الطائشة والأفكار التي كانت تراودني في منامي وصحوي كانت حقيقةً ... أنا أذكر بالتفصيل واقعة الشجار والطعن بالسكين وفجأةً وبين أحرفه رأيت نفسي وسط تلك المعركة دون أن أذكر أي وجه .. لكنها أنا حيث يلتفني الماضي بالألم وشخصياته المحببة .. ثم أكمل كأنه لم يرَ اِنبهاري..

"وفي السجن تعلمت الشر بكل أشكاله ... اِلتقيت بمجرمين أشدّ فتكاً وسارقين محترفين .. وأهم من كل ذلك بـ"منتقمين"! وعندما خرجت بالعفو الذي شملني أجبرت زوجتي بالتهديد أن ترافقني حتى منزلكم وهناك سرقت كل أموالكم وأوراق ممتلكاتكم! ثم أحرقت المنزل بمن فيه! كنت حثالةً ... لم يكن الشيطان يوسوس لي .. بل أنا كنت الشيطان يمشي على قدمين ولولا هروب "أسمهان" يومها لربما كنت قتلتها وقتلت نفسي بعدها بسنوات! .. كانت أملي بعد أن غادرت البلاد... بعد أن بعت العقود لرجلٍ خرج بالعفو ذاته واِتفقنا على كل شيءٍ فاِشترى العقود وهاجرت إلى اِفريقيا ... عشت هناك ملكاً! .. والله ملكاً بمالٍ كله دماءٌ بريئة ... دماء أخي، دماء أبناء أخي الذين لم أهتم إن نجو أم لا! قرأت الصحف اللاتي قلنّ بأنكم اِختفيتم، ظننت في بادئ الأمر أن "أسمهان" أنقذتكم ولكن عندما طال البحث في محيط المنزل لعدة أشهرٍ وطالتها التحقيقات ظننت بأنكم ربما اِحترقتم أو خطفتم وبمعجزةٍ إلهيةٍ لم يجدوكم! .. أقنعت نفسي بذلك! ولم أستيقظ من كل هذا الإجرام إلا بعد سنوات كثيرة! كانت ليلةً قضيتها في نادٍ ليلي لأخرج بصحبة اِحدى فتيات الليل، كنت أصطحبهنّ إلى منزلي.. ووصلنا ... صعدنا وعلى فراش

الزنى كُسر الباب فجأةً ليقتحم خمسة رجالٍ كل رجلٍ يعادل رجلين عاديين! كانوا مسلحين كلٌّ منهم يرتدي ثياباً سوداء قاتمة على أن وجوههم كانت مكشوفةً كأنهم لا يخافون أحداً!! كانت ربع ساعةٍ من الجحيم حين كانت الفتاة قد تعرضت لإغتصابٍ من أحد كبار عصابات المافيا فقتلته بغرز قنينة نبيذٍ مكسورةٍ في عينه ثم إفراغ مسدسه في رأسه!!."

هجم هؤلاء الوحوش علينا حملوها ورموها أرضاً كأنها كيسٌ من الإسمنت ثم ضربوها ضرباً مبرحاً حتى تغطت بالدماء من رأسها حتى أخمص قدميها. كنت في زاوية الغرفة أنظر لهؤلاء الوحوش الخمسة ينهالون عليها بالضرب بينما ينتظرني الدور ... تنتظرني الآلام والظلمات ... في تلك اللحظات القليلة عاد مشهد الحريق أمامي .. "نورا" عاد كأن الحريق شبّ لحظتها أمامي لتتلطخ روحي بدماء والديك الطاهرين .. كان دوري قادماً حين كنت أرى الجحيم بسعيره فاتحاً ذراعيه لإستقبالي وإنتهوا منها رموها جانباً بآلامها وإلتفتوا نحوي، خمسةٌ بعضلاتهم المفتولة وأجسادهم المهيبة وأسلحتهم المتدلية يتقدمون نحوي بوجوههم المتجهمة ... قلت لهم ألا دخل لي وأنني أجهل إسمها أصلاً على أنهم أمسكوني وبدؤوا بركلي أينما تيسر لهم حتى بصقت من الدم ما كان كافياً لموتي ثم تركونا وكنت حينها في أواخر وعيّ فظننت بأننا سنعيش إلا أن ثلاثةً مضوا ليتركوا خلفهم إثنين أشهرا مسدسيهما وأطلقا النار علينا ... في رأسينا!"

فتحت فمي دهشةً أن كيف هو أمامي بينما أطلق على رأسه النار! ثم أكمل قصته العجيبة..

"كان الله يريدني أن أحيا. لا يمكن أن أضيف لما حصل أكثر!! ... فقد إستقرت رصاصتهما بين عظمة الجمجمة وسائل الدماغ وكان يجب أن أموت لولا أن أحد الجيران سمع أصوات الرصاص فإنتظر خروج الرجال نظراً لأن الجرائم في إفريقيا كثيرةٌ والمافيا تملؤا أزقتها ليطلب الإسعاف فيسعفنا فاقد الأمل من إحتمال بقائنا على قيد الحياة فعشت بعد عمليةٍ من أصعب ما يمكن أن تتخليها بينما ماتت هي من فورها .. تلك الليلة كانت بعد خمسة عشر عاماً من الحريق شعرت بعدها بأنني لا أستحق الحياة وأن ما فعلته رده الله لي مع فرصةٍ واحدةٍ بالنجاة كي أُكفر عما فعلته! وها أنا قد جئت بعد أن عانيت الكثير من الأسى .. أنا لم أكن كل تلك السنين سعيداً إنما كنت أدوس على جراحي كي أعيش متهنياً بينما في كل ليلةٍ أرى المنزل يحترق وعزرائيل ينتظرني قربه كي يكوي جسدي

بسعيره!! ... ليلتها اِتخذت قراري بالمجيء حتى على جثتي ... بحثت عن "أسمهان" فوجدتها في منزلنا القديم ذاته وعندما فتحت الباب صرخت رعباً على أنني حين نظرت إليها فسقطت اِحدى دموعي على عرض خدي توقفت عن دفع الباب من تلقاء نفسها فقد رأت فيني إنساناً آخر تأخر ستة عشر عاماً ليفهم بأنه مجرم!. قضينا أياماً طوالاً كنت أعترف لها خلالهم عن جرمي وحقدي على نفسي ... تحدثنا عنكما، تحدثت عن أخي، عن أملاكه .. عن خوفي من الموت بينما لم تسامحاني! وفي نهاية المطاف قررت المجيء دون أي مبررٍ يمنعني لأواجهك! أنا الذي قضيت على طفولتك مستحقاً أشد عقاب! ... أموالي بين يديكِ، خذي ما شئت، اِقتليني، شرديني ... اِشنقي رجلاً مسناً يستحق أبشع أساليب القتل!..

أمسك رأسه بيديه واِنفجراً باكياً فتساقطت دموعه على بنطاله الكاشف اللون لأراهنّ وأعدهنّ عندما لم يكن أيُّ حرفٍ من كلامه يلتصق بدماغي فكان لابدّ من تسليةٍ للفراغ ذاك! أو للألم الذي لم أستطع في تلك الدقائق اِبتلاعه فصار مملاً سماعه يُتلى عليّ! كنت أحتاج لمن يصفعني حتى يتورم خدايّ لأصدق بأن هذا الرجل الذي أمامي ليس بهلواناً أو ممثلاً محترفاً!! وفي الحقيقة وبعد أن زرت السيدة "أسمهان" أخبرتني بأنها لم تخبره عن اِسم الملجأ الذي تركت أخي أمامه، أخبرته بأنها غيرت اِسمه خوفاً من بطشه، دلته على ملجأ مغايرٍ واِستماتت بأنها وضعته أمامه بينما الطريق ممتلئٌ بعشرات السكارى!! كررت أمامه مئات المرات بأنها تركته على تلك العتبة ومحالٌ أن تخطئ الذاكرة في أمورٍ مصيريةٍ كتلك! ... لقد تقصدت عدم اِخباره متأملةً بذلك حمايته ولو بحبة رملٍ قد توقف صخرةً! قالت بأنها خافت أن يقتله طالما أنه الوريث الوحيد للأسرة .. وحتى ذلك الوقت كنت أظن بأنهما عدوان في منزلٍ واحد! كفهدٍ وفريسته...، أكمل قائلاً..

"ووجدتك! أنتِ! ... أمامي اِبنة أخي التي كانت تستحق الحياة التي عشتها طيلة هذه السنين مجرماً وقاتلاً فاراً من ضميره وذنوبه قبل العدالة. .. اِبن أخي الذي لم أجده!!! اِبن أخي الذي قيل بأنه حيٌّ ثم قال الملجأ بأنه لم يستلمه وأن حوداث خطف الأطفال تحدث!! ... قالوها ببرودٍ شديدٍ حرقني أنا الذي نويت قتله يوماً! .. كيف أسامح نفسي على فعلتي؟! كيف وأنا عاجزٌ عن طلب السماح .. أنا عاجزٌ عن النظر في المرآة كي لا أرى وجهي الكريه! وخزيّ وعاري! .. أنا لا أستحق السماح، أنا أستحق أن تبصقي في وجهي، أن تلعنيني، أن أطرد من الجنة مثلي كمثل الشيطان!!

تنهد لثوانٍ كأنه يتمالك نفسه ثم قال بنبرةٍ أشد تماسكاً..

"لكِ كل ممتلكاتي، بين يديك .. هذا حقكِ! كما منزل طفولتك ووالديك ها هو عقده وهو الوحيد الذي أخذته معي خارج البلاد وها أنا أعيده لكِ تماماً كما أخذته.. العنوان مسجلٌ فيه، زوريه يا اِبنتي ... زوريه"

كان يتحدث ... ويتحدث .. ويتحدث بينما أطبق علي الصمت كأنني خرساء لا تنطق!

وعندما اِستقام ووضع بين يديّ العقد ثم أكد عليّ المضي إلها إلى تالياً عنوانها مؤكداً أن أمواله ملكي، لي .. وحدي! نطقت سؤالاً كاد يقتلني إن صمتت عنه!

- ألأحدٍ علمٌ بأنني الاِبنة المفقودة! .. اِبنة حريق الأخ الحقود..؟!

شعر العم بكراهية الصغيرة بيد أنه كبت بكاءه مجيباً بالنفي .. فأردفت

- المديرة أخبرتني بأن والديّ ماتا حرقاً..
- لا أحد له علم سوى أسمهان .. أؤكد لكِ.

غادر وكانت تلك آخر مرةٍ رأيته صامداً ضد مرضه فيها! وكما طلب مني وليس اِرضاءً لطلبه بل طاعةً لحاجتي ولهفتي مضيت في اليوم التالي إلى المنزل المذكور كنت حتى ذلك اليوم لا أصدقه رغم أنني لم أنم دقيقةً الليلة السابقة! قصدت المنزل كما حدثتك "هالة" ورأيت العجوز التي نظرت إليّ مطولاً كأنها تعرفني وعندما خرجت منه قررت ألا أزيد فيه ولا أنقص! .. قررت أن أتركه كما هو تماماً بذكرياته وآلامه وأحزانه ومضيت إلى عنوان السيدة "أسمهان" بعد سنينَ طويلةٍ، حينها كنت رضيعاً فشعرت بوجودك أنني تخطيت آلام الحريق! يومها شعرت بأنني أستطيع مواجهة هذه الإنسانة التي تعرفني، وتعرف وجه والديّ قبل أن تأكلهما النيران!.

ذهبت إليها لأدخل منزلها مرحباً بي حيث كان للهدوء وقعٌ كما الآن! اِستقبلتني بصدرٍ رحبٍ حتى تعجبت حبها!. وهناك قصت عليَّ ما ذكره زوجها من سنوات ثم أضافت عليه كيف أنقذتنا ووضعتنا أمام الملجأين اللذين حافظا على اِسمينا ذلك أنها تركتهما على عنقينا ... حينها وعندما كانت تخفي السر جيداً شعرت بأن عراكاً يجري داخلها! كانت ترفض ثم تقبل ومن عينها تشرق الشمس ثم تموت! وبعد خمس دقائقَ كاملاتٍ ومربكاتٍ من الصمت نهضت بشكلٍ فجائيٍ طالبةً مني اللحاق بها!! ... عبرت ذلك المنزل غرفةً غرفة كانت تفاصيله باردةً تماماً كهدوئه، وما كنت أعرف إلى أين تقودني بخطواتها الواثقة ورشاقة مشيتها! وعند باب آخر غرفةٍ من الرواق أشارت لي بسبابتها ألا أصدر أي صوت

لتفتح بابه السميك بهدوءٍ شديدٍ كسارقةٍ تقتحم منزلاً غريباً! فتحته حتى منتصفه لتشير إلي بيدها أن اِلحقيني فلحقتها إلى داخل غرفةٍ مظلمةٍ جداً وهدوءٍ يصم الآذان بصفيره، وعندما غابت في الظلام للحظةٍ شعرت بقشعريرةٍ تسري في جسدي قبل أن يقطع سلسلة أفكاري ومخاوفي ضوء القنديل الذي أشعلته فتوضحت الغرفة بوسعها وأناقتها وسريرها الكبير الذي ألقي عليه الزوج كأنه ملقىً من أحقابٍ لا تعد نائماً بوجهٍ شاحبٍ ضعيفٍ وسيرومٍ غزّ في وريده! نظرت نحوه بعينين تعتادان الضوء رويداً رويداً حتى تعرفت إليه فهمست وعينايَّ لا تخفيان دهشتي "زوجك!" هزت برأسها بالاِيجاب وقد أحاطت كتفيها بيديها ثم قالت بأنه على هذه الحال منذ سنةٍ كاملة تسحبه غيبوبته أياماً ثم يستقيظ فجأةً بضع ساعاتٍ أو أكثر ثم يعود إلى رقوده الحزين! ... ودون أي مشاعرٍ تحترق لأجله شعرت بفرحٍ غريبٍ يسري في دمي! .. "الحق" كان هذا حقي وحق أهلي وأخي الضائع! ثم في المنزل خجلت من نفسي وحاولت مسامحته لكن عبثاً حاولت! فأنا لم أكن يوماً ممن يسامحون على الجرائم! ممن يحرقون أحلام الآخرين ويقتلون أحبابهم! لذا ضاعت محاولاتي سدىً ..

هذا هو السر ... هذا ما تبحث عنه في منزلها ... هذا هو يا بني كل سر "أسمهان"!!.

كان "مهند" طيلة الاِعتراف هامداً منصتاً لصوت أمه واِعترافاتها كمن يستمع لصوت الكون العظيم .. بقلبه وروحه وأجزائه وملامحه وكان قد دهش بأن ذاك المنزل الذي دخله مرتين كان يحتضن في اِحدى أسِرته قاتلاً فاراً! لقد تناسى تحت وقع الاِعتراف رفض والدته الكلي لخطبته ... نسي بأنها رضخت لفرعه وحلمه ... ونسي أيضاً بأنها أنصتت لعاصفته الهوجاء التي شنها والخطوة الخارقة التي أضافها لحياته، في منزل خطيبته التي وقفت أمام شجاعته موقف المذهول، على الرغم من رفضها! كانت هناك تتوقع اِتصالاً تهديدياً من أمه أو مجيئاً رهيباً يزعزع حياتها مدمراً علاقتها مع والدها لأبعد الحدود بيد أنه لحظتها كان حكيماً في قبوله لاِنفجار القوة الذاتية لـ"مهند" بعد عشرات الكتب التي مرت على قلبه وعقله وشخصيته الركيكة، بعد كتاب جده الذي كان أول عونٍ ويدٍ تمتد من الماضي لتنقذه مما آل إليه! بعد حبٍ كان القوة الكامنة لاِنطلاقه كعصفورٍ خاف طيلة حياته الطيران ثم بلحظةٍ قفز فإما أن يموت فداءً لفكرته أو ينتصر شرّ اِنتصار، بعد حلمٍ كان أول شمعةٍ أشعلها طبيبٌ كان أشبه برسولٍ نقل إليه عدوى الرسم! وتفاقم به حبه إلى أن عاند الحياة والمصائر وأدار قدره بيديه الضعيفتين رأساً على عقب كما لو

أنه يقلب سفينةً ضخمةً لينتقل من المحاماة إلى الفنون .. إلى الرسم .. إلى الحياة والحلم الذي لا يستطيع إنسانٌ على وجه الأرض ولا حتى أمه منعه عن إكماله ليغير التاريخ ويحفر إسمه على جدران المشاهير لأنه دون ذلك فاشلٌ يعلق الشهادات زينةً يصفق لها الناظرون ويبصق خلفها المجربون!!!.

كان السؤال الأخير الذي لطالما شغله شوكةً في حلقه لذا وفي تلك اللحظة المصيرية قرر ألا يترك في قلبه شيئاً فسألها ..

- أخبرتك "أسمهان" عن خالي ... إذاً لِمَ لم تبحثي عنه؟!

نظرت إليه نظرة أمٍ لإبنها المشاغب ثم إبتسمت مجيبةً بحرقةٍ وحزن..

- بلى! لكن الرجل السعيد الذي تراه وقد ضمته أسرته بفرحٍ لن تستطيع تشويه ماضيه أكثر مما كان! لن تستطيع أن تزيد على معاناته في الملجأ فتقول له بأن والديه ماتا حرقاً وأن عمه من قتلهما محاولاً بذلك قتله ... أن تهمس بأذنه أنه مازال على قيد الحياة مشلولاً تأخذه الغيبوبة أشهراً ثم تتركه يوماً أو يومين فيصبح قاتلاً ويشنق لذبحه جثةً ما بين الحياة والموت!! ...

لماذا كان يجب عليّ رغم شوقي العظيم لضمه أن أعطي رجلاً سعيداً وبسيطاً بماضيه الروتينيّ ماضياً قد لا يترك أحلامه بحالهنّ إلا ويقلبهنّ لكوابيسَ لا تنتهي!!!

لقد راقبته يا طفلي الذي كبر فجأةً كاشفاً ماضيّ شبراً شبراً آخذاً عناد والده وطيبة قلبه!

.. لقد راقبته حتى ذبلت عينايّ دمعاً لكن الأخوة لا تعني بأن نكسب الآخرين آلاماً لا طاقة لهم بها حتى ولو كان ذلك عاملنا المشترك...!!

حتى ولو كان ذلك الألم يحمل كل أفراحنا ... ووجوه آبائنا، حبهم .. وحنانهم ...

الألم لا يعني أن نذبح الآخرين لنحظى بقربهم متناسين أن ذلك في وضعٍ كوضعنا يعني فتق الجروح من الطعنة الأولى مارين بمعاناة الملاجئ القاسية ... ليأليها الخانقة ..

مسؤوليها الحقيرين، بمحاولة إغتصابٍ لطفلةٍ صغيرة، وسجنٍ لطفلةٍ بريئة ... إلى زواجٍ إنتهى بموتٍ مؤلمٍ ورمادٍ جارحٍ أكثر! ثم لطفلٍ حاول الإنتحار مرتين لأن الملجأ ربى أمه على أن تكون مريضةً نفسيةً تخاف عليه كرضيعٍ إلى أن صفعها القدر ليريها بأنه كبر فجأةً ...

ذلك لأن أحداً لا يبقى رضيعاً.. ولأن الطفل الذي ظُلم بداخلها سنوات تليها سنوات في ملجأ كريهٍ هو ليس ذاته طفلها ... لا ليس هي ..

يا "مهند" ليس هي بل أنت..!!

كان يجب ألا ألتصق بطفلٍ يحمل كل خيباتي داخلي، يخاف عليك يا "مهند" بينما على ظهره ثقل طفولتنا المشردة وذكرياتنا المؤلمة...

عمرنا الذي دمروه من شعلة الطمع حتى اِحتراقنا كالورود في ملاجئهم التي لا تمت للإنسانية بصلة.

الفصل الخامس

-1-

بعد أن كاد الليل يشد رحاله بثقل نجومه وتوسط قمره اِستلقت "نورا" بقرب اِبنها الذي وجدته للمرة الأولى مسؤولاً ... ربما كان قراره بإقتحام منزل السيدة "أسمهان" صفعةً قويةً لها! لا لأنه جريء أو متهورٌ أو وقح ... بل لأنه وضع حياته مقابل السجن فقط لأن ماضيه يجب أن يكون ملكه ... فقط لأن من تخلى عن أصله لا أصل له.. ثم فكرت، أتراها لا تستحق أصلها! والديها؟! رقي أمها ... موتهما الأليم! .. كان اِبنها بقربها يطالع كتاباً لم تستفسر ما هو ذلك لأن شعور خوفه تسرب إليها!! هي تعرف بأنه يهاب أن تحرق كتبه! أو ترميهم أو حتى تمزقهم إرباً إرباً! .. لكنها ربما تغيرت!. كانت تنظر لنفسها فتتعجب .. كيف رضيت أن تتركه يغير حياته بهذه السهولة! ثم اِنتابها شعور الراحة بأنه أخيراً صار رجلاً يستطيع الإعتماد على نفسه ... إنها الليلة الأولى التي تعطيه فيها مفتاح حريته .. لكن أيستحق!! هو لم يختر حتى فتاةً خلوقةً ... "مريم"! ومن هي أصلاً! اِعتراها الغضب لكن سرعان ما تنهدت "آهٍ! لقد اِختارها .. بقلبه!" وكم أكدت عليها جارتها بأنها مهما قست عليه فهذه حياته، يوماً ما سوف تموت ليكمل مشواره لوحده، وربما كما يرغب هو دون ما أجبرته عليه سنينا .. لكن بعمرٍ متأخرٍ جداً، يوم تكون زهور حياته شارفت على الذبول!! ... ثم فجأةً اِنتفض جسدها، "مريم"!! ... هذه الصعلوكة البشعة ولولا عينيها لما اِستطاعت تقبل رؤيتها! لا وألف لا لن يتزوج حتى على جثتها..!

التخبط أعمى بصيرتها فكانت بين الرفض والرضوخ شامخةً بماضيها الذي لم تنكسر كلمتها خلاله يوماً عطوفةً أمام حاضرها الذي يرسم بتمهلٍ مستقبل طفلها!! ... كانت تفكر ملياً بينما تقلب عينيها بين الخزانة واِبنها ... خزانته التي لم تكتشف بعد ما مضمونها ... أيمكن أن تتخلى عن رغبتها بإكتشاف أسراره! .. وما الفائدة؟! ها هو يمضي نحو مستقبله ثابت الخطا وهذا أحبُ إلى قلبها! .. لكن! أيعقل أن يبقى لاِبنها، من لحمها ودمها، زاويةٌ مظلمةٌ لهذا الحد فلا تعرف لها إجابةً ولا ترى منها خيطاً يوصلها للحقيقة!!.

ناما ليلتها بينما نصف المشوار قطع ونصفه مازال مخيفاً! فأمه التي رضخت لسرٍ قد لا يمت لها بصلةٍ حميمةٍ كاِبنها لا يمكن أن ترضخ بذات السهولة لأمرٍ يلامسها لهذا الحدّ كزواجه!!. نهضا

صباحاً بوجهه المتلبك ومزاجها المعكر! كانت ليلةً شديدة الثقل على كاهليهما! .. ليلةً بألف ليلة! تحمل اِختناق الحريق وصراخ الجدة وآلام السيدة "أسمهان"، شعر لوهلةٍ بأنه ظلمها! ثم كيف يعتذر منها وهي تظن بأنه جاهلٌ كل الجهل عما تخفيه .. وكيف يقصد منزلها وهو يعلم تماماً أين يموت ببطءٍ ذلك الوحش، هو يخاف ردات فعله، لا يعرف .. هل بإمكانه ضبط نفسه عن قتله إن دبّت في نفسه الحمية!!!.

هدأت أفكاره حين قرر عدم الاِقتراب من ذاك المنزل الغامض! يكفيه كشف السر وهذا أعظم ما كان يطمح له ... لكن معضلته الآن هي كيف يفاتح والدته بزواجه بعد شجار الليلة الماضية! ... "مريم" التي تنتظره على شرفة ذاك المنزل بينما تشعر دون أي شكٍ بأنه سيأتيها ذليل أمه ساحباً من يدها أملاً بخاتمٍ كان سيربطهما للأبد!!.

مرّ الفِطار بهدوءٍ شديدٍ حتى شعرت الأم بغرابة الأمر! ... ثم جلست أمام التلفاز شاردة الذهن وكان يوم عطلةٍ لا تفتح فيه أبواب دكانها بينما جلس هو قربها يطالع كتاباً كأنه يجس نبضها وصحة كلامها ليلة أمس!.

صمدت الأم أمام الاِختبار الأول حيث كانت قد اِعتادت رؤيته أو لمحه وهو غارقٌ في كتبٍ لابدّ هم من قلبوه رأساً على عقبٍ ... مرّ كل ذلك على خيرٍ! حتى حضرت مائدة الغداء فتناولا متمهلين وجبتيهما .. كانا يعلمان أن نقطة الحسم قادمة وأن الموضوع سيفتح لابدّ، اليوم لا غد! لذا كان كلٌ منهما يخبئ في سقف أحداقه أجوبته، اِتهاماته ... رابطة جأشه وغضبه!! ... كانا هادئين بينما تستعر داخليهما نارٌ تنتظر الأبواب لتقرع!.

وقرعت..

كان ما بعد عصر ذاك اليوم حين رن الهاتف وبحركةٍ لم تعهدها "نورا" مطّ الشاب جسده ليلتقط السماعة دون أن يدرك ما خلفها! كانت "مريم" بصوتها الأقرب للرجال، تخّشنه كي لا تعرفها أمه! بيد أنه لفظها .. دون خوفٍ ... شعر بأنه يخرج من جوفه منجلاً يقطع أجزاءه إرباً إرباً! ... "أهلا مريم" ؛ لحظةٌ من الصمت المطبق اِحتاجتها "نورا" لتعي تطور وقاحة وجبروة اِبنها!! أدارت إليه وجهها بعينين متعجبتين وفمٍ تخلت شفاهه عن بعضهما لهول الصدمة!. نطقت بإشمئزازٍ .. "مريم"!!

فنظر إليها الشاب نظرةً عابرةً دونما تركيز ثم أكمل حديثه ..

- أجل .. أجل كل شيءٍ على ما يرام لا تقلقي! ... لا لا أنا بخير، كل ما في الأمر أنني مرهقٌ من ليلة البارحة .. لا شيء يا عزيزتي! بضع مشكلات عائلية قمنا بحلها. ... إن شاء الله غداً

أنصتت الأم لحديثه حتى أقفل سماعة الهاتف ودون أية لحظة اِنتظارٍ قالت..

- ماذا تريد!
- أن تراني غداً
- تقولها بكل وقاحة!
- ولِمَ أخجل إن كان يفصلنا عن الخطبة موافقتك.
- موافقتي!!

ضحكت ضحكةً اِستهزائيةً..

- لن تأخذها طيلة حياتك!
- لِمَ
- لأنها "مريم"
- أنتِ أمي!! ... أمي!! لِمَ تكسرين قلبي هكذا؟؟

أجابت بغضبٍ وصوتٍ هزّ روحه لحدته واِرتفاعه..

- لأنك لا تعرف مصلحتك! تريد أن تتزوج من أئمة الناس... الوقحة والمتعجرفة والطمّاعة! تجلب لي من حيث لا أدري فتيات لا أرى في عيونهنّ إلا الطمع والحقد..
- أكنتِ توافقين لو كانت غيرها؟؟

وضعت اِبهامها على طَرَف جبينها ثم قالت..

- إن كانت على مزاجي!

صمت الشاب برهةً وقد اِحتقن وجهه وهبت الأفكار في رأسه كعصفٍ مأكولٍ!! أيخنع!! وكيف يخنع وهو يحبها؟ ... ثم ماذا لو تنازل عن حبه؛ أيحب القلب ثلاث مرات؟! .. ما هذا النقاش الذي يغوص فيه .. دون جدوى!.

نظر إلى أمه نظرةً تكاد لا تميزها ثم اِستقام قاصداً غرفته، غاب فيها ثوانٍ ثم توجه نحو باب المنزل حيث اِعترضته قائلةً ..

- إلى أين؟!
- أريد اِستنشاق الهواء قليلاً! أممنوع؟
- أأستطيع منعك!
- ما يقيدك وقد منعتني عمن أحب!!

اِنتفضت الأم كأنها كانت بِانتظار قوله هذا ..

- لا تحلم بالزواج من هذه الفتاة ... إنها لا تناسبنا، لا تناسبنا!!
- يا أمي إني أحبها
- وإن يكن! مستقبلك أهم .. أنا أمك أحبك وأخاف على مصلحتك .. حاول أن تفهمني وترى بعينيك لا بقلبك..
- اِفهميني أنتِ!! يا أمي "مريم" ليست كخالك! ... "مريم" فتاةٌ طيبة يمكن أن تضحي بأي شيءٍ لأجلي!
- لا أحد يضحي بلا مقابل
- أنتِ!
- أنت اِبني
- وأنا سأصبح زوجها
- على جثتي!! على جثتي لن تتزوج فتاةً كهذه.

اِنتهى النقاش العقيم هنا حين عبر الشاب قرب والدته حاملاً بين يديه كتاب جده على أنها اِعترضته مرةً أخرى حين تساءلت..

- ماذا بين يديك؟!
- كتاب
- لمن!

نظر إليها بضيقٍ أشدّ من أي ضيقٍ مرّ عليه في حياته ثم قال قبل أن يدوي الباب بصوته المرعب..

- لوالدك!

ترك والدته مصدومةً بما سمعته دون أي حراكٍ أو وعي!. وسار طويلاً ذلك اليوم دون قصدٍ أو نية حيث خاف المضي نحو منزل "مريم" فلا يدري بمَ يجيبها، وخاف أن يمضي إلى خاله فلا يبالي! .. خاف كما كان سابقاً! دونما شعورٍ منه .. كان يمشي وقلبه يرتجف متسائلاً أيمكن أن نكمل أنا و"مريم"! كان سؤاله يدوي كالقنبلة في أجزائه فترهبه فكرة الإبتعاد عنها تماماً كما ترهبه والدته .. "على جثتي!" قالتها بوضوحٍ فهل تقبل "مريم" الهروب معه!! وهل له قدرةٌ على مفاتحتها بهكذا موضوع!!.

جلس على كرسيٍّ قديمٍ من هذه الكراسيّ النائمة على طول ذاك الرصيف العميق البعد! أخرج من حقيبته كتاب جده وقنينة ماءٍ ... قرأ فيه بشكلٍ عشوائيٍّ .. فقد إحتاج لعكازٍ قويٍّ يحمل ضعفه الذي عصف به فجأةً بعد ليلةٍ ملؤها القوة والجبروت! تذكر الصورة التي كانت دوماً شامخةً على منضدته .. هو وأمه تحمله بين يديها في طفولته البعيدة .. بكى! يالله! أكان يصطنع كل قوته ؟! سأل نفسه بحزنٍ وإشمئزاز ... وكل الأيام التي كانت شفاءً من رضوخه وخنوعه أكانت كذباً! تمثيلاً .. إستهزاءً بنفسه الحالمة ؟! .. أوكان يستطيع مجابهة والدته لو لم يكن قد شفي!.

قلّب بغير هدىً الصفحات وكان قد حفظ عن ظهر قلبٍ أغلبها! ... أين قبرهما!! تساءل بحسرةٍ، آهٍ لو كان له علمٌ لركض يقبل تراب جده حفنةً حفنة! كيف تدله الدنيا على قبرٍ هو له كل ملاذٍ وسند!! ... أغلق الكتاب ثم وضعه بتمهلٍ في حقيبته ليرمي برأسه إلى الخلف مطالعاً تفاصيل السماء، فتح قنينة الماء ليغرق رأسه بمائها .. ثم قال بصوتٍ مختنقٍ متناسياً وجود المارين حوله "يارب .. يارب من أين لي بقوةٍ ترد عني بطش أمي!! .. إنها أمي، فكيف للأم أن تكون بهذه القسوة ؟!" ... في هذه الأثناء كانت أم "مهند" بين الصدمة والبكاء، محتارةً .. من أين لإبنها كتاب خطه جده بنفسه ؟!! وبذات الوقت كانت غارقةً بدموعها لشدة تخبطها وخوفها! كانت ترى في "مريم" كل شرّ! إذ ن مشاكلهم حُلت لولاها! من أين جاءتهم لتهدم ما بنته سنيناً مثلها مثل "مروى" .. ولكن "مروى" كانت أعلى من أن تُهان فترضى .. فلِمَ سكتت "مريم" عن الإهانة مكملةً دربها في الحب ... الحب! وهل يمكن أن يكون الحب بينهما صادقاً حقاً كحبها لـ"هيثم"!.

كانا قسمين لجسدٍ واحدٍ يملؤهما الخوف من أية خطوةٍ قادمة ... من أية مجابهة، من أي قرارٍ ... منهما ، كانا وحيدين جداً بحيث لا يضمهما أحد، ولا يربت على كتفهما طيرٌ أو نسمةٌ عابرة .. الحب كان دافعه للوقوف على قدميه تماماً كما كان دافعها لقمعه دونما شعور!! .. كانت "هالة" تعلم جيداً بأن جارتها طيبة القلب بيد أن ظروفها أجبرتها على ما هي عليه وما أقلقها دائماً أبداً عدم اِستطاعتها للاستيعاب بأنها السبب!! كيف لم تشعر! .. كانت صادقةً بعاطفة الأمومة بصفاء ينبوعٍ نقي على أن كل ما تخلل الأمومة من تشوهٍ وخنقٍ وضيقٍ كانت لا تراهم كأن الله أعمى بصيرتها!! ... كانت تحبه، هو اِبنها من لحمها ودمها وهي كانت له الأم والدنيا من بابها لمحرابها ولكن ليس كما تفعل .. سقطت دمعةٌ منه! شعر بأنه يعود لما كان عليه... هو لا يريد أن يتكرر ماضيه ثانيةً، لقد تعب ولكل إنسانٍ طاقة اِحتمال.

عليه أن يردها، أن يجابهها .. عليه أن يعود لـ"مريم" ليخبرها بأنه لن يتركها طيلة العمر... يتكرر صوتها "على جثتي" فيرتعد جسده خوفاً! ..

هو يحبها، و هي ؟؟ ... هل يمكن للأم ألا تحب طفلها!! .. آلمها الملجأ كثيراً لكن لا ذنب له! هو اِبنها.. قلبه لفتاته هو، فمن يستطيع منع قلبٍ عمن يحب؟! ..

- هي!!.

قالها بحرقةٍ ...

ثم حمل حقيبته قاطعاً ذاك الرصيف الطويل، كتاب جده معه فمن يوقفه عن مراده على وجه هذه الأرض!! ..

ربما، ربما .. حقاً هي!.

اِنتهت بعون الله

إنه الحلم يا قارئي؛ وحده، من يدفع الإنسان
للمخاطرة والمجابهة والتحدي،
فيصهل في عروقه كي ينهض من ثباته
للعمل، ومن حرته للنجاح، ومن بكائه
للفرح!!.

الغاية للنشر والتوزيع
الأردن - صويلح - شارع الملكة رانيا العبدالله - مجمع البداد 2.
هاتف : 0096265349438 - 00962789000917
الرمز البريدي : 11910 ص.ب 2649 - E.mail.daralgaya@yahoo.com
9 789957 611484